الأب الدكتور جرجس داود داود

الزندقة والزنادقة

في الأدب العربي من الجاهلية وحتى القرن الثالث الهجري





الزندقة والزنادقة
في الأدب العربي
من الجاهلية وحتى القرن الثالث الهجري

الأب الدكتور جرجس داود داود

الزندقة والزنادقة في الأدب العربي

من الجاهلية وحتى القرن الثالث الهجري



المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

1425 هـ ــ 2004 م

مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت ــ الحمرا ــ شارع اميل اده ــ بناية سلام ــ ص.ب. 113/6311

تلفون 791123 (01) ــ تلفاكس 791124 (01) بيروت ــ لبنان

بريد الكتروني majdpub@terra.net.lb

ISBN 9953-427-76 -3

الإهداء

كم أحب أن يكون نتاجي الأدبي هذا شذا بخور يتصاعد فوق ضريح والديَّ طيَّب الله ثراهما ـ عربون خضوع بنوي لمشيئة الوالد الذي أرادني أن أكون كاهناً مُجلياً في حقل العلم فشجعني وابتاع لي المراجع والمصادر وحملها إليّ إلى المعاهد البعيدة عن ريفنا الفلاحي البدائي، وتذكرة مرور الى صدر أمي التي كانت تجلس على كرسيها الخشبي الى حين رجوعي المتأخر في غالبيته من الجامعة وهي تقول: «عُدتَ يا أمي! الحمد لله على السلامة» وهنا فقط يراود النعاسُ عينيها.

وعربون محبة ووفاء وتقدير الى زوجتي التي أمَّنت لي ـ وما زالت ـ الراحة والهدوء للبحث والتنقيب مضحية براحتها وسعادتها تجاه تحصيلي العلمي العالي وبخاصة ونحن أبوين لستة أولاد.

ومعذرة من القلب الى أولادي الذين انصرفت عنهم وقضيت من الأوقات بين جنبات الكتب أكثر مما قضيت معهم، وقد خسروا الكثير من عطف الوالد ورعايته.

إلى هؤلاء جميعاً أهدي هذا الكتاب راجياً الراحة الأبدية للوالدين وللباقين محبتي.

الأب الدكتور جرجس داود

توطئة

العرب في الجاهلية وصدر الإسلام

عاش العرب في الزمن الغابر، زمن ما قبل الإسلام، وإبانه، في منطقة مترامية السعة[1]،هي متصلة بقارتي آسيا وإفريقيا، ولها منافذ على القارة الأوروبية[2]، لقد عاشوا قبائل وإمارات وممالك[3]. تأثروا بمن حولهم، وأثروا، وذلك بسبب موقع سكنهم الاستراتيجي ووجود المدن المقدسة في أرضهم القدس (مكة ـ يثرب ..) وامتداد رقعة تواجدهم، من تخوم اليمن حتى بلاد الشام والعراق[4]، وكم حنَّ العرب إلى بلادهم وغنّوها في حلّهم وترحالهم، كقول الأشجع السلمي:

بأكنافِ العراقِ هوىً دفينُ	يؤرقني إذا هَدَتِ العيونُ
أحنُّ إلى الحجازِ وساكنيه	حنينَ الإلفِ فارقَةُ القرينُ

---

(1) د. فيليب حتي، د. إدورد جرجي. د. جبرائيل جبور. تاريخ العرب. دار غندور، بيروت، ص40 ـ 50. فيما بعد: حتي .

(2) د. جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. دار العلم للملايين، بيروت 1980، ج1، ص35 وج1 ص144. فيما بعد ج علي .

(3) الأب جرجس داود: أديان العرب قبل الإسلام، ووجهها الحضاري والاجتماعي. دار مجد، بيروت 1981، ص92 ـ 100. فيما بعد داود .

(4) ياقوت الحموي: الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله، بن عبد الله، الرومي البغدادي، معجم البلدان ـ دار صادر، بيروت 1977، ج2، ص219. فيما بعد م البلدان.

وقال آخر:

تطاولَ ليلي بالعراقِ ولم يكُنْ عليَّ بأكنافِ الحجاز يطولُ
فهلْ لي إلى أرضِ الحجازِ ومَنْ به بعاقبةٍ، قبلَ الفواتِ سبيلُ[1]

جعل شعراء العرب أرضهم أنشودة في قيثارة حياتهم، أينما رحلوا طلباً للماء والكلأ، أو هرباً من حروب وأيام تناوبوها فيما بينهم، أو خاضوها ضدّ معسكرات الغزاة والطامعين[2].

إن الحديث عن جزيرة العرب، وصحرائهم، الحارة والجافة[3] طويل وشاق، ولا نريد أن نتوغل كثيراً في جغرافية العرب كي لا تسلب رطوبةَ أجسامِنا رياحُ السموم الحارقة[4]، ونتهاوى في قفار الفيافي، فنُدفن تحت كثبان الرمال، ولا تظهر أجسادُنا إلا بالسيول العارمة الجارفة التي، تصيب مدن الحجاز أحياناً[5]، وتساعد على نمو النخيل، الذي له فوائد جمة عند سكان البادية، وقد بجّل شجرته العبرانيون، وعبدها بعض العرب[6] وعظمّها الرومان[7].

أما الأشجار غير المثمرة فأهمها أشجار البخور واللبان. وللبخور

---

(1) المصدر 2/ 220.

(2) م. البلدان 5/ 448و5/ 262.

(3) حتي: ص43.

(4) السموم: الرياح الحارة. ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين، محمد بن مكرم الإفريقي المصري)، لسان العرب، بيروت ج12، ص304. فيما بعد: اللسان .

(5) الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد) أخبار مكة، وما جاء فيها من الآثار، دار الأندلس 2/ 33. فيما بعد أخبار مكة.

(6) الكتاب المقدس: لاويين 40: 23 ونحميا 15: 8 ويذكر الكتاب المقدس استعمال العبرانيين سعف النخل في الأفراح واستقبال العظماء والأنبياء. وقد استقبل السيد المسيح بسعف النخل عند دخوله أورشليم. داود: 350 وأخبار مكة 1/ 130.

(7) قاموس الكتاب المقدس: نخبة من اللاهوتيين: مجلس كنائس الشرق الأدنى. ط ثانية ص946 بيروت 1971 .

أهمية كبرى منذ القدم وحتى اليوم، استعمله اليهود[1] والوثنيون على حدّ سواء يحرقونه على مذابح هياكلهم، وانتقل استعماله إلى النصارى والمسلمين فيما بعد عند ممارسة الشعائر الدينية، والبخور واللبان بالإضافة إلى النخيل، كان السلعة الأساسية التي يحملها التجار العرب من جنوبي شبه الجزيرة وبعض مناطقها إلى أسواق مصر والشام والسبب المباشر لاتصالهم بالشعوب المجاورة وتأثرهم بهذه الشعوب من حيث المعتقد والعادات[2].

لقد تفاوتت الفوارق الثقافية العقلية تبعاً لحياة العرب، الحَضَرية[3] أو البدوية[4] ونظراً لاختلاطهم بالأمم المجاورة. وكثيراً ما أدى هذا الاختلاط إلى نزاع طبيعي بين جناحيهم، بدأ في الجاهلية واستمر عداءً مستحكماً إلى ما بعد الإسلام بقرون طويلة، شارك في هذا التنافر وأذكى ناره الموالي

---

(1) الكتاب المقدس: 2 أخبار 16: 261 ـ 21 .

(2) الكلبي: أبو منذر هشام بن محمد بن السائب. كتاب الأصنام: ص28 تحقيق أحمد زكي. الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة 1965، فيما بعد الأصنام. وأخبار مكة 1/ 177.
ويروي الكلبي قصة حمل أول وثن إلى بلاد العرب على يدي عمرو بن لحي ونصبه في مكة وأمره للناس بعبادته .
إن نتاج هذه الأشجار وغيرها من السلع حمل «محمداً» لرفقة عمه أبي طالب في تجارة إلى الشام، ثم في تجارة خديجة التي أصبحت زوجاً له فيما بعد، وتعرفه على أديار النصارى ورهبانهم والسماع منهم عن الله والآخرة .
ـ ابن هشام (أبو محمد عبد الملك) ـ كتاب السيرة النبوية، القاهرة 1955، ودار الكنوز الأدبية ج1 ص137، 199، فيما بعد السيرة النبوية .
ـ ابن سعد (محمد بن منيع) كتاب الطبقات. بيروت 1958، ج1 ص 88 ـ 129. فيما بعد (ط ابن سعد). دار صادر .
ـ الطبري (محمد بن جرير) تاريخ الأمم والملوك، القاهرة، دار المعارف. بيروت، دار سويدان .ج2، ص 277 ـ 280، فيما بعد ت.ط.
ـ المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي). مروج الذهب ومعادن الجوهر. دار المعرفة، بيروت 1982. ج2 ص 293. فيما بعد مروج .

(3) قاموس الكتاب. ص453. وكتاب مقدس. 1 ملوك 10/ 1 وداود 89 ـ 104 والقرآن الكريم. س34 آية 15.

(4) أحمد أمين: فجر الإسلام. ص5 دار الكتاب العربي. بيروت، لبنان ـ ط10، 1969.

الذين ناصروا فريقاً على آخر... ثم كان هذا التناحر سبباً من أسباب الشعوبية والزندقة، التي ازدادت حدتها وبشكل واسع جداً في المجتمع العباسي، والتي سنتحدث عنها فيما بعد[1].

حالة العرب الاجتماعية في الجاهلية وصدر الإسلام

كان العرب في شبه جزيرتهم قسمين: بدواً وهم الأكثرية الساحقة، وحضراً. والهيئة الاجتماعية عند البدو تقوم على نظام العشيرة[2]، وشريعتها أن الدم لا يغسله إلا الدم[3]، ولربما كان لشريعة الدم هذه صلة بما جاء في العهد القديم[4]، ولاحقاً في القرآن الكريم[5].

إن العشيرة التي بنيت عليها عصبيتهم، ساقتهم إلى الانقسام والتمزق في تلك الأعصر[6] واصبحت باباً كبيراً نلج منه إلى معرفة كثير من أسباب الحوادث التاريخية التي ارتدت، تارة، رداء الفرق السياسية، وطوراً، لبست مسوح المذاهب الدينية. وقد غالى الشعراء كثيراً في التهاجي والتفاخر طبقاً لتلك الميول، واستغلها فيما بعد خلفاء الدولتين الأموية والعباسية، مما أدّى إلى التباعد والتنافر، وساعد على انتشار الفرق الدينية، وبعضها تربص بالدين للخروج عنه. وهذا موضوع بحثنا فيما بعد.

العادات والاعتقادات عند العرب

وجدت عند عرب الجاهلية وصدر الإسلام عادات ومعتقدات عجيبة

---

(1) أنظر الخلاف بين القبائل العدنانية والقحطانية زمن الجاهلية وصدر الإسلام في ج. علي: 1/ 495.

(2) فؤاد حمزة: قلب جزيرة العرب، مصر 1933، ص123 ـ 127. فيما بعد حمزة .

(3) أنظر حرب البسوس بين عشيرتي بكر وتغلب. وحرب داحس والغبراء، بين عبس وفزارة. الزوزوني ص98 .

(4) كتاب مقدس: خروج 26: 23 (النفس بالنفس، والعين بالعين، والسن بالسن ...) .

(5) س المائدة، آية 45.

(6) أنظر هذه العصبية بين فرعي قريش: أمية وعبد المطلب. قبل الإسلام وبعده: تاريخ الطبري 2/ 239 ـ 260 ومروج 2/ 351.

لها دورها وأثرها في المجتمع، قبل الإسلام وبعده، حيث تمسك بها البعض، وتركها آخرون لمعتقد جديد، وفريق ثالث حاول أن يوفّق بينها وبين ما جاءت به الأديان السماوية، فكانت الزندقة بمفاهيم مختلفة.

من هذه العادات والمعتقدات:

ـ الكهانة والعرافة[1].

ـ التشاؤم والتفاؤل، زجر الطير:[2] وأكثر الطيور شؤماً عندهم الغراب، يقول علقمة بن عَبدَة في ذلك:

ومَـنْ تعـرَّضَ للغـربانِ يَزجُرُها   عـلى سلامتـهِ لا بُدَّ مَشـؤُومَ[3]

ـ الاستقسام عند الصنم، وقد قام بذلك أمير شعراء الجاهلية، عندما واتاه خبر مصرع والده، وأراد الثأر، فأتى «ذا الخلصة» واستقسمه، فخرج الناهي، فضرب وجه الصنم، وقال:

لـو كـنـت يـاذا الـخُلَّصِ الـموتـورا   مِـثْلي، وكـان شـيخُك الـمقـبورا

لــم تَــنْــهِ عــن قُــتَــلِ الــعُــدَاةِ زورا[4]

ـ الميسر، وهو ضرب من القمار، مارسه قدماء العرب كثيراً[5].

ـ عبادة الله والأصنام والأوثان. وعبدة الله كثيرون، فهم الموحدون الذين نستدل عليهم وعلى إيمانهم من قول النابغة الجعدي:

---

(1) اللسان: 13/ 363. والألوسي: (بلوغ الأرب في أحوال العرب) المطبعة الرحمانية ـ القاهرة 1924م، ج3 ص 375.

(2) ابن رشيق القيرواني: العمدة في صناعة الشعر وآدابه ونقده، المطبعة التجارية، مصر 1955م، ج2، ص163. فيما بعد العمدة .

(3) مفضليات. ص104.

(4) أصنام: 34. م البلدان: 2/ 382. داود 307. السيرة النبوية 1/ 86. الجندي 1/ 107 وذو الخلصة من أشهر بيوت العبادة عند قدماء العرب. وسمي بالكعبة اليمانية .

(5) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح العباسي) تاريخ اليعقوبي. ج1 ص 259، دار صادر، بيروت، فيما بعد اليعقوبي .

الحمدُ للهِ لا شريكَ له   مَنْ لم يَقُلْها فنفسُه ظَلَمَا[1]

ومنهم: اليهود وأكثر ما تواجدوا في اليمن ويثرب وتيماء وخيبر[2].

ومنهم النصارى، أتباع يسوع الناصري، وربما أخذوا إيمانهم من لوقا، الذي بشّر في بلاد اليمن، وبولس الذي جاب بلاد الشام، وقد كانت النصرانية في غسان والحيرة، وقبائل تنوخ وتغلب وطيئ وحمير ...[3].

أما غير عبدة الله، فكثر ومختلفون بين:

ـ **الصابئة** : وهم عبدة الكواكب وانتشروا بين صفوف قبائل سبأ، وقد ذكرهم القرآن الكريم بقوله: ﴿إنّ الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[4] .

ـ **المجوسية** : وهي عبادة النار، وقد كانت في تميم[5].

ـ **الوثنيون** : وقد أشركوا بالله عبادة الأصنام والأوثان، وزعموا أنها تشفع لهم عند الله، ولهم أصنام كثيرة نصبوها في أماكن شتّى وخصوصاً في (مكة) وحول الكعبة[6].

ـ **الزندقة** : كانت في قريش، أخذوها عن الحيرة[7].

ولطالما وجدنا العرب يتقيدون بعرفهم وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية تقيداً شديداً وهذا العرف والتقليد هو الذي يعين الحرام والحلال، والمباح

---

(1) محمد الجارم (أديان العرب) ص193 القاهرة 1923. فيما بعد أديان العرب .
(2) ج علي: 6/ 511 ـ 581.
(3) المعارف: 621 واليعقوبي: 1/ 277 وداود: 72 ـ 87.
(4) قرآن كريم: س المائدة، آية 69.
(5) الجندي: 1/ 112 .
(6) المصدر: 1/ 113 ـ القرآن الكريم: 39: 3و38 الأصنام: 13 وما بعد. السيرة النبوية: 1/ 85 وما بعد. داود: 299 وما بعد .
(7) المعارف: 621 واللسان: 10/ 147.

والمحرم. وقد توارث العرب ذلك على مرّ الأجيال، وسار جنباً إلى جنب مع الدعوة الدينية الجديدة: الإسلام، وربما فاقها أحياناً. وقد تنافرت هذه الأعراف من قبيلة إلى أخرى قبل الإسلام وبعده وأدى التنافر إلى نشوء المذاهب واختلافها وبالتالي المروق عن تعاليم الدين الجديد أو التزندق بمعنى آخر، وهذا ما سنوفيه حقه من البحث والتمحيص فيما يلي من فصول.

وبكلمة موجزة نقول: إن المجتمع العربي، كان عماده العصبية، القبلية زمن الجاهليين، والدينية زمن الرسول، ثم الدينية والقبلية زمن الخلفاء الراشدين، وبعدها القبلية القحطانية والعدنانية التي جيرت لمصالح سياسية زمن الأمويين. ثم العصبية القومية: عربية وعجمية، زمن بني العباس[1].

وهذه العصبية، وما نتج عنها وما تخللها من ظروف حياة، كان لها دور كبير في تغذية مذاهب الزندقة وأنواعها.

---

(1) د. زاهية قدورة: الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول، دار الكتاب اللبناني، بيروت طبعة أولى، ص 27 ـ 85 فيما بعد: قدورة.

المقدمة

عندما أعددت رسالتي، التي حصلت بها على شهادة الماجستير في اللغة العربية وآدابها[1]، أدركت أهمية البحث والتنقيب عن ميول الإنسان العربي في جاهليته، ثم في العصور الإسلامية اللاحقة.

والمعروف أن ميول الإنسان، ورغباته، تختلف باختلاف المكان، فتتأثر بعناصر عديدة، وبخاصة عناصر أديان السماء، وعناصر أديان الأرض بما يستنبطه ويتعبّد له.

والإيمان بربِّ السماء قد جاب أصقاع جزيرة العرب، وما حولها، من بلدان وأقاليم افتتحت أو بشر فيها.

ولما كنت قد اتجهت إلى أديان العرب في رسالة الماجستير، عصر الجاهلية، وحاولت معرفة إيمان العرب، صمّمت أن أظل سائراً على هذا الطريق.

وبما أن الإنسان يؤمن ويرعوي أحياناً، وينفر ويلحد أحياناً أخرى، فقد أحببت أن أتتبع مسيرة أولئك المنحرفين، الغاوين، الذي عرفوا الإيمان أو سمعوا بخالق السماء والأرض، ولكنهم نفروا ونفّروا، وابتعدوا وباعدوا، فآمنوا تارة، وكفروا أخرى، أو آمنوا وضلوا في آن، فكانوا زنادقة دين، وزنادقة فكر، وزنادقة سياسة، وزنادقة مجتمع.

---

(1) موضوعها: «أديان العرب قبل الإسلام، ووجهها الحضاري والاجتماعي».

والسبب الأهم في تتبعي حياة أولئك الناس، ومدى تأثرهم وتأثيرهم في أعصر البحث عن حياة الأفراد والمجتمعات، كوني إنساناً مؤمناً، إيماناً عميقاً بمن هو جدير بالعبادة، وكاهناً اخترت طريق الوعظ والإرشاد والهداية، وهذا ما يستدعي الاهتمام الكلي بقضايا الإيمان، ونحن أبناء الشرق، نمتاز عن باقي شعوب الغرب بالنزعة الروحية، المتمثلة بمعرفة أركان الإيمان، وفروض العبادات.

وهناك سبب مهم أيضاً، هو أن الزندقة والزنادقة، والنزعة الكفرية، كانت معروفة ورائجة منذ الجاهلية ولم تتوقف فيما بعد، بل تواترت، وقويت شوكتها وبالأخص زمن العصر العباسي الأول.

وهكذا أردت إكمال المسيرة، وبعد قراءة مستيفضة واضحة للأدب العربي وصلت إلى اختيار موضوع يصلح أن يكون أطروحة لشهادة الدكتوراه.

وقد رأيت أن هذا الموضوع لم يظفر ببحوث خاصة به، تكشف غوامضه، وتظهر للدارسين مدى ما فيه من تشعب فكري، واصطراع أدبي، ومذهبي، واحتدام بين عقلية إنسان الصحراء القاسية الساذجة، وعقلية إنسان الحضارة المعقدة، إنه: موضوع: «**الزندقة والزنادقة، من الجاهلية حتى القرن الثالث الهجري**».

وموضوع الزندقة والزنادقة قد يثير العواطف الدينية والمشاعر المذهبية ولكنه بالوقت نفسه بحث شيق على ما أرى، يكشف عن هوى كثيرين في السر والعلانية.

وقد سعيت جاهداً، أن أحدد معنى الزندقة وسبب تفشيها في المجتمعات، والغاية التي صبا إليها أصحابها. وللوصول إلى كل ذلك جبت المكتبات وفتشت بين ثنايا كتب الفرق في الأديان، والأدب والتراجم والتاريخ ودواوين الشعراء، وراجعت الدراسات التي اهتمت بالبحث عن هذا الموضوع، لأخلص إلى الآراء الراجحة، والأحكام الواضحة والجريئة.

وخلال البحث والتنقيب في مناجم الأدباء، وفي حنايا كتب الأدب والتاريخ عن زنادقة عصور الموضوع، رأيت بعضهم يتيه في صحراء الزنادقة، فيصورهم بما ليس فيهم، أو يجمع حبات العنب المختلفة الألوان، والطعم، والحجم، في دنٍّ واحد ليستخرج منها عصيراً مركباً يسميه الزندقة[1].

ويبدو أن عبارات الجاحظ في «الحيوان»[2]، تأتي مترجحة في عدم تحديد معنى الزنادقة، تحديداً دقيقاً وصريحاً، فهو يقول: **«إن الزنادقة حريصون على تدبيج كتبهم بورق نقي أبيض، وحبر أسود براق، وخط جيد متقن»**[3].

فالجاحظ يصف لنا أنواع كتب الزنادقة وليس إيمانهم، ويضيف قائلاً: **«إن إنفاق الزنادقة على تحصيل الكتب، كإنفاق النصارى على البيع»**[4] وبِيَع النصارى كما هو معلوم، أماكن عبادة وليست هي العبادة بحد ذاتها، وليست كل كنائس النصارى مزينة أو مزخرفة، كما يزعم الجاحظ.

ويضيف الجاحظ بقوله: **«ولو كانت كتب الزنادقة، كتب حكمة، أو فلسفة، أو سنن نبيين ... أو كتب صناعات وتجارات ..، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة ؛ ... فإنما إنفاقهم في ذلك كإنفاق المجوس على بيت النار، وكإنفاق النصارى على صلبان الذهب»**[5]. وهو ربما يعني أنهم يريدون استمالة الناس إليها عن طريق التأنق والمغالاة.

---

(1) أنظر الملل والنحل، ص180.

(2) كتاب الحيوان: الجاحظ: تحقيق فوزي عطوي. دار صعب بيروت ج1 ـ 3، ص43 وما بعد .

(3) المصدر نفسه، ص43.

(4) المصدر نفسه، ص44.

(5) المصدر نفسه، ص44.

أما عن مضمون تلك الكتب فيقول الجاحظ : «وجلّ ما فيها ذكر النور والظلمة، وتناكح الشياطين، وتسافد العفاريت، وذكر الصنديد، والتهويل بعمود النسخ، والإخبار عن شقلون، وعن الهامة، ... وكله هذر وغيّ وخرافة»[1].

وهذا المضمون، إن دلّ على شيء فعلى عبادة الاثنين عند زنادقة الجاحظ، وبالأخص، عندما يذكر ثانوية النور والظلمة ... ونتساءل هنا عن سبب ذكر المجوس والنصارى، ومقارنتهم بالزنادقة، ألأن الجاحظ كان جاهلاً بما يؤمن به المجوس، أو بما تؤمن به النصارى؟ لا أظن ذلك فالجاحظ موسوعة زمانه علماً ومعرفة وثقافة، ولكن الذي أظنه، هو ادعاء سطحي، ومقارنة فارغة بالشكل والمضمون. وربما كان ذلك عن هوس ديني وبعد عصبي عنصري، وليس إلا ...

وإذا ما انتقلنا إلى كتاب الأغاني، وبين دفتيه الكثير عن هذه الفرقة، فإننا نجد «أبا الفرج» لا يحدد معنى دقيقاً للزندقة فتارة نراه يلهو، ويلهو معه سيد العصر[2]، عندما يطلب من بشّار بن برد[3] أن يكمل ما بدأه من شعر، فيكمله بشار بأبيات ماجنة، فيضحك المهدي ويأمر له بجائزة[4]. وطوراً يهاجم هذا الشاعر سياسة العباسيين ومن ولوا من وزراء، على ضياع ملك بني أمية ويقول:

بني أميّة هبّوا طال نومكم	إن الخليفة يعقوب بُنُ داودِ
ضاعت خلافتكم يا قومُ فالتمسوا	خليفةَ اللهِ بينَ الزقّ والعودِ

ويُرفع أمره إلى الخليفة على يد الوزير يعقوب بن داود ؛ الذي يدعو الشاعر الأعمى ملحداً وزنديقاً لأنه يهجو الخليفة بأفحش الألفاظ، فينحدر

(1) المصدر نفسه، ص45.
(2) الخليفة المهدي .
(3) الشاعر الذي قتل على الزندقة .
(4) أنظر الأبيات في الأغاني 3/ 64 بولاق .

المهدي إلى البصرة وعندما يصل إلى البطيحة يسمع أذاناً وقت الضحى، ويعلم أن صاحب الأذان هو بشار السكران، فيأمر صاحب الزنادقة أن يضربه حتى التلف[1].

إن من يقرأ أخبار بشار، وما ساقه الأصفهاني من أسباب موته، يرى بوضوح أن أبا الفرج لم يحدد لنا سبباً كافياً لموته ؛ وكل ما أشار إليه هو اتهامات عامة، من هجاء فاحش إلى سكر ومجون وعربدة ولم يفسر لنا ما ساقه على لسان يعقوب بن داود عن هذا الشاعر: «**يا أمير المؤمنين إن هذا الأعمى، الملحد، الزنديق، قد هجاك «ويبدو أن هذه الاتهامات. كانت رائجة، ويستطيع كل واحد أن يسوقها للآخرين ويلصقها بخصومه...**

ويروي الطبري عن الواسطي، أن أباه حدثه أن المهدي قال لموسى يوماً: وقد قُدم إليه زنديق، فاستتابه، فأبى أن يتوب، فضرب عنقه، وأمر بصلبه: «**يا بنيّ، إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة يعني أصحاب ماني ـ فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش، والزهد في الدنيا، والعمل للآخرة، ... ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور ... ثم تخرجها إلى عبادة اثنين: النور والظلمة، فارفع فيها الخشب، وجرد فيها السيف**»[2].

ويبدو من عبارات الطبري، أن الزنديق هو من اتبع تعليم ماني[3] الذي حرم اقتناء المال، وأبطل النكاح. أو من قال بالاثنين النور والظلمة...

وهذا مغاير لما سنثبته في سياق البحث، وهو أن ما أشار إليه الطبري ليس إلا نوع من أنواع الزندقة، وفرع من فروع شجرتها المتشعبة، والتي ظللت الكثيرين، متبعي ملة الزندقة.

وإذا ما انتقلنا إلى البحث، فإننا نراه يتألف مما يلي:

---

(1) المصدر 3/ 70/ بولاق .

(2) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج8، ص220، دار سويدان، بيروت .

(3) سنشرح إيمانه في سياق البحث.

أولاً: توطئة: نظرت فيها إلى واقع العرب الاجتماعي زمن الجاهلية، وصدر الإسلام، وعاداتهم، وطرق عيشهم، وعباداتهم واعتقاداتهم ... فكانت مدخلاً إلى فصول البحث.

ثانياً: الفصل الأول: ويشمل قسمين اثنين، وفيه بحثنا عن:

أ ـ تأثر العرب بالأديان، السماوية منها، والأرضية.

ب ـ المزج بين هذه الأديان.

ثالثاً: الفصل الثاني: وعنوانه: **«الزندقة: وقد قسمته إلى أربعة أقسام»**

أ ـ المعنى اللغوي والاصطلاحي للزندقة.

ب ـ الجذور التاريخية للزندقة، وبدأتها في الجاهلية، ثم في صدر الإسلام وعصر بني أمية، وأنهيتها في العصر العباسي الأول.

ج ـ حاولت في هذا القسم أن أستطلع آراء المؤرخين القدماء والمحدثين .

د ـ أما القسم الرابع فقد حاولت معرفة أهداف الزندقة.

رابعاً: الفصل الثالث: وقد شمل أقساماً ثلاثة. تحدثت في القسمين الأولين عن مراحل الزندقة في أعصر بحثنا وأنواعها بشكل عام، وفي القسم الثالث تحدثت عن أنواع الزندقة بطريقة خاصة، وفصلت بين الزندقة الدينية، والفكرية، والسياسية، والاجتماعية.

خامساً: الفصل الرابع: وفصلته إلى أربعة أقسام أيضاً وحاولت أن أثبت زندقة المشاهير في أعصر البحث، فتنقلت في حنايا دوحة الأدب، لأستطلع رأي الشعراء، والكتّاب، ومدّعي النبوة، ومتعصبي القوميات والأديان ... وأقف على نوعية وماهية زندقتهم .

سادساً: الفصل الخامس: وأردت فيه إثبات الطابع الاجتماعي والحضاري للزندقة. وضمنته ثلاثة أقسام، تحدثت فيها عما أفرزته تجمعات

الشعوب والأمم، بعدما أخذت مما عند غيرها ومزجته بما عندها فكان المجون والزهد، يقتربان ويبتعدان، يتصادقان ويتنافران، ويصلان في النتيجة إلى مناحي الزندقة ؛ ولكنهما في الوقت نفسه ينتجان أسلوب حياة، وأسلوب لغة ناتجة عن مسرى هذه الحياة المتقاربة إلى حد اللمس مع الزندقة، والتي أفرزت براعم حضارة نمت، وازدهرت، وانتشرت في أرجاء الأرض التي كانت خاضعة للخلافتين الأموية والعباسية، وربما انتقلت إلى أرجاء الأندلس فيما بعد.

أما المنهج المتبع هو المنهج التاريخي، قمت معه بتقسيم موضوعي إلى عصور عدة تمشياً وتطابقاً مع الأعصر السياسية. ابتدأت بعصر الجاهلية، وتدرجت إلى صدر الإسلام ودولة بني أمية ثم إلى العصر العباسي الأول.

ولا شك في أن بين الأدب والتاريخ قرابة وتآخياً، وإن كان الأدب لا يخضع لأحكام التاريخ ولا إلى تغييراته الجوهرية.

وليس هناك من أبواب تغلق أو تسد، في وجه الأدب، الذي لا شك أنه يخترق الحدود ويقطع المسافات، ويتجاوز الزمان والمكان، وإن تكن البيئة الجغرافية، والسياسية، والاجتماعية، لها أثرها البين في مجراه. ولا غرو إن قلت أيضاً أن التواريخ الفردية، والصفات النفسية هي بمكان من عصور الأدب.

إن الزنادقة وإن كانوا قد تأثروا بثقافات وأديان ومعتقدات مختلفة ومتباينة، منها ما هو حصيلة إيمان محلي، ومنها الخارجي، فإنني أرى زندقتهم قد تنقلت من هنا إلى هنالك في أرجاء البيئة العربية، وتحديداً في مدن الحجاز والشام والعراق، وبين ظهرانيها.

ولا بد، نهاية من أن أقف مفاخراً بالأستاذ الكبير، الدكتور يوسف فرحات، وشاكراً له طيبة قلبه، معترفاً بسعة اطلاعه، ورحابة صدره، في قراءة بحثي غير مرة وتقويم الاعوجاج وتصحيح الأخطاء ... ولا أفشي سراً

إذا ما قلت أن مكتبه ومكان إقامته كان دائماً مفتوحاً لي دون اعتذار عن لقاء، أو تردد في تحديد موعد ...

كما أقف مفاخراً بالجامعة اللبنانية، جامعتنا الوطنية، التي فتحت أبواب الدراسات العليا أمام الطامحين إلى التقدم في مجالات المعرفة ،معترفاً بفضل رئيسها وعميد كلية الآداب ومجلسها الكريم.

وبعد ،

فإنني أرجو أن يكون لهذا البحث بعض النفع للمتخصصين في الدراسات العربية، الذين يبغون الاطلاع على جانب مهم من حياة العرب وأدبهم الذي ينبض بالحركة، ويزخر بأنواع شتى من فنون المعرفة، وآمل أن يسد هذا البحث فراغاً في الدراسات الأدبية.

وإذا لم يتسنم هذا البحث مرتبة الكمال، فحسبي أني نشدتها، وإلى الله القصد، ومنه الثواب.

الفصل الأول

تأثر العرب بالأديان والمزج بينها

أ ـ تأثر العرب بالأديان:

إن معارفنا عن أديان العرب، السماوية والأرضية، في أعصر بحثنا، عائدة في أكثرها إلى الشذرات الواردة في الأدب العربي، وإلى الكتب السماوية والسير، وكتب التاريخ، قبل الإسلام وبعده.

إن من يقرأ أدب العرب، وكتب سيرهم، وتاريخهم، يطلع على أكثر معتقداتهم، ويرى بوضوح مدى تأثرهم بهذه المعتقدات، ومدى ارتباطها بمعتقدات الشعوب المجاورة، ويتلمس طبيعة الإنسان العربي، الذي ترى كيفية تقبله لهذه المعتقدات، فيؤمن بما يناسب طبيعته ومزاجه من تعاليمها، وفرائضها، وشرائعها، ويرفض ما يخالف.

ففي زمن ما قبل الإسلام، كان العرب على أديان ومذاهب. فمنهم من آمن بالله الواحد الأحد، أمثال «قس بن ساعدة» الذي يقول:

كلا بل هو اللهُ إلهٌ واحدٌ   ليس بمولودٍ ولا والد[1]

(1) الشهرستاني: أبو الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر: الملل والنحل. تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، منشورات مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة 1968. ج3، ص86. فيما بعد ملل ونحل. وابن حزم (أبي محمد علي بن أحمد بن حزم الطاهري) الفصل في الملل والأهواء والنحل، وبهامشه الملل والنحل. ج3، ص227، دار المعرفة، بيروت 1983، هكذا (ورد).

وأمثال قصي بن كلاب الذي يقول:

أربّـــاً واحـــداً أم ألـــفُ ربٍّ أديـــن إذا تـقـسَّـمَـتِ الأمــور
تـركـتُ الـلاتَ والـعـزّى جـمـيعـاً كـذلـك يـفـعـلُ الـرجـلُ الـبـصـيـرُ
فـلا الـعـزّى أديـن ولا ابـنـتـيـهـا ولا صَـنَـمـيْ بـنـي غَـنَـمٍ أزورُ[1]

والأعشى الذي يقول:

وربّـك لا تُـشـرِكْ بـه، إنَّ شِـرْكَـه يَحُطُّ من الخيراتِ تلك البواقيا
بَلِ الله فاعبُدْ، لا شريكَ لوجهه يكن لك فيما تَكدحُ اليومَ راعيا
وإيّـاكَ والـمـيـتـاتِ لا تَـقْـرَبَـنَّـهـا كفى بكلامِ اللهِ عن ذاك ناهيا[2]

هذا الإله الواحد، الكائن منذ الأزل وإلى الأبد، عرفوه خالقاً، وسموه إلهاً ورحماناً ورباً[3] يحيي ولا يُحيا. يقول عبد الطابخة بن ثعلب من قضاعة:

وأنتَ الذي لم يُحيه الدهرُ ثانياً ولم يُرَ عبدٌ منك في صالحٍ وَجَم
وأنت القديمُ الأولُ الماجدُ الذي تبدّأتَ خلقَ الناسِ في أكثمِ العَدَم
وأنت الذي أحلَلْتَني غيبَ ظُلمةٍ إلى ظُلمةٍ من صُلْبِ آدمَ في ظُلَمْ[4]

وآمنوا به قادراً، فاحصاً القلوب، عليماً بكل شيء، يجازي الناس بحسب أعمالهم، يقول ذو الأصبع العدواني:

الـلـهُ يـعـلـمُـنـي والـلـهُ يـعـلـمُـكـم والله يُجزيكُمُ عنّي ويُجزيني[5]

وينعكس هذا الإيمان على تصرفاتهم، فتراهم يحافظون على العرض

---

(1) المصدر نفسه 3/ 93.
(2) الأعشى الكبير: ميمون بن قيس. الديوان. شرح محمد حسين. نشر مكتبه الآداب بالجماميزت. قصيدة 66 ص329. فيما بعد الديوان .
(3) داود 173 و 184. وأنظر بقية أسماء الله .
(4) ملل ونحل 3/ 88. الفصل في الملل والأهواء والنحل (الإمام أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الطاهري) وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني. دار المعرفة، بيروت سنة 1983م. ج3، ص229 الهامش فيما بعد. الفصل في الملل والنحل .
(5) مفضليات ص161، وقد روي هذا البيت للأعشى. المصدر ص162.

من وجه أخلاقي ديني وإنساني، كما تراهم ينتبذون عبادة المال، وكأنهم قد سمعوا وتأثروا بأقوال الإنجيل[1]، يقول حاتم الطائي:

أأفضح جارتي وأخون جاري معاذ الله أفعل ما حييت[2]

كما يقول:

إذا كانَ بعضُ المالِ رباً لأهله، فإني، بحمد الله، مالي مُعَبَّدُ[3]

ثم يقول:

كلوا الآن من رزق الإله وأيسروا فإن على الرحمن، رزقُكم غدا[4]

والعربي في عصوره السابقة للإسلام ربما وصله الشعاع الإلهي عن طريق الأديان السماوية، فردد اسم الله كثيراً في أشعاره، ولو أردنا جمع هذا الاسم ومدلولاته، لجاء يتوج عشرات الصفحات ولكننا نكتفي بهذا النذر اليسير متوخين إثبات وجود الله في عقل وفكر وقلب العربي الجاهلي الذي توصل إلى معرفة الله، وبعض صفاته، فالله واحد لا شريك له[5]، القدير[6]، العالم[7]، المدرك[8]، الغفور[9]، الواقي[10]، المتّقي[11]،

---

(1) «لا تعبدوا ربين، إما الله وإما المال»، «ولا تهتموا بما للغد»، «ولا بما تأكلون وما تلبسون». لوقا 12/ 22.

(2) الديوان، ص31، دار بيروت 1974.

(3) المصدر نفسه، ص35.

(4) المصدر نفسه: ص41.

(5) ديوان عبيد بن الأبرص. دار بيروت 1979، ص15. وديوان الأعشى، المؤسسة العربية، بيروت ص218.

(6) مفضليات ص162.

(7) ديوان عبيد بن الأبرص، 15و131.

(8) المصدر نفسه، ص15.

(9) ديوان عنترة، دار صعب، ص142.

(10) مفضليات 261.

(11) المصدر نفسه 384.

العادل[1]، الكافي[2]، المجازي[3]، والقاضي[4].

وإننا لنرى شاعراً كالأعشى يجمع بشعره أكثر أسماء الجلالة مشيراً إلى التوحيد والتقوى والعبادة والامتناع عن أكل الميتة والزنى[5]، حيث يقول:

وإن تقى الرّحمن لا شيءَ مثلُه ... فصبراً إذا تلقى السِّحاق الغرائيا
وربَّك لا تشرك به، إن شركه ... يحطُّ من الخيرات تلك البواقيا
بل الله فاعبُد، لا شريك لوجهه، ... يكن لك فيما تكدحُ اليوم راعيا
وإيّاك والميتاتِ لا تَقربنّهَا، ... كفى بكلام الله عن ذاك ناهيا
وجارةَ جنبِ البيتِ لا تَبغِ سرّها ... فإنك لا تُخفي على الله خافيا[6]

هناك الكثير من التعابير السماوية في أشعار الجاهليين، تدل وبصورة ثابتة على أن بعض القوم قد آمن بالله بطريقة ما، نصرانية أو يهودية أو حنيفية، أو قريبة منها. وإن ما أشرنا إليه من نفحات إلهية في قوالب شعرية هو للإثبات لا للاستشهاد. ورب سائل يقول: كيف نوفق بين من استقسم بالله في شعره، واستقسم بالأصنام والأوثان في آن واحد؟ أتدعو مثل هذا مؤمنا بالله؟

واعتقادي أن الإنسان يخضع في تفكيره وإيمانه وميوله الإنسانية، ورغباته. وأحاسيسه، لأطوار حياتية مختلفة، فهو في سن العشرين غيره في الخمسين. ويقيني أيضاً أنه مؤمن حتى يثبُتَ العكس، والشاهد على ذلك من تراه اليوم بأم عينك وتسمعه بأذنك، وهو يحلف بالله وأنبيائه ومن ثم بمبدئه وعقيدته ورئيس ربعه وحزبه، ويكون مثلاً من غير دينك ولا يؤمن

(1) ديوان الأعشى ص12.
(2) المصدر نفسه 208.
(3) المصدر نفسه 15.
(4) ديوان عنترة 74.
(5) كأن كلامه يطابق ما ورد في وصية رسل المسيح إلى الأمم. أعمال رسل 21/ 25 .
(6) السحاق الغرائي = الهزالى الجياع. الديوان. شرح محمد حسين قصيدة رقم 66 ص329.

بهذا الدين، وتراه لحالة نفسية ما، أو حالة اجتماعية ومسلكية ما يقسم بما تؤمن به أنت، عساه يستدر عطفك وحنانك ورضاك فينال ما يتمنى وتنقضي الحاجة الملحة ويعود إلى ديانته يمارس شعائرها ويسير بهديها. أليس هذا مثل ذلك؟!

إن الأدلة التي ذكرنا على وجود الله في عقل العربي الجاهلي وقلبه قد تعدت قائليها وبدون ريب إلى قلوب الآخرين من أبناء المجتمع لأن الشاعر كما عهدناه في كل زمان، وعلى الخصوص وقتئذٍ، هو لسان حال الناس يعبر عن مشاعرهم في الحزن والفرح والشدة واللين والكفر والإيمان... وإلى ما هنالك من مناحي الحياة، ولا يمكن أن نتخيله فرداً خاصاً له نمط معين واعتقاد معين ونظرية معينة ينتبذ بها مجتمعه، وهنا إما أن يتلاشى ويُتناسى أو يُقدّس ويصبح من الأنبياء. وهذا ما لم نره في استدلالاتنا الكثيرة[1].

من العرب من آمن إذاً بالله ووحّده، ومنهم من آمن به، وتعبد للأصنام. زاعماً أنها تقربهم إليه. ومنهم من تعبد للأصنام معتقداً أنها ضارة ونافعة[2] ومنهم من دان باليهودية والنصرانية، أو بالمجوسية، ومنهم من آمن بتحكم الآلهة في هذه الحياة، وببطلان كل شيء بعد الموت فلا حساب ولا نشر ولا كتاب[3]. ومنهم من تزندق، ومنهم الصابئة وعبدة النجوم والكواكب[4] .

وكون بحثنا عن الزندقة، وللزندقة علاقة مباشرة بكل ما ذكرنا فسنتعرض لهذه المذاهب والديانات عند حديثنا عن الزندقة، ونكتفي الآن

---

(1) راجع هذه الاستدلالات في «داود» ص 169 ـ 185. عن وجود الله في فكر عرب الجاهلية .

(2) أبو اسحق إبراهيم بن عبد الله النجيرمي الكاتب، (إيمان العرب في الجاهلية) تحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة 1328 هـ ص12 وما بعدها. فيما بعد النجيرمي .

(3) أديان العرب في الجاهلية (داود) ص185، وحتى نهاية الكتاب .

(4) داود 329 وما بعد .

بتقسيم الأديان إلى مجموعتين رئيستين: أولاهما الديانات السماوية. وهي تجمع - قبل الإسلام - الأحناف والموحدين واليهود والنصارى ؛ والثانية: الديانات الوثنية[1] وقد أتينا على ذكر أسماء أكثرها، وباعتقادي أن بعض عرب الجاهلية كانوا وثنيين بالفكر والعمل والبعض الآخر كانوا مؤمنين بالله وبالأوثان معاً، لا كما يعتقد بعض البحاثة الغربيين أمثال: رينان Renan، بأنهم موحدون بطبعهم كسائر الساميين، وأن ديانتهم هي من ديانات التوحيد[2].

ونستدل على الذين آمنوا بالله وتعبدوا للأصنام من قول القرآن الكريم فيهم: ﴿ألاَ للهِ الدينُ الخالصُ والذين اتخذوا من دونِه أولياءَ ما نعبدُهُم إلا لِيُقَرِّبُونا إلى اللهِ زُلفى. إن اللهَ يحكمُ بَينهم في ما هم فيهِ مُختلفون﴾[3].

ومن قول شحنة بن خلف الجرهمي لعمرو بن لحيّ[4]: عندما أتى بالصنم من بلاد الشام ونصبه على الكعبة:

يا عمرو إنك قد أحدثتَ آلهة　　شتى، بمكة حول البيت أنصابا
وكان للبيت ربٌّ واحد أبداً　　فقد جعلت له في الناس أربابا[5]

ومن استقسام امرئ القيس عند الصنم (ذي الخلصة)، وخفره له بعد رجوع قداحه تنهاه عن قتل العداة:

لو كنتَ ياذا الخلص الموتورا　　مثلي وكان شيخُك المقبورا

---

(1) التسمية مجازية.

(2) E.Renan: Histoire générale et système comparé des langues sémitiques, Paris, 1855. Vol, I, Chapt.1. p: 1، فيما بعد رينان.

(3) سورة الزفر، آية 3 تفسير الجلالين (جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي. المكتبة الشعبية ص385. فيما بعد. تفسير الجلالين. وأنظر أيضاً سور القرآن: الأنعام: 100 و148 والنحل: 35 والبقرة: 165 وإبراهيم: 30.

(4) أول من أمر بعبادة الأصنام على رأي بعضهم (الأصنام) ص6 وما بعدها .

(5) مروج 2/ 56.

لــم تــنــهِ عــن قــتــل الــعُــداةِ زورا[1]

ومن ورود الرجل الكناني بإبله إلى صنم اسمه سعد: قصد التبرك، فتنفر الإبل وتتفرق، فيرمي الصنم بحجر وهو يقول: لا بارك الله فيك إلهاً، أنفرت عليّ إبلي ثم ينشد:

أتينا إلى سعدٍ ليجمع شملنا   فشتتنا سعدٌ فلا نحن من سعد[2]

فهذا التبرؤ من سعد: وقوله: لا بارك الله فيك إلهاً، إنما يعنيان ما قصدناه من أن بعض العرب قد آمن بالله وتعبد لآلهة أخرى ارضية. أو أن إيمانه وتعبده مختلف إلى حد ما في مراحل عمره، وهذا ما نراه عند زيد بن عمرو بن نفيل بقوله:

أرباً واحداً أم ألف رب   أدين إذا تقسمت الأمورُ
تركت اللات والعزّى جميعاً   كذلك يفعل الجلد الصبورُ
فلا العزّى أدين ولا ابنتيها   ولا صنمَيْ بني عمروٍ أزورُ
ولا هبلاً أزور وكان ربّاً   لنا في الدهر إذ حلمي صغيرُ[3]

وفي شعر آخر يقول زيد:

ألا أيُّها الإنسانُ إيّاكَ والرَّدى   فإنّك لا تُخفى من الله خافيا
وإيّاك لا تجْعَلْ مع اللهِ غيرَه   فإن سبيلَ الرُشْدِ أصبح باديا

ومنه نستنتج أن هناك آلهة غير الله تُعبد، إذ تقرّب منها الناس في ذلك العصر، ربما لميلهم إلى المحسوس متمنين رؤية معبودهم وسماعه، والله روح خفية، لا يدرك إلا بالإيمان المطلق وبالعقل الواعي.

وربما ذكر الناس هذه الآلهة، وأقسموا بها أحياناً، كما أسلفنا، دونما إيمان بها، إما اتقاءً لشر أو دفعاً لغائلة ... إن الشاعر أوس بن حجر

---

(1) الأصنام 35.
(2) المصدر نفسه 37.
(3) المصدر نفسه، ص22.

يقسم باللات والعزى، ولكنه يعترف حقيقة أن الله أكبر منها، مؤكداً ذلك ومشدداً عليه، يقول:

وبالاّتِ والعُزّى ومن دانَ دينَها وباللهِ، إن اللهَ منهُنَّ أكبرُ[1]

وخير دليل على هذه العبادة المزدوجة عند بعض عرب الجاهلية، اعتبارهم هذه الأوثان والأصنام[2]، وسطاء وشفعاء عند الله، وكانوا مع اعترافهم بالله لا يرون غنىً عن أصنامهم، وهو ما تعجبوا له وتساءلوا عنه، في القرآن الكريم: ﴿قالوا أَجِئْتنا لنعبدَ اللهَ وحده ونذرَ ما كان يعبدُ آباؤنا﴾. وأيضاً: ﴿أأربابٌ متفرقون خَيرٌ أم اللهُ الواحدُ القهّار﴾[3].

أما الوثنيون العرب، أو أتباع أديان الأرض، فهم الذين ألّهوا الأصنام[4]، والأوثان[5]، والأنصاب[6]، وعبدوها من دون الله.

وكان لهم أصنام كبرى عامة كاللات والعزى ومناة[7] يقر بربوبيتها أكثر عبدة الأصنام من العرب، وأصنام خاصة لكل قبيلة وثنية، وأيضاً لكل بيت[8]. ولعل هؤلاء الوثنيين قد اعتبروا وثنيتهم ديانة تقليدية وراثية، فقالوا عنها أنها ديانة الآباء والأجداد، وهذا ما يفسره لقاء أشراف قريش يتزعمهم أبو سفيان: بأبي طالب عم محمد وحاميه، وقولهم له: «**يا أبا طالب، إن**

---

(1) المصدر نفسه، ص17.

(2) لم نفصلها لضيق المكان. راجعها مفصلة في أديان العرب، داود، ص289 ـ 377 .

(3) سورة الأعراف آية: 70. ويوسف 39 والأنعام 19.

(4) راجع تعريفها في اللسان مادة (صنم) 12/ 349.

(5) راجع تعريفها في تاج العروس مادة (وثن) .

(6) راجع تعريفها في اللسان مادة (نصب) 1/ 759. وكونها متداخلة متشابكة في تعريفاتها فسنعتبرها جميعاً شيئاً واحداً وإذا ذكرنا أحدها عنينا الجميع .

(7) راجع عبادتها في الأصنام: ص13 ـ 14 ـ 16 ـ 17 والسيرة النبوية (1 ـ 2) 85. ومعجم البلدان 5/ 4و5. وداود 299 ـ 304.

(8) محمد حسين هيكل: حياة محمد: مكتبة النهضة المصرية، ط13 سنة 1968 ص84. فيما بعد هيكل .

ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفّه عنها وإما أن تخلّي بيننا وبينه»[1].

ولما كانت الكعبة مصدر رزق أهل مكة، ومحج العرب، يقصدونها من كل الأنحاء، نصبت قريش أصنام جميع القبائل عند الكعبة، ليتبرك كل حاج بمعبوده، ويرضى ويقدم القرابين[2].

وبمناة: التي ذكرنا يُقسم الشاعر عبد العزى بن وديعة المُزَنّي:

إني حلفتُ يمينَ صدق بَرَّةً بمناةَ عند محلِّ آل الخزرجِ[3]

مشيراً إلى من تعبد لها. وقد كان العرب يعلقون القلائد والشنوف على تلك الأصنام. وهذه عادة بقيت سائدة حتى يومنا هذا، وربما أخذوها عن غيرهم من أهل الديانات السماوية، إذ نرى أهل هذه الديانات لا يزالون يتقربون من الأولياء ومزاراتهم بتعليق الثياب وقطع المعادن الثمينة فيها، يقول كعب بن مالك الأنصاري ذاكراً: اللات والعزى وودا، ومشيراً إلى تلك العبادات:

وننسى اللاتَ والعُزّى ووُداً ونسلبها القلائِدَ والشُنُوفَا[4]

وقد ذكر الرحالة الإنكليزي جايمس هاملتون أن صخرة اللات كانت لا تزال في أيامه بالطائف. ووصفها بأنها صخرة من «الغرانيت»، شكلها خماسي، وطولها اثنتا عشرة قدماً[5].

---

(1) المصدر نفسه، ص145.

(2) الخربوطلي (تاريخ الكعبة). دار الجيل، بيروت 1976، ص36. فيما بعد الخربوطلي.

(3) الأصنام، ص14.

(4) السيرة النبوية (1 ـ 2) ص78 الشنوف: قرط للأذن. وأنظر بقية أسماء الأصنام عند العرب في داود: 304 وما بعد. ومن تعبد لها من قبائل العرب في ج علي 6/ 234 وما بعد.

(5) James Hamilton: Sinai, The Hegas and Soudan. London 1857. P. 150. After Hamilton.

كما أن العرب الوثنيين كانوا يحملون معهم أصنامهم وقت المعارك مؤمنين بأنها ستساعدهم في النصر، وفي ذلك يقول الشاعر:

وسار بنا يغوث إلى مُراد فناجزناهُمُ قبلَ الصباح[1]

وربما فعلوا ذلك متأثرين ببعض أهل الديانات السماوية الذين كانت راياتهم في ساحات الوغى تحمل إشارات دينهم. وهذا ما أشار إليه الأخطل بقوله:

لما رَأَوْنا والصليب طالعاً ومار سرجيس وموتاً ناقعاً
وأبصروا راياتِنا لوامعاً خلّوا لنا راذان والمزارعا[2]

إن آلهة العرب الوثنيين كثيرة جداً، ونحن لا ندخل في جدل حول التفسيرات التي وضعت لهذه الآلهة وكيف وُجدت عند العرب، فقد اسهب البحاثون في ذلك وأطالوا[3]، ولكننا نريد أن نقول: إن الاتصالات الإنسانية المستمرة لها علاقة كبيرة بحدوث تطورات فكرية بين الشعوب، من شأنها أن تؤدي إلى تلاقح في العبادات في أغلب الأحيان، والعرب في جزيرتهم، قبل الإسلام، لم يكونوا يوماً بعيدي المرمى عن الرومان واليونان والفرس والأحباش وغيرهم فكم بالأحرى بعد الإسلام عندما شقت خيولهم طريقها إلى مرابع السند شرقاً وإلى أودية البيريينه غرباً.

ب ـ المزج بين الأديان:

إن اختلاط العرب بالأمم المجاورة يفسر لنا ما جاء في الجمهرة[4] في تنصير العرب وتهويدهم وتمجيسهم وتوثينهم فيقال: «**إن إياداً، وربيعة،**

(1) الأصنام ص10 وم البلدان 5/ 439.

(2) الأخطل (ديوان) تحقيق د: فخر الدين قباوة. دار الآفاق الجديدة، بيروت الطبعة الثانية 1979. جزءان. ص129و744. فيما بعد الديوان .

(3) راجع جواد علي 6/ 290 ـ 336.

(4) جمهرة الأنساب. ص491. وبرأيي أن نسل أكثرهم لم ينقطع كما أشار ابن حزم، وربما غُيِّبَ أو أُهمِل لسبب من الأسباب .

ويكراً، وتغلب، وعبد القيس، وغسان، وطيئ، وكثيراً من تنوخ، وكلب، وتميم، ولخم، كانوا نصارى. وكانت حمير يهوداً، وكثير من كندة. وظهرت المجوسية في بني تميم أما سائر قبائل العرب فعباد أوثان». وقد تنصر من قريش نفر يسير.

ولقد كان العرب في جاهليتهم وبعد الإسلام على اتصال بمن حولهم من الشعوب، وكان لهذا الاتصال أثره في حقول الحياة كافة عندهم، بعد أن مر بعدة قنوات، أهمها:

1 ـ الموقع والجغرافيا.

2 ـ التجارة.

3 ـ المراكز الدينية.

4 ـ الهجرات الدائمة من الجزيرة وإليها.

5 ـ الحملات العسكرية

إن القناة الأولى تحدثنا عنها في التوطئة. أما التجارة فقد كانت بلاد العرب طريقاً مهمة لها، فشبكة المواصلات البرية تخترق أرضهم من وادي الرافدين، حيث حضارة بابل، إلى المنطقة السورية فآسيا الصغرى ومصر. ومن اليمن في الجنوب إلى الشام مروراً بمكة[1]، وإلى وادي الرافدين عن طريق نجد، وإلى حضرموت[2]. هذه التجارة كان لها تاثير كبير في مختلف الميادين منها الميادين الدينية[3].

---

(1) داود، ص20 .

(2) لطفي، ص29 .

(3) الكلبي (أبو منذر هشام بن محمد بن السائب) كتاب الأصنام .ص28. تحقيق أحمد زكي، الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة 1965. فيما بعد الأصنام. وأخبار مكة 1/ 117. ويروي الكلبي قصة حمل أول وثن إلى بلاد العرب على يدي عمرو بن لحي ونصبه في مكة وأمره للناس بعبادته وهذه التجارة حملت «محمداً» لرفقة عمه أبي طالب في تجارة إلى الشام، ثم في تجارة خديجة التي أصبحت زوجاً له فيما بعد. وتعرفه على أديار النصارى ورهبانهم والسماع منهم عن الله والآخرة.

ج ـ المراكز الدينية:

كانت مكة المكرمة المركز الديني الرئيسي للعرب فيما قبل الإسلام[1]، وبعده، وموقعها في قلب شبه الجزيرة، حج إليها العرب من جميع أرجاء بلادهم[2] كما حج إليها بعض شعوب الأمم الأخرى كالهنود والفرس. وقد افتخر بعض شعراء الفرس زمن الإسلام بتقديسهم الكعبة والحج إليها، بقولهم:

وما زلنا نحجُّ البيتَ قدماً ونلقى بالأباطح آمنينا
وساسان بن بابك سار حتى أتى البيت العتيق بأصيدينا
وطاف به وزمزمَ عند بئرٍ لإسماعيلَ تَروي الشاربينا[3]

أما بعد ظهور الإسلام، فالحج إلى «البيت» في مكة غدا ركناً من أركان العبادة الخمس عند المسلمين في كل أمة وأرض. وهذا ما يفسر لنا مدى تأثير «مكة» في امتزاج العرب بغيرهم.

أما المراكز الدينية الأخرى كأورشليم «القدس» وبيت لحم حيث المراكز الدينية اليهودية والمسيحية فينبغي لزائريها الاختلاط بالعرب، إن بواسطة الطرق أو الاختلاط بهم هناك[4].

د ـ الهجرات الدائمة من الجزيرة العربية وإليها:

لقد فرضت الطبيعة القاسية، والمناخ المتقلب، مع شحّ الأمطار على سكان الجزيرة نموذجاً من الحياة، اتسم عموماً بعدم الاستقرار، فكان التحرك البشري الدائم داخل الجزيرة وإلى خارجها، أحد سمات الحياة فيها ويتم إما على شكل أفراد وأسر، أو على شكل جماعات متفاوتة

---

(1) الجهشياري (محمد بن عبدوس). الوزراء والكتاب ص396 والأغاني 5/ 47.
(2) م البلدان 5/ 183. حجت إليها حمير وكندة وغسان ولخم وباقي العرب .
(3) خربوطلي، ص27. ومروج الذهب 1/ 242.
(4) وكثير من العرب كانوا نصارى ويهوداً. أنظر داود 220و245 .

الحجوم، شبهها المؤرخون عند ضخامتها بأمواج البحر[1].

اضطر العرب إلى الهجرات شمالاً لأسباب كثيرة، منها: سعيهم الدائب لإيجاد المراعي الخصبة، فانساحوا في بلاد الشام ودخلوا أرض الرافدين، كما تقدموا إلى طور سيناء فشواطئ نهر النيل[2].

هذا من الجزيرة، أما إليها فقد قصدها اليهود ابتداءً من إبراهيم[3]، الذي يذكره القرآن بوضعه أسس البيت (الكعبة) مع ولده إسماعيل[4]، كما قصدوها عند سبيهم إلى أشور وبابل على عهد نبوخذنصر[5]، بحيث فر قسم منهم إلى بلاد العرب، وأقاموا فيها متواترين حتى ظهور الإسلام، وبعضهم عاد إلى دياره وبقيت بينهم وبين بعض العرب مراسلات[6]. هاجروا إليها بعد خراب هيكلهم ومدينتهم اورشليم[7]، وتوغلوا في نواحيها فوصلوا تيماء ويثرب ومكة في الحجاز، ومن هناك إلى اليمن وغيرها في الجنوب، وقد ظهر منهم أنبياء[8]، وشعراء ،في بلاد العرب مشهورين أمثال السموأل بن عاديا، والربيع بن أبي الحقيق الذي يقول في إحدى قصائده:

إنّا، إذا نحكم في ديننا ... نرضى بحكم العادل الفاصل
لا نجعل الباطل حقاً ولا ... نلِطُّ دون الحق بالباطل[9]

---

(1) د. سهيل زكار: تاريخ العرب والإسلام. منذ ما قبل المبعث وحتى سقوط بغداد. دار الفكر، بيروت، الطبعة الثالثة سنة 1979م، ص18 فيما بعد زكار.

(2) ج: علي 1/ 620.

(3) قاموس الكتاب المقدس ص596، فأقام في شكيم أولاً، ثم في بيت إيل، ثم ارتحل إلى أرض الجنوب فمصر ليعود ويستقر عند (بلوطات ممرا) المصدر ص10.

(4) سورة البقرة، آية 127.

(5) قاموس الكتاب المقدس، ص597.

(6) كتاب مقدس. نحميا 1: 6 وما بعدها.

(7) وذلك عام 70م على يد الرومان.

(8) كالنبي أيوب، الذي يضمه فيليب حتي إلى العرب. حتي ص73 ـ 74.

(9) الجمحي (أبو عبد الله بن سلاّم البصري) طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين دار الفكر، بيروت ص110، فيما بعد طبقات الشعراء.

ومنهم كعب بن الأشرف، وشريح بن عمران، وشعبة بن غريض، الذي يقول:

لا تبعدن فكل حي هالك لا بُدَّ من تلف فَبنْ بفلاح
إن امرءاً أمن الحوادث جاهلاً وَرَجا الخلود كضارب بقداح[1]

هذه الهجرات تمت فيما قبل الإسلام، أما بعده فهي كثيرة جداً إذ إن الفتوحات المتوالية شملت مناطق مختلفة في طبيعتها وحضارتها وخصائصها الاجتماعية، وأجناس بشرها، كما أخرجت عدداً ضخماً من العرب من جزيرتهم إلى مواطن جديدة استقروا فيها شيئاً فشيئاً، وتزاوجوا مع أهلها وتسلطت عليهم مؤثرات جديدة غيرت مجرى حياتهم، حتى الجزيرة نفسها لم يسلم سكانها من هذه المؤثرات التي غزتها وتسلطت عليها عن طريق الجواري والرقيق الذين حملوا معهم صدى مجتمعهم بما فيه من خير وشر، والذين سنرى فيهم في الفصول اللاحقة سبباً رئيساً من أسباب زرع الزندقة في نفوس العرب وأفكارهم.

إن الفتوحات التي اخترقت الشام والعراق، ومنهما شرقاً إلى فارس والسند، وغربا إلى إفريقيا الشمالية والأندلس، سببت عملية مزج قوية بين العرب وباقي الأمم المغلوبة، مزجٍ في الدم والنظم الاجتماعية والآراء العقلية، ومزجٍ في العقائد الدينية[2].

هـ ـ الحملات العسكرية:

إن اختلاط العرب بباقي الشعوب المجاورة سبب مزجاً في أكثر مناحي الحياة، وقد رأينا أنه تم بواسطة قنوات عدة، منها الحملات العسكرية التي قصدت بلاد العرب لإخضاعها، كحملة شلمناصر ملك

---

(1) المصدر، ص111، وهناك شعراء آخرون عديدون غيرهم.
(2) فجر الإسلام، ص84 وما بعد.

آشور[1] على أطراف الجزيرة، وحملة سنحاريب أيضاً وإخضاعه «أدومو قلعة بلاد العرب»[2] وأسر ملكتها «تبوءة» وحمل آلهتها إلى نينوى، ومن ثم إعادتهاإلى حيث كانت مع كتابة اسم إله آشور عليها[3].

وحملة نبونيد ملك الكلدان، الذي بنى له قصراً مسكناً في تيماء بعد إخضاعها. ناقلاً معه أقواماً من شعبه ومن اليهود ليسكنهم في نواحي الحجاز في تيماء وخيبر ويثرب[4].

وحملة قمبيز ملك فارس على مصر، ومروره بأرض العرب ومحالفته لهم ليكونوا خير مساعد له في عبور الصحراء[5].

وحملة «وهرز» قائد كسرى على بلاد اليمن لمناصرة «سيف بن ذي يزن» ضد الأحباش المحتلين[6] وبقاء الفرس هناك حتى الفتح الإسلامي. وفي هذا الحدث يقول «أبو الصلت»:

مَنْ مثلُ كِسْرى شَهَنْشَاهِ الملوكِ لَهُ ... أو مثلُ وَهْرِزَ يومَ الجيشِ إذْ صَالا
للهِ دَرُّهُمُ مِنْ عُصْبَةٍ خرَجُوا ... ما إنْ تَرَى لَهُمُ في الناسِ أمْثَالا
أَرْسَلْتَ أُسْداً على سودِ الكلابِ فقد ... أضحى شريدُهُمُ في الأرضِ فُلَّالا[7]

وحملة آليوس غالوس الروماني على قلب الجزيرة العربية[8]، وحملة

(1) النص الذي تركه هذا الملك يذكر فيه أن حملته كانت على ملك دمشق الآرامي وعلى حليفيه «أخاب» ملك إسرائيل، و«جندب» أحد مشايخ العرب.
D.D. Luck, Ancient Records of Assyria and Babylonia. (Chicago 1927) V.I. P.611.

(2) تعرف بالمصادر العربية بدومة الجندل. م. البلدان 2/ 487 وما بعد .

(3) ج: علي 1/ 592.

(4) المصدر 1/ 613.

(5) داود 48 وحتي ص70.

(6) حتي، ص101.

(7) الطبري 2/ 146.

(8) حتي، ص77.

ابن سبتيموس سفيروس على العربية السعيدة[1]، وقد فشلت الحملتان ونجحت حملة الأحباش أنصارهم فيما بعد على بلاد اليمن[2].

إن هذه الحملات العسكرية، وغيرها من القنوات التي ذكرنا، والتي بواسطتها حصل المزج السكاني بين العرب وباقي تلك الشعوب وخصوصاً الفرس قد عملت على إدخال بعض العرب في ديانة الفرس ووصول الزندقة إليهم[3]، وربما في ديانة الآخرين. لأن بعض العرب ونظراً إلى تواتر الاختلاط، كان يجيد اللغة اليونانية[4]، واللغة الفارسية ويتقنها إلى جانب عربيته، فعدي بن زيد كان من تراجمة ابرويز (ملك الفرس)، وأبوه زيد كان شاعراً خطيباً وقارئاً كتاب العرب والفرس[5]. ولما كان عرب الحيرة على علاقة وطيدة بالفرس، وكان أمراؤهم مقصداً لشعراء العرب من كل أنحاء الجزيرة يمدحونهم ويبشرون بهم بين البدو[6] فقد أثّروا كثيراً في الحياة العقلية والدينية للعرب عامة[7]. ومعنى هذا ان عرب الحيرة خصوصاً، وعرب العراق وباقي بلادهم عموماً خضعوا قبل الإسلام لمزج عربي فارسي.

ولما جاء الإسلام ودخل الفرس في هذا الدين، انتقلوا بكل حضارتهم إليه، وحلت البصرة والكوفة محل الحيرة. وإن الفتوحات العربية

---

(1) ج: علي 2/ 67، إن للرومان آثاراً كثيرة باقية في بلاد العرب، كمدينة جرش في الأردن: زيارة شخصية عام 1967، وآثار بعلبك، ودير البلمند في لبنان، ولقاء مع بطريرك الروم الأرثوذكس الكسندر طحان عام 1958 وتحدثه عن تاريخ الدير بحضور ملك اليونان «بول» ورئيس جمهورية لبنان: كميل شمعون.

(2) الطبري 2/ 125 وما بعد.

(3) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي بيروت 1/ 243 وما بعدها.

(4) أنظر ضحى الإسلام 1/ 253.

(5) أغاني 2/ 20.

(6) ابن الأثير 1/ 331 وسالم (عبد العزيز) تاريخ العرب في عصر الجاهلية. دار النهضة العربية، بيروت 1971 (سالم) ص277.

(7) أنظر أحاديث جذيمة الأبرش، وأساطير الزباء، والخورنق والسدير، ويومي النعمان، في الطبري 1/ 613. م البلدان 2/ 401 و 3/ 201 و4/ 198 والمعارف 649.

التي شملت أرض ما بين النهرين وبلاد فارس شرقاً وحتى السند، ومصر وشمالي إفريقيا غرباً وحتى الأندلس، سببت في مزج سكاني بين العرب وغيرهم، وورثت أبناء الصحراء العربية تلك الثقافات الفكرية القديمة وما يتفرع عنها في مجال الدين. لقد غَلَبُوا فَغُلِبُوا. غلبوا عسكرياً لكنهم خضعوا بدورهم لحضارة الأمم المغلوبة، فما أن استقر الإسلام حتى قام الهنود والفرس والمصريون وغيرهم من أسلم منهم ومن بقي على دين آبائه القديم[1]، بدورهم في عملية المزج الجنسي واللغوي والثقافي والديني، وإذا بنا .إزاء أمة (عربية) تتألف من أجناس مختلفة، وإذا بالبيت العربي يزخر بالجواري من كل جنس[2]، وما إن تدول دولة الأمويين حتى نرى العربي الخالص الدم في بغداد نادراً، لأن غالبية الأمهات من الجواري والإماء، وكذلك الشأن في الخلفاء أنفسهم[3]. مما هيأ للقاح واسع بين العرب وباقي الأمم، ولا نقصد اللقاح الدموي فحسب، بل نقصد اللقاح الثقافي الديني، لأنه من الطبيعي أن يحمل جيل كهذا عن أمهاته ثقافتهن وكثيراً من الطباع والعادات والمعتقدات. وهكذا ونتيجة لهذا اللقاح ـ الجديد القديم ـ انتقلت المجوسية[4]والمانوية[5]، والمزدكية[6] إلى دنيا العرب، وتمكنت من أفكار البعض الذين تزندقوا سراً وعلناً.

وسنرى في الفصل اللاحق من دان بها ومن حاربها.

إن العرب وقد انساحوا في هذه البلاد المترامية الأطراف، والتي تضم إلى جانبهم أمماً تختلف في الأهواء والميول السياسية[7]، وتنقسم إلى

---

(1) كاليهود والنصارى والمجوس وغيرهم .

(2) كالسنديات والحبشيات والفارسيات والخراسانيات والتركيات والروميات، والصقلبيات. ضيف: العصر العباسي الأول: 3/ 89 .

(3) المصدر نفسه. وملل ونحل ص42.

(4) ملل ونحل، ص70.

(5) الفهرست 456 وملل ونحل 81 وفجر الإسلام ص104.

(6) الفهرست 479 وملل ونحل 86.

(7) أنظر ما رواه عن ذلك: ابن قتيبة. أبو عبد الله بن مسلم الدينوري. عيون الأخبار. دار الكتاب العربي، بيروت، ص204. فيما بعد عيون الأخبار .

طوائف ومذاهب مختلفة، لكل منها شعائر وعبادات خاصة، فمنهم يهود، حافظوا على تقاليدهم، وحرّموا التزاوج إلا منهم ومنهم نصارى، تمسكوا بشعائرهم وطرق عبادتهم، ومجوس يقيمون هياكلهم، ويوقدون نيرانهم[1]. لكن لا بد للعرب، بعد أن وقف الفكر الإسلامي واليوناني والفارسي والهندي متواجهين، أن يتأثروا بالأفكار والعقائد التي غزتهم عن طريق إخضاع تلك الأمم عسكرياً، وعن طريق الزواج والولادة كما أسلفنا وقد أحلّ ذلك الإسلام[2].

وهذا التزاوج في الإسلام بدأ بزواج «محمد» من «مارية القبطية»[3] واستمر ينمو ويتكاثر حتى بلغ أشده زمن بني العباس. ونتج عن هذا التزاوج جيل التوليد الذي انبثق من اختلاط الأجناس، ومن نظام الرقّ الولاء عقب الفتح الإسلامي وقد أصبح البيت الإسلامي[4]، عصبة أمم ينتج من النسل ما يحمل خصائص الأمم المختلفة[5]. وهذا النسل أكثر أمهاته جوار، وقد كان للرشيد زهاء ألفي جارية من المغنيات والخَدَمة في الشراب[6]، ويقال: أنه كان للمتوكل أربعة آلاف سريّة[7]. ومن هذا المزج في الزواج نشأ جيل من المولدين يحمل ميزات خاصة، حتى أن بعض الخلفاء كانوا من هذا الصنف، أمهاتهم سبيات منهم الهادي والرشيد ويزيد بن الوليد وأخوه إبراهيم ومروان بن محمد[8]، وأبو جعفر المنصور

---

(1) ضحى الإسلام 1/ 8.

(2) أنظر القرآن سورة 5/ 5.

(3) سرية أهداها المقوقس «للرسول» وأنجبت له «إبراهيم» وهي لا تزال سرية. محمد حسين هيكل (حياة محمد) مكتبة النهضة المصرية، الطبعة 13 سنة 1968 ص 443، فيما بعد حياة محمد .

(4) خاصة بيوت الخلفاء والأمراء والأغنياء .

(5) مثال ذلك بيت: أبي جعفر المنصور: حيث كان أولاده من نساء عربيات وكرديات ووروميات. العقد الفريد 5/ 116.

(6) أغاني 9/ 88 وكل أولاده من الأجنبيات باستثناء «محمد الأمين».

(7) ضحى الإسلام 1/ 9.

(8) هؤلاء الثلاثة خلفاء أمويون .

والمأمون والمعتصم والمتوكل[1].

وإلى جانب التوليد الجسمي، كان هناك توليد عقلي، نشأ مزيجاً من العقلين العربي والفارسي، والعربي والرومي وإلى ما هنالك وتشابكت الأفكار واحتبكت المعتقدات المترسبة في النفوس وظهرت المذاهب الكثيرة والمتفرقة ومن بينها الزندقة.

إن الفتوحات أوجدت الموالي الكثر، وعلى الرغم من أن الإسلام دعا إلى نزع الفوارق بين طبقات الأمة بقول القرآن الكريم: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[2]. فإنه بالوقت ذاته يقر بالطبقية، نزولاً عند قول القرآن: ﴿وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم في ما آتاكم ...﴾[3] وربما دعا هذا القول بني أمية ليرفضوا التسوية بين العرب وبقية الشعوب المغلوبة، وقد نظر نفر منهم إلى «الموالي» نظرة السيد إلى عبده في السلم والحرب[4]. وهذا ما حدا بهؤلاء إلى استرجاع ماضيهم، وما فيه من أمجاد وقيم وعلم وأدب وحضارة ودين ليقفوا بوجه من فاقهم رفعة وساد عليهم، ولم يكن فيما مضى إلا أقل شأن منهم في النسب والفروسية والحضارة والدين. يقول إسماعيل بن يسار النسائي:

رُبَّ خالٍ مُتوَّجٍ لي وعَمٍّ ... ماجدٍ مُجدىً كريم النِصَابِ
إنَّما سمي الفوارسُ بالفرُ ... سِ مضاهاةَ رفعةَ الأنسابِ
فاتركي الفخر يا أُمامَ علينا ... واتركي الجورَ وانطقي بالصوابِ
واسألي إن جهلتِ عنا وعنكم ... كيف كنا في سالف الأحقابِ
إذ نُربِّي بناتِنا وتَدُسُّو ... نَ سفاهاً بناتِكم في الترابِ[5]

(1) المعارف: ابن قتيبة 380 وما بعد. وضحى الإسلام 1/ 11.
(2) سورة الحجرات، آية 13.
(3) تفسير الجلالين ص123. قرآن 105/ 165.
(4) ضيف (تطور وتجديد) ص114. وخير من صور هذه المعاملة ابن عبد ربه في العقد الفريد 3/ 412.
(5) أغاني 4/ 120 وأنظر دفاعه أيضاً عن بني بجدته في قصيدة له. أغاني 4/ 125 .

وناصر هؤلاء الأعاجم ـ بصورة عامة الفرس ـ الدعوة الهاشمية العباسية[1]، وما أن انتصر العباسيون وسادوا، ونقلوا مقر الخلافة من الشام إلى بغداد القريبة من بلاد فارس، حتى رأيناهم بين الفينة والأخرى مستهدفين للخطر من الثورات المذهبية المضطرمة في خراسان، حيث احتك الإسلام بالعقائد البوذية والآراء الشامانية[2] والدين الزرادشتي، ومتفرعاته، دين إيران القومي، وحتى رأيناهذه المذاهب والملل والنحل الدينية قد زاد عددها على العشرات بل تعدى ذلك إلى المئات، وسارت في شعب وشعيبات، تارة تلتقي وطوراً تفترق، وظهرت الزندقة بأحلى حللها تسير تيها وخيلاء بين سراديب العلم والدين تتزين بحلى التاريخ وتعتلي المنابر السياسية والفكرية، وتدخل محاريب الدين. تلج أبواب القصور، وتدخل كهوف البائسين. يعتنقها الشاعر والأديب والمفكر. وتستهوي، ـ في بعض مذاهبها ـ المتهافتين على اللذة السائرين وراء شهواتهم، يبغون الدين للدنيا ولغيرهم الآخرة، فنرى الزندقة تصول وتجول، تتشابك عناصرها، وتتفرع اتجاهاتها، وتسري في كل طبقات المجتمع سريان النار في الهشيم فيعظم شأنها وتبلغ في بعض معتنقيها درجة كبيرة من الخطورة، إن في المعتقد أو في الحياة الاجتماعية، وما يترتب على ذلك من فساد وانحلال. مما حدا بكثير من الخلفاء وذوي الشأن بملاحقة مثل هؤلاء وقطع دابرهم[3].

---

(1) برأيي أنها كانت للإيقاع بين العرب أنفسهم لتفريقهم وإضعافهم.

(2) نسبة إلى شامان، كلمة سنسكريتية تعني الكاهن أو الساحر، كان يزعم أن في مقدوره الاتصال بالأرواح الصالحة والشريرة. كارل بروكلمان (تاريخ الشعوب الإسلامية) ترجمة فارس وبعلبكي ـ دار العلم للملايين، بيروت. طبعة ثامنة 1979. ص181. فيما بعد بروكلمان.

(3) هذا ما نراه في فصول لاحقة من البحث.

الفصل الثاني

الزنـــدقة

القسم الأول
المعنى اللغوي والاصطلاحي للزندقة

أولاً: المعنى اللغوي للكلمة

اختلف الباحثون وعلماء اللغة في تحديد معنى كلمة «زندقة» ولكنهم اتفقوا على أن اللفظة ليست من اصل عربي. ويرى ابن منظور (أن الزنديق: القائل ببقاء الدهر، فارسي معرب، وهو بالفارسية «زَنْدِكِرَايْ» يقول بدوام بقاء الدهر. وقيل الزنديق معروف، وزندقته أنه لا يؤمن بالآخرة ووحدانية الخالق، وقال أحمد بن يحيى: ليس في كلام العرب زنديق، فإذا أرادت العرب معنى ما تقوله العامة، قالوا: مُلحد ودهري. وقال الجوهري: الزنديق من الثنوية وهو معرب، والجمع الزنادقة، وقد تزندق، والاسم الزندقة)[1].

ويرى الأب سبسيتان رنزفال اليسوعي: **«أن لفظة زنديق فارسية الأصل، وليست عربية، لورودها في كتب الفرس القديمة قبل الإسلام، وهو يرى أن «الأبستا» كتاب من أقدم كتب الفرس، وَالزَنْدِ تفسير للأبستا،**

---

(1) اللسان 10/ 147 مادة زندقة .

والكتابان بمنزلة واحدة من التكريم والتعظيم عند الفرس القدماء. وقد ورد ذكر الزنادقة في كتاب الابستا وقبل تأليف الزند، إذ قيل: «إننا جعلنا الصلاة ... لكي تحارب الزَنْدَة والساحر وتخربهما جميعاً، والمراد بالزندة في الفارسية الأولى شريعة الساحر أو بعبارة أخرى السحر عينه. فالزندي إذاً في تاريخ الفرس القديم ساحر قبيح المذهب، سيئ المعتقد والصنع»[1].

وقد اتخذ الفرس المحدثون هذه الكلمة، فتلفظوا بها على صورة «زنديك» ومنها اشتقت ـ بتصحيف الحرف الأخير ـ لفظة (زنديق) الشائعة عند العرب وابتكروا لها ضروباً من الاشتقاقات. وخلاصة رأي الأب سبستيان أن الزنديق لفظة فارسية عريقة في القدم معناها الأصلي رجل السحر لا رجل التأويل كما زعم العرب ومن ذهب مذهبهم[2].

ويرى «بروكلمان» أن كلمة «زنديق» كانت شائعة على عهد الساسانيين ويوسم بها وينبذ كل من تجرأ على تفسير «الأبستاق»[3]، تفسيراً جديداً وتطلق أيضاً على أتباع ماني ومزدك[4].

أما المعلم بطرس البستاني فيرى أن اللفظة معربة عن «زن دين» الفارسية ،وتعني دين المرأة، أو صاحب الدين المعتقد بدين «زرادشت»، أو أنها معربة عن «زنديه» نسبة إلى «الزندا» أحد كتب الدين عند المجوس[5].

ويرى «بيغا» أن اللفظة من أصل آرامي (زدّيق) انتقلت إلى الفرس

(1) شيخو (الأب لويس اليسوعي) المشرق: السنة الأولى العدد 15، ص681. فيما بعد المشرق .

(2) المصدر نفسه .

(3) هو الأبستاء نفسه وسماه بعضهم «الأفستا» .

(4) تاريخ الشعوب الإسلامية (بروكلمان) ص183.

(5) بطرس البستاني: دائرة المعارف، دار المعرفة، بيروت، مادة زنديق ج9 ص270. فيما بعد، بطرس البستاني .

فحرفت إلى (زنديك) ثم نقلت إلى العربية (زنديق) ويقصد بها أبرار (المانوية)[1]، وزهادهم، وقد تطور معناها فيما بعد إلى ملحد. وأيد هذا الرأي «حامد عبد القادر» الذي أكد أن الفارسية الفهلوية تأثرت بالأرامية ورجح انتقال الكلمة من الأرامية إلى الفارسية حيث كانت تطلق على المؤمن المخلص من أتباع (ماني)، ولما كان الزرداشتيون يعدون هؤلاء ملحدين خارجين عن الزرادشتية، فقد صارت الكلمة عندهم تطلق على كل ملحد لا يؤمن بدينهم[2].

ويرى «فولورز» أن الكلمة من اصل إغريقي[3] وبراون يراها صفة فارسية معناها «متبع الزند» أي الشروح القديمة للأبستا[4]، «وفون كريمر» يقول أنها تدل على معان مختلفة في أزمنة مختلفة، فالزنديق من اعتنق آراء الفرس في بادئ الأمر ثم من اعتنق ديانة ماني[5] ويرى (شِيْدر) أن كلمة زنديق عربت في العراق أخذاً من المصطلحات الإيرانية أيام حكم الساسانيين، ويقول (صِدِّيقي) إن هذا التعريب حدث بين الموالي في الحيرة والكوفة وأن الكلمة ظهرت أول ما ظهرت في العراق عام 125هـ عند قتل الجعد بن درهم[6].

ويرجح معرب مادة زنديق في دائرة المعارف الإسلامية ـ نقلاً عن السيد أدي شير صاحب كتاب الألفاظ الفارسية المعربة ـ أن كلمةزنديق معربة عن لفظ «زنديك» أي الذي يعمل بما يطابق كتاب الزندلمزدك.

ويفهم «أحمد أمين» من كلام ابن النديم أن الزندقة كانت مرادفة

---

(1) سنبين معناها فيما بعد .

(2) حامد عبد القادر قصة الأدب الفارسي. مكتبة نهضة مصر بالفجالة. القاهرة 1951. ص60 ـ 61. فيما بعد. قصة الأدب الفارسي .

(3) دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) مادة زنديق .

(4) كتاب زرادشت المقدس. المصدر السابق .

(5) الحضارة الإسلامية ـ ترجمة مصطفى بدر. دار الفكر العربي، القاهرة 1947، ص101 ـ 102. فيما بعد (كريمر) .

(6) دائرة المعارف الإسلامية. مادة زنديق .

للمانوية، في حين أن الخياط المعتزلي في كتابه «الانتصار» يستعملها للدلالة على فرقة خاصة قرينة لليهود والنصارى، فيقول مثلاً: «قال ابن الراوندي: وزعم تمامة ان أكثر اليهود والنصارى والمجوس والزنادقة والدهرية يصيرون في القيامة تراباً، ولا يدخلون الجنة ... الخ»، كما ويفهم أحمد أمين من كلام ابن قتيبة في كتابه «المعارف» أن الزندقة دين خاص من أديان الفرس[1]. ولكن كلام ابن قتيبة يدل على أنه يعني بالزندقة المزدكية بالذات[2].

ويفهم حسن إبراهيم حسن من عبارة للغزالي أن العرب كانوا يطلقون لفظ زنديق على من ينفي وجود لله أو يقول إن له شريكاً[3].

ومن جملة ما مر من آراء حول الأصل اللغوي لكلمة زندقة ومعناها وتطور مدلولها، وبعد إطلاعنا على عملية المزج بين العرب وباقي الشعوب المجاورة خصوصاً الفرس، قبل الإسلام وبعده، يمكننا القول إن لفظة الزندقة فيما يبدو من أصل فارسي، وإنها عربت مع ألفاظ فارسية كثيرة. دخلت اللغة العربية من خلال المزج السكاني، وإنها لم يكن يقصد بها إلا طوائف الثنوية جميعاً من مانوية وديصانية ومرقونية ومزدكية[4]، ووصية

(1) فجر الإسلام، ص107.

(2) المعارف 621.

(3) تاريخ الإسلام ـ حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية. الطبعة السابعة 1964، ج2، ص115. بعد تاريخ الإسلام .

(4) سنتعرض لها بالشرح في الفصول اللاحقة. ماني بن فاتك الحكم قتله بهرام بن هرمز ملك الفرس، قال بنبوة المسيح ونفى نبوة موسى، زعم أن العالم مركب من أصلين النور والظلمة. الفصل في الملل والنحل، ص81 وما بعد .
الديصانية: اصحاب ديصان دعوته قريبة من الدعوة المانوية. المصدر نفسه، ص88.
المرقونية: أصحاب مرقون: أثبت ثلاثة اصول للعالم: بإضافة روح المسيح التي تخرج الأصلين. المصدر نفسه، ص89.
المزدكية: أتباع مزدك: قتله أنوشروان، قال بالأصلين أحلّ النساء وأباح الأموال. المصدر نفسه، ص89.

المهدي لابنه الهادي التي ذكرها الطبري تؤكد ذلك، فقد جاء فيها: «**إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة (يعني أصحاب ماني) فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور، وترك قتل الهوام تحرجاً وتحوباً، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين: أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور، فارفع فيها الخشب، وجرد فيها السيف**»[1].

والطبري هنا يمزج تعاليم المانوية والمزدكية[2]، في الوصية ذلك أن تعاليم ماني لا تدعو إلى الإباحة، والذي دعا إلى ذلك مزدك: «**فأباح الأموال، وأحل النساء، وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكلأ، لأن المخالفة والمباغضة والقتال التي نهى عنها إنما تقع بسبب ذلك**»[3]. مما يرجح أن لفظة الزندقة كانت تطلق على المانوية والمزدكية وكل من دان بالنحل الفارسية القديمة وربما بالنحل غير الفارسية، لأن المهدي «**أمعن في قتل الملحدين، والذاهبين عن الدين لظهورهم في أيامه، ولما انتشر من كتب ماني وابن ديصان ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره، وترجمت من الفارسية والفهلوية إلى العربية، وما صنفه في ذلك ابن أبي العرجاء، وحماد عجرد، ويحيى بن زياد، ومطيع ابن إياس في تأييد المذاهب المانية، والديصانية، والمرقونية، فكثر بذلك الزنادقة، وظهرت آراؤهم في الناس**»[4].

والقول بأن لفظة زندقة فارسية الأصل، ربما لأنها تبتدئ بكلمة (زن)

---

(1) تاريخ الطبري: 8/ 220.

(2) أنظرهما في الملل والنحل 2/ 81و86.

(3) الفهرست ص479.

(4) مروج 4/ 315.

الفارسية وتعني بالعربية امرأة أو ربما قابلها بالعربية كلمة (زنى) والزنى لا يكون إلا بالمرأة، وهذا مخالف لشرائع السماء، يضاف إليها كلمة (دق) العربية وتعنى الكسر والرضّ والتهشيم وإظهار الشيء[1]، أي تهشيم العذرية وفض البكورية وإظهار الزنى، هذا على إمكان التجوز لا الحتم.

ثانياً: المعنى الاصطلاحي للزندقة

إن العرب عاشوا حياة بؤس وشقاء في صحرائهم الواسعة ـ فيما قبل الإسلام ـ وعندما جاء الإسلام وانساحوا شمالا وشرقاً وغرباً، تغيرت ظروف معيشتهم إلى نعيم ورخاء، وحياة فيها الجد والزهد واللهو والمجون، وفي كل أعصرهم كان هناك حياة للقلب والعقل ،والعاطفة والدين. وقد نرى صراعاً بين الإيمان الخالص، والشك والزندقة والإلحاد ... يومٌ ينتشر الالحاد، وآخر يعم الإيمان، وبين الاثنين ترى الزندقة. فما هي هذه الزندقة؟ وما معناها؟

اختلف الباحثون، وكثرت الآراء نحو مدلول الزندقة والمعنى الاصطلاحي لها فمنها: أن الزنديق هو الثنوي القائل بوجود خالقين أحدهما إله النور والثاني إله الظلمة «يزدان واهرمان» وهذا مذهب الفرس القدماء ... وقيل إنه من يبطن الكفر ويظهر الإيمان، وعليه قال أحدهم:

بـغـدادُ دارٌ لأهـلِ الـمـالِ طـيِّـبَـةٌ   وللمفاليسِ دارُ الضنكِ والضيقِ
ظلَلْتُ حيرانَ أمشي في أزقَّتِها   كأنني مصحفٌ في بيتِ زنديقِ[2]

فالخاصة من الناس وأشباههم كانوا يفهمون الزنديق الذي اعتنق الإسلام ظاهراً وبقي على دين الفرس باطناً[3]، غرضه في ذلك إفساد التعاليم

(1) اللسان 10/ 101 مادة (دق) .

(2) دائرة المعارف (ب. بستاني) 9/ 270 مادة زنديق .
وقد روي صدر البيت الثاني (اصبحت فيها مضاعاً بين أظهرهم) م. البلدان 1/ 464 مادة بغداد .

(3) خاصة من أضمر «دين ماني» ضحى الإسلام 1/ 150.

الإسلامية بعدة طرق كالعلم والدين، والأدب، وإظهار مثالب العرب.

فمن ناحية الدين ما فعله «عبد الكريم بن أبي العوجاء» المتهم بالزندقة والذي قيل عنه إنه وضع أربعة آلاف حديث مغايرة لأحاديث (الرسول)، واعترف بذلك يوم قتله المنصور[1]، ومن ناحية اللغة والأدب ما عمله «حماد الراوية» من شعر يضيفه إلى الشعراء المتقدمين، ويدسه في أشعارهم، حتى قيل عنه «إنه أفسد الشعر» كما يدس صالح بن عبد القدوس «معاني الزندقة في الأشعار»[2].

أما «يونس بن أبي فروة» فإنه يؤلف كتاباً في مثالب العرب، وعيوب الإسلام، ويحمله إلى ملك الروم فيأخذ منه مالاً عليه[3]. هؤلاء وأمثالهم تزندقوا تزندقاً علمياً فاعتقدوا بماني أو مزدك وآمنوا بالنور والظلمة، عن علم ومعرفة بدين الفرس، ثم تظاهروا بالإسلام تقية أو توسلاً ونستدل على معنى ذلك من رواية الأغاني ان بشاراً هجا حماد عجرد فقال:

يا ابنَ نُهبى، رأسٌ عليَّ ثقيلُ ... واحتمالُ الرأسينِ أمرٌ جليلُ
فادعُ غيري إلى عبادةِ ربَّيْنِ ... فإني بواحدٍ مشغولُ!

فقال حماد: ما يغيظني من بشار إلا تجاهله بالزندقة، يوهم الناس أنه يظن أن الزنادقة تعبد رأساً ليظن الجهال أنه لا يعرفها، وهو والله أعلم بالزندقة من ماني[4]. ويدلي أبو نواس بشهادته عن حماد قائلاً: «**كنت أتوهم حماد عجرد إنما يرمى بالزندقة لمجونه في شعره حتى حبست في حبس الزنادقة، فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم، وإذا له شعر مزاوج بيتين**

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه 1/ 151.

(3) الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي (أمالي المرتضى) غرر الفوائد ودرر القلائد. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الكتاب العربي سنة 1967، بيروت 1/ 90. فيما بعد أمالي المرتضى.

(4) الأغاني 13/ 76.

بيتين، يقرأون به في صلاتهم»[1] وكان له صاحب يقال له «حريب» على مذهبه وله يقول بشار حين مات حماد على سبيل التعزية:

بكى حُريبٌ فوقَّره بتعزيهِ ... ماتَ ابنُ نُهبى وقد كانا شريكَيْنِ
تفاوضا حين شابا في نسائِهِما ... وحلَّلا كلَّ شيءٍ بينَ رِجْلَيْنِ
أمسى حُريبٌ بما أسدى له غِيَراً ... كراكبِ اثنين يرجو قوَّةَ اثنين
حتى إذا أخذا في غيرِ وجهِهِما ... تفرَّقا وهوى بين الطريقَيْنِ[2]

وإلى جانب الثنوي القائل بوجود إلهين خالقين. أو الذي كان مسلم الظاهر مجوسي الباطن، كان هناك زنادقة من أتباع ديانة الفرس لم ينتحلوا الإسلام، بل كانت لهم كتب أجود ما تكون وَرَقاً، حبرها أسود براق، وخطها جيد ... وجل ما فيها «ذكر النور والظلمة، وتناكح الشياطين، وتسافد العفاريت، وذكر الصنديد..»[3]. كما كان هناك زنادقة جحدوا الأديان كلَّها، قال أبو العلاء المعري: «**الزنادقة هم الذين يُسَمّون الدهرية لا يقولون بنبّوة ولا كتاب»**[4].

هذه المعاني للزندقة اصطلح عليها الخاصة، أما العامة واشباههم فقد أطلقوا على الماجن المستهتر لفظة «زنديق» فإبراهيم بن سيابة الشاعر الخليع الماجن، رمي بالزندقة، ولم يكن يعرف عنه قول في الدين، وربما لمجونه وحبه للغلمان[5] وآدم حفيد عمر بن عبد العزيز اتهم بالزندقة لمجونه وانهماكه في شرب الخمر، وقوله الشعر وهو سكران تجري على لسانه أبيات فيها مساس بالدين، كأن يقول:

---

(1) الأغاني 13/ 74.
(2) يعني أنه كان يقول بقول الثنوية في عبادة اثنين فتفرقا وبقي بينهما حائراً. أغاني 13/ 74.
(3) الجاحظ: حيوان (1 ـ 3) ص45.
(4) أبو العلاء المعري (رسالة الغفران) تحقيق فوزي عطوي. الشركة اللبنانية للكتاب. بيروت ـ ص215. فيما بعد رسالة الغفران .
(5) أغاني 11/ 7.

اسقني واسقِ خليلي ... في مَدَى الليلِ الطويلِ
لونُها أصفرُ صافٍ ... وهي كالمسكِ الفتيلِ
مَنْ يَنَلْ منها ثلاثاً ... ينسَ منهاجَ السبيلِ
قلْ لمن يلحاك فيها ... من فقيهٍ أو نبيلِ
أنت، دَعْها وارجُ أخرى ... من رحيق السلسبيلِ
تعطشُ اليوم وتُسقى ... في غدٍ نعتَ الطُلولِ

وكأن يقول:

اسقني واسقِ غُصَيْناً ... لا تَبِعْ بالنقدِ دَيْناً
اسقنيها مُرَّةَ الطَّـ ... ـعْمِ تُريكَ الشَيْنَ زَيْناً

فيضرب بحضرة المهدي ثلاثمائة سوط ليقر بالزندقة، فيقول: **«والله ما أشركت بالله طرفة عين، ولكنه طرب غلبني وشعر طفح على قلبي، أشرب النبيذ وأقول ما قلت على سبيل المجون»**[1].

والواقع أن أكثر شعراء الجاهلية والأعصر الإسلامية التي نحن بصددها قد أفرطوا في الفجور والإباحة والاستهتار، وجهروا بأقوال فيها تهكم وسخرية على من يقول بتحريم الخمر ويخوف بالنار والعذاب ويذكر بيوم البعث والحساب. يقول شداد بن الأسود الليثي في رثاء قتلى بدر:

ألا يا أمَّ بكرٍ لا تكُرِّي ... عليَّ الكأسَ بعدَ اخي هشامِ
ألا من مبلغ الرحمنَ عني ... بأني تاركٌ شهرَ الصيامِ
أيُوعدُنا ابنُ كبشةَ أن سنحيا ... وكيف حياةُ أصداءٍ وهامِ؟
أتترك أن تردَّ الموت عني ، ... وتحُييني إذا بليت عظامي؟[2]

ويقول ربيعة بن أمية بن خلف الجمحي بعد هروبه من أبي بكر لخطب جرى له:

---

(1) أغاني 14/ 60 ـ 61.

(2) رسالة الغفران، ص211.

لحقت بأرض الروم غير مفكرٍ ... بترك صلاة من عشاء ولا ظُهرِ
فلا تتركوني من صبوحٍ مدامة ... فما حرَّم الله السلاف من الخمر
فإن يكُ إسلامي هو الحقَّ والهدى ... فإني قد خلَّيْتُه لأبي بكرِ[1]

ويقول الوليد بن يزيد:

أدنيا مني خليلي ... عبدلاً دون الإزار
فلقد أيقنتُ أنّي ... غيرَ مبعوثٍ لنار[2]

ويقول بشار:

لا خيرَ في العيشِ إن كنا كذا أبداً ... لا نلتقي وسبيلُ الملتقى نَهَجُ
قالوا: حرامٌ تلاقينا! فقلت لهم ... ما في التلاقي ولا في قُبلةٍ حَرَجُ[3]

وكثيراً ما وصل هذا النوع من التزندق إلى ضرب من الإلحاد. كما في قول أبي نواس:

فَدَعي الملام فقد أطَعتُ غَوايَتي ... وصرفتُ معرفتي إلى الإنكارِ
ورأيتُ إتياني اللذاذةِ والهوى ... وتعجُّلاً من طيب هذي الدار
أحرى وأحزمَ من تنظُّرِ آجلٍ ... عِلْمي بهِ رجْمٌ من الأخبار
ما جاءَنا أحدٌ يخبِّرُ أنّهُ ... في جنَّةٍ منْ ماتَ أو في النارِ[4]

وكما في قوله أيضاً:

يا ناظراً في الدين ما الأمرُ ... لا قَدَرٌ صَحَّ ولا جَبْرُ
ما صحَّ عندي من جميعِ الذي ... تذكرُ إلا الموتُ والقبرُ[5]

كما أطلق العامة لفظ زنديق على من وصف بالظرف كقول أبي نواس في وصف العباس بن الفضل بن الربيع:

---

(1) رسالة الغفران، ص221.
(2) المصدر ص223.
(3) ضحى الإسلام 1/ 148.
(4) ديوان أبي نواس. ضحى الإسلام 1/ 148.
(5) ديوان أبي نواس. ضحى الإسلام 1/ 148.

نَـديـمُ كـأسٍ مُـحـدِّثُ مـلـكٍ   تِـيْـهُ مُـغَـنٍّ وظـرفُ زنـديـقٍ[1]

وقال ابن مناذر في محمد بن زياد، الذي كان يظهر الزندقة تظرفاً:

يـا ابـن زيـاد، يـا أبـا جـعـفـر   أظـهـرتَ ديـنـاً غـيـرَ مـا تُـخـفـي
مـزنـدق الـظـاهـر بـالـلـفـظِ فـي   بـاطـنِ إسـلام فـتـىً عـفِّ
لـسـتَ بـزنـديـقٍ ولـكـنَّـمـا   أردتَ أن تـوسَّـمَ بـالـظـرفِ[2]

وبهذا المعنى، معنى التهتك، والتظرف، والتدرج في ذلك إلى الخروج عن الدين أحياناً، ثم المغالاة في ذلك إلى أقوال فيها معنى الإلحاد لا عن نظر وتفكير، كان معنى «الزندقة» في أذهان العامة وأشباههم، وعلى هذا قالوا: «**إن علامة الزندقة شرب الخمر، والرشا في الحكم، ومهر البغي**»[3].

ولكن هناك تعريفات للزندقة صدرت عن الخاصة، وأربكت البحاثة فيما بعد.

منها ما حكي عن «يحيى الدمشقي»[4] الشديد التمسك بنصرانيته والذي عمل هو وأبوه في قصر عبد الملك بن مروان، وألف كتاباً للنصارى يدفع به دعوة المسلمين عن «كلمة الله وروحه» أي المسيح، لأن الذي يقول أن الله لم تكن له كلمة ولا روح فهو زنديق بنظر المسلمين[5].

ومنها ما رواه ابن النديم عن المأمون عند لقائه لجماعة من الحرانيين، حيث أنكر المأمون زيهم! وقال لهم من أنتم من الذمة؟

---

(1) الديوان. وضحى الإسلام 1/ 149.
(2) أغاني 1/ 15.
(3) العقد الفريد 2/ 179.
(4) في المصادر المسيحية يوحنا الدمشقي. أنظر كتاب المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي. للقديس يوحنا الدمشقي. تعريب الأرشمندريت أدريانوس شكور المكتبة البوليسية (لبنان) 1984. اسمه الحقيقي منصور بن سرجون: ص36.
(5) ضحى الإسلام 1/ 343.

أنصارى أم يهود أم مجوس؟ أفلكم كتاب أم نبي؟ فجمجموا في القول. فقال لهم: **«فأنتم إذاً الزنادقة عبدة الأوثان، وأنتم حلال دماؤكم، لا ذمة لكم»**[1].

ومنها اتهام الخلفاء لخصومهم بالزندقة، وربما كان هذا الاتهام سياسياً للإيقاع بهم[2] وكذلك الوزراء بعضهم لبعض[3] والأحزاب أيضاً من أموية وخوارج وشيعة فقد كفر بعضهم البعض، وما دامت الزندقة كفراً أو ضرباً من ضروب الكفر. فالخارج عن سياسة الآخرين كافر زنديق. يقول أعشى همدان في الحجاج بعد قضائه على ثورة عبد الرحمن بن الأشعث:

أبى الله إلا أن يُتَمِّمَ نورَه	ويُطفئَ نارَ الفاسقين فتَخْمُدَا
ويُنزلَ ذُلاً بالعراق وأهله	لما نَقَضُوا العهدَ الوثيقَ المؤكَّدا
وما أحدثوا من بدعةٍ وعظيمةٍ	من القولِ لم تَصْعَدْ إلى الله مَصْعَدا
فقتلاهُمُ قَتْلَى ضلالٍ وفتنةٍ	وحيُّهُمُ أمسى ذليلاً مُطَرَّدا[4]

ويقول كعب الأشعري في المهلب اثناء انتصاراته على الأزارقة في «كرمان»:

لولا المهلَّبُ للجيش الذي وَرَدُوا	أنهارَ كيرمان بعد الله ما صَدَرُوا
إنا اعتصَمْنا بحبلِ الله إذ جحدوا	بالمحكماتِ ولم نكفُرْ كما كفروا
جاروا عن القَصْدِ والإسلام واتبَّعوا	ديناً يخالف ما جاءَت به النُّذُرُ[5]

ومن خلال السياسة نرى الحق الإلهي للسلطان ومن جاوز هذا الحق فهو مارق وزنديق. ونستخلص هذا الحق الإلهي من خطبة زياد والي معاوية على البصرة حيث يقول: **«أيها الناس، إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة،**

---

(1) الفهرست ص445 ـ 446.

(2) تاريخ الطبري 8/ 190 وما بعد .

(3) المصدر 8/ 136 وما بعد .

(4) تاريخ الطبري 6/ 376.

(5) المصدر 6/ 308.

نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا، ونزود عنكم بفيء الله الذي خولنا»[1].

لقد كانت صورة الخليفة الأموي في رأي حزبه صورة مقدسة، فهو الإمام الذي تجب طاعته، لأن طاعته من طاعة الله، وطاعة خصومه من طاعة الشيطان. يشهد على ذلك الطبري إذ يقول: **«لما توفي يزيد بن معاوية ودعا ابن الزبير لنفسه، قام حسان بن مالك بالأردن فقال: (يا أهل الأردن، ما شهادتكم على ابن الزبير وعلى قتلى أهل الحرة؟ قالوا: نشهد أن ابن الزبير منافق وأن قتلى أهل الحرة في النار، قال: فما شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلاكم بالحرة؟ قالوا: نشهد أن يزيد على الحق وأن قتلانا في الجنة)»**[2].

كما تقدم يمكننا القول أن المعنى الاصطلاحي للزندقة قد كثر وتشعب وتعددت الآراء فيه، وفهمته العامة غير ما فهمته الخاصة.

وما دامت الزندقة موجودة منذ الجاهلية وقد عاصرت الإسلام في أعصر بحثنا فإننا نراها وقد ولجت عالم الفكر والسياسة والأدب والدين وما يتفرع عن ذلك وهذا ما ستعرض له في الفصول التي تلي.

القسم الثاني
الجذور التاريخية للزندقة

أولاً: جذورها في الجاهلية

بعد أن تطرقنا للأصل اللغوي لكلمة «زندقة» وللمعنى الاصطلاحي لها، وما اعتقدته العامة والخاصة في مدلول الكلمة، يستوقفنا البحث عند الجذور التاريخية للزندقة: فقد اشار بعض الإخباريين إلى اعتقاد بعض

---

(1) الجاحظ (البيان والتبيين 1 ـ 2 ـ 3) تحقيق فوزي عطوي ـ الشركة اللبنانية للكتاب. بيروت لبنان. ص244. فيما بعد البيان والتبيين .

(2) تاريخ الطبري 5/ 539.

قريش بالنور والظلمة، قائلين: إنهم أخذوها من الحيرة[1]، وأنهم (ثنويون - زنادقة)[2] كما أشاروا إلى وجود الزندقة والتعطيل في قريش: «**وكانت الزندقة والتعطيل في قريش**»[3] .ووصفوا الزنديق بالقائل بدوام الدهر وبقائه، ولا يؤمن بالآخرة، فهو والحالة هذه دهري ملحد لا يؤمن بإله واحد، بل هو ثنوي وإلى هذا المعنى في تفسير زندقة قريش ذهب أكثر أهل الأخبار، والذي نريد قوله هو إثبات وجود الزندقة في زمن ما قبل الإسلام. يصف أبو العلاء المعري «شداد بن الأسود الليثي» بأنه شاعر زنادقة قريش لقوله:

ألا من مبلغُ الرحمنَ عني ... بأني تاركٌ شهرَ الصيامِ
إذا ما الرأسُ زايل منكبيه ... فقد شبع الأنيسُ من الطعامِ
أيوعُدنا ابنُ كبشَةَ أن سنحيا؟ ... وكيف حياةُ أصداءٍ وهامِ
أتترك أن تردَّ الموت عني ... وتحييني إذا بليت عظامي[4]

والمتبصر لهذا القول يرى أن قائله لا يعتقد بالبعث والقيامة ويسخر من مدعي ذلك ويرى استحالة هذا الأمر فهو دهري. وربما أشار القرآن إلى معتنقي هذه الفكرة ممن سبق بقوله: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر﴾[5]. إن كلمات القرآن موجهة إلى معاصري (محمد) الذين أخذوا إيمانهم عن آبائهم وأجدادهم من الجاهليين. والذين أطلقت عليهم أسماء زنادقة قريش، وقد عرفنا منهم الكثير مثل: «**أبو سفيان بن حرب، وعقبة بن أبي معيط، وأُبيّ بن خلف الجمحي، والنضر بن الحارث بن كلدة، والعاص بن وائل السهمي، والوليد بن**

---

(1) المعارف، ص621.

(2) اللسان مادة (زندقة) 10/ 147.

(3) المقدسي (المطهر بن طاهر) كتاب البدء والتأريخ، ج4، باريس 1903، ص31. فيما بعد البدء والتأريخ. وبلوغ الأرب 2/ 228. الألوسي .

(4) رسالة الغفران ص211. الشركة اللبنانية. والشاعر هنا يرثي قتلى (بدر) ضد المسلمين .

(5) سورة الجاثية، آية 23.

المغيرة المخزومي»، وقد ذكر محمد بن حبيب أن هؤلاء «تعلموا الزندقة من نصارى الحيرة»[1]. فما هي هذه الزندقة؟ ولماذا ربط هنا بينها وبين (نصارى الحيرة)، وقد ذهب أيضاً (ابن قتيبة) إلى أخذ قريش الزندقة من الحيرة، كما مر معنا سابقاً.

برأيي أن الإخباريين العرب، أو أكثرهم، قد عزوا هذه التعليل لأسباب نذكر منها:

1 ـ لأن الحيرة كانت مملكة عربية ذات صول وطول زمن ما قبل الإسلام. وكان لها روابط قوية مع الفرس ومن بلاد فارس خرجت الزرادشتية والمانوية والمزدكية، وفيما بعد الشعوبية.

2 ـ لأن الحيرة كانت أحد مراكز النصرانية في بلاد العرب، وقد دان شعبها وملوكها بأحد المذاهب المسيحية[2] والذي يخرج عن إيمان الجماعة ومذهب الجدود يعد «زنديقاً».

3 ـ أو لأن الحيرة كانت الجسر الذي عبرت عليه الزندقة من بلاد الفرس إلى دنيا العرب، إذا ما اعتقد بعضهم أن الزندقة مصدرها فارس.

لكن الذي نعرفه عن «زنادقة قريش» أنهم كانوا متمسكين بشدة بعبادة الأصنام، لأن أبا سفيان كان يستصرخ الصنم (هبل) على المسلمين يوم (أحد)، ويناديه: «**أُعْلُ هُبَل، أعل هبل**»[3]، فمن المحتمل إذاً أن تكون زندقتهم على البند الثاني أعلاه، لأن ما نسب إليهم من معارضة (للرسول) يمكن حصره في التقرب إلى الأصنام والتعبد لها، والدفاع عنها بقولهم: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾[4]، أو القول بالدهر والتعطيل ونكران

(1) محمد بن حبيب: المحبر ص161. دار المعارف، مصر وج: علي 6/ 147.

(2) كالمذهب النسطوري واليعقوبي. أنظر الملل والنحل ص64 ـ 65.

(3) اللسان 11/ 688 والأصنام ص28.

(4) سورة الزمر رقم 39 آية 3.

البعث والحشر والنشر. ويتجلى ذلك في قولهم (للرسول): «**إن كنت صادقاً فيما تقول، فابعث لنا جدك (قصي بن كلاب)، حتى نسأله عما كان ويحدث بعد الموت**»[1]. فعبادتهم للأصنام لتكون وسيطة وشفيعة لهم عند الله، ونكرانهم للبعث والنشور، ربما هو الذي دعا بعض الإخباريين للقول أن قريشاً أخذت زندقتها من الحيرة. لأن الحيرة نصرانية والنصارى في أكثر طوائفهم يشفعون القديسين والأولياء عند الله ويؤمن بعضهم ـ ومن المحتمل أن يكون نصارى الحيرة من هذا البعض ـ بقيامة وخلود الأرواح لا الأجسام.

إن الشاعر أوس بن حجر يصور لنا مدى وساطة وشفاعة الأصنام عند عرب ما قبل الإسلام عندما يقسم باللات والعزى وهما صنمان معروفان معبودان في الجاهلية بقوله[2]:

وباللات والعُزى ومن دان دينَها   وبالله، إن الله منهن أكبرُ[3]

ونفهم من قول ابن الكلبي، أن نزاراً كانت تقول إذا ما أهلّت ،

لبَّيك اللهم! لبَّيك!

لبَّيك! لا شريك لك!   إلا شريك هو لك!

تملكه وما ملك![4]

نفهم أنهم يوحدونه بالتلبية، ويدخلون آلهتهم من الأصنام معه كوسطاء وشفعاء، ويجعلون ملكها بيده، وربما فسر البعض أن هذه العبادة «ثنوية» والثنوية هي إحدى المعاني الاصطلاحية للزندقة كما بينا في الفصل الأول من هذا الباب. يقول ابن الجوزي البغدادي: «واعلم أن الأنبياء جاءوا بالبيان الكامل وتوافقوا على منهاج لا يختلف، فأقبل الشيطان يخلط بالبيان شبهاً وبالدواء سما .. وما زال يلعب بالعقول إلى أن فرّق الجاهلية

(1) مروج الذهب 2/ 126. ذكر ديانات العرب وآرائها في الجاهلية .

(2) داود ص300 ـ 301.

(3) أصنام، ص17.

(4) المصدر نفسه، ص7.

في مذاهب سخيفة، وبدع قبيحة، فأصبحوا يعبدون الأصنام في البيت الحرام»[1]، وكأني به يشير إلى الزندقة العلمية ويثبت وجودها في ما قبل الإسلام.

الزندقة إذاً كانت في الجاهلية بضروبها المختلفة، كانت هناك الثنوية كما أسلفنا، ثنوية التوحيد والشرك، الإيمان بالله والاعتقاد بالأوثان «لتقربهم إلى الله زلفى» وكانت هناك الزندقة العلمية ووجودها ناشئ عن اختلاط العرب بالهنود والفرس وغيرهم من الأعاجم[2]، حيث بدأت المعارف والعلوم والعادات والتقاليد والإيمان يمازج بعضها بعضاً، ويتأثر بها هذا وذاك حتى شاب العرب ـ والمسلمين فيما بعد ـ شوائب كثيرة فتزندق البعض وزهد الآخر ليرد على زندقته[3]...

وابن حزم يشير إلى بعض إيمان العرب، حيث يقول: إن النصرانية كانت في كل إياد وربيعة وبكر وتغلب وغسان وتنوخ، وكل من سكن الحيرة من تميم ولخم وغيرهم. واليهودية في حمير وكندة. والمجوسية قد ظهرت في بعض تميم، كما كانت «خثعم» لا تدين بشيء[4]. فهذا الاختلاط الديني والمزج الإيماني الذي نتج عن المزج البشري أوجد زندقة الجاهلية في بعض وجوهها.

فمن مذاهب الهند، على سبيل المثال، التي وصلت إلى العرب مذهب «السُمَنِيَّة»[5] الذي انتشر في خراسان وفارس والعراق والموصل إلى بلاد الشام[6]، وبقي هذا المذهب القائل بالتناسخ متواتراً منذ الجاهلية حتى

---

(1) تلبيس إبليس، ص3.

(2) أنظر الفصل الأول من هذا البحث .

(3) شوقي ضيف (الفن ومذاهبه في الشعر العربي) دار المعارف، مصر، الطبعة التاسعة ص109. فيما بعد: الفن ومذاهبه .

(4) جمهرة أنساب، ص491.

(5) نسبة إلى «سومنات» وهو اسم صنم كان في الهند. ضحى الإسلام 1/ 241.

(6) ضحى الإسلام 1/ 241.

عهد بني العباس وعرف من أتباعه في البصرة كثيرون[1]، أشهرهم «جرير بن حازم الأزدي».

وفي أحدهم يقول بشار بن برد:

قلت عبد الكريم يا ابن أبي العو	جاء بِغْتَ الإسلام بالكفر مُوقا
لا تصلي ولا تصوم فإن صُمْـ	تَ فبعضَ النهار صوماً رقيقا
ليت شعري غداة حُلِّيتَ في الجيـ	دِ حنيفاً حُلِّيت أم زنديقا
أنت ممَّن يدورُ في لعنةَ الله	صديق لمن (. . .) صديقا[2]

ومن مذاهب الفرس التي انساحت في دنيا العرب منذ الجاهلية وتواترت حتى الأعصر الإسلامية مدار بحثنا: المانوية والمزدكية والصابئة.

المانوية : وتنسب إلى ماني الذي أظهر أول أمره النصرانية ورفض اليهودية والمجوسية والوثنية، ثم مرق من الدين وسمى نفسه «مسيحاً» وزعم أن للعالم إلهين أحدهما خير والآخر شر، وكان يقول بالتناسخ ويفرط في تمجيد النار مقتبساً ذلك من الفرس[3].

وبما أن الزندقة أطلقت على معانٍ مختلفة ومنها المانوية، التي يحتمل أن تكون قد أطلت برأسها على الحيرة مصدرة الزندقة إلى قبائل العرب[4]، وصلة الاتصال بين عرب الجاهلية وسكان فارس، فإنها قد ولجت باب الجزيرة وانضمت إلى باقي اعتقادات الناس وبقيت في أذهان

---

(1) منهم من آمن بالتناسخ كعمرو بن عبيد وواصل بن عطاء ثم صارا إلى الاعتزال. ومنهم من آمن ثم تاب كعبد الكريم بن أبي العوجاء وصالح بن عبد القدوس. ومنهم من بقي مخلطاً بينه وبين الإسلام كبشار الأعمى. أغاني 3/ 24.

(2) أغاني 3/ 24. وقد أهملت كلمة أشرت إليها بـ (. . .) لأنها بذيئة يمجها الذوق السليم.

(3) عرف على زمن هرمز ملك فارس وقتل على زمن سابور أوبهرام بن هرمز (ابن العبري غريغوريوس الملطي). تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1958. ص76 ـ 77. فيما بعد ابن العبري. وقيل أنه ظهر في زمن سابور وقتله بهرام بن هرمز بن سابور ملل ونحل 2/ 81.

(4) المعارف (ابن قتيبة) 621.

بعضهم حتى زمن بني أمية[1] وبني العباس الذين جردوا لأتباعها السيف. وهذا ما نراه لاحقاً.

المزدكية : وتنسب إلى «مزدك» الذي قال أيضاً كالمانوية في الكونين والأصلين والإلهين، ولكنه عارضها بحله النساء وإباحته الأموال، وجعل الناس شركة فيها كي تتوقف المخالفة والمباغضة والقتال بسببها[2].

ويروي ابن الأثير أن ملك الفرس «قباذ» بعد أن استجاب لدعوة مزدك كتب إلى «المنذر بن ماء السماء» ملك الحيرة، طالباً منه الدخول في مذهب مزدك وزندقته، فامتنع المنذر، فاغتاظ قباذ منه وعزله وعين مكانه «الحارث الكندي» بعد أن أجابه إلى دعوته، ثم انتشر بعد ذلك ولده فملكوا على بكر وتميم وقيس وتغلب وأسد[3]، وأشهر هؤلاء الأولاد حجر والد الشاعر امرئ القيس أمير شعراء الجاهلية[4].

فإذا كانت المزدكية زندقة بنظر بعضهم كما أسلفنا فإن جذور هذه الزندقة قد ترسخت بين قبائل العرب منذ الجاهلية.

الصابئة : جاء في اللسان: أن الصابئين قوم يزعمون أنهم على دين نوح، بكذبهم، أو قوم من أهل الكتاب، وقبلتهم من مهب الشمال، أو نحو مهب الجنوب، وهم كاذبون. وكان يقال للرجل إذا أسلم في زمن (الرسول) قد (صبأ)، عنوا أنه خرج من دين إلى دين، وكانت العرب تسمي (النبي) الصابئي، لأنه خرج من دين قريش إلى دين الإسلام[5].

ويقول: سراقة بن عوف بن الأحوص: في لبيد بن ربيعة عندما أرسله

---

(1) الفهرست ص472.

(2) ملل ونحل 2/ 86. ومروج 1/ 263 والفهرست ص479.

(3) الكامل في التاريخ 1/ 243 و 1/ 305.

(4) أغاني 8/ 62.

(5) اللسان 1/ 107 ـ 108 مادة صبأ. وأنظر الفهرست ص442 وما بعد .

قومه بنو عامر إلى (الرسول) ليعلم خبره فعاد، بعد أن أسلم، يذكر لقومه البعث والجنة والنار:

لعمر لبيد أنه لابن أمه	ولكن أبوه مسّه قدم العهد
دفعناك في أرض الحجاز كأنما	دفعناك فحلاً فوقه قرع اللبد
وجئت بدين الصابئين تشوبه	بالواح نجد بعد عهدك من عهد
وإن لنا داراً زعمت ومرجعاً	وثمَّ ايابُ القارظين وذي البرد[1]

فإننا نرى قوم لبيد وقد وصفوا دين (محمد) بدين الصابئين، وربما كان ذلك لخروج (محمد) عن دين قريش.

إن القرآن يذكر الصابئين[2]، مما يشير إلى وجودهم في دنيا العرب. والذي ينتحل نحلة أو ملة غير ما آمن به الآباء، أو غير ملة الجماعة يرمى بالزندقة. هذا إذا اعتبرنا أن كل خارج عن دين الجماعة صابئاً وكل صابئ «زنديقاً» وهذا محال.

وإذا ما كانت الزندقة متجذرة في العصر الجاهلي فقد استمرت وتواترت في صدر الإسلام وحتى الأعصر العباسية، وإن تغيرت ألوان ردائها بعض الشيء من عصر إلى عصر، تأثراً بالبيئة الجديدة من حيث المقام والمعارف والعلوم وتباين اللغات والأديان، وامتزاج الشعوب والأمم في البلدان المفتوحة والمغلوبة، ومن حيث سياسة الحكام اللينة حيناً والشديدة أحياناً تجاه العرب والعجم ...

ثانياً: جذور الزندقة في صدر الإسلام وعصر بني أمية

مات (الرسول ﷺ) فوقع الخلاف بين الصحابة على أمور ثلاثة:

1 ـ أول خلاف كان في موته، فزعم قوم أنه لم يمت، بل رفعه الله إليه.

---

(1) أغاني 15/ 138.

(2) المائدة: آية 69. والبقرة. آية: 63. والحج: آية 17.

2 ـ والثاني في دفنه، فقد أراد أهل مكة حمله إلى مسقط رأسه ودفنه هناك. أما أهل المدينة فأصروا على دفنه في يثرب.

3 ـ والثالث في الإمامة، لمن تكون من بعده. فأذعنت الأنصار لسعد بالبيعة، وقريش قالت: إن الإمامة لا تكون إلا فيها. وقد فتح هذا الخلاف باباً ولجه المبتدعون والزنادقة وأدخلوا الشكوك على بعض الأفراد، وسنوا طرقاً مضلة وزخرفوها بأقاويل وحجج، ودعوا الناس إليها[1].

ولم يكد الرسول يفارق هذا العالم حتى عادت نار العصبية واشتعلت من جديد وبثوب جديد، تتلّون بين طائفتين من العرب المسلمين، هما: المهاجرون والأنصار، واستلم الإمامة زعيم المهاجرين: أبو بكر، فانبرى الشاعر «أبو عبرة القرشي» يستبشر بهذه البيعة، منددا بتطلع الأنصار، ومعبراً عن غبطة قريش بالخلافة، يقول:

شكراً لمن هو بالثناء حقيقُ ذهب اللَّجاجُ وبويع الصِّدِّيقُ
من بعدِ ما زلَّت بسعدٍ نعلُه ورجا رجاءً دونه العيُّوقُ
إن الخلافةَ في قريشٍ ما لكم؟ فيها وربِّ محمدٍ معروقُ[2]

لكن الأنصار وقد آلمهم ذلك وهم من نصروا الرسول، فقد تحسروا على صنيعهم الذي ضاع بلسان شاعرهم حسان بن ثابت:

نصرنا وآوينا النبي ولم نَخَفْ صروفَ الليالي والبلاءُ على رِجْلِ
بذَلْنا لهم أنصافَ مالِ أكفِّنا كقسمة أيسارِ الجَزُور من الفضلِ
فكان جزاءُ الفضل منا عليهمُ جهالتَهم حُمْقاً وما ذاك بالعدلِ[3]

واحتدم اللجاج بين شعراء الفريقين، فعمرو بن العاص يتهكم بتطلع

(1) تلبيس إبليس، ص15 ـ 16. الهامش.
(2) شرح نهج البلاغة 6/ 8. سعد: هو أبو عبادة أحد الأنصار الذين كانوا يريدون الخلافة. العيوق: نجم: معروق: نصيب قليل.
(3) المصدر نفسه 6/ 10.

الأنصار إلى الخلافة، ومالك بن العجلان يرد عليه. وهكذا[1] حتى تطور هذا اللجاج وتشعب خصوصاً بعد مقتل عثمان وظهور «الخلافتين»[2] في دنيا العرب، وخروج طلحة والزبير عن بيعتهما لعلي بن أبي طالب، وانضمام السيدة عائشة إليهما، لقتاله في موقعة الجمل. وتفرق العرب في أحزاب وفرق وشيع، وعادت العصبية القبلية لتنمو وتتسع وتفوق عصبية الجاهليين، ودارت الاتهامات السياسية الحزبية[3]، دورتها في أرجاء البلاد الخاضعة لحكم العرب، واشتد الصراع بين العرب من جهة، والعجم[4] من جهة ثانية.

وبما أن الاتهامات السياسية والحزبية وما يتفرع عنها ينتج منها ضرب من ضروب الزندقة تضاف إلى باقي الأنواع الأخرى، كما أسلفنا، فإن الزندقة استمرت تشق طريقها، إن بين عرب الأمويين أو بين مواليهم.

والحقيقة أن كل حزب سياسي كان عند المسلمين مذهباً دينياً لعدم تمييز الدنيا والدين في أمور الحكومة على أحكام الشريعة الإسلامية[5]، وهكذا نرى الزندقة في العصر الأموي قد استترت تارة وراء الصراع العربي العربي وطوراً بين العرب والموالي، واقتصرت مظاهرها على شاعر يتغنى بأمجاد ساسان، وآخر يبشر بالمانوية، وكاتب ينقل تراث الفرس القدماء في الحضارة والدين[6].

لقد كان عبد الصمد بن عبد الأعلى، مربي الخليفة الأموي الوليد بن

---

(1) المصدر نفسه 6/ 10 ـ 15.

(2) خلافة علي ابن أبي طالب، وخلافة معاوية ابن أبي سفيان .

(3) الحزب الأموي، والحزب الهاشمي (العلوي) والحزب الزبيري، حيث ظهرت في هذه الفترة خلافة «ابن الزبير».

(4) ما سمتهم المصادر العربية بـ «الموالي».

(5) ناللينو. ص226.

(6) د. عبد العزيز الدوري (الجذور التاريخية للشعوبية) دار الطليعة، بيروت، ط ثانية، ص13، فيما بعد الدوري .

يزيد بن عبد الملك ومؤدبه زنديقاً[1] كما كان الجعد بن درهم، مربي مروان بن محمد، آخر الخلفاء الأمويين زنديقاً. ويرى ابن النديم[2]، أن الجعد أدخل مروان وولده في الزندقة. وأُعدم الجعد هذا في عهد الخليفة هشام بن عبد الملك على يد خالد بن عبد الله القسري.

ومما يثبت تأصل الزندقة في عصر بني أمية، أن أكثر الزنادقة المشهورين زمن بني العباس[3]، كانوا من مخضرمي الدولتين، الأموية والعباسية. ومن هؤلاء: الحمادون الثلاثة، وقد اجمعت المصادر على اتهامهم بالزندقة[4]، ويونس بن أبي فروة، وعمارة بن حمزة، ومطيع ابن إياس، وابن المقفع[5]. الذي عاصر أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي، وقال عنه الخليفة العباسي المهدي: «ما وجدت كتاب زندقة، إلا وأصله ابن المقفع»[6]. وربما كان هذا القول لأن ابن المقفع قام بترجمة الكثير من آثار الفرس والهند إلى العربية، ومنه كتب ماني وابن ديصان ومرقيون من الفارسية إلى العربية[7].

ويمكننا، بعد أن ذكرنا أسباباً لتفشي الزندقة في العصر الأموي، أن نجمل العوامل التي ساعدت على ذلك. ومنها:

1 ـ سخط العاجم، وجلهم من الفرس، وتعصبهم ضد العرب عامة والدولة الأموية بخاصة واتخاذ الزندقة وسيلة من وسائل هذا السخط.

---

(1) أغاني 6/ 101.
(2) الفهرست 472.
(3) سنتحدث عنهم لاحقاً وبإسهاب وهم: حماد الراوية، وحماد عجرد، وحماد ابن الزرقان.
(4) أغاني 5/ 164. الجاحظ: الحيوان 4/ 443.
(5) أمالي المرتضى. 1/ 134.
(6) القالي (أبو علي إسماعيل بن القاسم (البغدادي) «الأمالي» جزءان ـ دار الكتب المصرية 1344هـ / 1926م. فيما بعد أمالي القالي. ج1، ص134.
(7) أغاني 12/ 87. مطبعة التقدم بالقاهرة .

2 ـ اعتزاز الأعاجم بقومياتهم وعلومهم وآدابهم ومعتقداتهم التي كانت «زندقة» بنظر العرب المسلمين.

3 ـ تعصب بني أمية لعربيتهم واتباعهم سياسة التعريب، مما أثار حفيظة الشعوب المغلوبة (الموالي)، ودفعهم إلى التعصب لقومياتهم وما تحويه من معتقدات.

4 ـ اعتماد الثائرين على بني أمية، على (الموالي) مما أشعر هؤلاء بأهميتهم ونمى فيهم شعور العداء للعرب وديانتهم.

5 ـ احتفاظ بعض أبناء القوميات[1] بمعتقداتهم القديمة، وإن تظاهروا بالإسلام، مما ساعد على نمو الزندقة وانتشارها.

6 ـ الصراع السياسي والفكري بين الفرق الدينية والأحزاب السياسية «العائلية» وتنافسها على ضم غير العرب إليها، وتطوير مبادئها، بحيث تتلاءم وأفكار ومعتقدات هؤلاء. وهذا ما سبب بتفرق أبناء الإسلام إلى فرق وشيع، فيما بعد، فاق عددها العشرات[2] وساعد كثيراً في تسريب الزندقة بمختلف أنواعها إلى أفكار الناس، حتى وصلت إلى دار الخلفاء ورمي بها بعضهم كما ذكرنا آنفاً.

تميزت الفترة الأخيرة من العصر الأموي بصراع الأحزاب السياسية والفرق الدينية، وظهرت روح الزندقة واضحة بين ثنايا وآراء وعقائد هذه الأحزاب والفرق. فكانت هناك جماعات الخوارج والمرجئة وغيرهم.

تسلل إلى عقائد الخوارج كثير من التعاليم المجوسية والآراء التي

---

(1) غير العربية .

(2) أنظر الملل والنحل 1/ 40 وما بعد والجزء الثاني بأكمله وأنظر الفرق الإسلامية في الشعر الأموي. د. النعمان القاضي. دار المعارف بمصر، ص89 وما بعد. فيما بعد. الفرق الإسلامية. وأنظر الفرق بين الفرق لـ عبد القاهر البغدادي. دار المعرفة. بيروت ص12 وما بعد. فيما بعد الفرق بين الفرق .

تتضح فيها الزندقة[1]. وظهر هذا واضحاً في آراء ميمون بن عمران والضحاك، وهما من أبرز علماء الخوارج الأزارقة. وقد أباح ميمون هذا لأتباعه زواج بنات البنات وبنات البنين، وفقاً للتعاليم المجوسية ومخالفة لتعاليم الإسلام[2]. أما الضحاك فقد أجاز للمسلمات أن يتزوجن سراً من بني قومهم من الكفار، والإسلام يمنع زواج المسلمة بالمشرك[3].

أما المرجئة فقد أعلن فيهم «جهم بن صفوان» أنه مباح للشخص أن يدعي الإسلام سراً، ويعلن اعتناقه أي مذهب آخر من المذاهب المجوسية أو الوثنية، وانتشرت هذه التعاليم المتسمة بالزندقة في خراسان وفارس، وجعلت بعض أهلها يتحللون من الفرائض الإسلامية كالصلاة والصوم والزكاة وغيرها، مكتفين بإضمار الإسلام[4].

وأدرك نصر بن سيار الحاكم الأموي بخراسان خطورة هذه الزندقة المتسترة بالدعوة لبني العباس، وأبدى ألمه إذ رأى البيت الأموي منقسماً على نفسه، وصاغ تحذيره لبني أمية بأبيات شعر ينذرهم فيها بضياع ملكهم، موضحاً الخطر الذي يهدد الإسلام والعرب على السواء، يقول:

أرى بين الرماد وميض جمر ... ويوشك أن يكون له ضرامُ
أقول من التعجب ليت شعري ... أأيقاظٌ أميَّةُ أم نيامُ
فإن يكُ قومُنا أضحوا نياما ... فقل قوموا فقد حان القيامُ
فقرِّي عن رحالِك ثم قولي ... على الإسلامِ والعربِ السلامُ[5]

ثم ترى (نصراً) هذا ينشد أبياتاً يستحث فيها همم العرب على عدو

---

(1) خاصة فرقة الأزارقة منهم: الفرق بين الفرق، ص84.

(2) المصدر نفسه، ص280.

(3) سميرة مختار الليثي (الزندقة والشعوبية). مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة 1968. ص 57. فيما بعد الليثي.

(4) الفرق بين الفرق، ص211. والليثي، ص57.

(5) الدينوري (أحمد بن داود أبو حنيفة): الأخبار الطوال. ليدن 1888، ص312. فيما بعد. الأخبار الطوال.

لا دين له وقد انضم إلى العدو أقوام تحت ستار الدعوة لبني العباس يدينون بأديان لم يسمع هو بها عن (الرسول) ولا توافق ما جاء في الكتب السماوية، وليست عقيدة هؤلاء الناس وهدفهم سوى (قتل العرب) يقول:

أبلغْ ربيعةَ في مَرْوٍ وأخوتَها	أن يغضبوا قبل ألا ينفعَ الغضبُ
ما بالكم تلفحون الحرب بينكم	كأن أهلَ الحِجى عن فعلكم غِيَبُ
وتتركون عدوّاً قد أضلكم	ممّن تأشَّب لا دينٌ ولا حَسَبُ
ليسوا إلى عرب منا، فتعرفهم	ولا صميم الموالي، إن هم نُسبوا
قوماً يدينون ديناً ما سمعت به	عن الرسولِ، ولا جاءتِ به الكتبُ
فمن يكن سائلي عن أصلِ دينهم	فإنَ دينَهم أن تُقتلَ العربُ[1]

إن الشاعر والحاكم الأموي، بشعره هذا تراه يدعو إلى وحدة القبائل، وكأن أمراً جللاً سيحدث، في وجه عدو ليس عربياً، وليس موالياً ـ وهذا تقسيم عرقي، كان سبباً في ازدهار الزندقة ـ لا حسب لهذا العدو ولا يؤمن إيمان أهل السماء. وهمه قتل العرب، ربما لأنهم أتوا بدين يخالف دينه ويكاد يقضي عليه.

وكون هذا العدو لا يؤمن بأديان السماء كما أشار الشاعر، فما هو إيمانه؟ وما هي ديانته؟

بالواقع أنه لم يسم لنا ماهية هذه العقيدة، وربما ألمح إلى عقائد الفرس القديمة[2]، التي يفخر العرب بمحوها من قبل الإسلام، ويحاول الفرس العودة إليها لإظهار مناقبهم، والوقوف بوجه العنصر العربي الحاكم. واشتد أوار هذا الصراع الديني، الاجتماعي، والفكري في كل أزمنة الدولة العباسية، صراع العرب مع العرب وقد هدأ بعض الشيء عما كان عليه زمن الأمويين، وصراع العرب والعجم[3]، وقد اشتد وعنف وعادت

---

(1) المصدر نفسه. ص343.

(2) مثل الزرادشتية والمجوسية وما تفرع عنهما، وصولاً إلى الزندقة .

(3) وخاصة الفرس وقد أسمتهم المصادر العربية «الموالي» كما رأينا سابقاً .

المعتقدات القديمة لتظهر بقوة واتهم اصحابها بالزندقة، ولوحقوا، وقتل أكثرهم لألف سبب وسبب. وهذا ما سنبحثه في الباب الثالث عند تكلمنا عن مراحل الزندقة.

ومن البديهي ونحن نستعرض الجذور التاريخية للزندقة، وقد عبرنا العصر الجاهلي، وعصري: صدر الإسلام وبني أمية، يستوقفنا البحث على جذورها في العصر العباسي.

ثالثاً: جذور الزندقة في العصر العباسي الأول

من المعلوم أن المانوية كانت تحمل اسم «الزندقة» في العهد الساساني[1] ثم شمل هذا الاصطلاح المزدكية وقد استعمله العرب بعدما وجدوه مستعملاً باللغتين الفارسية والأرامية في العراق، للدلالة على الديانات الإيرانية المنشقة عن الزرادشتية. وقد شهد العراق الجنوبي نشاطاً دينياً ملحوظاً للمانوية بعد تحريره من النفوذ الساساني[2].

واتسع معنى الزندقة منذ النصف الثاني من القرن الثاني الهجري فشمل إضافة لأتباع الديانة (الثنوية) كل مسلم منشق أو ملحد أو متكلم أو متحرر شكاك أو معارض للسلطة العباسية. ولعل هذا التعميم كان السبب في تخبط الكثيرين في تعريف الزندقة أو التفريق بين الزنادقة الحقيقيين وبين غيرهم من حملة الأفكار التي لا تستسيغها السلطة العباسية.

من المتفق عليه أن حركة الزندقة زمن بني العباس، كانت تنظيماً فكرياً صلباً، ذا منهج دقيق تمركز في العراق والأقاليم الشرقية وتستر بالإسلام.

---

(1) صديقي (الحركات الدينية ـ السياسية في إيران) باريس 1938 ص84 ـ 85. فيما بعد صديقي .

(2) د. فاروق عمر (العباسيون الأوائل)، الجزء الثاني، دمشق 1973، (فصل السياسة الدينية). فيما بعد العباسيون الأوائل .

وقد أدت الرفاهية الاقتصادية والاستقرار السياسي النسبي، وأثر الثقافات الأجنبية، وتساهل السلطة مع العقائد المختلفة، إلى نوع من التحلل الحضاري واصطراع الأفكار في المجتمع. فكان أن ظهرت جماعات أو حلقات من الكتاب والشعراء والمفكرين المعجبين بحضارة «ساسان» ومُثُلِها، وكان من أهداف هذه الحلقات إحياء النظم «الفارسية» ومذاهبها، ومنها المانوية[1].

لقد حاول بعضهم وضع كتاب يشبه (القرآن) وطعنوا بالرسالة، وقد ذهب (ابن الراوندي) إلى أن معجزات الأنبياء ما هي إلا مخاريق ومن عمل السحرة[2]، والذي ينظر إلى من تصدى لحركة الزندقة من الكتاب يرى مدى انتشار هذه العقيدة في المجتمع العباسي[3]، كما كان وراءها الخلفاء أنفسهم، والمهم أن نذكر ما قاله اليعقوبي عن «المهدي» عندما بدأ حملة منظمة لمحاربة أهل البدع والزندقة: «كان قصده قتل الزنادقة وذلك أنهم كانوا قد كثروا. و مما كان ابن المقفع ترجمه من كتب ماني الثنوي، وكتب ابن ديصان الثنوي وغيرهما. وما وصفه ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس وملأوا به الأرض من كتب الملحدين. وكثرت الزنادقة وفشت كتبهم في الناس، وكان أول خليفة أمر المتكلمين أن يضعوا الكتب على أهل الإلحاد»[4].

ويؤيد المسعودي ذلك بقوله:

«أمعن المهدي في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين لظهورهم في أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته ... وكان المهدي أول من أمر أهل

---

(1) فاروق عمر (التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين) مؤسسة المطبوعات العربية، بيروت 1980، ص131. فيما بعد التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين .

(2) المصدر نفسه .

(3) العباسيون الأول 2/ 140 وما بعد .

(4) اليعقوبي (تاريخ) دار صادر، بيروت، الجزء الثاني، ص400 وما بعد. فيما بعد اليعقوبي.

البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب في الرد على الملحدين ... فأقاموا البراهين على المعاندين وأوضحوا الحق للشاكرين»[1].

إن المهدي أنشأ من أجل هذه الغاية ديواناً سماه (ديوان الزنادقة) واستمر هذا الديوان بعملية تعقب الزنادقة وبصورة منتظمة حتى أيام المأمون[2]، مما يدل على سريان هذا المعتقد وبصورة واسعة في المجتمع العباسي وتأثيره على المجتمع وخوف الخلفاء، ربما الخوف الديني، وربما السياسي، من استفحال هذا الأمر، لأن الثقافة الآرامية ـ الفارسية القديمة في العراق ـ مركز المانوية ـ كانت لا تزال تحمل ذلك الضرب من التفكير الحر الذي عرف بالزندقة، ولم يتضح في استمرار وجود الأفكار الثنوية في الدين فحسب، بل تجلى بصورة أوضح في الاستشهاد والاستخفاف بجميع المذاهب الخلقية وعرف باسم المجون[3].

وسواء كانت الزندقة خلال مسيرتها الطويلة ـ منذ الجاهلية حتى العصر العباسي ـ مذهباً مانوياً أو مزدكياً أو زرادشتياً، أو اعتقاداً لطائفة من الشكاك والدهريين أو الجاحدين الأديان كلها، أو وسيلة من وسائل العبث والمجون، فإنها شغلت حيزاً رئيساً في الفكر الديني ـ السياسي في كل هذه الأعصر وعلى الخصوص في العصر العباسي، وكان لها أثرها العميق في المجتمع بما أصدرته من صراع فكري أثر في معتقدات الناس وبالتالي في قيمهم وحضارتهم.

(1) التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، ص135.

(2) مروج الذهب 4/ 9.

(3) جب (هاملتون) دراسات في حضارة الإسلام ـ دار العلم للملايين. بيروت 1979. ص91 ـ 92. فيما بعد: جب .

القسم الثالث

المؤرخون القدماء والمحدثون للزندقة

أ ـ المؤرخون القدماء

1 ـ المسعودي: عرف المسعودي الزنديق بأنه الشخص الذي ترك الكتاب المقدس في الزرادشتية وهو (الأفستا)، واتبع (الزند). وكان الزند بياناً لتأويل المتقدم المنزل. والذي يورد شيئاً بخلاف المنزل، ويعدل إلى التأويل الذي هو الزند يقال عنه «زندي»[1].

ويضيف المسعودي:

«وفي أيام سابور بن أردشير»[2] ظهر ماني[3] وقال بالاثنين، فرجع سابور عن المجوسية إلى مذهب ماني والقول بالنور والبراءة من الظلمة، ثم عاد بعد ذلك إلى دين المجوسية، وفي أيام ماني هذا ظهر اسم الزندقة[4]، الذي أضيف إليه الزنادقة ... الذين انحرفوا عن «الافستا» إلى «الزند» أي انحرفوا عن الظواهر من المنزل إلى تأويل، هو بخلاف التنزيل، فلما أن جاءت العرب أخذت هذا المعنى من الفرس، وقالوا: زنديق، وعربوه، والثنوية هم الزنادقة ولحق بهؤلاء سائر من اعتقد القدم، وأبى حدوث العالم»[5].

وما يهمنا من كلام المعسودي أن الزندقة موجودة قبل الإسلام، وأن الزنديق هو المنحرف عن الدين القويم ـ سماوياً كان هذا الدين أم أرضياً ـ

---

(1) جب (هاملتون) دراسات في حضارة الإسلام ـ دار العلم للملايين ـ بيروت 1979. ص91 ـ 92. فيما بعد جب .

(2) أحد ملوك الفرس من الأسرة الساسانية. مروج 1/ 249.

(3) قتلة بهرام بن هرمز بن سابور بن أردشير ملك فارس. مروج 1/ 250.

(4) ربما نسبت إلى متبعي «الزند».

(5) مروج 1/ 250 ـ 251.

والعرب عرفو ا الزندقة من الفرس، والزنادقة هم الثانويون ومن اعتقد القدم ورفض خلق العالم.

2 ـ ابن قتيبة : يشير ابن قتيبة إلى أن الزندقة انتشرت بين نفر من قريش قبل الإسلام، فيقول: «وكانت الزندقة في قريش أخذوها من الحيرة»[1].

وما دام هناك زندقة قبل الإسلام وفي قريش نفسها فمن المعقول جداً أن تكون قد تسربت إلى أكثر قبائل العرب وإلى أكثر أماكنهم أيضاً ... لأنه من المعروف والمشهور أن مكانة عظمى كانت لقريش قبل الإسلام وبعده.

ولكن السؤال المطروح عن نوعية هذه الزندقة أهي مانوية ثنوية كالتي ذكرها المسعودي، أم غير ذلك؟

إن نظرة ثابتة فاحصة لكلام ابن الأثير عن علاقة الفرس بالحيرة، تظهر بوضوح أن هذه الزندقة هي «المزدكية» يقول بان الأثير: «أن الملك قباذ[2]، طلب من ملك الحيرة المنذر بن ماء السماء الدخول في مذهب مزدك وزندقته، فامتنع المنذر، فاغتاظ قباذ منه وعزله ووضع مكانه، الحارث الكندي، ملكاً على الحيرة بعد أن أجابه إلى دعوته[3]، وانتشر بعد ذلك ولده فملكوا على بكر وتميم وقيس وتغلب وأسد»[4]، وأشهر هؤلاء الأولاد «حجر» والد أمير شعراء الجاهلية «امرئ القيس» حيث ملك على بني أسد، فقتلوه، وهو الملقب بآكل المرار[5].

وعندما يجيب الحارث الكندي، دعوة ملك الفرس للدخول في مذهب مزدك ويتملك أبناء هذا الكندي على قبائل كثيرة فمن المرجح أن

---

(1) المعارف 621.

(2) قباذ بن فيروز من الأسرة الساسانية، في أيامه ظهر مزدك الزنديق. مروج 1/ 263.

(3) الكامل في التاريخ 1/ 243.

(4) المصدر نفسه 1/ 305.

(5) أغاني 8/ 62.

تكون المزدكية قد تسربت إلى عقيدة أناس كثيرين، وأن تكون الزندقة التي وصلت إلى قريش عن طريق الحيرة زندقة مزدكية.

3 ـ **الجاحظ** : يجد الجاحظ تفسيراً أعمق لهذه الحركة الدينية ـ الفكرية ـ الاجتماعية ذلك أنه يربط الزندقة بالشعوبية[1]، من حيث طبيعتهما وأهدافهما المعادية للتراث العربي والقيم العربية الإسلامية، حين يقول: «فإنما عامة من ارتاب بالإسلام إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام إذ كانت العرب هي التي جاءت به وكانوا السلف»[2]، ويرى الجاحظ أن مثل هذه الشعوبية تؤدي إلى الزندقة في مثل قوله: «ثم أنك لم تر قوماً أشقى من هؤلاء الشعوبية ولا أعدى على دينه ولا أشد استهلاكاً لعرضه، ولا أطول نصباً، ولا أقل غنماً، من أهل هذه النحلة»[3].

ولكننا حين نتفحص تحليل الجاحظ للزندقة واتهامه الشعوبيين بها يستوقفنا البحث أمام الحرب المستعرة التي كانت قائمة بين العرب والموالي في زمنه وقبل ذلك الزمن، هذه الحرب التي وصل أوارها إلى جميع مناحي الحياة الدينية والفكرية والاجتماعية ... وغير ذلك، وقد كان الجاحظ إماماً في الدفاع عن العرب[4].

4 ـ **ابن الراوندي** : يعتبر ابن الراوندي أن لفظ (زنديق) يطلق على من ينفي وجود الله وينكر حكمته، ويجعل له شريكاً، فيقول:

---

(1) الشعوبية: لفظ يطلق على الأعاجم ومن ضمنهم الموالي الذين تعصبوا ضد العرب. أنظر الشعوبية في الليثي ص38 وما بعد .

(2) البيان والتبيين ج3 ص14. مطبعة الفتوح ج3، القاهرة .

(3) المصدر نفسه ص405 ـ 406 دار صعب بيروت (1 ـ 3) .

(4) أنظر رد الجاحظ على الشعوبية في البيان والتبيين (1 ـ 3) ص401، دار صعب .

كم عاقل عاقل أعيَتْ مذاهبُه   وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذي ترك الأوهامَ حائرةً   وحبَّرَ العالم التحرير زنديقا[1]

وفي كتاب «الانتصار» يقول الخياط المعتزلي: «قال ابن الراوندي: وزعم ثمامة أن أكثر اليهود والنصارى والمجوس والزنادقة والدهرية يصيرون في القيامة تراباً، ولا يدخلون الجنة ... الخ»[2].

5 ـ **ياقوت الحموي** : يرى ياقوت أن الزنديق هو من يظهر الإيمان ويبطن الكفر وفي ذلك قول الشاعر:

بغدادُ دارٌ لأهل المال طيبةٌ   وللمفاليس دارُ الضَنْكِ والضيق
ظللتُ حَيرانَ أمشي في أزقَّتها   كأنني مصحفٌ في بيت زنديق[3]

6 ـ **ابن النديم** : أما ابن النديم فنراه يطلق لفظ (الزنادقة) على اصحاب ماني ومعتنقي مذهبه، ولا يطلقه على كل كافر أو ملحد[4].

7 ـ **السيد المرتضى** : يرى أن الزنادقة هم أعداء الإسلام، وكأنه يتفق مع ياقوت الحموي بالراي، وقد تظاهروا باعتناقه ليكيدوا له فيقول : «فقد نشأ جماعة ممن يتستر بإظهار الإسلام، ويحقن بإظهار شعاره والدخول في جملة أهله، دمه ومالَه، زنادقة ملحدون، وكفار مشركون، وبلية هؤلاء على الإسلام وأهله أعظم وأغلظ، لأنهم يدغلون في الدين ويموهون الى المستضعفين، بجأش رابط، ورأي جامع، فِعْلَ من قد أمن الوحشة، ووثق بالأنسة، بما يظهره من لباس الدين، الذي هو منه على الحقيقة عارٍ»[5].

---

(1) الغزالي (الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمود بن أحمد) «فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة». القاهرة 1901م. ص32 ـ فيما بعد فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة .

(2) الخياط (أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد عثمان المعتزلي) كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد تحقيق الدكتور نيبرج القاهرة 1344هـ / 1925م، ص63. فيما بعد الانتصار .

(3) معجم البلدان 1/ 464 مادة بغداد .

(4) الفهرست ص473.

(5) أمالي المرتضى 1/ 127.

وقد أشار السيد المرتضى إلى زنادقة الجاهلية بما يسبق هذا الكلام فيقول: «وكما أنه كان في الجاهلية وقبل الإسلام وفي ابتدائه قوم يقولون بالدهر، وينفون الصانع، وآخرون مشركون يعبدون غير خالقهم، ويستنزلون الرزق من غير رازقهم، فقد نشأ بعد هؤلاء جماعة ممن يتستر بإظهار الإسلام ...»[1].

وقد سمى السيد المرتضى الكثيرين من الزنادقة[2]، أولهم الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي يقول:

اسقياني وابنَ حرْبٍ ... واستُرانا بإزارِ
واتركا من طلبَ الجنَّةَ يسعى في خسارِ
سأسوسُ الناسَ حتى ... يركبوا دينَ الحمارِ[3]

8 ـ الثعالبي : يرى أن (الزنادقة) هم من تظاهروا بالظرف فيقول: أما قولهم أظرف من زنديق فقد صار مثلا في زمن كثر ظرفاؤه وهو زمان المهدي، وكانوا يرمون بالزندقة كصالح بن عبد القدوس، وبشار، وحماد الراوية، وحماد عجرد، ومطيع بن إياس. وما منهم في الظاهر إلا نظيف البزة جميل الشكل ظاهر المروءة[4].

9 ـ الصولي : رأى الصولي مثل رأي الثعالبي في الزنادقة وهو يصف أشعار أبي نواس بأنها «تيه مغن وظرف زنديق». قال الصولي: وإنما قال ذلك لأن الزنديق لا يَرِعُ عن شيء، ولا يمتنع ممن يدعى إليه، فنسبه إلى الظرف لمساعدته على كل شيء، وقلة خلافه[5].

---

(1) المصدر نفسه .
(2) المصدر نفسه. سنتعرض لهم بالتفصيل فيما بعد في باب الزنادقة .
(3) المصدر نفسه 1/ 129يركبوا دين الحمار: «أي حتى ينزو بعضهم على بعض كما تتنازى الحمير».
(4) الثعالبي (ثمار القلوب) طبعة القاهرة 1908. ص128 ـ 129 فيما بعد ثمار القلوب .
(5) أمالي المرتضى 1/ 143.

10 ـ أبو حيان التوحيدي : يرى أن (من طلب الدين بالكلام ألحد)، وبذلك أصبح المتكلمون ضمن الزنادقة[1].

11 ـ ابن الجوزي : يشير إلى أن (الزنادقة) هم الدهريون، الذين قالوا: «ليس لأحد أن يثبت لنفسه رباً، لأن الإثبات لا يكون إلا بعد إدراك الحواس، وما يدرك فليس بإله، وما لا يدرك لا يثبت»[2].

12 ـ أبو العلاء المعري : يتفق مع ابن الجوزي في تعريفهم بالدهريين، الذين قالوا: «بأن لا صانع للعالم» ويتهمهم بإنكار النبوات والكتب السماوية.[3]

13 ـ ابن منظور : يرى أن الزنديق، هو القائل ببقاء الدهر، واللفظ فارسي معرب من «زندكر»، أي يقول ببقاء الدهر ... وليس في كلام العرب زنديق، فإذا أرادت العرب معنى ما تقوله العامة، قالوا: ملحد ودهري.[4]

14 ـ البيروني : يرى في زهاد (المانوية) ما يراه الجاحظ، وهذا الزهد مفارق للزهد الإسلامي، ويندرج في صفوف الزندقة. يقول البيروني: «وشرع ماني نواميس يفترضها الصديقون، وهم أبرار المانوية وزهادهم، على أنفسهم من إيثار المسكنة وقمع الحرص والشهوة، ورفض الدنيا والزهد فيها، ومواصلة الصوم والتصدق بما أمكن، وتحريم اقتناء شيء ما خلا قوت يوم واحد، ولباس سنة، وترك السفاد، وإدامة التطواف في الدنيا للدعوة والإرشاد»[5]. ويقول الجاحظ بهذا المعنى : «رهبان الزنادقة سياحون

---

(1) التوحيدي (أبو حيان): الامتاع والمؤانسة. شرح: احمد أمين، وأحمد الزين. القاهرة 1939 ج1 ص142. فيما بعد الامتاع والمؤانسة .

(2) تلبيس إبليس، ص21.

(3) رسالة الغفران، ص219.

(4) اللسان 10/ 147 مادة زندق .

(5) البيروني (أبو الريحان، محمد بن أحمد) الآثار الباقية عن القرون الخالية. اعتنى بنشره، أدوارد سخاو، طبع ليبزك 1923. ص207. فيما بعد البيروني .

... ولا يسيحون إلا أزواجاً ... والسياحة عندهم ألا يبيت أحدهم في منزل ليلتين، قال: ويسيحون على أربعة خصال: على القدس، والطهر، والصدق، والمسكنة، فأما المسكنة فأن يأكل من المسألة، ومما طابت به أنفس الناس له ... ولا يأكل إلا من كسب غيره، وأما الطهر فترك الجماع، وأما الصدق فعلى ألا يكذب، وأما القدس فعلى أن يكتم ذنبه، وإن سئل عنه»[1].

15 ـ ابن المعتز : يرى الزندقة في إغراء الشباب العربي الإسلامي بالفجور والتعهّر وإدمان الخمر، وطلب اللهو واللذة، والتغزل بالغلمان، واللواط بهم، واستباحة المحرمات وانتهاك الأعراض. ويرى أن المجان الزنادقة قاموابكل ذلك، على نحو ما هو معروف عن الحمادين الثلاثة ومطيع بن إياس وبشار بن برد[2].

16 ـ أبو فرج الأصفهاني : يرى أن الزندقة هي التذبذب في الإيمان، والمجاهرة بالثنوية، وهي أكثر ما تكون عند الشعوبيين. يقول عن (أبي العتاهية: «كان مذبذباً في مذاهبه يعتقد شيئاً فإذا سمع طاعناً عليه ترك اعتقاده إياه وأخذ غيره». ويضيف: «عن مذهب أبي العتاهية القول بأن الله خلق جوهرين متضادين ... وإن (حمدوية)[3]، صاحب الزنادقة، أراد أن يأخذ أبا العتاهية ففزع من ذلك وقعد حجاماً»[4].

وخلاصة الكلام في هذا المضمار، بعد استعراضنا لآراء جمهرة من المؤرخين واللغويين العرب، نرى أن الاصطلاح لمفهوم الزندقة لم يكن محدداً تحديداً دقيقاً، فقد نظر كل واحد منهم من زاويته الخاصة، فاختلفت النظرة والمفهوم من أتباع مذهب معين، عنها في أتباع مذهب آخر،

---

(1) الحيوان: طبعة مصر 1938. تحقيق عبد السلام هارون. ج4، ص457 ـ 459 .

(2) ابن المعتز (عبد الله) طبقات الشعراء. تحيق عبد الستار أحمد فراج. دار المعارف مصر، ص21 ـ 69 ـ 96 .

(3) وهو المسؤول من قبل الخليفة العباسي عن ملاحقة الزنادقة .

(4) أغاني 3/ 128 ـ 129. طبعة بولاق .

والعربي عن المولى، كما أن نظرة المؤرخ تختلف عن نظرة الأديب.

في العصر العباسي نرى الناس قد أفرطوا في رمي بعضهم البعض بالزندقة، إما لخصومة سياسية أو عقائدية أو فكرية. وأطلق اللفظ (زندقة) للدلالة على الثنويين من أصحاب ماني، واستخدمته السلطة ضد خصومها السياسيين. أما الفقهاء فاستخدموه للدلالة على الملحدين والمشككين. ويمكننا أن نحصر الدلالات الرئيسية لهذا الاصطلاح عند من ذكرنا بما يأتي:

أولاً: المعنى الرسمي الذي استخدمته السلطة العباسية يدل على أن الزنديق هو من تبع مذهب (ماني) الثنوي الإيراني.

ثانياً: اتسع هذا اللفظ ليدل، كما في أقوال الجاحظ والأصفهاني[1] وغيرهما، على الشعوبية باعتبار أن العروبة والإسلام مفهومان مترادفان في القرنين الأول والثاني الهجريين، لذا فإن الشعوبية والزندقة لفظان مترادفان أيضاً. فمن يكره العرب يكره الإسلام والعكس كذلك.

ثالثاً: أصبح لهذا الاصطلاح دلالات دينية - سياسية عامة حين استخدمته السلطة العباسية لضرب خصومها السياسيين أو الدينيين، فاتهمت العديد من شيع الأحزاب المعارضة بالكفر والزندقة، كما شمل هذا الاصطلاح بعض (الذميين) وبخاصة النصارى[2].

رابعاً: شمل الاصطلاح الخلعاء والمجان والظرفاء.

خامساً: شمل أيضاً المشككين والدهريين وذوي التفكير الحر وأهل الكلام لكونهم «يبطنون الكفر ويتظاهرون بالإيمان» وليس هدفهم سوى العبث الفكري والتشكيك بالعقيدة.

---

(1) أغاني 1/ 17 مطبعة التقدم بالقاهرة.

(2) تشير المصادر المدونة بالسريانية أن من اضطهد من النصارى في العهد العباسي قد رمي بالزندقة. التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين ص126 الهامش.

ولكن هذا لا ينفي وجود حركة فكرية اجتماعية منظمة نادى أصحابها بنشر أفكار (ماني) ومذهبه بديلاً للعقيدة والتراث العربي الإسلامي زمن بني العباس وقبلهم الأمويين ... سببت هذه الحركة في إذكاء نار التفاخر بدين الفرس وتراثهم الحضاري أمام دين العرب وتراثهم. وأصحاب هذه الحركة الفكرية هم (الزنادقة) الذين حاربتهم السلطة العباسية، لكونهم نادوا بآراء ومفاهيم اعتبر انتشارها خطراً وتهديداً للدولة[1].

ب ـ المؤرخون المحدثون:

إن الكتاب المحدثين قد اختلفوا هم أيضاً في تصورهم لمعنى الزندقة وتضاربت آراؤهم في عقيدة الزنديق على النحو التالي:

1 ـ أحمد أمين : إن كلمة الزندقة عند أحمد أمين لم تكن ذات معنى واحد، وإنما تطلق على معانٍ أربعة:

أ ـ أولاها: الاستهتار والمجون. يقول أحمد أمين: «فأما العامة وأشباههم فكانوا يطلقون على المستهتر الماجن (زنديقاً)، فإبراهيم بن سيابة الشاعر كان يُرمى بالزندقة، ولم يكن يعرف عنه قول في الدين، إنما كان خليعاً، ماجناً، يحب الغلمان ويحبه المجان[2]... وآدم حفيد عمر بن بد العزيز ؛ اتهم بالزندقة لأنه كان خليعاً ماجنا مفرطاً في الشرب، تجري على لسانه ـ وهو سكران ـ أبيات فيها مساس بالدين، كأن يقول[3]:

---

(1) المصدر نفسه ص127.

(2) جاء في الأغاني: «أن ابن سيابة غمز غلاماً أمرد ذات يوم فأجابه ومضى به إلى منزله فأكلا وجلسا يشربان فقال له الغلام: أنت ابن سيابة الزناديق قال: نعم. قال: أحب أن تعلمني الزندقة. قال: أفعل وكرامة، ثم بطحه على وجهه فلما تمكن منه أدخل عليه فصاح الغلام أوه أيش هذا ويحك. قال: سألتني أن أعلمك الزندقة وهذا أول باب من شرائعها» ج11، ص7.

(3) ضحى الإسلام 1/ 146.

اسقني واسقِ خليلي	في مَدَى الليلِ الطويلِ
لونُها أصفرُ صافٍ	وهي كالمسكِ الفتيلِ
مَنْ يَنَلْ منها ثلاثاً	ينسَ منهاجَ السبيلِ
قلْ لمن يلحاك فيها	من فقيهٍ أو نبيلِ
أنت، دَعْها وارجُ أخرى	من رحيق السلسبيلِ
تعطشُ اليوم وتُسقى	في غدٍ نعتَ الطُلولِ[1]

فيُتهم (آدم) بالزندقة لقوله هذا الشعر ومثله، ويأخذه المهدي ويضربه ثلاثمائة سوط على أن يقر بالزندقة، فيقول: والله ما أشركت بالله، ومتى رأيت قرشياً تزندق؟ ولكنه طرب غلبني وشعر طفح على قلبي، إذ أشرب النبيذ، وأقول ما قلت على سبيل المجون[2].

إن شعراء الاستهتار والمجون أفرطوا في دعوة الناس إلى الفجور والإباحة متعرضين للدين ساخرين ممن يقول بتحريم الخمر ويخوف بالنار ويذكر بيوم البعث وما فيه من حساب. وفي ذلك يقول أبو نواس:

يا ناظراً في الدين ما الأمرُ	لا قَدَرٌ صحَّ ولا جَبْرُ
ما صحَّ عندي من جميع الذي	تذكر إلا الموت والقبرُ

ويقول أيضاً:

قلتُ والكأسُ على كفِّي	تَهْوي لالتثامي
أنا لا أعرف ذاك اليو	مَ في ذاك الزحامِ[3]

ولكن المستمعين لمثل هذه الأقوال، وقتذاك، اختلفوا في حكمهم على شعراء هذه الفئة. فمنهم من حكم على قائله بالإلحاد والخروج من الدين. ومنهم من قال: إن القول نوع من أنواع التملح والتظرف، وعلى هذا الأساس الأخير، شاع في ذلك العصر وصف الزنديق بالظرف، وشاع

(1) أغاني 14/ 61.

(2) المصدر نفسه.

(3) ضحى الإسلام 1/ 148.

أيضاً أن بعضهم يتزندق ليشتهر بالظرف. ففي الأغاني أن ابن مناذر، قال في محمد بن زياد الذي كان يظهر الزندقة تظرفاً:

يا ابن زياد ايا أبا جعفر أظهرت ديناً غيرَ ما تُخفي
مزندق الظاهر باللفظِ في باطن إسلام فتىً عفِّ
لست بزنديقٍ ولكنَّما أردتَ أن تُوسَم بالظرف[1]

وقال غيره بهذا المعنى:

تزندق مُعلناً ليقولَ قومٌ إذا ذكروه زنديقٌ ظريفُ
فقد بقي التزندقُ فيه وسماً وما قيل الظريفُ ولا اللطيفُ[2]

والزندقة بهذا المعنى، ـ الاستهتار والمجون والتهتك ثم التدرج فيه إلى الخروج عن الدين والتظرف أيضاً ـ كان شائعاً في أذهان العامة وأشباههم، ولذا قالوا: «إن علامة الزندقة شرب الخمر، والرشا في الحكم، ومهر البغيّ»[3].

ب ـ **ثانيها**: اتباع دين المجوس، وخاصة دين ماني مع التظاهر بالإسلام، كالذي اتهم به الافشين، واتهم به بشار بن برد وحماد الراوية وابن المقفع وغيرهم[4].

وهذا المعنى يفهمه الخاصة وأشباههم وقد بينا ذلك في ما سبق[5]. فعبد الكريم بن أبي العوجاء يتهم بالزندقة، ويقر حين يقتله المنصور، بأنه وضع أربعة آلاف حديث مكذوب مصنوع[6]. فابن أبي العوجاء وأمثاله تزندقوا تزندقاً علمياً، تظاهروا بالإسلام تقية أو توسلاً إلى إضلال الناس، يدل عليهذا ما رواه الأصفهاني عن قول حماد عجرد في بشار عندما هجاه:

---

(1) أغاني 17/ 15.
(2) ضحى الإسلام 1/ 149.
(3) العقد الفريد 2/ 179.
(4) ضحى الإسلام 1/ 151 و152.
(5) أنظر هامش رقم (1) ص45 من البحث.
(6) أمالي المرتضى 1/ 127.

«ما يغيظني من بشار الا تجاهله بالزندقة، يوهم الناس أنه يظن أن الزنادقة تعبد رأساً ليظن الجهال أنه لا يعرفها ... وهو والله أعلم بالزندقة من ماني»[1].

ج ـ **ثالثها** : اتباع دين المجوس، وبخاصة «ماني» من غير تظاهر بالإسلام[2]، ويستند أحمد أمين بكلامه هذا على ما جاء في كتاب الحيوان للجاحظ الذي يقول: «وكان لهؤلاء الزنادقة كتب أجود ما تكون ورقاً، يكتب عليه بالحبر الأسود البراق، ويستجاد له الخط»[3].

د ـ **رابعها** : أن هناك زنادقة ملحدين لا دين لهم[4]. مستشهداً بقول أبي العلاء المعري في رسالة الغفران: «والزنادقة هم الذين يسمون الدهرية لا يقولون بنبوة ولا كتاب»[5].

2 ـ طه حسين : يرى طه حسين أن العراق مصدر الزندقة، لتأثر أهله بالفرس تأثراً عميقاً، وقد كانوا بهم أشد اتصالاً وتأثرهم أيضاً باليونان وفلسفتهم وإن كان هذا التأثر عرضياً لا جوهرياً وفلسفة الإغريق بنظره ليست إلا حلية يزينون بها شعرهم وزندقتهم[6]. ويشخص طه حسين الزندقة تشخيصاً أدبياً فيقول: «إنها ضرب من السخط على العرب وعاداتهم وأخلاقهم ومحافظتهم ودينهم بنوع خاص» كما يراها أيضاً: «ضرب من الكلف بحياة الفرس وعاداتهم ولذاتهم وحضارتهم، وما ذاع فيها من عقيدة دينية»[7].

---

(1) أغاني 13/ 76.
(2) ضحى الإسلام 1/ 153.
(3) الحيوان (1 ـ 3) ص44 ـ 45.
(4) ضحى الإسلام 1/ 154.
(5) المصدر نفسه .
(6) طه حسين: (المجموعة الكاملة لمؤلفاته) المجلد الثاني ويحتوي على: حديث الأربعاء. الجزء الأول والثاني والثالث. دار الكتاب اللبناني، بيروت الطبعة الثانية 1980 ج2 ص418. فيما بعد حديث الأربعاء .
(7) المصدر السابق 2/ 482.

ولكنه يرى أن كرههم للإسلام لم يسقهم إلى طريق النصرانية واليهودية ولا حتى إلى المجوسية والزرادشتية، إنما آثروا البدع في عقائد الفرس القديمة، التي تدعو إلى الإباحة واللذة «فتعصبوا على الإسلام، وعلى كل دين من شأنه أن يأخذ الناس بشيء من القسط في الاستمتاع باللذات، ومن هنا هاجموا أصول الديانات، وسخروا منها، وآثروا النار التي يعبدها الفرس، على الطين الذي ترد إليه الديانات السامية أصل الإنسان والحيوان ... وهم في حقيقة الأمر لا يحفلون بتوحيد ولا بتثنية ولا بتثليث»[1] وجل ما يحفلون به اللذات.

ودليل طه حسين على ذلك أن هؤلاء الزنادقة لم يكونوا يوماً صادقين في زندقتهم، «فلو أن هناك صلة دينية متينة، تجمع بينهم حقاً، وتكون منهم أقلية متضامنة، لما أساء بعضهم إلى بعض، ولما سعى بعضهم ببعض، ولما استعدى بعضهم على بعض السلطان»[2]، ويكفينا مثالاً ما قاله حماد عجرد للأمير عيسى بن عمر يغريه للإيقاع بخصمه بشار[3]:

قلْ لعيسى الأميرِ عيسى بنِ عَمْرٍ ... ذي المساعي العظام في قَحْطانِ
لَكَ جارٌ بالمصرِ لم يَجْعَلِ اللّـ ... ـهُ لهُ منكَ حُرْمَةَ الجِيرَانِ
لا يُصلّي ولا يَصُومُ ولا يَقْـ ... ـرَأُ حَرْفاً من مُحْكَمِ القُرْآنِ
إنّما مَعْدِنُ الزُّنَاةِ مِنَ السِّفْـ ... ـلَةِ في بَيْتِهِ ومَأْوَى الزَّوَانِي
وهو خِدْنُ الصِّبْيَانِ وهو ابنُ سَبْعِـ ... ـينَ فماذا يَهْوَى مِنَ الصِّبْيَانِ؟
طهِّرِ المِصْرَ مِنْهُ يَأَيُّها المَوْ ... لَى المُسَمَّى بالعَدْلِ والإِحْسَانِ
يا ابنَ بُرْدٍ إِخْسَأْ إِلَيْكَ فمِثْلُ الْـ ... ـكَلْبِ في الناسِ أَنْتَ لا الإنسانِ[4]

فمثل هذا القول وغيره[5] يقود الكاتب للاعتقاد بأن الزندقة لم تكن

(1) المصدر نفسه 2/ 483.
(2) المصدر نفسه 2/ 484.
(3) الاثنان رميا بالزندقة .
(4) حديث الأربعاء 2/ 485.
(5) أنظر المصدر السابق بشار يهجو حماداً .

خروجاً عن الأديان السماوية بمعنى الكفر والإلحاد، بل هي التهتك والاستهتار والفجور. وهذه جميعها بمجها الدين وترفضها شرائعه.

3 ـ عبد العزيز الدوري : يرى عبد العزيز الدوري أن الشعوبية هي العامل الأول في قيام حركة الزندقة. ويستنتج ذلك من الارتباط الوثيق بين العروبة والإسلام من جهة، والشعوبية وعقائد المجوس الدينية القديمة من جهة أخرى والشعوبية تنتهي بدورها إلى الزندقة. وفي هذا، يقول: «ولذا نجد الشعوبية تنتهي في كثير من الحالات بالخروج على الإسلام وبالزندقة فهي تبدأ من التهجم على العرب، وتنتهي بالهجوم على الإسلام»[1].

كما أنه يرى في حركة الغلو جانباً آخر للنشاط الشعوبي في الحقل الديني، «والغلاة فرق عديدة، ونظرة إلى مبادئهم تشير إلى أصول مزدكية وزردشتية ومانوية، وقد استمرت الحركة المانوية باسم الزندقة في المجتمع الإسلامي»[2].

وما دام «الدوري» يعتبر الشعوبية زندقة. فإن ما يراه من شعر يظهر تفاخر الفرس بالأنساب والأمجاد، يعتبره مروقاً عن الدين لا بل زندقة ويسوق الأمثال الكثيرة على ذلك من مثل قول إسماعيل بن يسار:

أصلي كريم ومجدي لا يقاس به ولي لسان كحد السيف مسمومُ
أحمي به مجد أقوام ذوي حسب من كل قرم بتاج الملك معمومُ
جحاجحُ سادةٌ بُلجٌ مرازبةٌ جُردٌ عتاقٌ مساميحُ مطاعيمُ[3]

4 ـ عبد الرحمن بدوي : يتأثر «بدوي» بالمؤرخين الرواد كما تأثر غيره ممن ذكرنا فيعزي الزندقة إلى من يؤمن بالمانوية ثم يتسع هذا المعنى بنظره ليطلق على صاحب كل بدعة وكل ملحد، وينتهي به الأمر أخيراً

(1) الدكتور عبد العزيز الدوري: (الجذور التاريخية للشعوبية) دار الطليعة ـ بيروت، الطبعة الثانية 1980. ص58 فيما بعد الجذور التاريخية للشعوبية .

(2) المصدر السابق ص20.

(3) أغاني 4/ 125 وأنظر بقية الشواهد في (الجذور التاريخية للشعوبية) ص63 ـ 66.

ليكون الزنديق من يخالف أهل السنة ومن يحيا حياة المجون من الشعراء والكتاب ومن إليهم[1].

5 ـ المستشرقون: فيدا ، أخذ هذا المستشرق برأي ابن النديم حيث يقول: «إنَّ الزندقة التي حاربها المهدي والهادي هي المانوية»[2].

ماسينيون: يتأثر أيضاً برأي ابن النديم فيرى أن التعريف الرسمي لمعنى الزنديق هو زاهد ثنوي ويضيف أن الزندقة أطلقت على المفكرين الأحرار[3].

برنارد لويس: يرى هذا المستشرق أن العداوات الشخصية والتنازع على السلطة والجاه، ومحاولة القضاء على المعارضة الدينية ـ السياسية، لعبت دوراً كبيراً في اتهام البعض بالزندقة، وفي ذلك يقول: «إن الزندقة غدت اصطلاحاً إدارياً وسياسياً وليس اصطلاحاً كلامياً أو نظرياً، وبمعنى آخر فإن تهمة الزندقة تؤدي بصاحبها إلى السجن على أقل تقدير، بل ربما انتهت بالمتهم إلى القتل»[4].

جب : يرى أن الشعوبية جسر الزندقة، وخطرها يكمن في تشكيكها الذي ولدته في نفوس الطبقات المتعلمة، لأن الثقافة الآرامية ـ الفارسية القديمة في العراق مركز المانوية كانت لا تزال تحمل جراثيم ذلك الضرب من التفكير الحر الذي عرف بالزندقة، وقد تجلت هذه الزندقة في استمرار

---

(1) الدكتور عبد الرحمن بدوي (من تاريخ الإلحاد في الإسلام) المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ بيروت، طبقة ثانية 1980، ص28 فيما بعد بدوي .

(2) فيدا (جورج) الزندقة في الإسلام. مجلة الدراسات الشرقية 1940، 1938 ص173 وما بعد .

G.Vaida. Les Zindiqs en Pays d'Islam au début de la periode abbaside R.S.D. XXI. 1937 P.P 137-229.

(3) ماسينيون: مادة زندقة. دائرة المعارف الإسلامية. عذاب الحلاج، ص186 ـ 188 .

L.Massignon: La passion d'al-Hallag.

(4) التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، ص137.

B.Leuis: the significance of Heres. P.55.

وجود الفكر الثنوي في الدين من جهة، وفي الاستهتار والاستخفاف بجميع المذاهب الخلقية من جهة أخرى، وقد عرف هذا الأخير باسم المجون[1].

كارل بروكلمان: لا يستبعد تأثير الشعوبية في دفع تيار الزندقة، لأنه يذكر أن المانوية، لا الزرادشتية الخالصة، كانت لا تزال تفرض سلطانها الكبير على أولئك الداخلين حديثاً في الإسلام، ولم يرتاحوا كلياً لشعائره الصارمة، بل لقد كادت المانوية أن تكون دين الطبقات المثقفة[2]. وكان هؤلاء المسلمون ظاهراً، والمانويون باطناً، خير دليل على التأثير «الشعوبي» في تقوية تيار الإلحاد والزندقة، وإثارة الشكوك في المجتمع الإسلامي.

يتبين من هذا الاستعراض لأقوال الكتاب المحدثين في الزندقة، أنهم لم يخرجوا عن الأطر التي حددها المؤرخون الرواد، رغم أن كلاً منهم أكد على وجهة نظر معينة من مدلولات الزندقة، واعتبرها الدافع المحرك لحركة فكرية، ذات أهداف سياسية، دينية، اجتماعية. تتحرك بتحرك أصحابها «الزنادقة». فمنهم ـ تبعاً للأعصر الزمنية ـ من خرج من قومه ودينه لسبب ما، وكاد لهما ومنهم من أراد أن يحيا بالفسق والفجور، فتمتع بالملذات والمحرمات.

ومنهم من عاد إلى قديمه وعمل على إحياء تراث آبائه، خصوصاً من ناحية العقيدة.

ومنهم من تظاهر بالظرف أو أراده. وأخيراً منهم من اختلف سياسياً مع الأمراء والحكام والخلفاء.

---

(1) جب، هاملتون: دراسات في حضارة الإسلام. دار العلم للملايين، بيروت ـ الطبعة الثالثة 1979. ص91 ـ 92. فيما بعد جب.

Hamilton. A.R. Gibb. (Studies on the Civilisation of Islam). Beacon Press, Boston, Massachusetts. 1962.

ترجمة: إحسان عباس، محمد يوسف نجم ومحمود زايد.

(2) بروكلمان، كارل: الإمبراطورية العثمانية وانحلالها. ترجمة فارس وبعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت 1949 ص15. فيما بعد بروكلمان، الإمبراطورية الإسلامية وانحلالها.

القسم الرابع

أهداف الزندقة

بعد عرضنا لآراء القدماء والمحدثين والمستشرقين للزندقة وتفسيراتهم لمعانيها، نكون قد تعرفنا إلى اختلاف وجهات نظرهم، نتيجة تنوع أشكال الزندقة وصورها، حيث ظهرت في ثوب عقائدي، وفكري، واجتماعي، وسياسي، ونتيجة اختلاف أهداف الزنادقة أيضاً كما بينا آنفاً.

لكن حركات الزنادقة وخصوصاً في نهاية العصر الأموي والعصر العباسي الأول ـ كانت تهدف إلى تقويض دعائم الإسلام[1]، من حيث الظاهر، وإلى التعبير عن الرأي الحر والمعتقد الحر من حيث الباطن.

وبما أن آراءهم دعت أحياناً إلى ما يفهم منه مخالفة تعاليم الدين، ومعارضة قيمه الروحية ومثله العليا، فقد وقف الخلفاء العباسيون والمسلمون الأتقياء موقفاً حازماً من الزنادقة دفاعاً عن دينهم الحنيف[2].

ولما كان الزنادقة يحاربون الإسلام، فلا يخضعون لدستوره (القرآن الكريم)، وهو مصدر قوانين الدولة، ونظمها وتقاليدها، فقد اعتبر الخلفاء العباسيون الزنادقة خارجين على طاعة الدولة، وثواراً سياسيين يعملون على إحياء النظم الفارسية، وعقائدها المجوسية البائدة، مما يسبب بإنهيار السلطة الإسلامية، لذا كانوا متشددين في ملاحقة الزنادقة وقتلهم.

وقضية إحياء التراث الفارسي القديم وعقائده اتهم بها بعض البرامكة وهم من هم زمن الرشيد، فابن قتيبة يقول: «البرامكة كانوا يرمون بالزندقة

---

(1) الليثي ـ الزندقة والشعوبية، ص29.

(2) محمد بديع شريف (الصراع بين الموالي والعرب) ص67. دار الكتاب العربي، مصر، 1945م. فيما بعد: شريف. وفي هذا الكتاب يرى المؤلف أن ابن المقفع: «كان زنديقاً لا يؤمن بالله ولا يقيم وزناً لدين محمد بن عبد الله» وفيه فقرات من كتاب معارضة ابن المقفع للقرآن.

إلا أقلهم» ويروي بيتين للأصمعي في ذلك:[1]

إذا ذُكر الشِّرك في مجلس أضاءت وجوه بني بَرمك
وإن تُليت عندهم آيةٌ أتَوا بالأحاديث عن مزدكِ[2]

ولعل ما يتصل بهذه النقطة ما نلاحظه من انتشار المبادئ الدينية الفارسية القديمة بعد تكون حزب الموالي[3] الذي يعتبر «أبو مسلم الخراساني» اول رئيس فعلي له، والذي أعرب أبو العطاء السندي عن خيبةأمله في الحكم العباسي بعد مقتل أبي مسلم، في قوله:

يا ليتَ جورَ بني مروانَ عاد لنا يا ليت عَدْلَ بني العباسِ في النّار[4]

ويبدو أن نشر هذه المبادئ والترويج لها كان من أسس ما خطط له الموالي ليتمكنوا من فرض سيطرتهم عن طريق سيادة هذه الآراء والمعتقدات والمذاهب، وأخطرها جميعاً في رأي الباحثين المزدكية والمانوية. يقول «نيبرج» في مقاله بين الإسلام والمانوية، مشيراً إلى رغبة «المانويين» في تمزيق الإسلام: «كانت الحركة المانوية في الشرق أخطر أعداء الإسلام، فإن من طبيعة المانوية أن تتدخل في غيرها من الأديان وتمتزج بها وتتحد معها، كي تمزق وحدتها من الداخل بما تبذره من أصول الخلاف والشقاق»[5].

ويرى بعضهم أن جميع الحركات التي ظهرت بعد مقتل أبي مسلم تعتبر تطورات لمبادئ مزدك مثل الخرمية، والمحمرة والسلمية[6]. وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية، أن عمار بن يزيد، وهو أحد دعاة العباسيين،

---

(1) المعارف 382.
(2) ينسبان أيضاً إلى (أبي نواس). محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. دار المعارف، مصر، الطبعة الثانية، ص234. فيما بعد: هدارة .
(3) هدارة ص44 وما بعد .
(4) أغاني 16/ 84.
(5) شريف: الصراع بين الموالي والعرب. ص54.
(6) عبد العزيز الدوري: العصر العباسي الأول. نشر دار المعلمين الالية، بغداد، 1945، ص84. فيما بعد: الدوري العصر العباسي الأول .

اعتنق عقائد الخرمية وجاهر بآراء بعيدة عن الدين والخلق[1].

ولكن الزنادقة لم يكونوا جميعاً من الأعاجم، وما كانت الزندقة قط نوعاً واحداً، بل هي دينية، فكرية، سياسية، واجتماعية. وأول الشعراء الذين يتهمون بالزندقة ـ عصر بني أمية ـ الوليد بن يزيد، الخليفة الأموي[2]، الذي ينكر الحساب والبعث ويشكك بالقرآن بقوله:

أحقاً ما تقولُ مِنَ الحساب ... تذكرني الحسابَ ولستُ أدري
وقلْ لله يمنعني شرابي[3] ... فقلْ لله يمنعني طعامي

فمن هذا القول ومن أقوال أخرى للوليد، ولغيره ... يتبين لنا أن هناك زنادقة نشأت عقيدتهم على تمجيد العقل الإنساني وطلب الحرية في كل أفعال الإنسان ونزعاته. ولهذا يقبل الوليد وغيره على شرب الخمر واستباحة المحرمات، ويهجر الدين وفرائضه، وحين يشعر بحريته، يحاول تقويض الإيمان بإنكار عناصره الأساسية، ثم تزين له حريته قوته وسلطانه كفرد فينكر الألوهية.

وما المجون والاستهتار والشك والحرية إلا ضرب من ضروب الزندقة الفكرية التي تهدف إلى تحرر الإرادة الإنسانية من كل قيد، ويمكننا أن نلمح عناصر من هذه الزندقة الفكرية لمطيع بن إياس يتغزل فيهما ويقول لمحبوبته:

واسأليني لها فدَيْتُك نِحْلَهْ ... قبِّليني سُعادُ باللهِ قُبْلَهْ
لِوَجْهي جَعَلْتُكِ الدَّهْرَ قِبْلَهْ[4] ... فَوَرَبِّ السَّماءِ لو قُلْتِ لي صَلِّ

فمثل هذا الغزل الرقيق، الإباحي بعض الشيء، يلام عليه قائله ويتهم بالظرف والخلاعة والمجون والزندقة[5]، وهو ليس بكثير إذا ما قورن

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية: الترجمة العربية: مادة عمار بن يزيد.
(2) أغاني 7/ 2 ـ 3.
(3) أمالي المرتضى: 1/ 130 دار الكتاب العربي.
(4) أغاني 13/ 85. طبعة دار الكتب المصرية.
(5) المصدر السابق 12/ 85 طبعة بولاق.

بالغزل في كل أعصر التاريخ عندما نرى العاشق الولهان ينادي حبيبته بالقول: يا حياتي! يا معبودتي! يا محراب صلاتي! ...

ولكن هناك من اتبع هواه العرقي من جهة والديني من جهة ثانية، بالإضافة إلى المذاهب الكثيرة والطوائف والفرق المختلفة في كل دين من الأديان، وقد انبرى أفراد هذه الأجناس البشرية وهذه الأديان وما تفرع عنها من فرق وطوائف ومذاهب، يدافعون عن الجنس والمعتقد ويقذفون خصومهم الآخرين بكل الاتهامات ... والذي نراه من كل ما تقدم أن أهداف الزنادقة لم يكن كله المروق من الدين، بل التحرر من قيوده ليتاح لصاحبه فعل ما يريد والعيش كما يهوى.

ويبدو أن أهداف الزنادقة كثيرة ومتشعبة، منها ما أشرنا إليه وهو إعادة انتشار وإحياء المبادئ الدينية القديمة، وبخاصة عند الفرس الذين هالهم انتصار الدين الجديد، وهيمنته، وبسط نفوذ أتباعه على مرافق الحياة في كل الأمكنة التي أخضعتها الخلافة لنفوذها.

ويبدو أيضاً أن نشر هذه المبادئ وترويجها كان من أسس برنامج الحزب الموالي. وأخطر هذه المبادئ في رأي الباحثين هي تعاليم مزدك وماني.

وكانت مبادئ هذه الدعوات تتم في مبدأ الأمر، بصورة خفية، ثم أصبحت سياستهم علنية، بعد مقتل أبي مسلم الخراساني، فظهرت حركة زندقية متأثرة بصورة رئيسية بالأعاجم، ومتشحة بثوب إسلامي. من مبادئ الديانات القديمة التي عادت لتطل برأسها بعد موات محتم.

الراوندية: وأساس دعوتهم تناسخ الأرواح وأصولها من بلاد الهند.

المقنعية: وهي تقول بأن الله خلق آدم، فتحول في صورته، ثم في صورة نوح وبالتوالي والتواتر إلى أبي مسلم الخراساني، ثم حركات كثيرة

كالخرّمية، والمحمّرة والمسلمية[1]، وجميعها تدعو إلى الانتقام من قتلة أبي مسلم، ذلك الانتقام الرهيب، العنصري الأساسي، والمذهبي النشأة والذي يفرز الانحلال والزندقة في المجتمع العربي الإسلامي. وخصوصاً أن أتباع أبي مسلم اعتبروه أحد خلفاء زرادشت، وانتظروا إيابه، فيملأ الأرض عدلاً ويعيد للمجوس مجدهم، ويزيل ملك العرب[2].

ومن المرجح أن الزنادقة شجعوا انتشار المانوية في مناطق ما وراء النهر، ليضعفوا الإسلام، ويعيدوا مجد المجوس الضائع[3].

إن كثيراً من فرق الرافضة[4]، ضلوا وغووا وأشركوا بالله، فقال فيهم السيد الحميري:

قـومٌ غَـلَـوْا فـي عـلـيٍّ لا أبـا لـهـمُ   وأجـشـمـوا أنـفـسـاً فـي حُـبِّـه تَـعَـبـا
قـالـوا هـو الله، جـلَّ اللهُ خـالـقُـنـا   عن أن يكون ابن شيءٍ أو يكون أبا[5]

وبعضهم كفروا بالقيامة، والجنة والنار[6]، وآخرون آمنوا برجعة الأموات إلى الدنيا قبل القيامة، وشاعرهم يقول:

إلـى يـومٍ يـؤوبُ الـنـاسُ فـيـه   إلـى دنـيـاهُـمُ قـبـلَ الـحـسـابِ[7]

وربما ذهب الشعوبيون المتعصبون وأكثر الموالي إلى حركات التطرف، لأنهم رأووا فيها ستاراً يحقق ما خبئ في نفوسهم من الحقد على الدين الجديد، والكيد له ومحاولة إسقاط دولته، وإزالة سلطانه.

---

(1) هدارة، ص236.

(2) المصدر نفسه .

(3) ابن النديم، الفهرست، ص472.

(4) مثل البيانية، والحربية، والبزيقية (الفرق بين الفرق) لأبي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي. نشر السيد عزت العطار الحسيني، القاهرة 1948، ص145.

(5) الخياط: أبو الحسين عبد الرحيم. الانتصار، نشر لجنة للتأليف والترجمة. القاهرة 1914 ص148.

(6) فرقة المنصورية. الفرق بين الفرق، ص145.

(7) المصدر نفسه، ص37.

والزنادقة ما كانوا روافضاً وشعوبيين وحسب، بل كانوا أنواعاً كثيرة، لهم دوافع مختلفة وأهداف وغايات متشعبة، منها الديني، ومنها السياسي، وأصحاب هذا الرأي وجدوا في الزندقة تراثاً قومياً يجب الحرص عليه والدفاع عنه. ومنها دافع أكثر أهمية بالنسبة إلى بحثنا، هو الدافع الحضاري الفكري، ومن دان بهذا المبدأ اتخذ الزندقة وسيلة من وسائل العبث الفكري، فشكك، ورمى من وراء ذلك إلى الاستهتار بعقائد الناس[1].

ويمكننا أن نصل من خلال هؤلاء إلى طائفة أخرى، كانت زندقتها تظرفاً وحسن منادمة، وسمة من سمات الرقي الثقافي والاجتماعي.

ولكن طوائف الزنادقة تداخلت فيما بينها، ولا يمكن تحديدها تحديداً دقيقاً ولا الفصل بين أنواعها وطبقاتها .. فقد يكون الزنديق، زنديق دين وسياسة، وظرف ومجون، وقد يكون زنديق تيار واحد. وربما كان الزنديق إنساناً عادياً، أو شاعراً، أو كاتباً، أو أميراً، وحتى خليفة[2]، ولكل واحد منهم هدفه وغايته. ومن هذه الأهداف والغايات إذا قرأنا شعر الوليد بن يزيد:

يُذكرني الحسابَ ولستُ أدري   أحقّاً ما يقول عن الحساب[3]

فهو ينكر البعث والنشور، وينكر نزول القرآن وما جاء فيه من أخبار عن الآخرة، ويقول:

إذا متُّ يا أمَّ الحُنَيْكِلِ فانكحي   ولا تأملي بعد الفراق تلاقيا
فإنَّ الذي حُدِّثتِه من لِقَائِنا   أحاديثُ طَسْمٍ تترك العقلَ واهيا[4]

ونرى هذا الخليفة يتجبر، وينكر القدرة الإلهية، ويشك، ويمجن،

(1) من تاريخ الإلحاد في الإسلام، ص33.
(2) المصدر نفسه، ص34.
(3) أمالي المرتضى: 1/ 90.
(4) كرد علي: محمد: رسائل البلغاء. مطبعة لجنة الترجمة والنشر. القاهرة 1946، ص260.

ويستهتر بأمور الدين، ويجاهر بارتكاب الموبقات، فيقول:

اسقياني وابن حَرْبِ واسُترانا بإزارِ
واتركا من طلب الجنَّةَ يَسعى في حسارِ
سأسوسُ الناسَ حتى يركبوا دينَ الحمارِ[1]

ولربما كان هدف هذا الخليفة الماجن، العابث بعقائد الناس، أن يلزم البشر باللادين حتى يتساووا معه في الخروج عن الإيمان والعقيدة.

وربما أيضاً، كان يرمي من وراء زندقته للوصول إلى نزعة التنوير، التي تقوم على تمجيد العقل الإنساني، وطلب الحرية المطلقة في كل أفعال الإنسان .

ولهذا يقبل الوليد وأمثاله على استباحة المحرمات، وهجر فرائض الدين، ومحاولة خرق عناصره الرئيسة، كالبعث والحساب، والوحي والقرآن والنبوة. ويحاول ومن معه تشكيك الناس، للمساواة فقط.

وما دمنا نتكلم عن نزعة التنوير التي تريد تحرر الإرادة الإنسانية، المطلقة، فنسمع مطيعاً بن إياس يقول:

إخلَعْ عذارَك في الهوى واشرَبْ معتَّقةَ الدِّنانِ
وَصِلِ القبيحَ مجاهراً فالعيشُ في وصلِ القِيانِ
لا يُلهينَّكَ غيرُ ما تَهوى فإنَّ العمرَ فانِ[2]

ومن أهداف الزندقة والزنادقة، إباحة النساء، وقد يفهم ذلك من هجاء بشار للشاعر حماد عجرد حين مات صديق له اسمه حريب كان على مذهبه، بقوله:

(1) أمالي المرتضى 1/ 89.

(2) فون جرونباوم (جوستاف) تحقيق: شعراء عباسيون (مطيع ـ سلم الخاسر ـ أبو الشمقمق). دار مكتبة الحياة، بيروت 1959 م، ص76.

بكى حُريبٌ فوقَّرْ بتعزيةٍ مات ابن نُهْي وقد كانا شريكينِ
تفاوضا حين شابا في نسائِهما وحلَّلا كل شيءٍ بين رجْلين
أمسى حُرَيْبٌ بما أسدى له غِيَراً كراكب اثنينِ يرجو قوَّةَ اثنين[1]

ويبدو أنه كان من أهدافهم أيضاً الدعوة إلى التعلق بتراث الفرس والتغني به في جميع مظاهره، وهذا أمر ينطبق على دعاة الشعوبية، وإحياء أمجاد الأعاجم بعد أن دالت دولتهم.

ومما سعوا إليه، ربما، هو مذهب العرض والإظهار، للفت النظر ولنسمع ما يقال عن أبي نواس في هذا المضمار: «كان يتزندق لأنه كان يتفلسف، وقد اطلع على النجوم وعلوم الأوائل من الهند والروم، فزاغ عن اليقين ومرق عن الدين»[2] والمتبصر بأمر ما مر، يرى، أن زندقة أبي نواس تشمل الزندقة الاجتماعية والفكرية في آن. ولذلك فإن الهدف من زندقته هو الفلسفات وعلم الكلام، يقول ابن منظور في ذلك: «واشتهى علم الكلام، فقعد إلى أصحابه، فتعلم منهم شيئاً من الكلام، ثم دعاه ذلك إلى الزندقة»[3].

وخلاصة الكلام أن أهداف الزنادقة كانت كثيرة ومتنوعة ويبدو أنه يلزمها بحث باحث كامل، للإحاطة بمجاميعها، والاطلاع على معانيها.

(1) تاريخ بغداد: البغدادي (الحافظ أبو بكر محمد بن علي الخطيب) مطبعة السعادة ،القاهرة 1931 ج8، ص148.

(2) العقاد: عباس محمود. أبو نواس. نشر مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة 1957. ص47.

(3) أخبار أبي نواس: (أبو هفان بن عبد الله المهزمي) مكتبة مصر 1953م، ج1، ص6.

الفصل الثالث

مراحل الزندقة وأنواعها

القسم الأول

أولاً: زندقة العصر الجاهلي

بعد أن رأينا فيما تقدم دلالات كلمة زندقة[1]، وما عنته للكتاب في مختلف الأعصر، نستطيع أن نبدأ بحثنا عنها منذ ما قبل الإسلام. يحدثنا أبو الوليد الأزرقي عن قبيلة جرهم وولايتها على البيت الحرام، وظلم هذه القبيلة وفجورها والحادها، وقيام رجل واعظ فيهم[2]، يقول: «يا قوم أبقوا على أنفسكم وراقبوا الله في حرمه، وتواصلوا، وتواصَوْا بالمعروف وانتهوا عن المنكر، ولا تستخفوا بحرم الله تعالى وبيته الحرام، وإياكم والإلحاد فيه بالظلم فإنه بوار وأيم الله، واحذروا البغي، وتنزهوا عنه ...»[3].

فإذا ما كانت الزندقة خروجاً عن القيم والأخلاق، والاستخفاف بالمحرمات ونكران أصولها، فيكون هذا الواعظ قد أشار إلى زندقة في جرهم[4] من دون أن يسميها.

---

(1) راجع الفصل الثاني، القسم الأول ص 43.

(2) هو مضاض بن الحارث ... بن عمرو. أخبار مكة. ص90.

(3) أخبار مكة ،ص91.

(4) قبيلة خرجت من اليمن واستقرت في مكة. المصدر نفسه، ص85.

ويحدثنا ابن الأثير عن ملوك كندة، وعلى الأخص، الحارث الكندي الذي استجاب إلى دعوة قباذ ملك الفرس للدخول في مذهب مزدك وزندقته، بعد أن امتنع المنذر بن ماء السماء[1] عن الدخول في هذا المذهب، فيعزل العاهل الفارسي المنذر عن كرسي الملك ويستعيض عنه بالحارث الكندي مكافأة له[2]، ثم ينتشر بعد ذلك وُلدُه فيملكون على بكر وتميم وقيس وتغلب وأسد[3]. وبما أن الحارث الكندي قد دخل في مذهب مزدك[4] وملك على الحيرة وهي من أكبر ممالك العرب في الشمال، عصر ما قبل الإسلام، فربما يكون قد أثر على مذهب أهل المملكة وعلى ولده الذين حكموا قبائل عربية كثيرة وبدورهم أثروا هم أيضاً. وانتقل هذا التأثير إلى باقي العرب عن طريق الهجرات والاتصالات الدائمة.

وربما تكون هذه الزندقة أيضاً قد وصلت إلى قبيلة قريش عن طريق الحيرة، فاعتقد بعضهم بالنور والظلمة[5]. وبعضهم اعتقد بدوام الدهر وبقائه، ولم يؤمن بالآخرة[6]. وقد ذكر محمد بن حبيب أسماء كثيرة لزنادقة قريش[7].

وإذا رجعنا إلى معاني الزندقة اصطلاحاً، نرى كثيراً من عرب الجاهلية يسيرون في خط الزندقة. فمن القائل بمذهب الدهرية وإنكار الخالق وجحد البعث[8]، إلى المعترف والمقر بالخالق ولكنه منكر للرسل ويوم الحساب. ومن القائل بأن الملائكة بنات الله، إلى المؤمن بيوم الحساب كما في قول زهير بن أبي سلمى:

---

(1) ملك الحيرة.

(2) ابن الأثير (الكامل في التاريخ)، 1/ 243.

(3) المصدر نفسه. 1/ 305.

(4) الكثيرون اعتبروا هذا المذهب زندقة.

(5) راجع في ذلك. المعارف ص621. واللسان 10/ 147 مادة زنديق. والبدء والتأريخ 4/ 31. وبلوغ الأرب 2/ 228.

(6) راجع البحث ص 57 وانظر تلبيس إبليس ص63.

(7) المحبر ص161. راجع أسماء هؤلاء الزنادقة بالبحث صفحة 57.

(8) تلبيس إبليس، ص63.

يُؤخَّر فيوضع في كتاب فيُدَّخر ليوم الحساب أو يُعجَّل فينقَمِ[1]

وإلى غير المؤمن بيوم الحساب[2]. ومنهم من يوحد الله ويتوسط الأصنام والأوثان كشفعاء عنده[3]، إلى من يؤمن بالتناسخ[4].

وهكذا نرى علامات وإشارات تدل على وجود الزندقة في العصر الجاهلي من حيث معناها ودلالتها من دون أن نعثر على وجود لكلمة زندقة في الأدب الجاهلي. وربما تكون هذه الكلمة قد عربت ودخلت دنيا العرب فيما بعد الإسلام من حيث اللفظ. ولكنها في جوهرها وحسبما فهمها الباحثون والكتاب وأشاروا إلى معانيها المختلفة موجودة دون شك في الجاهلية.

ثانياً: الزندقة في صدر الإسلام

إن الزندقة التي كانت في الجاهلية لم تختفِ بظهور الإسلام، فقد توالت في بدايته وبعد ظهوره، حيث تستر بعضهم بهذا الدين وألجأهم خوف القتل إلى الخفية، وجاهر البعض الآخر بما يعتقد كلما سنحت له الفرص. يقول الشريف المرتضى: «وكما أنه كان في الجاهلية وقبل الإسلام وفي ابتدائه قوم يقولون بالدهر، وينفون الصانع، وآخرون مشركون، يعبدون غير خالقهم، ويستنزلون الرزق من غير رازقهم، ... فقد نشأ بعد هؤلاء جماعة ممن يتستر بإظهار الإسلام، ويحقن، بإظهار شعاره والدخول في جملة أهله، دمه وماله، زنادقة ملحدون، وكفار مشركون، فمنعهم عز الإسلام عن المظاهرة والمجاهرة، وألجأهم خوف القتل إلى المساترة ... إنهم يدغلون في الدين، ويموهون على المستضعفين»[5].

---

(1) راجع المعلقات السبع، ص111.

(2) راجع هامش رقم (1) ص 58.

(3) الأصنام ص17 والبحث ص 50 ـ 51.

(4) تلبيس أبليس، ص80.

(5) أمالي المرتضى 1/ 127.

ومن كلام الشريف المرتضى يتبين لنا أن الزنادقة الملحدين كانوا في الجاهلية وفي ابتداء الإسلام، ويؤمنون بالدهر، فهم (الدهرية) الذين أشير إليهم في القرآن الكريم: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا، نموت ونحيا، وما يهلكنا إلا الدهر﴾[1]. وبقي هذا المعتقد راسخاً في نفوس كثير ممن أدرك الإسلام وأسلم، حيث نراهم يسبون الدهر إذا ما أصيبوا بمكروه. ولهذا جاء الحديث الشريف ينهاهم عن ذلك بقوله: «لا تسبوا الدهر، فإن الله الدهر». وقوله: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر الدهر، وإنما أنا الدهر: أقلب الليل والنهار»[2].

كما يتبين لنا أنه نشأ بعد هؤلاء جماعة يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، خوفاً من القتل ... وربما كان الكفر على أنواع مختلفة، منها المجون والهجاء، ومجالسة الغلمان وغير ذلك. فإذا رحنا نتبين سياسة (عمر بن الخطاب) الداخلية، نراه حريصاً على الآداب الإسلامية، كارهاً للتقاليد الجاهلية من عصبيات وأهاج وصياح بالشعر في الغزل أو الخمريات ونحوها، لا يلين في القسوة على منتحليها مهما تكن منزلتهم، فقد حبس الحطيئة لهجائه الزبرقان بن بدر، فاستعطفه الشاعر بأبياته المشهورة:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ زُغب الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ
ألقيت كاسبَهُم في قعر مُظلمةٍ فاغفر عليك سلامُ اللهِ يا عُمَرُ[3]

فغفر عمر ونهاه عن الهجاء واشترى منه أعراض الناس بثلاثة آلاف درهم، فقال الحطيئة:

وأخذت أطرافَ الكلامِ فلم تدعْ شتماً يضرُّ ولا مديحاً ينفعُ
وحَمَيْتَني عِرْضَ اللئيمِ فلم يَخَفْ ذَمّي وأصبَحَ آمناً لا يفزعُ[4]

---

(1) سورة الجاثية. آية 24.

(2) اللسان مادة (دهر) تاج العروس مادة (دهر) .

(3) أغاني 2/ 185 دار الكتب .

(4) المصدر السابق .

وقد عد بعضهم الهجاء إشراكاً، والإشراك زندقة، وهذا ما بينه الشاعر كعب بن جعيل التغلبي، في رفضه الرد على عبد الرحمن بن حسان بن ثابت عندما تعرض لبني أمية ونسائهم بهجائه اللاذع وتغزله برملة بنت معاوية، إن كعباً هذا يرفض طلب يزيد أخي رملة بقوله:

«أرادِّي أنت إلى الإشراك بعد الإيمان»[1].

ولما قال أبو محجن الثقفي:

إذا متُّ فادفنِّي إلى أصل كَرمةٍ	تُروِّي عِظامي بعد موتي عروقُها
ولا تدفنِّني في الفلاةِ فإنني	أخاف إذا ما متُّ ألا أذوقُها

جلده عمر ونفاه من المدينة، وكان عمر قد استعمل النعمان بن عدي بن نضلة على ميسان، وكان هذا شاعراً، فقال:

من مُبلغُ الحسناءَ أن حليلَها	بميسانَ يُسقى في زجاج وحنْتِمِ
فإن كنتَ ندماني فبالأكبر استقني	ولا تَسقِني بالأصغرِ المتثلِّمَ
لعلَّ أميرَ المؤمنين يسوءُه	تنادُ منا في الجوسقِ المتهدِّمِ

ولما سمع عمر قوله، ساءه ذلك، وعزله، فقدم على عمر فقال: والله ما صنعت شيئاً مما قلت، ولكن كنت امرءاً شاعراً وجدت فضلاً من قول فقلت فيه الشعر، فقال عمر: والله لا تعمل لي على عمل ما بقيت وقد قلت ما قلت[2].

ويستوقفنا البحث هنا على نقطة هامة في مسار الشعر العربي في كل أعصره حيث نرى الشاعر يقول ما لا يفعل، وربما يقسم بما لا يؤمن به. لموقف ما أو ظرف آني يصادفه، يتلون تلون الحرباء، ثم يعود إلى طبيعته بعد تحقيق الهدف. أنشد الفرزدق لسليمان بن عبد الملك القصيدة التي يقول فيها:

---

(1) شوقي ضيف (التطور والتجديد) ص133.

(2) الشايب (تاريخ الشعر السياسي)، ص147. حنتم: جرار لونها أحمر.

ثلاثٌ واثنتانِ فهنَّ خمسٌ وسادسةٌ تميلُ إلى شَمامِ
فبِتْنَ بجانبيَّ مصرَّعاتٍ وبتُّ أفضُّ أغلاقَ الخِتَامِ
كأن مفالقَ الرمَّان ....[1]

فيقول سليمان: أقررت عندي بالزنا يا فرزدق وأنا إمام، ولا بد لي من إقامة الحد عليك بما أوجبه كتاب الله. فيجيب الفرزدق: إن كتاب الله يدرأ عني بقوله: ﴿والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم ترَ أنهم في كلِّ وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾[2] ويتابع الفرزدق: فأنا قلت ما لم أفعل[3].

وما دمنا في ذكر الخمرة والخمرة باب تلجه الزندقة، فقد كان الوليد بن عقبة، والي عثمان على الكوفة، يشرب مع ندمائه ومغنيه حتى الصباح، وصلى بالناس الصبح أربعة وأفسد الصلاة، وقد دخل قصره يترنح ثملاً ويتمثل بأبيات لـ «تأبط شراً»:

ولست بعيداً عن مُدامٍ وقينة ولا بصفا صَلْد عن الخير معزلِ
ولكنني أروي من الخمرِ هامتي وَأمشي المَلا بالساحب المتسلسلِ

وفي ذلك يقول الحطيئة:

شهد الحطيئةُ يوم يلقى ربَّه أنَّ الوليدَ أحقُّ بالعُذْرِ
نادى وقد تمَّتْ صلاتُهم أأزيدُكم؟ ثملاً ولا يدري
حبسوا عِنانَك في الصلاة ولو خلَّوا عنانك لم تزل تجري[4]

واستُقدم الوليد بن عقبة للمثول في حضرة الخليفة، فيقيم علي بن أبي طالب الحد عليه[5].

---

(1) عيون الأخبار 4/ 1047 والسطر الثالث فيه كلمات لاذعة فاحشة يمجها الذوق ...
(2) سورة الشعراء، آية 124 ـ 126.
(3) عيون الأخبار 4/ 107.
(4) مروج الذهب 2/ 344.
(5) المصدر السابق.

إن الغزل الإباحي وشرب الخمرة كفر وزندقة، كما أسلفنا، فكيف بمجالسة الغلمان، التي كانت في الجاهلية وبقيت في بدء الإسلام وتواترت بعد ذلك. وقد نهى عنها (الرسول) في أحاديثه، عن أنس قال: قال (رسول الله): «لا تجالسوا أبناء الملوك فإن النفوس تشتاق إليهم ما لا تشتاق إلى الجواري العواتق» وعن أبي هريرة عن الرسول، قال: «لا تملأوا أعينكم من أولاد الملوك فإن لهم فتنة أشد من فتنة العذارى»[1].

وفي قصة وفد (عبد قيس) على (الرسول)، ومعهم غلام أمرد ... وقد أجلسه الرسول وراءه[2]، ما يدل على أن مجالسة الغلمان قد بقيت متواترة. وسنرى في فصل المجون لاحقاً مدى انكباب الشعراء الماجنين على التغزل بالغلمان. وقد عد ذلك زندقة زمن بني العباس. فلم لا يكون كذلك في صدر الإسلام وعصر بني أمية؟

أما الرقص والغناء فبدعة وكفر في رأي بعضهم. يقول أبو الوفاء ابن عقيل: قد نص القرآن على النهي عن الرقص بقوله: «﴿لا تمشِ في الأرض مرحاً إنك لن تَخْرِقَ الأرضَ ولن تبلُغَ الجبالَ طُولاً﴾[3].

وكذلك الخشوع الزائد، فقد عد نفاقاً. روي عن عمر بن الخطاب أنه نظر إلى شاب قد نكس رأسه، فقال له: «يا هذا ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب، فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فإنما أظهر نفاقاً على نفاق»[4].

هذا على زمن الرسول والخلفاء الراشدين. فكيف كانت الحال زمن بني أمية؟!

(1) تلبيس إبليس، ص274.
(2) المصدر السابق.
(3) سورة الإسراء آية 37.
(4) ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص291.

ثالثاً: الزندقة في العصر الأموي

إن ما رأيناه في التحدث عن جذور الزندقة في صدر الإسلام وزمن بني أمية، يظهر أن بعض الخلفاء المتأخرين من بني أمية[1]، كانوا يعتقدون بالزندقة تأثراً بمؤدبيهم[2] وحتى يصل هذا المعتقد إلى الخليفة، وهو رأس الهرم في مركزية الدولة وهيكليتها، فلا بد أن يكون قد استشرى بين الناس وأخذ مداه إلى أبعد الحدود. وخير الأمثلة في هذا المقام، يزيد بن عبد الملك الذي وصفه أبو حمزة الخارجي في خطبة له، فقال: «إنه يشرب الخمر، ويلبس الحلة قُوِّمت بألف دينار ... حبابة عن يمينه، وسلامة عن يساره، تغنيانه حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قدَّ ثوبه، ثم التفت إلى إحداهما، فقال: ألا أطير»[3]. كما وصف يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بقوله: «يزيد الخمور، ويزيد القرود، ويزيد الفهود، الفاسق في بطنه، المأبون في فرجه»[4] .

أما الوليد بن يزيد بن عبد الملك، وقد كان أبوه[5]، يشرب الخمر ويستقدم المغنين من الحجاز[6]، وما أن يغنيه (معبد) صوتاً حتى يستخفه الطرب ويثب من مكانه آمراً جواريه أن يفعلن كما يفعل، وجعل يدور في الدار وهو يقول:

يـــا دار دوِّريـــــنـــي يــا قــرقــر امــســكــيــنــي

ولم يزل يدور حتى خر مغشياً عليه ووقعن فوقه، ما يعقل ولا

---

(1) كالوليد بن يزيد ومروان بن محمد .

(2) أنظر الهامش رقم 1 و 2 ص59 البحث.

(3) الجاحظ: البيان والتبيين (1 ـ 3) ص276.

(4) المصدر السابق. والمأبون في فرجه المتهم في عرضه .

(5) كما يصفه الخارجي أعلاه .

(6) أمثال (ابن سريج، ومعبد، ومالك الطائي، وابن عائشة، وابن أبي لهب) شوقي ضيف: (التطور والتجديد)، ص292.

يعقلن[1]، لقد شب الوليد بن يزيد، بين هذه المعازف وما يتصل بها من لهو وخمر وقيان، فلا غرو، بعد هذا أن يعيش حياة الترف بأبعد حدودها، ويصادف أن يسلمه أبوه إلى مؤدب يسمى عبد الصمد بن عبد الأعلى، وكان فيه مجون وزندقة[2]. وهكذا اجتمعت بيئة بيته ومعلمه على توجيهه في سلوكه توجيهاً لاهياً ماجناً.

ويحاول عمه هشام إصلاح سيرته فيفشل فيوليه إمارة الحج سنة مائة وست عشرة ليظهر مجونه بالحرمين فيسقط، فيحج الوليد ويحمل معه كلاباً في صناديق ويتشاغل بالمغنين والشراب، ... فيكتب إليه هشام يعنفه ويسأله على أي دين هو، فيجيب:

يا أيها السائل عن ديننا   نحن على دين أبي شاكر
نشربها صرفاً وممزوجةً   بالسخن أحياناً وبالفاتر[3]

وكان أبو شاكر قد قسم أموالاً بمكة والمدينة عندما ولاه هشام إمارة الحج. فقال مولى لأهل المدينة يرد على الوليد:

يا أيها السائل عن ديننا   نحن على دين أبي شاكر
الواهبِ الجُرْدَ بأرسانِها   ليس بزنديقٍ ولا كافرِ[4]

ويموت عمه هشام لحسن حظه فيجمع ندماءه ليشرب معهم نخب الخبر، وهو يقول:

طاب يومي ولذَّ شربُ السُّلافَه   إذ أتاني نعِيُ مَن بالرصافَهْ
وأتانا البريد ينعَى هشاماً   وأتانا بخاتَم للخلافه
فاصطبحنا من خمر عانةَ صرفاً   ولَهَوْنا بِقَيْنَةٍ عزَّافَهْ[5]

---

(1) أغاني 1/ 23.

(2) المصدر السابق 6/ 101.

(3) أبو شاكر لقب «مسلمة» الذي كان يرشحه هشام للخلافة، ومشهور بالنسك والوقار واللين. تاريخ الطبري 4/ 1742.

(4) المصدر السابق، والجرد: جمع أجرد: الفرس الجواد القصير الشعر. أغاني 6/ 109.

(5) أغاني 6/ 109.

ثم ينتقل إلى قصر الخلافة فيحوله إلى مقصف للخمر والعزف والغناء، ويجمع في بلاطه الظرفاء والماجنين والمغنين والندماء والمضحكين[1]. ضارباً بالدين وبشرائعه المستوحاة من القرآن عرض الحائط، يفلسف القرآن بفلسفته فيقول:

ليت هشاماً عاش حتى يرى مكيالَه الأوفرَ قد أُترِعا
لم نأتِ ما نأتيه عن بدعة أحلَّه القرآن لي أجمعا[2]

ويقول أيضاً:

أُشهدُ اللهَ والملائكةَ الأبـ ـرارَ والعابدين أهلَ الصلاحِ
أنّي أشتهي السَّماعَ وشُرْبَ الـ ـكأسِ والعضَّ للخدود الملاحِ
والنديمَ الكريمَ والخادمَ الفا رهَ يَسْعى عليَّ بالأقداحِ[3]

واتهم الوليد لفسقه بالكفر والمانوية، وعلى الأخص عند تحامله على الدين وعندما علق المصحف بالحائط، وأخذ القوس والنبل، فرماه، حتى مزقه، ثم قال بعد أن وقعت عينه على الآية: ﴿واستفتحوا وخابَ كلُّ جبّارٍ عنيد مِنْ ورائه جهنَّمُ ويُسقى من ماءٍ صديد﴾[4].

أتُوعِدُ كلَّ جبَّار عنيدٍ فها أنا ذاك جبَّارٌ عنيدُ
إذا لاقيت ربَّك يوم حشرٍ فقلْ للهِ مزَّقني الوليدُ[5]

ويروي أبو الفرج عن العلاء البندار: أن الوليد كان زنديقاً يقول بالثنوية ويؤمن بماني وبعدم بعث أنبياء لا قبله، ولا بعده[6].

ومما روي عنه، أنه هام بحب جارية نصرانية، وتقشف وغير حليته

---

(1) أنظر أسماءهم في الأغاني 3/ 76 طبعة ساسي. والأغاني 7/ 29 دار الكتب والأغاني 2/ 21 و 6/ 78 و 91.

(2) أغاني 6/ 109.

(3) المصدر السابق 6/ 112.

(4) سورة إبراهيم، آية 15 ـ 16.

(5) أغاني 6/ 125.

(6) المصدر نفسه 6/ 135.

ودخل بستاناً قرب الكنيسة ليراها في يوم عيد، وقال في ذلك:

اضحى فؤادُك يا وليدُ عميدَا ... صبّاً قديماً للحسان صَيُودا
من حُبِّ واضحةِ العوارض طَفْلَةٍ ... بَرَزَتْ لنا نحو الكنيسة عِيدا
ما زلت ارمُقها بعينَيْ وامِقٍ ... حتى بصُرْتُ بها تقبِّلُ عودا
عودَ الصليبِ، فويحَ نفسي، من رأى ... منكم صليباً مثلَه معبودا!
فسألت ربِّي أن أكونَ مكانَه ... وأكونَ في لَهَبِ الجحيمِ وُقُودا[1]

إنها أمثلة لمروق بعض الخلفاء، في عصر بني أمية، عن إيمان الجماعة وأتباعهم هوى أنفسهم بحيث تركوا العنان لها لتوغل في الشرب واللهو والمجون، فيرمون بالزندقة.

أما عامة الناس ومنهم الكتاب والشعراء الذين كانوا من مخضرمي الدولتين ـ الأموية والعباسية ـ فقد كثر عددهم. قال عمرو بن بحر الجاحظ: «كان منقذ بن زياد الهلالي، ومطيع بن إياس، ويحيى بن زياد، وحفص بن أبي ودة، قاسم بن زنقطة، وابن المقفع، ويونس ابن أبي فروة، وعلي بن الخليل، والحمادون الثلاثة، ووالبة بن الحباب ... وبشار بن برد وأبان اللاحقي، يجتمعون على الشرب وقول الشعر، وكل منهم متهم في دينه»[2].

والزندقة متفشية ومعروفة في عصر بني أمية. وقد جاء على لسان يحيى الدمشقي ـ عمل هو وأبوه في قصر عبد الملك بن مروان ـ: في دفاعه عن نصرانيته والرد على المسلمين في أمر المسيح: «الذي يقول إن الله لم تكن له كلمة ولا روح فهو زنديق بنظر المسلمين»[3].

ومن أمثلتنا على تفشي الزندقة وشيوعها، زمن بني أمية، التصريح الذي أدلى به الشاعر الكبير، الفرزدق، في قصيدة يهجو بها إبليس، فهو

---

(1) أمالي المرتضى 1/ 131.
(2) المصدر السابق. سنتكلم عن كل فرد من هؤلاء مفصلاً فيما بعد في باب الزنادقة .
(3) أحمد أمين. ضحى الإسلام 1/ 343.

يعترف بكل صراحة أنه أطاع إبليس سبعين سنة من عمره، بقوله:

أَطَعْتُكَ يا إبليسُ سبعين حجَّةً ... فلما انتهى شيبي وتمَّ تمامي

فررْتُ إلى ربِّي وأيْقَنتُ أنَني ... مُلاقٍ لأيامِ المَنونِ حِمامي[1]

فهذا الشاعر المستهتر الفاسق، يعود إلى ربه بعد سبعين عاماً من العهر والفجور، أليست هذه زندقة؟ ربما سماها بعضهم زندقة ظرف ومجون واستهتار ...

أما الشاعر جرير، أحد الثلاثة الكبار[2]، فقد اعتبر خصوم بني أمية والثائرين عليهم خارجين عن الدين، مارقين منه، وقارن بين هؤلاء وبين قوم نوح وهود وثمود، من مثل قوله في يزيد بن المهلب حين ثار وقتله الأمويون:[3]

آل المهلَّبِ فرَّطوا في دينهم ... وطَغَوْا كما فَعَلتْ ثمودُ فباروا

ولكن هذا الاتهام فيه نظر. فربما كان ذلك لدفاعه الشديد عن بني أمية منذ اتصاله بعبد الملك، وتحوله إلى داعية لهم في كل العالم الإسلامي، وهو القائل في بني مروان:[4]

يا آل مروان إن الله فضَّلكم ... فضلاً عظيماً على من دينُه البدَعُ

ونراه يغالي كثيراً في شعره ودعوته لبني أمية، فاسمعه يقول عندما حاول سليمان أن يثبت ابنه أيوب في ولاية العهد:[5]

أنت الخليفةُ للرحمن يعرفُه ... أهلُ الزبور وفي التوارةِ مكتوب

فهل أن هذا الكلام ينطبق على واقع الحال؟

---

(1) ديوان الفرزدق ـ مكتبة الثقافة ـ بغداد، ص260.

(2) هم الفرزدق وجرير والأخطل.

(3) ديوان جرير ص219. دار الأندلس، بيروت.

(4) الديوان، ص356. دار الأندلس، بيروت.

(5) الديوان ص35. دار الأندلس، بيروت.

لا شك أنها مغالاة قصوى، فليس صحيحاً أن اسم أيوب بن سليمان الأموي قد ورد ذكره في التوراة والزبور، ولا اسم أبيه. ولكن الذي ورد في التوراة هو اسم سليمان الحكيم والنبي أيوب.

ومن كل ما ورد نستخلص وجود زندقة متفشية بين الناس زمن بني أمية، اعتقدها العام والخاص، وتدرجت في طبقات المجتمع من الموالي حتى الخليفة.

ومما يستلفت النظر أن عقاباً على الإلحاد والزندقة قد وضع في هذا العصر، وإن كان قد تم في ظل الخلفاء الأمويين المتأخرين[1]، ولا نستغرب مثل هذا العقاب في عصر عاش فيه الوليد بن يزيد ومطيع بن إياس، وحماد عجرد ... وغيرهم، فلم يكن هذا العصر عصر إيمان ويقين في جملته إنما كان أيضاً عصر شك واستخفاف[2].

القسم الثاني

الزندقة في أوجها (العصر العباسي الأول)، زندقة الفرق والأحزاب والدعاة

في القسم الثاني من الفصل الثاني تحدثنا عن الجذور التاريخية للزندقة، وألمحنا إليها بإيجاز في العصر العباسي[3].

ولما كان العصر العباسي الأول العصر الذهبي للزندقة، فمن الواجب التوقف عنده، عسى أن نسبر غور هذه الحركة الدينية، الاجتماعية، والسياسية.

نادى الإسلام بهدم الفوارق العصبية القبلية، كما نادى بإزالة الفوارق

---

(1) دائرة المعارف الإسلامية، مادة «جهم بن صفوان».

(2) طه حسين، حديث الأربعاء. لمجلد الثاني. دار الكتاب اللبناني، ص470.

(3) أنظر صفحة 68 وما بعد من البحث .

الجنسية. فلا عدناني ولا قحطاني، لا عربي ولا أعجمي. الجميع متساوون في الحقوق والواجبات، ولا فضل بينهم إلا بالتقوى والعمل الصالح. جاء في القرآن الكريم: ﴿يا أيُّها الناس إنَّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لتَعارفوا إنَّ أكرمَكم عند اللهِ أتقاكم إن اللهَ عليمٌ خبير﴾[1].

كما جاء على لسان (الرسول) في خطبة حجة الوداع: «أيها الناس ربكم واحد، وإن أباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب، إن أكرمكم عند الله أتقاكم، وليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى»[2].

غير أنا لا نصل إلى عصر علي بن أبي طالب، حتى نرى العصبيات القبلية تعود جَذَعة بين القبائل، وتشتد اضطراما في عصر بني أمية، فقد اتهم الأمويون بالقسوة في معاملة الموالي الذين رأوا في هذه المعاملة سبباً ليشاركوا الخوارج والدعاة لآل البيت في الثورة عليهم. ولم يكتف الموالي بذلك فأخذ فريق منهم - يمثلهم إسماعيل بن يسار النسائي[3]. يفاخر العرب بحضارة أمته الفارسية وملوكها الساسانيين، والتفَّت منهم جماعات كثيرة حول أبي مسلم الخراساني - داعية العباسيين بخراسان -، حيث زحفوا بجيش ضخم أدالوا به للعباسيين من الأمويين وللفرس من العرب إدالة نفذوا في أثنائها إلى مناصب الدولة العباسية العليا، خصوصاً حين استولى البرامكة على أزمة الحكم في عهد الرشيد، وبنو سهل في عهد المأمون. ومن هنا برزت نزعة الشعوبية[4]، التي ثبتت أركان بنائها على مفاخرة العرب بحضارة الفرس، وقد كان الشعوبين طوائف مختلفة، منهم السياسيون الذين يريدون استرجاع مجد فارس ومنهم القوميون[5]، الذين أحبوا إحياء

---

(1) سورة الحجرات، آية 13 .

(2) الجاحظ: البيان والتبيين 2/ 229. دار صعب .

(3) أغاني 4/ 119 وما بعد. الأعلام 1/ 329.

(4) نسبة إلى الشعوب الأعجمية، وفي مقدمها الشعب الفارسي .

(5) كلمة أطلقناها مجازاً على مشاعر الفرس أنذاك حيث أن كلمة قومية حديثة الاستعمال .

مشاعر قوميتهم ضد العرب، ومنهم مجان وخلعاء اعجبتهم الحضارات الأجنبية وما اقترن بها من خمر ولذة واستمتاع بالحياة. وأشد من كل هؤلاء عنفاً وغيظاً من العرب، الملحدون الزنادقة الذين أبغضوا الدين الإسلامي وكل ما اتصل به من عرب وعروبة[1] وفي هؤلاء يقول الجاحظ: «إن عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان أول ذلك رأي الشعوبية والتمادي فيه وطول الجدال المؤدي إلى الضلال، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وإن أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة ... فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام إذ كانت العرب هي التي جاءت به، وهي السلف والقدوة»[2]. وحاول الشعوبيون أن يستلُّوا قريشاً قوم الرسول من العرب ويدخلوهم في غمارهم فزعم بعضهم أن سائلاً سأل (علياً) عن أهله وأصل قريش فقال: «نحن قوم من نبط كوثي»[3] كما حاول رجالهم البارزون[4] أن يذكوا نار هذه الشعوبية فيمن حولهم من أبناء جلدتهم وقد اختلف الناطقون عنها بين عالم وأديب وشاعر، نذكر منهم أبا عبيدة اللغوي الأخباري المشهور، وقد صب عنايته على تسجيل مثالب العرب وطعن في بعض أسباب الرسول[5]، وعلان الفارسي[6]، وسهل بن هارون[7]، اللذين تعصبا على العرب. وأهم شاعر في العصر أوقد نيران هذه الخصومة، بشار بن برد الذي فخر بمواليه زمن بني أمية، حتى إذا حدث الانقلاب العباسي، انقلب معه يتبرأ من العرب وولائهم ناسباً ولاءه إلى الله ذي الجلال، بقوله:

---

(1) شوقي ضيف. تاريخ الأدب العربي (3) العصر العباسي الأول. ص75 دار المعارف .
(2) الجاحظ: الحيوان (4 ـ 7) ص661 دار صعب .
(3) ياقوت الحموي: معجم البلدان ج4/ 488 دار صادر مادة كوثي .
(4) أمثال البرامكة وآل سهل وآل طاهر ابن الحسين .
(5) ابن النديم ـ الفهرست ص79. دار المعرفة .
(6) المصدر نفسه ص153.
(7) المصدر نفسه، ص174.

أصبحت مولى ذي الجلالِ وبعضُهم   مولى العُرَيْبِ فخُذْ بفضلِك فافخرِ[1]

ومعروف أن جمهور الفرس قبل الإسلام كان مجوسياً على دين زرادشت[2] الذي ظهر في ديارهم حوالي منتصف القرن السابع ق.م. وظهر عندهم في القرن الثالث الميلادي داع هو ماني مزج في تعاليمه الزرادشتية والبوذية والنصرانية[3].

فأخذ من الأولى عقيدة إلهي لنور والظلمة واستباحة الزواج بالبنات والأخوات، ومن الثانية عقيدة التناسخ وتحريم ذبح الحيوان، ومن الثالثة الزهد والنسك. وفي أواخر القرن الخامس الميلادي ظهر في إيران داع جديد هو مزدك وكان ثنوياً[4]، يؤمن بإلهي النور والظلمة وتقديس النار، ويدعو إلى العكوف على اللذات والشهوات والإمعان فيها، وإباحة النساء والأموال وجعلهما شركة للناس.

ولما انتشر الإسلام وسيطر في العراق وفارس، وانتقلت الخلافة إلى بغداد، ظلت المجوسية حية قوية لمعاملة المسلمين اتباعها معاملة أهل الكتب السماوية[5].

ولكن الملل التي ذكرنا انتشرت بين الناس سرا وعلانية مما جعل الخلفاء يتنبهون لخطرها فيتعقبون دعاتها وأتباعها ويتخذون ديواناً خاصاً لمحاكمة من يعتنقها، أنشأ هذا الديوان المهدي وبقي مستمراً حتى عهد الرشيد، ويظهر أن الزنادقة قد نشطوا نشاطاً واسعاً في نشر هذه العقائد، مما أثار حفيظة الخليفة فأمعن في قتلهم وملاحقتهم. يقول المسعودي عن ذلك: «أمعن المهدي في قتل الملحدين والمداهنين في الدين لظهورهم في

---

(1) أغاني: 3/ 21.

(2) الملل والنحل ـ الشهرستاني 2/ 77، دار المعرفة.

(3) المصدر نفسه 2/ 81.

(4) ابن النديم: الفهرست، ص479، وأنظر الشهرستاني: ملل ونحل ص192.

(5) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي (3) العصر العباسي الأول. دار المعارف، ص80.

أيامه وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته لما انتشر من كتب ماني وابن ديصان ومرقيون مما نقله عبد الله بن المقفع وغيره وترجمه من الفارسية والفهلوية إلى العربية وما صنف عن ذلك ابن أبي العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس من تأييد لمذاهب المنانية[1] والديصانية والمرقونية، فكثرت بذلك الزنادقة ظهرت آراؤهم في الناس[2]، ولكن الجاحظ يعزو وصول كتب الزنادقة إلى الظرفاء والمجان والأغبياء من العرب المسلمين، للمتكلمين النصارى وأطبائهم ومنجميهم وعلى الأخص لمرقيون[3]، وابن ديصان[4]، دونما إشارة إلى طرد هؤلاء من صفوف المسيحية. يقول الجاحظ: «لولا متكلمو النصارى وأطباؤهم ومنجموهم ما صار إلى أغبيائنا وظرفائنا ومجاننا وأحداثنا شيء من كتب المنانية والديصانية والمرقونية...»[5].

ولم ينصب المهدي وخلفاؤه للزنادقة حرب السيف وحدها، فقد نصبوا لهم حرب اللسان أيضاً، لسان المتكلمين الذين انبروا يفندون آراءهم ويصنفون في ذلك الرسائل والكتب الطوال. ومن يقرأ كتاب الحيوان للجاحظ يجد فيه الكثير من رد النظام وغيره من المتكلمين على الزنادقة.

وقد قتل الكثير من رؤوس الزنادقة في هذا العصر، منهم ابن المقفع الذي قتل في عهد المنصور، وفيه يقول المهدي: «ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع»[6]، ومنهم صالح بن عبد القدوس والشاعر

---

(1) النسبة إلى ماني إما مناني أو مانوي.

(2) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي (3) العصر العباسي الأول. دار المعارف ص 80. وانظر ملل ونحل 2/ 88 ـ 89 معنى الديصانية والمرقوية.

(3) من أهل آسيا الصغرى كان مسيحياً وانحرف عن تعاليم المسيحية وكون لنفسه مذهباً كان فيه الملهم لابن ديصان. طردته الكنسية سنة 144م. المصدر السابق (ضيف).

(4) من أهل الرها اعتنق المسيحية وشذ عن تعاليمها، طردته الكنيسة. المصدر نفسه.

(5) المصدر السابق، ص81.

(6) أمالي المرتضى 1/ 134. دار الكتاب العربي.

الأعمى بشار بن برد وعبد الكريم بن أبي العوجاء وحماد عجرد، وجميعهم قتلوا في عهد المهدي[1].

واشتد الهادي مثل أبيه في ملاحقة الزنادقة، من بينهم داود بن علي أحد أبناء عمه ويعقوب بن الفضل من سلالة الحارث بن عبد المطلب. وهكذا فعل خلفه هارون الرشيد، وممن تعقبهم يزيد بن الفيض ويونس بن أبي فروة[2].

وكان المأمون إذا سمع بزنديق أمر بحمله إليه ليناظره المتكلمون لرده إلى الإسلام، وإذا لم يرتد أمر بقتله كما فعل بالرجال العشرة[3].

ويظهر من ملاحقة خلفاء بني العباس للزنادقة أنهم لم يكونوا يقتلون على الزندقة إلا بعد ثبوتها على صاحبها، ويظهر أنهم إنما كانوا يقتلون من ينزع نزعة مجوسية وخاصة أصحاب النزعة المانوية كما تشهد بذلك أخبار من قتلوهم، ويؤكد هذا وصية المهدي لابنه الهادي بتتبع الزنادقة، فقد وصفهم له وصفاً أراد به من يعتنقون تعاليم المانوية[4] على أننا يجب أن نشير إلى أن عمليات المطاردة اتَّسعت في عهد المهدي ومن خلفه لتشمل جماعات أخرى ليست مانوية، وأن أسباباً أخرى دفعت السلطة العباسية إلى اتهام هؤلاء بالزندقة ومطاردتهم. وهنا مثلت العداوات الشخصية والتنازع على السلطة والجاه، والأهواء السياسية والدينية، دورها في اتهام البعض بالزندقة، وإلى ذلك يشير المستشرف برنارد لويس حين يقول:

«إن الزندقة غدت اصطلاحاً إدارياً وسياسياً وليس اصطلاحاً كلامياً أو نظرياً فقط وبمعنى آخر فإن تهمة الزندقة كانت تؤدي بصاحبها إلى

(1) المصدر السابق، وأنظر ايضا الأصفهاني: الأغاني 3/ 70 دار الفكر .
(2) تاريخ الطبري 8/ 217. وما بعد. دار سويدان .
(3) المسعودي، مروج الذهب 4/ 9. دار المعرفة .
(4) تاريخ الطبري 8/ 220.

السجن على أقل تقدير بل ربما انتهت بالمتهم إلى القتل»[1].

وكان هناك من اتهم بالزندقة لمجونه وخلاعته، كآدم حفيد عمر ابن عبد العزيز وقد ضربه المهدي ثلاثمائة سوط من دون أن يعترف بالزندقة بل كان يقول:

«والله ما أشركت بالله طرفة عين، ومتى رأيت قرشياً تزندق؟ ولكنه طرب غلبني وشعر طفح على قلبي وأنا فتى من فتيان قريش أشرب النبيذ وأقول على سبيل المجون»[2].

ومن الملاحظ أن اصطلاح الزندقة توسع زمن بني العباس وبات يطلق على كل ذي بدعة أو مشكك من غير أن يكون مانوي المذهب، وهذا ما نراه في تفسير أحمد بن حنبل للزندقة، وما نلاحظه في تفسير الغزالي للزندقة حيث يدخل فيها كل محاولة اجتهادية تخالف المذاهب السلفية وتنحرف عنها في التفسير[3].

وبما أن نشاط ديوان الزنادقة بات قوياً في تعقبهم، فقد لجأ بعض المتهمين في تبرئة أنفسهم من الاتهام بالزندقة إلى كشف ستر خصومهم من المعتنقين لتعاليم الزندقة، وأحياناً لنزوة إنسانية أخرى.

ومثلنا على ذلك الشاعر أبو نواس الذي لم يجد حرصاً ـ على الرغم من اتهامه بالزندقة ـ في أن يهجو ويلصق التهمة بأبان بن عبد الحميد اللاحقي وينفر من أصحابه حيث يقول:

---

(1) Bernard Leuis : The Significance of Heresy. P. 55.

وأنظر فاروق عمر: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، ص137.

(2) ابن النديم: الفهرست، ص230 دار المعرفة. وأنظر فاروق عمر، التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين، ص138.

(3) فاروق عمر، ص140 والغزالي: المنقذ من الضلال، ص18 وما بعدها. دمشق سنة 1934م.

جالستُ يوماً أبانا ... لا دَرَّ دَرَّ أبانِ

فكلُّ ما قال قلنا ... إلى انقضاء الأذانِ

فقال: كيف شهدتم ... بذا بغير عيان

لا أشهد الدهر حتى ... تعاين العينانِ

فقلت: سبحان ربّي ... فقال: سبحانَ ماني

وقمت أسحب ذيلي ... عن هاذل بالقران

عن كافر يتمرّى ... بالكفر بالرحمن

يريد أن يتسوّى ... بالعصبة المجّان

بعجردَ وعُباد ... والوالبي الهجان

وقاسم ومطيع ... ريحانة الندمان[1]

عقائد المجوس أساس للزندقة في العصر العباسي الأول:

كان لبقاء العقائد المجوسية واستمرارها في بلاد فارس والأطراف الشرقية من الدولة العباسية طوال عهد الخلفاء الراشدين والأمويين، أثره في ظهور الحركات الدينية التي سميت بحركات الزندقة في العصر العباسي.

ويمكننا أن نميز ثلاث فئات لشعوب تلك المناطق:

1 ـ فئة اعتنقت الإسلام نتيجة اقتناع كامل، لكنها لم تتخلَّ عن تراث الماضي فكان إسلامها مشوباً بشوائب جمة متجذرة في النفوس التي غدت أرضاً صالحة لنمو مبادئ الزندقة.

2 ـ فئة حافظت على مجوسيتها ولم تعتنق الإسلام وعاملها الخلفاء حتى عصر بني العباس معاملة أهل الذمة، وقد أدى هذا التسامح في نمو المذاهب المجوسية التي نبعت فيها حركات الزنادقة في العصر العباسي الأول.

---

(1) الجاحظ: الحيوان. 4/ 165 ـ 166. دار صعب وأنظر بقية الأسماء التي لم تذكر في الشعر والتي أنكر عليها أبو نواس زندقتها .

3 ـ فئة ثالثة تظاهرت بالإسلام واحتفظت سراً بعقائدها المجوسية إما للتهرب من دفع الجزية، أو لرغبة في تولي المناصب، وأصبحت هذه الفئة في مقدمة المساهمين في حركات الزنادقة في العصر العباسي الأول[1].

أما المجوسية فقد عرفها الشهرستاني بقوله: «المجوس وأصحاب الاثنين المانوية وسائر فرقهم المجوسية، يقال لهم الدين الأكبر والملة العظمى ... وكان لملوكهم مرجع هو موبذ، أعلم العلماء وأقدم الحكماء لا يرجعون إلا إلى رأيه ...»[2] واتخذ المجوس النار رمزاً للضوء وبعبارة أخرى رمزاً لإله الخير.

وتفرعت المجوسية إلى مذاهب عدة أشهرها: الزرادشتية، المانوية، والمزدكية إلى جانب فرق أخرى أقل أهمية، مثل الديصانية، المرقونية، والتناسخية.

عرَّف الكتَّاب دين زردشت بعدة أسماء، فسموه «الثنائية» لأنهم نسبوا إلى أتباعه، أنهم قالوا بوجود إلهين، إله للخير وإله للشر. وأول ما عرف هذا الدين في بلاد فارس، واشتهر باسم المجوسية. وسموه الزرادشتية نسبة إلى زرادشت[3]، وسموا عبدة النار، لأن العبادة تتم في بيت توقد فيه النيران.

أما المانوية[4]، فتقول بالثانوية وتناسخ الأرواح. وقد قامت بدور كبير في جميع حركات الزنادقة في العصر العباسي الأول.

---

(1) الليثي. الزندقة والشعوبية، ص87.

(2) الملل والنحل 1/ 30.

(3) نسبة إلى زرادشت وقد ظهر في أذربيجان توفي نحو سنة 583 ق.م الشهرستاني. ملل ونحل 2/ 77 .

(4) الشهرستاني. ملل ونحل 2/ 81.

والمزدكية[1] تقول أيضاً بالثانوية والشيوعية[2]، وقد ظهرت تعاليم مزدك في صورة خطيرة في العصر العباسي، أظهرها وارثو تعاليمه واعتنقها بعض العرب ليرضوا شهواتهم. وقد عد بعضهم أن تعاليم مزدك هي المسؤولة عن ظهور جماعة الفساق والمجان في ذلك العصر[3].

ومن الملاحظ أن المجوسية وما تفرع عنها من مذاهب، إنما نادت جميعها بالثانوية التي كثر أتباعها زمن بني العباس وعظم شأن معتنقيها حتى نرى أحد أتباعها يناظر الخليفة. قال المأمون لثنوي يناظر عنده: «أسألك عن حرفين فقط، خبرني: هل ندم مسيء قط على إساءته؟ قال: بلى، قال: فالندم على الإساءة إساءة أم إحسان؟ قال: بل إحسان، قال: فالذي ندم هو الذي أساء وغيره؟ قال: بل هو الذي أساء، قال: فأرى صاحب الخير هو صاحب الشر، وقد بطل قولكم، ... فأسكته»[4].

ومن هذه المناظرة بين المأمون والثانوي نستخلص أن هذا الخليفة العباسي ربما لم يعتبر المجوس زنادقة، وإثباتاً لذلك ما رواه ابن النديم، أن المأمون اجتاز في آخر أيامه ديار مضر، يريد بلاد الروم للغزو، فتلقاه الناس يدعون له، وفيهم جماعة من «الحرانيين» وكان زيهم إذ ذك لبس الأقبية، وشعورهم طويلة ... فأنكر المأمون زيهم! وقال لهم: من أنتم من الذمة؟ فقالوا: نحن الحرانيون، فقال: أنصارى أنتم؟ قالوا: لا، قال: فيهود أنتم؟ قالوا: لا، قال: فمجوس أنتم: قالوا: لا، قال لهم: أفلكم كتاب أم نبي؟ فجمجموا في القول، فقال لهم فأنتم إذا الزنادقة عبدة الأوثان، وأصحاب الرأس في أيام الرشيد والدي، وأنتم حلال دماؤكم، لا ذمة لكم ...»[5].

---

(1) المصدر نفسه 2/ 86.

(2) حيث أشاع المساواة بين الناس في المال والنساء، المصدر السابق .

(3) الليثي. الزندقة والشعوبية، ص104.

(4) ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار 2/ 152. دار الكتاب العربي. وأنظر ابن عبد ربه: العقد الفريد 2/ 384. دار الكتاب العربي .

(5) ابن النديم ـ الفهرست، ص445.

ومن كلام ابن النديم نرى أن المأمون قد اعتبر المجوس من أهل الذمة وقارنهم بالنصارى وباليهود. واعتبر الزنادقة عبدة الأوثان ولكن الكتاب كما يبدو قد خلطوا فيمن سموهم زنادقة وركزوا لسبب أو لآخر على أصحاب الاثنين الذين يعودون بمعتقدهم إلى المذاهب المجوسية[1].

زندقة الفرق والأحزاب والدعاة:

إن الإسلام كما فهمه المسلمون، دين ودولة: ولم يكن في الإسلام صنفان متميزان من الوظائف أو الأعمال العامة يخلص أحدهما للدين، ويخلص الآخر للسياسة، لأن الدين والسياسة متلازمان في الإسلام. فالخليفة أو الحاكم يمثل السلطة الدينية والمدنية، إذ يسوس الرعية، ويتولى شؤونها هو وأعوانه، لكن هذه السياسة قائمة على الخضوع للدين.

وقد نجمت في ذلك المجتمع دعوات وآراء سياسية، وجرت في أرضه تيارات متعارضة، اعتمدت في جريانها على السيف وعلى اللسان، نتج عن ذلك أحزاب سياسية حقيقية، لكل منها مذهبه وآراؤه ونظرياته في الحكم.

ولعلنا لا نعدو الحقيقة إذا ما ذهبنا إلى أن الأدب السياسي الذي أثمره الصراع بين الأحزاب والفرق ـ والدفاع عن دعاتها حيناً وذمهم حيناً آخر، في العصرين الأموي والعباسي ـ لهو أضخم تراث ديني ودنيوي في الأدب العربي منذ نشأته إلى العصر الحديث.

الأحزاب:

عوامل نشأتها:

لم يكد «الرسول» يفارق هذا العالم، حتى بدرت العصبية المتوارية ووقع النزاع على من يخلفه بين طائفتين من المسلمين، هما المهاجرون

---

(1) أنظر في ذلك الشهرستاني ملل ونحل. وابن النديم الفهرست، ص445. والطبري تاريخ الأمم والملوك. والمسعودي مروج الذهب. والقالي الأمالي ...

والأنصار. وقد مثل الشعر غبطة المهاجرين القريشيين بالخلافة، إذ قال أبو عبرة القرشي أبياتاً استبشر فيها ببيعة أبي بكر، وندد بتطلع الأنصار إلى الخلافة، منها:

شكراً لمن هو بالثناءِ حَقيقُ   ذهب اللَّجاجُ وبُويعَ الصِّديقُ
إن الخلافة في قريشٍ ما لكُمْ   فيه وربِّ مُحمَّدٍ مَعْرُوقُ[1]

فيرد عليه حسان بن ثابت، مدعياً أن الخلافة يجب ن تكون للأنصار، بقوله:

نصرنا وآوينا النبيَّ ولم نَخَفْ   صُروفَ اللّيالي والبلاءُ على رِجْلِ
فكان جزاءُ الفضلِ منا عليهمُ   جهالَتَهم حُمقاً وما ذاك بالعدلِ[2]

واحتدم اللجاج بين شعراء قريش وشعراء الأنصار[3]، حتى دعا خزيمة بن ثابت الأنصاري إلى السلم والموادعة.

وينقضي عهد أبو بكر وعمر فتزول عوامل الجمع، وتجدُّ أسباب، يُستعلن فيها التذمر، وتدب الفتنة، وتنفجر مراجل السخط على حكم الخليفة ويذهب عثمان ضحيتها. وهكذا تتسع الهوة بين المسلمين، وتعصف فرقتهم بوحدتهم وتنشأ الأحزاب السياسية. ولنستعرضها بإيجاز:

أولاً: الامويون

لما قتل «عثمان»، بويع علي بالخلافة، لكن معاوية، والي دمشق لعمر ولعثمان انشق عليه، ولم يعدم الحيلة لاستمالة الأعوان، فجعل يبذل الأموال، ويطالب بدم عثمان[4]، ويحمل علياً جريرة مصرعه ويرفض

(1) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة 6/ 8 دار الهدى. معروق = نصيب قليل .
(2) المصدر السابق. 6/ 10.
(3) عمرو بن العاص يتهكم بتطلع الأنصار إلى الخلافة، ومالك بن عجلان يرد عليه ... المصدر السابق 6/ 10 وما بعد .
(4) القرابة بين معاوية وعثمان. هو معاوية بن أبي سفيان بن حرب، بن أمية، وعثمان بن عفان، بن أبي العاص، بن أمية .

مبايعته وينادي بالثأر من قاتلي عثمان.

ويتبين اتهام الأمويين لعلي في أبيات للوليد بن عقبة ـ أخي عثمان لأمه ـ يهدد فيها بني هاشم، ويتوعدهم، ويتهم علياً بقتل عثمان لتخلص الخلافة له، كما يتهمه بنهب أملاكه من سلاح وإبل[1].

ويرد الفضل بن العباس بن أبي لهب عليه، مدافعاً عن علي وولايته، متهماً الشاعر المذكور بالفسق والفجور والخروج من الإسلام، يقول:

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم ... أُضِيعَ وألقاه لدى الرَّوْعِ صاحبُه
وكان وليَّ الأمر بعد محمَّدٍ ... عليٌّ وفي كل المواطنَ صاحبُه
عليٌّ وليُّ الله أظهر دينَه ... وأنت مع الأَشْقَيْنَ فيما تحاربه
وقد أنزل الرحمنُ أنَّك فاسقٌ ... فما لك في الإسلام سهمٌ تطالبه[2]

وبلغ الصراع ذروته بين علي ومعاوية، إذ التقيا بصفين عام 37هـ / 657م، وكاد النصر يتم لعلي، لولا الحيلة التي لجأ إليها قائد جيش معاوية، عمرو بن العاص، فقد رفع جنده المصاحف، وكان التحكيم فخُلع علي وثُبِّتَ معاوية.

قامت الدولة الأموية سنة 41هـ (661م)، بعد تنازل الحسن بن علي عن حقه في الخلافة، وتعاقب الخلافة أربعة عشر خليفة، أولهم معاوية بن أبي سفيان وآخرهم مروان بن محمد قتل عام 132هـ / 750م.

ما يهمنا من إيراد الحزب الأموي، السمات العامة لسياسة هذا الحزب وتمحورها من خلال الأدب، شعراً وخطابة وكتابة وحواراً، والمروق بهذا الأدب أحياناً عن جادة الدين والسير في شعاب الزندقة.

انتحل بنو أمية ودعاتهم وأشياعهم خلافة الله ورسوله، وعلى المسلمين أن يطيعوهم ويناصروهم.

---

(1) أنظر الأبيات في الأصفهاني: الأغاني 4/ 177 دار الفكر عن بولاق .
(2) المسعودي: مروج الذهب 2/ 356 ـ 357. دار المعرفة .

يدل على ذلك ما جاء في خطبة زياد عند توليه على البصرة، فقد جهر بالحق الإلهي، الذي آمن به وبالسلطان المعطى لبني أمية من عند الله، بقوله: «أيها الناس إنا أصبحنا لكم ساسة، وعنكم ذادة، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ... فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا، ...»[1].

كما يدل على ذلك ما جاء على لسان حسن بن مالك ـ سيد قحطان بالشام ـ إذ قال لسكان الأردن عندما توفي يزيد بن معاوية، ودعا ابن الزبير لنفسه: يا أهل الأردن، ما شهادتكم على ابن الزبير، وعلى قتلى أهل الحرة؟[2] قالوا: نشهد أن ابن الزبير منافق، وأن قتلى أهل الحرة في النار. قال: فما شهادتكم على يزيد بن معاوية، وقتلاكم في الحرة؟ قالوا: نشهد أن يزيد على الحق، وأن قتلانا في الجنة[3].

واتسم حكم الأمويين بالعصبية، عصبية للعرب ضد العجم والموالي، مما دعا العجم والموالي إلى المعاملة بالمثل، فاستشرت الشعوبية وقويت رويداً رويداً لتظهر بقوة، زمن بني العباس، وتتفتح رئتاها عن زندقة وزنادقة، وعصبية (جاهلية) لليمنية على القيسية، ولبني أمية على بني هاشم.

إن الشاعر جرير يرى أن عبد الملك هو ركن الدين ،ولولاه ما اجتمع المسلمون في مسجد، وأوامره ميمونة مطاعة، وقد فضل الله بني أمية على غيرهم من أهل البدع، أي الأحزاب المعادية. يقول:

لولا الخليفةُ والقرآنُ يقرؤه	ما قام للناس أحكام ولا جَمَعُ
فكلُّ أمرٍ على يُمْنٍ أَمَرْتَ به	فينا مُطاعٌ ومهما قُلْت يُسْتمعُ
يا آلَ مروانَ إنَّ الله فضّلكم	فضلاً عظيماً على مَنْ دينُه البِدَعُ[4]

(1) الجاحظ: البيان والتبيين. دار صعب 2/ 244.

(2) موقعة بالقرب من المدينة بين الزبيريين والأمويين .

(3) الطبري ـ تاريخ الأمم والملوك 5/ 531. دار سويدان .

(4) الحوفي (أحمد محمد) أدب السياسية في العصر الأموي. طبعة خامسة. دار نهضة مصر، ص146.

والفرزدق يرى في عبد الملك صاحب الله، وخليفة ارضه، وندد بابن الزبير، واصفاً إياه بالفساد والمكر والكذب والغدر. يقول:

فالأرض لله ولاّها خليفته وصاحب الله فيها غيرُ مرغوب
بعد الفساد الذي قد كان قام به كذّابُ مكةَ من مِكرٍ وتخريب..[1]

كان كل حزب سياسي يزعم أنه حزب الله، وأن خصومه كافرون ضالون، وهذا صريح في كثير من الشعر، شعر الحزب الأموي، وشعر الأحزاب الأخرى، يقول كعب بن جعيل التغلبي وقد كان أموي النزعة:

أرى الشامَ تكره مُلْكَ العراق وأهل العراق لهم كارهينا
وقالوا: عليٌّ إمامٌ لنا فقلنا: رضينا ابن هندٍ رضينا[2]

ويقول الأخطل هاجياً الأنصار في كناية سافرة واخزة، حيث أراد أن يقرنهم باليهود:

لعن الإلهُ من اليهود عصابةً بالجزْعِ بين جُلَيْجل وصِرار

❀ ❀ ❀

فذروا المكارمَ لستمُ من أهلِها وخذوا مساحِيَكم بني النجّار
ذهبت قريشٌ بالمكارم كلِّها واللؤم تحت عمائم الأنصار[3]

أما كعب بن جابر الأزدي، الذي كان في جند يزيد عند محاربته للحسين بن علي، فإنه يرى إنه حارب بسيفه ورمحه فرقة ليست على دينه، وهو على يقين بصواب ما فعل، يقول:

سَلِي تُخْبَري عني وأنتِ ذميمةٌ غداةَ حُسَيْنٍ والرماحُ شوارعُ
معي يَزَنيٌّ لم تَخُنْهُ كُعُوبُه وأبيضُ مخشوبُ الغِرَارَيْن قاطعُ

---

(1) المصدر نفسه، ص148.

(2) المصدر السابق. ص151.

(3) شعر الأخطل: تحقيق (د. فخر الدين قباوة) منشورات دار الآفاق ـ بيروت. طبقة ثانية 1979. ج2 ص483. جليجل وصرر: جبلان بالمدينة. المساحي. الات من حديد تقشر بها الأرض .

فجرّدتُه في عُصبةٍ ليس دينُهم بديني وإنّي بابن حربٍ لقانعُ[1]

وأعشى همدان يرى أن بني أمية يحكمون بتفويض من الله وأن خصومهم فاسقون كاذبون، أهل بدع، منافقون، ملحدون. يقول في مدح الحجاج لما قضى على ثورة عبد الرحمن بن الأشعث:

أبَى اللهُ إلاّ أن يُتَمِّمَ نورَهُ ويُطفِئَ نورَ الفاسقينَ فَيَخْمَدا
وما أحدثوا من بدعةٍ وعظيمةٍ من القول لم تَصعَدْ إلى الله مَصْعَدا
فلا صِدْقَ في قولٍ ولا صَبْرَ عندهم ولكنَّ فخراً فيهمُ وتَزَيُّدا
سيُغْلَبُ قومٌ غالبوا اللهَ جَهرةً وإنْ كايدوه كانَ أقوى وأكيدا
كذاك يُضِلُّ اللهُ من كان قَلْبُه مريضاً ومن والى النفاقَ وألْحدا[2]

والشاعر كعب الأشعري يصف الأزارقة، الذين حاربهم المهلب في كرمان، بالكفر والزيغ عن الحق وابتداع دين جديد يغاير الأديان السماوية، يقول:

إنَّا اعتصَمْنا بحبلِ الله إذ جَحَدُوا بالمُحْكَمَاتِ ولم نكْفر كما كَفَرُوا
جارُوا عن القَصْدِ والإسلامِ واتَّبَعُوا دِيناً يُخالف ما جاءَتْ به النُذُرُ[3]

ثانياً: الشيعة

نستطيع أن نتأصل النشأة البعيدة لأنصار الإمام «علي بن أبي طالب»[4] فنردها إلى العهد الذي اختير فيه أبو بكر ثم عمر للخلافة، حيث تشيع يومئذٍ لعلي جميع بني هاشم وبني المطلب، وانضم إليهم الزبير بن العوام وثلاثة عشر رجلاً من المهاجرين والأنصار، واحتجوا على تنحية علي[5].

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك 5/ 433. يزني: رمح منسوب إلى ذي يزن. كعوب: ما بين الأنابيب. مخشوب الغرارين: مشحوذ الحدين.

(2) المصدر لسابق. 6/ 376 ـ 377.

(3) المصدر نفسه 6/ 308.

(4) لم يكن أنصار علي يسمون في بادئ الأمر (الشيعة) وإنما استعملت هذه الكلمة للدلالة عليهم بعد قتله، ابن منظور: لسان العرب. مادة (شيع).

(5) السيد محسن الأمين الحسيني العاملي: أعيان الشيعة. مطبعة ابن زيدون، دمشق، 1354هـ/ 1935م. ج1، ص34.

كان عمر قد عهد بالشورى إلى ستة من جلّة الصحابة، اختير عثمان ابن عفان خليفة من بينهم[1].

أغتيل عثمان وبويع علي بالخلافة، فعارضه الزبير وطلحة وانضما إلى السيدة عائشة، ليلتقوا على رأس ثلاثة آلاف مقاتل مع علي في موقعة الجمل، فيقتل الزبير وطلحة، وترد السيدة أم المؤمنين إلى المدينة معززة مكرمة[2].

كما عارضه معاوية ـ والي عثمان على بلاد الشام، والمطالب بدمه ـ فبدأت الرسل تسفر بينه وبين معاوية، فلم يقدر لها نجاح، ثم كانت موقعة صفين، وكان التحكيم.

اتفق ثلاثة من الخوارج على قتل رؤساء الفرقة والصراع برأيهم، علي، معاوية، وعمرو بن العاص في يوم واحد، وتكفل عبد الرحمن بن ملجم بقتل علي، ونجح حيث أخفق صاحباه[3].

توارى التشيع بعد مقتل علي من الكوفة حينا، وانضم أهلها إلى معاوية بعد تصالح الحسن بن علي معه وتنازله له عن الخلافة[4]، ولكن الحادث البشع المنكر الذي أدى إلى مقتل الحسين بن علي في كربلاء، أذكى التشيع إلى أقصى حد وكان عاملاً على وحدة الشيعة ونصرة مذهبهم، وسبباً في ثوراتهم الجارفة، ليثأروا من قتلة الحسين، ثم كان من الأسباب التي نشرت التشيع بين الفرس، أصهار الحسين، فناصروا بني العباس في إسقاط بني أمية[5].

على أن الشيعة قد لقوا من اضطهاد بني عمومتهم ما هو أشد وأقصى ما لقوه من بني أمية من قبل، وهنا تلون الصراع بلون جديد، إذ انقسم

---

(1) أنظر أسماءهم في الطبري: تاريخ الأمم والملوك 4/ 288 وما بعد .

(2) المصدر السابق. 4/ 535 ـ 545.

(3) المسعودي: مروج الذهب 2/ 423 دار المعرفة .

(4) السيوطي: تاريخ الخلفاء. مطبعة السعادة بمصر 1371هـ / 1952م، ص192.

(5) كان الحسين متزوجاً شاهبانو بنت يزدجرد ملك الفرس. الحوفي: أدب السياسة، ص41.

الشيعة إلى علويين وعباسيين، وصار التشيع هو الذي يقصر الإمامة على نسل علي بن أبي طالب[1].

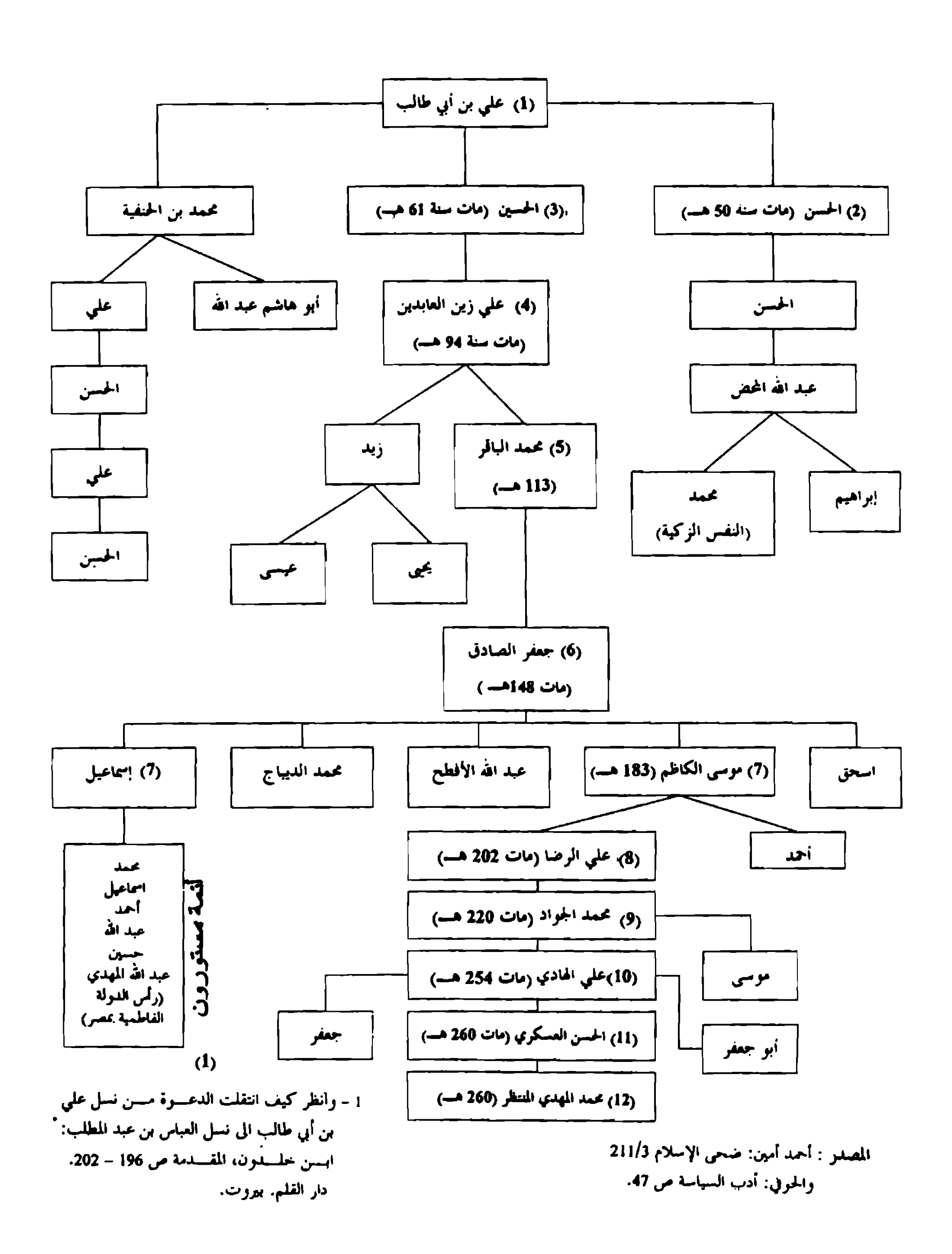
والإمامية لقب يشمل فرق الشيعة، التي أجمعت على أن الإمامة في علي بن أبي طالب، ثم في ولديه الحسن والحسين، ثم انقسموا إلى قسمين:

1 ـ الإمامية الاثني عشرية، وهم الكثرة الغالبة الآن.

2 ـ الإمامية الإسماعيلية وكان منهم الفاطميون والقرامطة. ويتفق القسمان في الأئمة إلى جعفر الصادق.

والجدول الآتي يوضح تسلسل الأئمة في عقيدتيهما:

(1) محسن الأمين: أعيان الشيعة 1/ 16 ـ 19.



1 - وانظر كيف انتقلت الدعـوة مـن نسل علي بن أبي طالب الى نسل العباس بن عبد المطلب: ابـن خلـدون، المقـدمة ص 196 – 202. دار القلم. بيروت.

المصدر : أحمد أمين: ضحى الإسلام 211/3 والحوفي: أدب السياسة ص 47.

وسنربط بين الزندقة وفرق الروافض من الشيعة عند انتهاء الكلام عن الأحزاب.

تعبد الشيعة بحب آل البيت، وتمكن هذا الحب من قلوبهم، حتى صار كأنه ركن من أركان الإسلام. وهذا أبو الأسود الدؤلي يصرح بحبه للرسول ولعميه ووصيه علي، موقن بصوابه في اختياره. وإذا ما كان هذا الحب رشاداً في نظر الأئمة فقد هدى، وإن كان ضلالاً فإنه صواب في نظره، يقول:

أحبُّ محمداً حباً شديداً وعباساً وحمزة والوصِيَّا
يقول الأرذلون بنو قُشَيْرٍ[1] طَوَالَ الدهرِ، ما تنسى عليّا؟
فإن يكُ حبُّهم رَشَداً أُصِبْهُ ولست بمخطِئٍ إن كان غَيَّا[2]

فالدؤلي وجميع شعراء الحزب الشيعي، يشيدون بحبهم لآل البيت، ويتفجعون على موتاهم وقتلاهم، ويرثون أنصارهم، ويحتجون للشيعة مدللين على أن الخلافة حقهم وحدهم، ويحملون على بني أمية خصومهم، ويجهرون بعقيدتهم في رجعة الإمام المنتظر.

ثالثاً: الخوارج

لما كانت وقعة صفين بين علي ومعاوية، وطلب الأخير تحكيم القرآن، اختلف أصحاب علي على هذا الأمر، ونفر منهم قوم مدعين أنه لا يجوز أن يحكم أحد في كتاب الله، وأقاموا في حروراء، وتنادوا بأن الأمر شورى، وبأن البيعة لله، وعليهم أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، وهؤلاء هم الخوارج[3].

---

(1) كانوا أمويي الهوى.

(2) الحوفي: أدب السياسة. ص184 ـ 185.

(3) قال أحد هؤلاء: «لا حكم إلا لله». لذلك سموا «المحكمة». وسموا أيضاً الشراة، لأنهم باعوا أنفسهم في سبيل الله، من قول القرآن الكريم: ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله﴾. وسموا الخوارج لخروجهم عن طاعة الإمام / وسموا أيضاً الحرورية نسبة إلى حروراء، موئلهم بعد التحكيم. المصدر السابق، ص85 الهامش.

كفروا علياً وقتلوه[1] وحاربوا معاوية وخلفاءه حرباً متواصلة في شدّة وشجاعة نادرة. كما كفّروه وعثمان في نهاية حكمه، وطعنوا في أصحاب الجمل: طلحة والزبير وعائشة[2] وقد وضعوا نظرية للخلافة، اختيارٌ حرٌ بين المسلمين، ومن اختير لا يتنازل ولا يحكم، ولا فرق عندهم بين قرشي وغيره، أو بين عربي وأعجمي. مخالفين بذلك نظرية الشيعة التي تقول: بانحصار الخلافة في بيت النبي، ونظرية الأمويين، الذين حصروها في بني أمية. وكذلك العباسيين فيما بعد.

اتصف الخوارج بالشدة في الدين، والإخلاص للعقيدة، والشجاعة النادرة، وهذه الصفات جعلت لهم أدباً خاصاً يمتاز بالقوة شعراً ونثراً: فمن تخير للفظ، وقوة في السبك، إلى فصاحة في الأسلوب.

ومن شعرهم الذي اتهموا فيه مخالفيهم بالكفر والإلحاد، قول أم عمران بن الحارث الراسبي في رثائه لما قتل:

اللهُ أيَّـدَ عـمـرانـاً وطـهَّـره ... وكان عمران يدعو اللهَ في السَّحرِ
يـدعـوه سـرّاً وإعـلانـاً لـيـرزقَـه ... شـهـادةً بـيَـدَيْ مِـلْـحـادةٍ غُـدُرِ[3]

ومن اتهامهم لخصومهم بالكفر أيضاً، قول قطري بن الفجاءة في يوم دولاب[4]:

لـعـمـرك إنـي فـي الـحـيـاةِ لـزاهـدٌ ... وفي العيش ما لم ألقَ أمَّ حكيمِ

❁ ❁ ❁

فـلـو شـهِـدْتـنـا يـوم ذاك وخـيـلُـنـا ... تـبـيـحُ مـن الـكـفّـار كـلَّ حـريـمِ
رأت فـتـيـةً بـاعـوا الإلـه نـفـوسـهـم ... بـجـنّـاتِ عَـدْنٍ عـنـده ونـعـيـمِ[5]

---

(1) المسعودي: مروج الذهب 2/ 423.
(2) أحمد أمين: فجر الإسلام. ص258.
(3) الأستاذ السباعي بيومي: تهذيب الكامل للمبرد. ج1، ص130 ملحادة: مُغالٍ في كفره.
(4) موقعة بخارج البصرة بين نافع بن الأزرق وأتباعه من الخوارج وبين البصريين.
(5) الأصفهاني: الأغاني 6/ 5. دار الفكر عن بولاق.

رابعاً: الزبيريون

إن الحزب الزبيري هو ثالث الأحزاب القرشية، بعد الأمويين والشيعة، ترجع نشأته الأولى إلى ما بعد مقتل «عثمان»، إذ كان الزبير بن العوام وطلحة ابن عبيد الله قد بايعا عليا، ثم خرجا من المدينة إلى مكة بدعوى العمرة، ونقضا بيعتهما، وانضمت إليهما السيدة عائشة، وثاروا على الإمام بدعوى المطالبة بدم عثمان.

كان عبد الله بن الزبير من أشد الدعاة إلى حرب علي، إن لم يكن أشدهم، فهو الذي ثنى خالته عائشة عن العودة إلى المدينة، وشجع أباه على القتال يوم الجمل[1]، وأغلب الظن أنه كان يطمع بالخلافة، حاربه يزيد وهو عائذ بالبيت الحرام، ونصب الحصين، قائد جند يزيد، المجانيق على مكة والمسجد الحرام، ورماهما بالنار والنفط مع الأحجار، وانهدمت الكعبة، واحترقت البنية[2]. كما حاربه عبد الملك بن مروان، وأرسل إليه الحجاج بن يوسف، الذي حاصر مكة، وضرب الكعبة بالمجانيق فاحترقت[3]، وقتل ابن الزبير سنة 73هـ وصلبه الحجاج بمكة.

تحامل شعراء الزبيريين على خصومهم من أمويين وخوارج وكيسانية[4]، وأظهر بعضهم العداء المتأصل الموروث الناتج عن العصبية القبلية، كقول «زفر بن الحارث الكلابي»، عندما هزم جيش ابن الزبير في مرج راهط سنة 64هـ أمام جيش مروان بن الحكم:

فقد ينبت المرعى على دِمنِ الثرى   وتبقى حزازاتُ النفوس كما هيا
فلا صُلْحَ حتى تنْحِطَ الخيلُ بالقنا   وتثأرَ من نسوان كلبٍ نسائيا[5]

---

(1) ابن الأثير ـ الكامل في التاريخ. المطبعة الأميركية 3/ 201.

(2) الأزرقي: أخبار مكة، 1/ 65 ـ 66. دار الأندلس. والطبري: تاريخ الأمم والملوك. 5/ 496 وما بعد.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ 4/ 148 المطبعة الأميركية. والمسعودي: مروج الذهب 3/ 119 وما بعد.

(4) سنتكلم عنهم عند بحثنا في الفرق.

(5) الطبري: تاريخ الأمم والملوك 5/ 548.

ومن حملات شعرائهم على الكيسانية. وعلى زعيمها المختار الثقفي، تكذيبهم لدعواه بأنه يُوحَى إليه، ووصفه بالمخرق على أتباعه، من ذلك قول سراقة البارقي:

ألا أبلِغْ أبا اسحقَ أني ... رأيتُ البُلْقَ دُهْمَا مُصْمَتات

أرِي عينيَّ ما لم تُبصراه ... كلانا عالمٌ بالتُّرَهات

إذا قالوا: أقول لهم: كذبتم ... وإن خَرجُوا لَبِسْتُ لهم أداتي

كفَرْتُ بوحيكم وجعلتُ نَذْراً ... عليَّ قِتَالَكم حتى المماتِ[1]

وقول المتوكل الليثي:

أبلغ أبا اسحق إن جئتَه ... أنّي بكرسيكُم كافرُ[2]

ويقول أعشى همدان في الكرسي:

شهدت عليكم أنكم سبئية ... وأني بكم يا شرطة الشرك عارف

وأقسم ما كرسيكم بسكينة ... وإن كان قد لُفَّت عليه اللفائف

وأن ليس كالتابوت فينا وإن سعت ... شبام حواليه ونهد وخارف[3]

ومن هذه الشواهد الشعرية نرى شعراء الزبيريين يحملون على خصومهم، وكثيراً ما اتهموهم بالكفر، والكفر زندقة، وأشد ما كانت حملاتهم التكفيرية إنما على فرقة الكيسانية، التي سخروا من زعيمها المختار الثقفي، ومن ضلالاته، وإلى جانب تكفير الخصوم نراهم يغالون في تسمية أنفسهم بحزب الله، ووصفهم أتباعه باسم شرطة الله، وهذا واضح في قول أعشى همدان:

وإني امرؤٌ أحببت آلَ محمَّدٍ ... وتابعتُ وحياً ضُمِّنَتْهُ المصاحف[4]

---

(1) المصدر السابق 6/ 55. وأبو اسحق: كنية المختار. الترهات: الأباطيل. دمن الثرى: أماكن الأنعام وحظائرها. والمبرد: الكامل (1 ـ 2) 2/ 169 تحقيق محمد إبراهيم والسيد شحاتة. مطبعة نهضة مصر.

(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك 6/ 84. وقد اتخذ المختار كرسياً غطاه بالديباج، ووضعه في مقدمة الجيش، وكان يقول لجنده: قاتلوا عليه، فهو لكم كالتابوت لبني إسرائيل.

(3) المصدر السابق 6/ 83: شبام ونهد وخارف: أسماء لأحياء من العرب.

(4) المصدر السابق. 6/ 84.

وفي قول سراقة البارقي:

جزى الله خيراً شرطةَ الله إنَّهم شفوا من عُبَيْد الله أمسِ غليلي[1]

وفي قوله أيضاً لأتباع المختار:

كفرت بوحيكم وجعلت نذراً عليَّ قتالكم حتى الممات[2]

خامساً: المرجئة

نشأ هذا الحزب بعد منتصف القرن الأول للهجرة، فهو أحدث نشأة من الشيعة والخوارج، وهو مغاير في رأيه للإثنين معاً، يرى الحياد في الحكم على المتنازعين من المسلمين بعد مقتل عثمان. يدل على ذلك قول ابن عساكر: «إنهم قدموا المدينة، ... فقالوا: تركناكم وليس بينكم اختلاف وقدمنا عليكم وأنتم مختلفون، فيعضكم يقول: قتل عثمان مظلوماً، وبعضكم يقول: كان علي أولى بالحق وأصحابه، ... فنحن لا نتبرأ منهما، ولا نلعنهما، ولا نشهد عليهما، ونرجئ أمرهما إلى الله، حتى يكون هو الذي يحكم بينهما»[3].

أما تسميتهم بالمرجئة فتعود إلى سبب من أربعة:

1 ـ أرجأوا أمر الشيعة والأمويين والزبيريين إلى الله، ولم يقضوا عليهم بخطأ.

2 ـ أخروا الحكم على مرتكب الكبائر إلى يوم القيامة، وأعطوه الرجاء في المغفرة[4].

---

(1) المصدر السابق. 6/ 92.

(2) المصدر السابق. 6/ 55.

(3) المرجئة أربعة أصناف: مرجئة الخوارج، ومرجئة القدرية، ومرجئة الجبرية، والمرجئة الخالصة. والمراد هنا الخالصة. الشهرستاني: ملل ونحل 1/ 187 .

(4) رجح نيكلسون هذا الرأي .
Nicholson, R,A. A Literary History of the Arabs. Combridge 1956. P.220.
والمصدر السابق: 1/ 195 وما بعد .

3 ـ قالوا: إن الإيمان تصديق بالقلب واللسان، ولا حاجة إلى الأعمال، لكأنهم قدموا القول وارجأوا العمل أي أخروه[1].

4 ـ سموا بذلك لأنهم أرجأوا أي أخروا علياً عن الدرجة الأولى إلى الرابعة، على نقيض الشيعة[2].

هذه الصبغة العامة لنشأة المرجئة توحي بأنهم حزب سياسي يقف من الجميع موقف الحيدة، وقد عبر عن ذلك ثابت بن قطنة خير تعبير بقصيدة طويلة، جاء فيها:

نُرجي الأمورَ إذا كانت مُشبَّهةً ... ونصدقُ القولَ فيمن جارَ أو عَنَدا

❀ ❀ ❀

أما عليٌّ وعثمانُ فإنهما ... عبدان لم يشركا بالله مُذْ عَبَدَا

الله يعلم ماذا يحضران به ... وكل عَبْدٍ سيلقى الله منفردا[3]

على أن خصومهم حملوا عليهم، واتهموهم بالكفر والشرك، في مثل قول «نصر بن سيّار»:

فامنحْ جهادَك من لم يرجُ آخرةً ... وكن عدوًّا لقوم لا يُصلُّونا

واقتلْ مُواليَهم منا وناصرَهم ... حيناً تكفِّرُهم والعنهمُ حينا

فاقتلهم غضباً لله منتصراً ... منهم به ودع المرتابَ مفتونا

إرجاؤكم لزَّكُمْ والشِّرْكَ في قَرَنٍ ... فأنتمُ أهلُ إشراكٍ ومُرجونا

لا يُبعدُ الله في الأحداثِ غيرَكم ... إذ كان دينُكُمُ بالشِّرْكِ مقرونا[4]

سادساً: المعتزلة

في نشأتها وتطورها امتداد للمرجئة، ظهرت في العراق ثم ذاعت تعاليمها هناك وفي دمشق. تتلخص مبادئ المعتزلة في الأصول الآتية:

---

(1) ابن منظور: لسان العرب. الزبيري: تاج العروس مادة رجأ.

(2) الشهرستاني: ملل ونحل 1/ 195 وما بعد.

(3) الأصفهاني: الأغاني: 13/ 52 دار الفكر عن بولاق.

(4) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 7/ 101.

1 ـ القول بالمنزلة بين المنزلتين، أي أن مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن، لكنه فاسق يستحق النار.

2 ـ القول بالقدر، وإن الله لا يخلق أفعال الناس، بل الناس تخلق أعمالهم.

3 ـ القول بالتوحيد، ونفي الصفات الأزلية لله من علم وقدرة وسمع وبصر ...

4 ـ القول بقدرة العقل على معرفة الحسن والقبيح[1].

أما تسميتهم بالمعتزلة فربما كان لموقف الحسن البصري من مرتكب الكبيرة وتسميته بالمنافق، ومخالفة تلميذه، واصل بن عطاء، لرأيه وتسميته بالفاسق، ومن ثم اعتزاله عنه[2]، وتابعَ واصلَ على رأيه عمرُو بنُ عبيد[3].

هذا من جهة، ومن جهة ثانية فربما سموا كذلك، إذ زعموا أنهم اعتزلوا فئتي الضلالة في نظرهم على الأقلّ، يريدون أهل الجماعة والخوارج[4].

إن من نتاج قولهم بقدرة العقل على تمييز الحسن من القبيح نظرية خلق القرآن.

يروى أن الجعد بن درهم مولى بني الحكم هو أول من تكلم في خلق القرآن بدمشق، ثم طُلب فهرب إلى الكوفة، فتعلم منه الجهم بن صفوان. ويقال إن الجعد أخذ آراءه عن أبان بن سمعان، وأبان كان تلميذاً لطالوت الذي يقول بخلق التوارة ،وكان زنديقاً[5].

---

(1) أحمد أمين: فجر الإسلام: ص297 ـ 298.

(2) الشهرستاني: ملل ونحل: 1/ 53 وما بعد والبغدادي: الفرق بين الفرق، ص20. والزبيدي: تاج العروس مادة (عزل). ابن منظور: لسان العرب مادة (عزل) .

(3) المصدر السابق .

(4) المصدر نفسه .

(5) ابن الأثير: الكامل في التاريخ 5/ 196 المطبعة الأميرية. وابن نباته: سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون مطبعة الحلبي 1957م ص168.

إن للمعتزلة آثار بعيدة المدى والعمق في الأدب والعلم والفكر لمسائل كثيرة جديدة في الإلهيات وغيرها.

وهم أساتذة المناظرة، وجهابذة البلاغة والخطابة، والرواد الأولون لمزج الفلسفة اليونانية بالدين، في دفاعهم عن عقيدتهم[1].

زندقة الفرق:

أولاً: فِرَق الشيعة

ما يهمنا من هذه الفرق، هو الربط بين الزندقة وبين ما اتهم به بعضها من انحراف عن جادة الدين، أو الفكر، أو المجتمع، أو السياسة.

وجميع فرق الشيعة مجمعة أن الإمامة في علي بن أبي طالب، ثم في ولديه الحسن والحسين، ثم انقسموا إلى قسمين:

1 ـ قسم نقلها من الحسين إلى محمد بن الحنفية، وهم الكيسانية، وتوقف عنده، وبعض منهم ساقها إلى ابنه أبي هاشم ثم افترقوا بعده إلى خمس فرق، رأت إحداها أن الإمامة انتقلت من أبي هاشم إلى بني العباس[2].

2 ـ قسم نقلها من الحسين إلى ابنه علي زين العابدين، ثم إلى ابنه محمد الباقر، ثم إلى ابنه جعفر الصادق. وهؤلاء انقسموا إلى قسمين:

أ ـ الإثني عشرية، وهم الكثرة الغالبة.

ب ـ الإسماعيلية، ومنهم الفاطميون والقرامطة[3].

وكلا الفريقين يتفقان في الأئمة إلى جعفر الصادق. لكن الإثني عشرية يسوقونها من بعده إلى موسى الكاظم، ومن ثم بالتوالي إلى (المهدي

---

(1) ابن النديم: الفهرست: ص204 طبعة ليبزج 1859 ومطبعة الاستقامة مصر.

(2) أنظر جدول «الإمامة» ص127 من البحث.

(3) المصدر السابق. ص 127 من البحث.

المنتظر)[1]، ويذهب بها الإسماعيلية من جعفر الصادق إلى ابنه إسماعيل، ومنه إلى ابنه (محمد المستور)، ومَنْ بَعْدَه، إلى عبد الله المهدي رأس الدولة الفاطمية[2]. أشهر فرقهم:

1 ـ الكيسانية:

أما كيسان المنسوبة إليه «الكيسانية» فمختلف فيه[3]، وأما الثابت فهو أن المختار الثقفي تزعم الفرقة سنة 66هـ، وقد كان حافلاً بالدهاء والتقلب، بدأ حياته السياسية عثماني النزعة لا علوي الوجهة[4]، ثم صار من شيعة الحسين بن علي[5]، ثم من أنصار ابن الزبير[6] ثم دعا إلى محمد بن الحنفية[7]، وجدَّ في تقريب الموالي إليه، فتكاثروا في فرقته، وأخلصوا له، ووثقوا به[8]، وصفه المبرد بأنه كان خارجياً، ثم زبيرياً، ثم رافضياً[9]. ذكر عنه كثير من الأضاليل، منها: أنه ادعى النبوة، وأن جبريل ينزل عليه، ويأتيه بوحي من الله[10].

أما أصول مذهب هذه الفرقة، فتدور حول الإمامة والإمام. فالإمامة ـ

---

(1) الجدول. المصدر السابق .

(2) الجدول: المصدر السابق .

(3) أهو كيسان، مولى علي بن أبي طالب الذي قتل يوم صفين؟ أم كيسان تلميذ ابن الحنيفة؟ أم كيسان رئيس حرس المختار الثقفي؟ أم هو المختار نفسه المسمى كيسان والمكنى بأبي عمرة وأبي اسحق؟ الشهرستاني: ملل ونحل 1/ 196 البغدادي: الفرق بين الفرق، ص38.

(4) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 6/ 22 وما بعد .

(5) المصدر السابق .

(6) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: 2/ 55و4/ 72 المطبعة الأميرية. وابن كثير: البداية والنهاية: 8/ 249 .

(7) المسعودي: مروج الذهب 3/ 87. والشهرستاني: ملل ونحل 1/ 197.

(8) الدينوري: الأخبار الطوال ص291. مطبعة السعادة. مصر .

(9) السباعي بيومي: تهذيب الكامل: 2/ 367.

(10) ابن عبد ربه: العقد الفريد: تحقيق محمد سعيد العريان. 5/ 365. مطبعة الاستقامة، القاهرة 1359هـ / 140م. والشهرستاني: ملل ونحل 1/ 398 وما بعد .

الخلافة ـ واجبة على المسلمين، وحق لعلي وبنيه، ومحمد بن الحنفية هو الإمام، وهو ممتاز بين البشر، مطهر معصوم من الخطأ، عليم بالشريعة، طاعته مفروضة على الناس[1].

آمن الكيسانية بالتقية والرجعة قبل الحساب. وقد أظهر ذلك السيد الحميري في قوله:

إذا ما المرءُ شاب له قَذالُ ... وعلَّله المواشطُ بالخِضابِ
فقد ذهبت بشاشتُه وأودى ... فقُمْ يا صاحِ نبكِ على الشبابِ
إلى يوم تثوب الناسُ فيه ... إلى دُنياهمُ قبل الحساب
أَدينُ بأن ذلك دينُ حقٍّ ... وما أنا في النشور بذي ارتياب
كذاك الله أخبر عن أُناسٍ ... حَيُوا من بعدِ دَرْسٍ في التُراب[2]

2 ـ الزيدية:

ينتسبون إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي. مذهبهم أقرب إلى الاعتدال من الكيسانية، تأثروا بآراء المعتزلة لأن زعيمهم كان تلميذاً لواصل بن عطاء[3].

افترقوا إلى عدة فرق، أشهرها: الجارودية، السليمانية، الصالحية والبترية. حصروا الخلافة في بني علي من فاطمة، سواء أكان من نسل الحسن أم من نسل الحسين[4]. رفض شيعة الكوفة رأي مؤسسهم في عدم تكفير أبي بكر وعمر، فسموا رافضة[5].

(1) المصدر السابق. والبغدادي: الفرق بين الفِرق ص38 ويما بعد.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص522. تحقيق د. علي عبد الواحد وافي، مطبعة البيان العربي، مصر 1376هـ / 1957م.

(3) الشهرستاني: ملل ونحل 1/ 207 وما بعد.

(4) الحوفي: أدب السياسة: ص59 جدول بخلفائهم.

(5) الشهرستاني: ملل ونحل 1/ 29. تحقيق محمد بدران. مطبعة مخيمر بالقاهرة.

3 ـ الرافضة:

نشأت فرقة الرافضة من الزيدية، حيث أن بعض أصحاب زيد بن علي فارقوه، ونكثوا بيعته، لما رفض تكفير أبي بكر وعمر، وقالوا: إن إمامنا منذ اليوم جعفر بن محمد بن الحنفية، وهو أحق بالأمر، ولا نتبع زيداً، فليس بإمام، فسماهم زيد الرافضة[1] منهم (الاسحاقية) الذين زعموا أن علياً هو الله، يظهر في كل وقت فهو الحسن في آنٍ، والحسين في آنٍ آخر، وهو الذي بعث محمداً. ومنهم (الغرابية) الذين ادعوا أن علياً هو شريك محمد في النبوة. ومنهم أيضاً (الذمّامية) الذين يذمون جبريل، لأنه حسب زعمهم كان مأموراً بالنزول إلى علي فنزل إلى محمد[2].

هذه الفرق جميعها، وإن اختلفت في اسم الإمام، فإنها اتفقت على أن الإمام الأول هو علي بن أبي طالب، كما اتفقت على رجعة المهدي المنتظر، فمنهم من سماه محمد بن الحنفية، ومنهم من قال: إنه محمد بن الحسن العسكري، ومنهم من ادعى أنه غير هذين[3].

كان كُثَيِّر الشاعر كيساني المذهب، يؤمن بأن محمد بن الحنفية هو المهدي الذي سيملأ الأرض عدلاً، بعدما ملئت جوراً، وهو الذي خبر عنه كعب الأحبار، يقول:

هو المهديُّ خبَّرَناه كعبٌ   أخو الأحبار في الحِقَبِ الخوالي[4]

ويصرح كثير في أحقية علي وبنيه بالخلافة، وأن ابن الحنفية سيعود، بقوله:

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك 8/ 272. والحوفي: أدب السياسة: 63.

(2) ابن أبي حديد: شرح نهج البلاغة: 2/ 176.

(3) ابن الجوزي: نقد العلم والعلماء. ص103. مطبعة السعادة بمصر 1340هـ. والبغدادي: الفرق بين الفرق: 21 وما بعد.

(4) الأصفهاني: الأغاني 9/ 16 دار الكتب.

ألا إن الأئمةَ من قريشٍ وُلاةَ الحق أربعةٌ سواءُ
عليٌّ والثلاثةُ من بنيه همُ الأسباطُ ليس بهم خفاءُ
فسبطٌ سبطُ إيمانٍ وبِرٌّ وسبطٌ غيَّبَتْه كربلاءُ
وسبطٌ لا يذوق الموتَ حتى يقودَ الخيلَ يتبعُها اللواءُ[1]
تغيَّبَ لا يُرى فيهم زماناً برَضْوَى عندَه عسلٌ وماءُ[2]

أما السيد الحميري الشاعر فيدين بأن ابن الحنفية لم يمت، وأنه في جبل رضوى يقيم بين نمر وأسد يحرسانه، وسيعود، بعد غيبته ليملأ الأرض عدلاً وخيراً، يقول:

ألا قل للوصيِّ فَدَتْك نفسي أطلتَ بذلك الجبلِ المُقاما

إلى أن يقول:

وما ذاق ابنُ خَوْلَةَ طعمَ موتٍ ولا وارَتْ له أرضٌ عِظاما[3]

ثانياً: فرق الخوارج

بقي الخوارج حزباً واحداً حتى سنة 65هـ، عندما انفضوا عن ابن الزبير[4] تاركين مكة، فشخص بعضهم إلى اليمامة، وهم النجدات أتباع نجدة ابن عامر الحنفي، واتجه الباقون إلى البصرة، وهم الأزارقة أتباع نافع بن الأزرق. ثم تشعبوا إلى عشرين فرقة، أشهرها:

---

(1) سبط الإيمان والبر الحسن بن علي. وسبط كربلاء الحسين. والسبط الحي محمد بن الحنفية.

(2) الأصفهاني: الأغاني 9/ 14. وكثير: الديوان 1/ 185 طبعة الجزائر.

(3) الشهرستاني: ملل ونحل 1/ 196 مطبعة مخيمر بالقاهرة. وخولة: أم محمد بن الحنفية. وأنظر للسيد الحميري قصيدة يبين فيها أن ابن الحنفية حي وهو موجود بمكة إبان الحج، يرى وفود الحجاج ولا يروه. الأصفهاني: الأغاني 7/ 4 دار الكتب.

(4) أتوا مكة ليحاربوا مع ابن الزبير ضد بني أمية، لظنهم أنيه يدين بمذهبهم، ولما رأوه يخالفهم في ذلك تركوه.

1 ـ الأزارقة:

هم أتباع نافع بن الأزرق، أكثرهم من تميم، ثم انضم إليهم كثير من الموالي[1]، كفروا علياً والمسلمين جميعاً، ما عداهم، واستحلوا قتلهم. لم يستحلوا ذبائح غيرهم من المسلمين، لا يزوجون ولا يتزوجون من غيرهم، لا يقبلون بشهادتهم[2].

كان سَبْرَةُ بن جعد، قد اتصل بالحجاج وسامره، ثم عاد إلى مذهبه الخارجي، وها هو يصف مخالفيهم بالكفر ويلعنهم في قوله:

فمن مبلغ الحجاج أن سميره   قَلَى كل دِيْنٍ غيرَ دين الخوارج
رأى الناسَ ـ إلا مَن رأى مثل رأيه   ملاعينَ ترَّاكين قصد المخارجِ[3]

2 ـ النجدات:

أتباع نجدة بن عامر الحنفي، خرجوا عن الأزارقة وخالفوهم في عدة مسائل، إذ احلوا الزواج والميراث والذبائح منهم وإلى غيرهم، وتقبل شهادة المسلم الآخر[4] خرج منهم (الفُدَيْكية) و(العَطوية) و(العجاردة) ثم (الميمونية) التي أحلت نكاح بنات أولاد الأخوة والأخوات، بدعوى أن القرآن لم يحرمهن، وحُكي عنهم أيضاً أنهم أنكروا أن تكون سورة يوسف من القرآن، لأنها في زعمهم قصة إغراء[5].

3 ـ الإباضية:

أتباع عبد الله بن إباض التميمي. نظروا إلى مخالفيهم على أنهم كفار

---

(1) الشهرستاني: ملل ونحل 1/ 109 ـ 122. والبغدادي: الفرق بين الفرق ص62. مطبعة الحلبي 1364هـ / 1945م .

(2) السباعي بيومي: تهذيب الكامل للمبرد 1/ 83.

(3) المسعودي: مروج الذهب 1/ 39. المطبعة البهية المصرية 1346 هـ .

(4) المبرد: الكامل 12/ 177 ـ 178. تحيق إبراهيم شحاتة. مطبعة نهضة مصر. وابن عبد ربه: العقد الفريد 1/ 114و214. تحقيق محمد العريان. مطبعة الاستقامة القاهرة 40.

(5) الشهرستاني: ملل ونحل 1/ 116. مطبعة مخيمر بالقاهرة .

غير مشركين[1]. ولهذا أباحوا الزواج والإرث والشهادة من مخالفيهم[2].

4 ـ الصفرية:

أتباع زياد بن الأصفر، مذهبهم مزيج من مذهب الأزراقة والنجدات والإباضية[3]، وقيل إنهم سموا صفرية لأن ألوانهم كانت مصفرة، وفي هذا يقول ابن عاصم الليثي ـ وكان خارجياً ثم صار مرجئاً:

فارقت نجدةَ والذين تزرَّقوا   وابنَ الزبير وشيعةَ الكذّاب
والصُّفْر الآذانِ الذين تخيَّروا   ديناً بلا ثقةٍ ولا بكتابِ[4]

ومن شعراء الصفرية المقدمين عمران بن حطان السدوسي وقد كان من علمائهم وخطبائهم أيضاً، مدح ابن ملجم، قاتل علي بن أبي طالب[5].

ومن شعرائهم معاذ بن جوين بن حصين سجنه المغيرة والي الكوفة سنة 41هـ. فقال في الحبس:

ألا أيُّها الشارون قَدْ حان لامرئٍ   شرى نفسه لله أن يترحَّلا
أقمتم بدار الخاطئين جهالةً   وكلُّ امرئٍ منكم يُعادُ لِيُقْتَلا[6]

وليس لنا أن نذهب بعيداً في الربط بين الزندقة والمغالين من الأحزاب وبعض هذه الفرق الرافضة، وأكثرهم يقول: إن الله ذو قدٍّ وصورة وحد، يتحرك ويسكن، ويدنو ويبعد، ويخف ويثقل، وإن علمه محدث، وإنه كان غير عالم فعلم، وهو يشاء كل فاحشة ويريد كل معصية[7]، وكثير

---

(1) ابن خلدون: المقدمة ص520. مطبعة البيان العربي بمصر 1376هـ / 1957 م .
(2) الأصفهاني: الأغاني: 20/ 98و105. دار الكتب .
(3) الشهرستاني: ملل ونحل 1/ 123.
(4) أبو العباس محمد بن يزيد (المبرد). الكامل في اللغة والأدب: شرح المرصفي، ط: القاهرة 2/ 292، والشطر الأول من البيت الثاني مكسور الوزن. والكذاب: المختار الثقفي .
(5) الأصفهاني: الأغاني 16/ 156 وما بعد و7/ 6.
(6) الطبري: تاريخ الأمم ولملوك: 5/ 187 دار سويدان .
(7) الخياط (أبو الحسين عبد الرحيم) الانتصار. القاهرة 1914م، ص5.

من فرقهم كانوا يشركون مع الله إلهاً آخر، أو يزعمون أن إمامهم هو الله[1]، وفي أمثالهم يقول السيد الحميري:

قومٌ غَلَوْا في عليٍّ لا أبا لَهُمُ ... وأجشموا أنفاً في حُبّه تَعَبَا
قالوا هو الله، جلَّ الله خالقُنا ... عن أن يكونَ ابنَ شيءٍ أو يكون أبا[2]

وبعض الروافض من هذه الفرق كفروا بالقيامة، والجنة والنار[3]، وبعضهم يقول برجعة الأموات إلى الدنيا قبل القيامة، وفي ذلك يقول أحد شعرائهم:

إلى يومٍ يؤوبُ الناس فيه ... إلى دنياهم قبلَ الحسابِ[4]

إن أغلبهم يكفر الصحابة، أو بعضهم، لتركهم بيعة علي، ويهجونهم هجاء مراً[5]، ولا يتورعون عن سب زوجات الرسول[6].

هذه هي بعض الملامح البارزة في زندقة هاتيك الروافض من الفرق وغلاة الأحزاب. وهناك سواها مما يمت إليها بصلة قوية، مثل إباحة المحرمات وتحليل الشهوات، أليس في هذه الصفات تأثيرات واضحة وولوج في ثنائية المعتقد، ومذاهب التناسخ وما أشبه.

إن هذه الفرق المذهبية، المختلفة في الفكر والانتماء السياسي، قد أقامت حياتها بالإخلاص لمذهبها، تنفذ شعائره وفروضه بدقة، وتنسى في سبيل ذلك كل ما فرضه عليها دينها من أبسط الواجبات.

---

(1) البغدادي: الفرق بين الفرق ص236 وما بعد. دار المعرفة.
(2) الخياط: الانتصار ص148.
(3) أمثال المنصورية، أتباع أبي منصور العجلي. البغدادي: الفرق بين الفرق. ص245.
(4) المصدر السابق، ص59. دار المعرفة.
(5) من هذه الفرق: الجراودية، السليمانية، البترية، الكاملية، وغيرهم. المصدر السابق. ص30 ـ 54.
(6) الجاحظ: الحيوان 1/119. دار صعب. أنظر قول السيد الحميري في نعت عائشة زوج الرسول بصفات نعفُّ عن ذكرها.

ولعل مشكلة الخلافة والإمامة كانت أولى المشكلات، التي اختلفت حولها الفرق المذهبية، يليها في الأهمية مشكلة الجبر والاختيار، وقد ظهر مدى هذا الخلاف في الشعر الذي أوردناه في هذا الفصل، وما سنورده فيما يلي. وقد نجد من الشعراء من ينتصر لهذا الحزب أو ذاك، أو ينتصر للقدرية، أو يقف بجانب الجبرية، أو هو مذبذب الرأي بين الكل. كصالح بن عبد القدوس الذي ينفي الجبرية بقوله:

ولا أقول إذا ما جئت فاحشةً إنّي على الذنب محمولٌ ومجبورُ

أو هو متحير بين الجبر والاختيار بقوله:

لم تخلُ أفعالُنا اللاتي نُذلُّ بها إحدى ثلاثِ خصالٍ في معانيها
إما تفرّدُ مولانا بصَنْعتها فاللومُ يسقطُ عنا حين تأتيها
أو كان يشركُنا فاللومُ يلحقُه إن كان يلحقُنا من لائم فيها
ولم يكن لإلهي في جنايتها صُنْعٌ فما الصُّنْعُ إلا ذنبُ جَانيها[1]

أما أبو العتاهية فيذهب مذهب الجبرية بقوله:

الحمدُ لله يَقْضي ما يَشاءُ ولا يُقْضَى عليه وما لِلْخَلقِ ما شاءُوا
لم يُخْلقِ الخلقُ إلا للفناءِ معاً تَغْنى وتَبْقى أحاديثٌ وأسماءُ[2]

وبشار يجري مجرى الجبرية بقوله:

خُلقتُ على ما فيَّ غيرَ مُخَيَّرٍ هوايَ ولو خُيِّرْتُ كنتُ المُهذَّبا[3]

هذا من الناحية الإيمانية أما من حيث الدفاع عن حزب أو فرقة أو مذهب وهجاء من عداها، فخير ما يمثل ذلك قول: ثابت قطنة:

---

(1) الراغب الأصفهاني (أبو القاسم حسين بن محمد) محاضرات الأدباء. المطبعة الراقية. القاهرة 1326هـ. 2/ 185.

(2) الديوان: ص1. نشر لويس شيخو. المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1914م .

(3) بشار بن برد: الديوان: تحقيق محمد عاشور لجنة الترجمة القاهرة 1950 ـ 1957 ثلاث أجزاء 1/ 246.

يا هندُ فاستمعي لي إنَّ سيرتَنا أن نَعْبُدَ الله لم نُشْرِك بهِ أَحَدَا
نُرجي الأمورَ إذا كانت مُشبَّهةً ونَصدُقُ القولَ فيمن جارَ أو عَنُدَا

إلى أن يقول:

كلُّ الخوارج مُخطٍ في مَقَالتهِ ولو تَعَبَّدَ فيما قال واجتَهَدَا[1]

ولا ينسى عفو الله ـ والمرجئة تجيز هذا العفو، حتى مع عدم التوبة ـ مخالفاً رأي المعتزلة التي ترى أن مرتكب الكبيرة يستحق العقوبة حتماً ما لم يتب مرتكبها، فيقول:

ولا أرى أن ذنباً بالغٌ أحداً مِ النَّاسِ شِرْكاً إذا ما وحَّدوا الصَمَدَا

ويظهر أن أبا نواس قد مال إلى هذا المذهب ينال عفو الله عن آثامه، يقول:

لا تحظُرِ العَفْوَ إنْ كنتَ امرءاً حَرِجَاً فإنَّ حَظْرَكَهُ بالدينِ إزراءُ[2]

وما دام العفو واقعاً فلم لا يشرب ويرتوي من الصهباء، يقول:

وثقتُ بعفوِ الله عن كلِّ مسلم فلست عن الصهباءِ ما عشتُ مُقْصِرا[3]

وينصب المعتزلة أنفسهم للرد على أصحاب الضلالات والفتن، فحين قام بشار يعتذر لإبليس اللعين في أن النار خير من الأرض، بقوله:

إبليسُ أفضلُ من أبيكم آدمٍ فتنبَّهوا يا مَعْشَرَ الفُجَّارِ
النارُ عنصُرهُ وآدمُ طينةٌ والطينُ لا يَسمو سموَّ النارِ[4]

يتصدى لهذه الدعوة، صفوان الأنصاري، شاعر المعتزلة بقصيدة طويلة، يدور موضوعها على المفاضلة بين النار والأرض[5].

---

(1) الأصفهاني: الأغاني 13/ 52 دار الفكر عن بولاق.
(2) أحمد أمين: ضحى الإسلام 3/ 329 دار الكتاب العربي.
(3) أبو النواس: الديوان ص259. رواية الصولي /مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (1265).
(4) هدارة: اتجاهات الشعر العربي. ص332. دار المعارف بمصر.
(5) الجاحظ: البيان والتبيين 1/ 29 ـ 32 الشركة اللبنانية للكتاب.

ومما لا شك فيه أن المساجلات الأدبية ـ وعلى الأخص الشعرية منها ـ كان لها الأثر الكبير في أدب القرن الثاني. وقد وصف هذا الأثر أحمد أمين بقوله: «لقد أغنى المعتزلة الأدب من حيث المعاني وقوة العقل وسعة الذهن، وتوليد الأفكار العقلية والنظر إلى الكون والطبيعة، ... لقد نقلوا الأدب من لفظ رشيق إلى معنى عميق، ومن عبارات مجملة منمقة إلى موضوعات واسعة مسهبة. وبعد أن كان الأدب خلواً من الموضوع جعلوا له موضوعاً، فمن موضوعه: الحيوان والبخلاء والإماء والقيان، إلى غير ذلك من موضوعات لم تكن في الأدب قبل المعتزلة»[1].

ومهما يكن من شيء فإن شعر الفرق والأحزاب التي كفرت بعضها البعض، وكثيراً ما رمى الخصم خصمه بالزندقة ـ كان اتجاهاً جديداً حقاً في الشعر العربي، له قيمة تاريخية وفكرية كبرى، وهو يصور الاصطراع بين المذاهب والفرق، التي كانت متعددة، لا يحيط بها حصر ولا فكر، ولعل خير ما نختم به الكلام عن صراع الفرق، تلك الأبيات التي قالها محمد بن يسير، في إظهار ضيقه بهذه الفرق والمذاهب[2]:

يا سائلي عن مقالةِ الشِّيَعِ ... وعن صُنوفِ الأهواءِ والبِدَعِ
دَعْ مَنْ يقودُ الكلام ناحيةً ... فما يقولُ الكلام ذو وَرَعِ
كلُّ أناسٍ بَدِيُّهُم حسنٌ ... ثم يصيرون بعدُ للشُّنَعِ
أكثرُ ما فيه أن يُقالَ له ... لم يكُ في قولهِ بمُنْقَطِعِ

كما أن الرياشي ينشد بيتين يؤكد فيهما رأي سابقه من الضيق بالتناحر بين الفرق والمذاهب المختلفة، يقول:

قد نقّر الناسُ حتى أحدثوا بِدَعاً ... في الدين بالرأي لم تُبعَثْ بها الرُّسُلُ
حتى استخفَّ بحقِّ الله أكثرُهُم ... وفي الذين حُمِّلُوا مِنْ حقِّهِ شُغُلُ[3]

---

(1) أحمد أمين: ضحى الإسلام 3/ 314. دار الكتاب العربي.

(2) أبو العباس المبرد: الكامل في اللغة والأدب. نشر وليم رايت. طبعة ليبزج / 1864م. ص142.

(3) المصدر نفسه، ص141.

زندقة ثورية:

نستطيع قسمة حركة الزندقة إلى قسمين:

أ ـ قسم عملي قام فيه الزنادقة بحركات ثورية بدأ أكثرها من بلاد فارس، وامتدت إلى نواحي الدولة العباسية.

ب ـ قسم فكري ظهر فيه زنادقة مسالمون ينشرون دعوتهم عن طريق الكتابة والشعر والفلسفة. وقد ساعد على قيام تلك الحركات الثورية عوامل كثيرة، أهمها الاضطرابات والفتن التي نشبت بين مؤيدي الحزب العلوي، والأموي، والخوارج، وبين معارضيهم، وكذلك بين العباسيين الطامعين في الخلافة، وزادها معاملة عمّال الخلفاء لمرؤوسيهم، كإثقال كاهلهم بالضرائب. وانقلاب بعض خلفاء العباسيين على مناصريهم من الشخصيات والأسر الفارسية[1].

إن أغلب حركات الزنادقة ظهرت في الطرف الشرقي للدولة العباسية، ولم يكن الخلفاء العباسيون يتصدون لها إلا إذا وجدوا منها خطراً على ملكهم. أما الزنادقة المسالمون فانتشروا وكثروا لما كانوا يدعون إليه من مبادئ مغرية، كالمساواة في الأموال، وإباحة شرب الخمر والزنا، وكان ذلك نوع من الديمقراطية الفاسدة[2].

ولما كنا بصدد الزندقة الثورية المسلَّحة، التي عبّأ الخلفاء العباسيون الجيوش للقضاء على دعاتها، فسنتعرض لهؤلاء الدعاة تباعاً.

أولاً: حركة بيهافريد

إنها طليعة حركات الزنادقة في العصر العباسي، بدأت في حياة أبي مسلم، وهدفت إلى إحياء العقائد المجوسية القديمة، مؤسسها بيهافريد من رستاق نيسابور، وكان زمزمياً[3]، مجوسياً، يقدس النار، ويدعي أنه يوحى

---

(1) كقتل السفّاح لأبي سلمة الخلال، والمنصور لأبي مسلم، والرشيد للبرامكة.

(2) كما يقول حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي 2/ 115 مكتبة النهضة المصرية.

(3) الشهرستاني: ملل ونحل 2/ 80. دار المعرفة.

إليه بالسر[1]. «وجاء أنه وضع كتاباً، وأمر أتباعه باستقبال الشمس عند السجود على ركبة واحدة، وحرم عليهم الميتة، وذبح الحيوان حتى يهرم»[2]. دعا إلى فكرة الحلول، أي أن روح الله تحلّ في شخص ثم تنتقل إلى آخر وهكذا، بحيث تمنح صاحبها الخلود. ونادى بفكرة الرجعة إلى الدنيا بعد موت الإنسان[3].

ثانياً: الحركة السنبانية

بعد مقتل أبي مسلم سنة 137هـ، ظهرت حركة «سنباذ»، الذي آلمه مصرع زعيمه، فثار مطالباً بالانتقام له[4]، أعلن سنباذ الثورة، واستفاد من تعاليم بيهافريد من ناحية الحلول والرجعة، فزعم أن أبا مسلم لم يقتل، إنما حول نفسه إلى حمامة بيضاء هارباً من المنصور، وهو حي لم يمت.

حملت حركته طابع الإلحاد والزندقة، والتف حوله أنصار كثيرون بعد أن انتشرب دعوته انتشاراً واسعاً، قتله أحد عمال المنصور في طبرستان[5].

ثالثاً: الحركة الإسحاقية

من الزنادقة الثوار اسحق التركي، أحد أتباع «أبي مسلم»، أيضاً، ظهر بين سنتي 137هـ و140 عقب مقتل سيده، يروي «ابن النديم» عن عقيدته روايتين: الأولى تذكر أن أبا مسلم حي يعيش في جبال الري ويخرج منها، والثانية تذكر أنه ادّعى النبوة وهو مرسل من قبل زرادشت الحي[6].

---

(1) البيروني (محمد بن أحمد): الآثار الباقية من القرون الخالية: ليبزج 1878م. ص210.

(2) الشهرستاني: ملل ونحل 2/ 80.

(3) Brown. Edward G.A. Literary History of Persia, (London) 1909. P.309-310.

(4) الطبري: تاريخ الأمم والملوك 7/ 495. دار سويدان.

(5) المسعودي: مروج الذهب 3/ 306. دار المعرفة.

(6) ابن النديم: الفهرست، ص483. دار المعرفة.

رابعاً: الخُرَّميّة

1 ـ بابك الخرمي: إن بلاد فارس التي نشأ فيها بابك الخرمي، كانت كثيرة المعتقدات والبدع، قبل الإسلام وبعده، ظهرت فيها طوائف دينية مختلفة ومنها «الخرمية»[1]، التي أسسها مزدك في أيام قباذ والد كسرى أنوشروان، وقد نشأت من الخرمية المزدكية طائفة الخرمية البابكية، نسبة إلى بابك الذي ادعى الألوهية، وقضّ مضاجع الدولة العباسية في أيام المأمون، وحتى أيام المعتصم.

يرى بعض المؤرخين أن بابك هذا من سلالة أبي مسلم الخراساني، وقد ثار في وجه العباسيين انتقاماً له، وأن حركته استمرار لحركة المقنَّع الخراساني والراوندية وغيرها[2].

إن لمذهب الخرمية فروعاً كثيرة، لسنا بصدد حصرها في هذا المكان، وجميع فرقها مجمع على القول بالرجعة، ويقولون بتغيير الاسم وتبديل الجسم (يعني القول بالتناسخ)، يعظمون أبا مسلم ويلعنون أبا جعفر لقتله، ويكثرون الصلاة على مهدي بن فيروز لأنه من ولد فاطمة بنت أبي مسلم ... أصل دينهم القول بالنور والظلمة[3]، ومحصول أمرهم التعطيل والإلحاد، مبدأهم تأليه البشر. فالخرمية يقولون: «آمنا بك يا روح بابك كما آمنا بك يا روح جاويدان»[4].

رفض الخرمية جميع الفروض الدينية، كالصلاة والصوم والحج والزكاة. وأباحوا شرب الخمر والمحرمات والاشتراكية في النساء[5]. ويرى

---

(1) قيل أنهم سموا خرمية نسبة إلى (خرما) امرأة مزدك التي عملت على نشر عقائد هذا المذهب بعد قتل زوجها، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي 2/ 108.

(2) الدينوري (أبو حنيفة، أحمد بن داود): الأخبار الطوال. ليدن 1888، ص297.

(3) المقدسي (مطهر بن طاهر) البدء والتاريخ. باريس 1899 ـ 1907، 4/ 30 ـ 31.

(4) المصدر السابق 5/ 134.

(5) نظام الملك: سياسة نامة 2/ 298.

Nizam oul-Moulk: Siasset Naméh. Paris (1891-1897).

«فان فلوتن» أن هناك صلة بين اسم الخرمية ومعنى كلمة (خرم): لذيذ، فيقول: «إذا ما تكلمنا عن خرم دينياً، فلكي نبين أن هؤلاء كانوا لا يعرفون ديناً غير اللذة»[1].

نادى بابك الخرمي بمبادئه فلقيت رواجاً عظيماً بين الفرس، وقام بحركة زندقية أشد خطراً من سابقاتها، وأكثر منها عنفاً، لما اكتنفها من حروب دامت نحو اثنين وعشرين عاماً سارت الخلافة العباسية بعدها قدماً نحو الضعف والانحلال.

2 ـ الأفشين والمازيار: يشاء القدر أن يشهد عهد المعتصم حركتين من أكبر حركات الزندقة الثورية وأعنفها، وقد تحدثنا عن الخرمية التي هددت ملك المعتصم ودامت عشرين عاماً ونتحدث الآن عن حركة أخرى، هي حركة المازيار والأفشين.

إنها فرع من الشجرة الخرمية التي عملت على إحياء تعاليم مزدك المجوسية الشيوعية الفوضوية، والتي كما ذكرنا سابقاً قد بدأت في عهد قباذ، وأنعشها بابك الخرمي، وتولاها بعده المازيار ثم أيدها الأفشين.

انتهز المازيار فرصة انشغال العباسيين بحرب بابك الخرمي، فنظم صفوفه واتصل سراً ببابك والأفشين[2]، وعمل الثلاثة على التخلص من حكم العرب ومن الإسلام[3]، فكانت حركاتهم في الواقع ثورات دينية وسياسية معاً.

كانت عيون المعتصم منبثة في كل مكان تكشف عن الزنادقة، فكان

---

(1) حسن إبراهيم حسن (ترجمة) السيادة العربية. ص99 ـ 100، القاهرة 1934. محمد زكي إبراهيم.

Nizam oul moulk: Siasset Naméth. Paris (1891-1897).

(2) كان المازيار والياً للمأمون في طبرستان، كما كان الإفشين قائداً لإحدى الفرق التي غزت عمورية زمن المعتصم.

(3) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي. ص2/ 112.

من الطبيعي أن ينكشف سر المازيار على حقيقته، وخيانته، واتصاله ببابك الخرمي، ورئاسته لجماعة دينية تعتنق التعاليم المزدكية. يقول البغدادي عن هذه التعاليم المازيارية: «ينسبون أصل دينهم إلى أمير كان لهم في الجاهلية اسمه شروين، ويزعمون أنه أفضل من محمد ومن سائر الأنبياء، وقد بنوا في جبلهم مساجد للمسلمين يؤذن فيها، وهم يعلمون أولادهم القرآن لكنهم لا يصلون في السر، ولا يصومون شهر رمضان، ولا يرون جهاد الكفرة»[1]. كما يقول: براون عن الأفشين: «لم يكن في ميوله ونشأته الفارسية أقل وطنية وعطفاً على الفرس من هذين الرجلين[2]، اللذين صحباه في نهايته المحزنة»[3]، ويتهمه المسعودي بوضعه أصناماً في داره، كان يعبدها، ووجود كتب للزنادقة[4]، كما يتهمه والمازيار بعد أن قبض عليه، «أقر المازيار على الأفشين أنه بعثه على الخروج والعصيان، لمذهب كانوا اجتمعوا عليه ودين اتفقوا عليه من مذاهب الثنوية والمجوس»[5].

وقد عبّر أبو تمام عن عقيدة الأفشين في هذه الأبيات:

قد كان بَوَّأه الخليفةُ جانباً	من قلبهِ حَرَماً على الأقدار
فإذا ابنُ كافرةٍ يُسرُّ بكُفرهِ	وَجداً كوَجْدِ فرزدقٍ بنُوَار
مازال سرُّ الكفر بين ضلوعِه	حتى اصطلى شَرَّ الزنادِ الواري
صلى لها حيَّاً وكان وقودَها	مَيْتاً، ويدخلُها مع الفُجَّارِ[6]

واتهم المعتصم الأفشين بعدة تهم عند محاكمته، منها أن أهل ولايته كانوا يكتبون إليه بعنوان «إله الآلهة، من عبده فلان بن فلان»، ومنها أكله

(1) البغدادي: الفرق بين الفرق ص269. دار المعرفة .
(2) بابك الخرمي والمازيار.
(3) Brouwn : Lit. Hist. For parsia 1/330. London.
(4) المسعودي: مروج الذهب 4/ 62. دار المعرفة.
(5) المصدر نفسه 4/ 61.
(6) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي. 2/ 113.

المخنوقة ورفضه الاختتان، واحتفاظه بالكتب الوثنية، وتنكيله بالمسلمين، وادعاؤه الألوهية[1].

وقد علق (ميور) على محاكمة الأفشين بقوله: «إنها تبين بجلاء تمسك أهالي ما وراء النهر بدينهم الوثني، وإن إسلام بعض أهالي فارس إنما كان ظاهرياً، وأنهم كانوا متمسكين بعقائدهم المجوسية القديمة، ينتهزون الفرصة للعودة إلى دينهم القديم، ومصداق ذلك ما رأيناه من ظهور حركات سنباذ، وأنصار أبي مسلم، وبابك»[2].

خامساً: حركتا الراوندية والسيسية في عصر المنصور

من الحركات الزندقية التي واجهها أبو جعفر المنصور عقب مقتل أبي مسلم حركة الراوندية[3]، مؤسسها رجل أبرص يدعى (الأبلق)، دعا الناس إلى تعاليم فاسدة «فزعم أن الروح التي كانت في عيسى بن مريم، صارت في علي بن أبي طالب، ثم في الأئمة واحداً بعد واحد، إلى إبراهيم بن محمد (سبط العباس عم محمد) وأنهم آلهة». وهكذا فإنه دعا إلى نظرية الحلول وتناسخ الأرواح، كما أباح لأتباعه الحرمات والملذات، «فكان كل رجل منهم يدعو الجماعة إلى منزله، فيطعمهم ويسقيهم ويبيح لهم الحرمات»[4]. ظهرت خطورة تعاليمهم بعد مقتل أبي مسلم، عندما رأت الراوندية أن تزج بالخليفة في تعاليمها وتضعه موضع الحرج، فزعموا أن الخليفة المنصور هو ربهم، وهو الله[5]. حاربهم المنصور باعتبارهم زنادقة، يريدون أن تعود المجوسية، أو أحد أشكالها، وقتلهم شر قتلة.

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك 10/ 365 ـ 367 المطبعة الحسينية القاهرة.

(2) Muir: Willian Temple. " The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall" (Edinburgh 1924). P.p. 518-519.

(3) نسبة إلى مدينة راوند مهد دعوتهم القريبة من أصفهان.

(4) الطبري: تاريخ الأمم والملوك 9/ 306 ـ 307 المطبعة الحسينية ـ القاهرة.

(5) المصدر نفسه.

على أثر حركة الراوندية في سلسلة حركات الزنادقة، قامت حركة عنيفة في جهة خراسان، تزعمها رجل يدعى «أستاذ سيس». ادعى هذا الرجل النبوة[1]. فوجدت دعوته آذاناً صاغية، ذلك أن أهل خراسان كانوا على استعداد لتقبل أية دعوة ثورية ضد الحكم العربي، ويتجلى ذلك في العدد الكبير الذي استجاب للدعوة.

علم المنصور بخبر هذا «الزنديق» الثائر فأرسل جيشاً قضى عليه[2].

سادساً: حركة المقنعية

صاحب هذه الحركة رجل من «مرو» بخراسان، يسمى حكيم أو عطا أو هاشم، ويلقب بالمقنع، لأنه كان يخفي وجهه بقناع من ذهب، ويضع على عينيه قطعة من حرير أخضر يستر بها عوره[3].

كان المقنع من أخطر الزنادقة الثوار الذين رفعوا راية العصيان ضد الدين الإسلامي، وضد الخليفة المهدي، لذا ركز المهدي كل جهوده حتى نجح في القضاء عليه. كان المهدي من أكثر الخلفاء العباسيين تديناً وتمسكاً بأهداب الإسلام، يقول ابن طباطبا عنه: «كان المهدي شهماً فطناً، شديداً على أهل الإلحاد والزندقة، لا تأخذه في إهلاكهم لومة لائم»[4].

ادعى المقنع الألوهية، وكان يقول: «الله خلق آدم فتحول في صورته، ثم في صورة نوح، ثم إبراهيم ... ثم في صورة محمد ... ثم في صورة أبي مسلم الخراساني، ثم انتقل إليه، ويقول أيضاً: «إني انتقل في

---

(1) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن واضح): تاريخ اليعقوبي. النجف سنة 1351هـ 3/ 115.

(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك 8/ 29 ـ 32 و 371 دار سويدان.

(3) البغدادي: الفرق بين الفرق ص257 ـ 258. دار المعرفة.

(4) ابن طباطبا (محمد بن علي، المعروف بابن الطقطقي) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. ص161 فيما بعد (الفخري). مطبعة الموسوعات، القاهرة. 1317هـ

الصور، لأن عبادي لا يطيقون رؤيتي في صورتي التي أنا عليها، ومن رآني احترق بنوري»[1].

أسقط المقنع الصلاة والزكاة والصوم والحج، وأباح للناس الأموال والنساء، كما أباح تعاليم مزدك، وأثر كثيراً في أتباعه فسجدوا له وعبدوه، وطلبوا منه العون في الحروب بقولهم: يا هاشم أعنا[2].

كان المقنع يمتاز عن بقية الزنادقة الثوار، بإظهار الحيل والمخاريق التي لم يتمكن أهل زمانه من فهمها، كما لم تمدنا المصادر بمعلومات وافية نستطيع أن نصل بها إلى حقيقة هذه الخدع، وخصوصاً عندما أظهر قمراً يطلع ويراه الناس على مسيرة شهر، ثم يأفل[3]. وفي بدر المقنع الزائف هذا يقول أبو العلاء المعري:

أفق إنما البدرُ المقنّعُ رأسُه ضلالٌ وغيٌّ مثل بدر المقنَّع[4]

ويشير إليه الشاعر هبة الله بن سناء الملك (أبو القاسم) بقوله:

إليك فما بدرُ المقنَّع طالعاً بأسحر من ألفاظ بدر المعمَّم[5]

ولكن موت المقنع على يدي المهدي لم يضع حداً لتعاليمه الزندقية التي سرت بين الناس سريان النار بالهشيم، ووصل أوار مثل هذه النيران إلى كثير من مدن فارس والعراق وإلى بغداد أيضاً، فتزندق بعض وجوه القوم والأدباء والكتاب والشعراء، فضلاً عن كثير من العوام. وأدرك المهدي أن تعاليم الزندقة لم تقتصر على أشكال حركات ثورية قادها أشخاص كثيرون، كما مر سابقاً، بل تخطت ذلك، وولجت أبواب المجتمع بكل طبقاته، وهددت الإسلام ديناً ودولة، فأنشأ ديوان الزنادقة،

---

(1) البغدادي: الفرق بين الفرق: ص258.

(2) ابن طباطبا: الفخري ص162.

(3) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي. 2/ 106.

(4) المصدر نفسه.

(5) ابن خلكان (شمس الدين الشافعي): وفيات الأعيان. ط بولاق 1282هـ. 1/ 453.

ليجتهد في «طلب الزنادقة، والبحث عنهم في الآفاق وقتلهم»[1]. وعهد بهذا الديوان إلى رجل، أطلق عليه اسم: «صاحب الزندقة»[2]، وأمر بوضع الكتب للرد على متكلميهم ومناظرتهم، وتابعه في هذه السياسة ابنه الهادي الذي روي عنه أنه قال: «لئن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها»[3]. وعلى رغم محبة «الرشيد» للشعر والشعراء، وتجاهله ما ذهبوا إليه في مجونهم وعبثهم بالدين، فقد أبقى في وظيفة صاحب الزندقة، وعاقب من ثبتت عليه تهمة الزندقة ـ سواء كان عربياً أو أعجمياً ـ وقد قيل: إنه من أسباب نكبة البرامكة اتهامهم بالزندقة[4].

القسم الثالث
أنواع الزندقة

1 ـ زندقة دينية:

بعد عرضنا في الفصل السابق للزندقة الثورية، نتحدث الآن عن نوع آخر من الزندقة هو الزندقة (الفكرية) شمولياً. وقد دعا إليها رجال فكر وأدب وعلم وكتّاب ودين وسياسة وشعر وغيرهم ... وكانت هذه الزندقة أشد خطراً على الدين الجديد، وعلى المجتمع، من الزندقة الثورية.

أما الطوائف التي كانت تؤمن بهذا النوع من الزندقة أو ذاك، فلا يمكن حصرها أو تحديدها، ولو أن بعض الباحثين قد حاول ذلك[5]. وينبغي التنبه إلى أن الاتهام بالزندقة، وخصوصاً بين الشعراء، كان يستخدم

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 6/ 289 المطبعة التجارية بالقاهرة 1949.
(2) الأصفهاني: الأغاني 3/ 73 والجهشياري (محمد بن عبدوس) الوزراء والكتاب، ص156. القاهرة 1357هـ / 1938م.
(3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 1/ 42، المطبعة الحسينية، القاهرة.
(4) ابن النديم: الفهرست، ص473. دار المعرفة.
(5) عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام، ص34.

أحياناً كسلاح منن خصوم سياسيين، كما كان يستخدم من الشعراء أنفسهم بدافع الخصومة الأدبية والفكرية.

وقد يكون من الصعب أن نقسم زندقة الزنادقة إلى أنواع وأبواب، إذ ربما وجد وراء كل منهم دوافع متعددة وآثار مختلفة، تارة يلج باب الزندقة الدينية، وطوراً يمجن ويتظرف فيدخل ميدان الزندقة الاجتماعية. ولكنا سنحاول ما أمكن أن نتبين الفجر من الغسق والضحى من العصر.

إن الحركات الزندقية التي شهدها العصر العباسي الأول، قد تركت أثرها في الحياة الدينية لذلك المجتمع المتعددة الأجناس.

أول هذه الآثار الدينية، ظهور الزهد[1]، المتطرف أحياناً، كرد فعل لحركات الزندقة.

ومن هذه الآثار الدينية، ظهور علم الكلام، إذ إن هذا المجتمع المتعدد الجنسيات، والذي كان كثير من أناسه على دين اليهودية والنصرانية والمانوية والزرادشتية والبراهمة والصابئة والدهرية، وكانوا قد نشأوا على تعاليم دياناتهم، ومنهم العلماء فيها ...، فقد ألبسوا معتقدهم الجديد (الإسلام) لباسهم القديم. وهذا يعلل ما نراه في كتب الفرق من أقوال ربما ابتعدت عن الإسلام[2] وقد انبرى جماعة من علماء المعتزلة للردّ على الزنادقة والملحدين، أمثال: واصل بن عطاء، والعلاّف، وإبراهيم النظام، وأخذ هؤلاء بمناقشة أقوال الزنادقة والردّ عليهم وإلزامهم بالحجة والبرهان[3]. ونشأ عن هذا الجدل الديني أدب غزير.

وتبدو خطورة الزندقة في المجال الديني، في محاولة الترويج لتعاليم «ماني» بين طبقة الزهاد والمتصوفة، يقول الجاحظ: «يظهرون التقذذ من الصيد، ويرون أن ذلك من القسوة ... ومن لم يرحم الكلب لم يرحم الظبي

---

(1) سنتحدث عنه لاحقاً في القسم الثاني من الفصل الخامس للبحث.

(2) أحمد أمين: ضحى الإسلام 3/ 7 طبعة القاهرة 1956.

(3) سميرة مختار الليثي: الزندقة والشعوبية: ص180، القاهرة 1968.

... ومن لم يرحم العصفور لم يرحم الصبي، وصغار الأمور تؤدي إلى كبارها»[1]. وهم بذلك يلجأون إلى سبيل الغموض والإبهام والمغالطة.

ولعلّ أخطر أشكال الزندقة الدينية، تلك التي تظاهر أهلها بالإسلام، إما للكيد له أو بمعنى أدق لهدمه. يقول المرتضى في هذا المجال: «نشأ جماعة ممن يتستر بإظهار الإسلام، ويحقن بإظهار شعاره والدخول في جملة أهله، دمه وماله، زنادقة ملحدون وكفّار مشركون، لأنهم يدغلون في الدين ويموهون على المستضعفين، بما يظهرونه من لباس الدين هم فيه على الحقيقة عار»[2].

الأحاديث المزيّفة:

أقدم المتسترون بالدين الجديد على تزييف الأحاديث ووضع الكثير منها مُسندةً إلى الثقات من الصحابة والتابعين، بغية المغالطة والزيغ، وأشهر من فعل ذلك، عبد الكريم بن أبي العوجاء، الذي عرف باتصالاته بالحسن البصري وجعفر الصادق، ويقول البغدادي عنه: «أنه كان مانوياً يؤمن بالتناسخ، يشكك الناس في عقائدهم، ويتحدث عن التعديل والتجويد»[3].

ويحكى عنه أنه كان يضع الأحاديث على لسان النبي فيحرم الحلال ويحلل الحرام وقد اعترف بذلك عندما قبض عليه وأيقن بالهلاك، بقوله: «لئن قتلتموني لقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة»[4].

---

(1) الجاحظ: الحيوان 4/ 136 ـ 137 مطبعة السعادة. القاهرة 1325هـ / 1907م.

(2) المرتضى (الشريف علي بن الحسين الموسوي العلوي) أمالي المرتضى. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت 1387هـ / 1967م. 1/ 127.

(3) البغدادي: الفرق بين الفرق ص349، القاهرة 1948.

(4) المرتضى: الأمالي: 1/ 128، وانظر الأصفهاني: الأغاني 3/ 147 مطبعة التقدم بالقاهرة 1323هـ .

إن الأعاجم وضعوا أحاديث كثيرة لإظهار مكانتهم وفضلهم على العرب، وكذلك فعل العرب لإظهار تفوقهم، مثل «من غشّ العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله مودتي». ومثل» أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة في الجنة عربي»[1].

إنكار الأديان:

بلغت موجة الزندقة أوجها حين حاول الزنادقة إنكار الأديان كلها، ومن ضمنها الدين الإسلام، وقد عمدوا في هذا الميدان إلى إنكار الوحي الذي ينزل على الرسل والأنبياء، وإلى القول بأن العقل الإنساني هو صلة الوصل بين الإنسان وربّه، داعين إلى هدم النبوّات والرسالات في آنٍ واحد[2]. ومن شواهدنا في هذا المجال ما نشره القاسم بن إبراهيم عن زندقة ابن المقفع بطرق شتى[3].

منها: دفاعه عن النور، وذلك بافتتاحيته، حيث يقول: «بسم النور الرحمن الرحيم»[4].

ومنها: نقد وتهكم بإله القرآن، حيث يقول: «انقلب عليه خلقه ... فعادوه وسبُّوه فبعث لمقاتلتهم ملائكته وجنوده»[5].

ومنها: تهكم بالرسول: «يقاتل على الملك والدنيا «و» رجل من أهل تهامة».

ومنها: أنه ضد التصديق الأعمى وضد الإسلام، بقوله: «فلا نعلم ديناً منذ كانت الدنيا إلى هذا الزمان، ... أخبث زبدة كلما مخض، وأبتر

(1) الليثي: الزندقة والشعوبية: ص181 ـ 182.

(2) العدوي (إبراهيم): المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية. ص195. مكتبة نهضة مصر، القاهرة 1961.

(3) القاسم بن إبراهيم: كتاب الردّ على الزنديق اللعين ابن المقفع. روما 1927م.

(4) المصدر نفسه ص8.

(5) المصدر نفسه، ص17.

أصلاً، وأمرّ ثمراً، وأسوأ أثراً على أمته، وأوحش سيرة، وأغفل عقلاً، وأعبد للدنيا، وأتبع للشهوات من دينكم»[1].

ومنها: نقد العقائد الإيمانية لكل الأديان، بقوله: «فصارت الغلبة للشيطان، وقد بنى على كل صنف من أهل الأديان حائطاً حصيناً وسوراً شديداً، حصرهم فيه ووكل بهم شيطاناً من شياطينه»[2].

يُتهم ابن المقفع بأنه قال عندما مرّ ببيت من بيوت النار:

يا بيتَ عاتكةَ الذي اتعزَّلُ ... حَذَرَ العِدّا وبهِ الفؤادُ موكَّلُ
إنّي لأمنحُكَ الصُدودَ وإنني ... قَسماً إليكَ مع الصُّدودِ لأمْيَلُ[3]

اللهو والمجون طريق إلى الزندقة الدينية:

من أبرز تعاليم الأديان السماوية، الحثّ على مكارم الأخلاق، والنهي عن المنكر وارتكاب المحرمات، خصوصاً الخمر والميسر والزنا[4].

إن تعاطي النبيذ والخمر أدى إلى ظهور مشكلة فقهية، وأثار جدلاً ونقاشاً، وقد اختلف الفقهاء في تحليل أو تحريم النبيذ ـ نظراً لأنواعه ـ فقد تناول بعض خلفاء الدولتين ـ الأموية والعباسية. النبيذ، وقالوا أنه غير محرّم. وفرّق بعض الفقهاء بين الخمر والنبيذ، فحرموا الأول وأباحوا بعض أنواع الثاني[5]. وقد ذهب الأئمة الثلاثة (مالك، والشافعي، وابن حنبل)، إلى تحريم جميع أنواع الخمور والأنبذة، وقالوا: كلها تسمى خمراً وكلها محرّمة. أما الإمام: أبو حنيفة «فقد أدى اجتهاده في هذا المجال، إلى تحليل بعض أنواع الأنبذة، كنبيذ التمر

---

(1) المصدر تنفسه، ص26 ـ 27 ـ 28 ـ 29.
(2) المصدر نفسه، ص49.
(3) المرتضى الأمالي، 1/ 135.
(4) أنظر النهي عن هذه المحرمات في القرآن الكريم سورة البقرة. آية 219. والمائدة آية 90 ـ 91 .
(5) ابن عبد ربه: العقد الفريد. 6/ 352، القاهرة 1948.

والزبيب، وكذلك نبيذ العسل»[1].

ومن أشهر المروجين للخمر في العصر الأموي، الوليد بن يزيد، الذي قال عنه صاحب الأغاني: «كان فاسقاً خليعاً متهماً في دينه، مرمياً بالزندقة ... وله أشعار كثيرة تدل على خبثه وكفره»[2]. كقوله:

اسقياني وابنَ حربٍ واستُرانا بإزارِ
واتركا مَنْ طلبَ الجنّةَ يسعى في خسارِ
سأسوسُ الناسَ حتى يركبوا دينَ الحمارِ[3]

أما أشهر المروجين للخمر في العصر العباسي، فهو شاعر الخمر بلا منازع، «أبو نواس»، روج أبو نواس للخمر، وشجع الناس على شربها، متستراً بالظرف، وكان الظرف حينئذٍ ستاراً ليخفي الزنادقة أغراضهم ومراميهم. وما إن بدأ الفقهاء نشاطهم في محاربة شرب الخمر، حتى أنشد أبو نواس:

فإن قالوا حرامٌ، قل حرام ولكنّ اللذاذةَ في الحرام[4]

ويحاول أبو نواس هدم جهود الفقهاء، فيدعو الناس إلى شرب الخمر جهراً، إذا ما أتيحت الفرصة. يقول:

ألا فاسقني خمراً، وقل لي هي الخمرُ ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر[5]

ومن ثم ينتقل أبو نواس، إلى دعوة الناس إلى الإباحية والخلاعة، والتعرض للدين، والسخرية به، والتهكم عليه، فينتهي إلى نوع من الإلحاد، يقول:

---

(1) ابن الجوزي البغدادي: تلبيس إبليس. ص229، وأحمد أمين: ضحى الإسلام 1/ 124، القاهرة 1956.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 7/ 2و3. دار الكتب.

(3) المرتضى: الأمالي: 1 ـ 129. دار الكتاب العربي.

(4) طه حسين: حديث الأربعاء 2/ 68. دار المعارف مصر.

(5) أبو نواس: الديوان. ص28. تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي. دار الكتاب العربي، بيروت 1982.

ورأيت إتيانَي اللذاذةَ والهوى، وتعجلا من طيب هذي الدار
أحرى وأخزم من تنظّر آجل علمي به رجم من الأخبار
ما جاءنا أحد يخبّر أنّه في جنّةٍ من مات أو في النار[1]

كذلك كان البرامكة في مقدمة المروجين لشرب الخمر في ذلك العصر. فقد جعلوا قصورهم أماكن مختارة للمجون وشرب الخمر، الشيء الذي كان من أسباب نكبتهم.

يصف ابن طباطبا أحد مجالس جعفر البرمكي بأنه قد خصّص يوماً لشرب الخمر، وإذ يجتمع عدد كبير من الندماء والسمّار، يجلسون في خلوة بعيدة عن أعين الرقباء، يغرقون جميعاً في شرب الخمر وسماع الغناء[2].

وقد اعتبر الميسر والمسابقات بين الدِيَكة والكلاب والخيول، والمراهنات عليها، ضرب من ضروب الزندقة، ولم تقتصر هذه الألعاب (المكروهة) على الطبقات العليا أو الموسرة، بل تعدتها إلى جميع الطبقات لتصل إلى حانات الفقراء[3].

إن سباق الخيل أحدث جدلاً بين الفقهاء، فأباحوه إذا اعتبر رياضة، وليس وسيلة لكسب المال[4].

إن الزندقة بمدلولاتها المختلفة، وعلى الأخص الدينية منها، لحقت بمسار المجتمع العربي، منذ جاهليته حتى العصر العباسي، وإن كانت هذه الزندقة قد لبست قوالب متعددة. فمن المنكر النبوات والكتب[5]، إلى المنحرفين عن عبادة الله إلى عبادة أشخاص، إلى المكذبين للرسل

---

(1) الليثي: الزندقة والشعوبية، ص186.
(2) ابن طباطبا (الفخري في الآداب السلطانية)، ص187 ـ 188.
(3) الأصفهاني: الأغاني 6/ 75. مطبعة التقدم بالقاهرة 1323هـ .
(4) الجهشياري: (أبو عبيد الله بن عبدوس): الوزراء والكتاب. مطبعة الحلبي، القاهرة 1357هـ / 1938م. ص207. حدث جدل الفقهاء على هذه الرياضة لأن بعض الخلفاء (كهارون الرشيد) أغرموا بها .
(5) وقد سماهم «أبو العلاء المعري» الدهريين الزنادقة: المعري: رسالة الغفران، ص215.

والمزيفين أحاديثهم، إلى القائلين أن لله جسماً وقداً[1]، ومن المؤمنين بالتناسخ والحلولية، وخصوصاً في فرق الروافض والذين يقول أحد شعرائهم، كاشفاً عن هذا المعتقد:

إعجبي أمَّنا لصرف الليالي جُعِلت أختُنا سكينة فاره
فازجري هذه السنانيرَ عنها واتركيها وما تضمّ الغرارة[2]

إلى الداعين إلى ثنويّة الفرس[3]، المؤمنين بإله للنور وإله للظلمة[4]، ومن المنكبين على الملذات الدنيوية السائرين وراء شهواتهم الجسدية، إلى القائلين بالدهر، الكافرين بالحساب، الناكرين القيامة والنشور الشاكين في الجنة والنار. المتمثلين بقول أبي نواس:

يا ناظراً في الدين ما الأمرُ لا قدرٌ صحَّ ولا جبرُ

❁ ❁ ❁

فاشرب على الدهر وأيامه فإنما يهلكنا الدهرُ[5]

2 ـ زندقة فكرية:

اتّسع ميدان الزندقة، ليشمل، الفكر والثقافة. وقد أخذت هذه الزندقة منحىً سلبياً، وآخر إيجابياً، من ناحية الفكر العربي والثقافة الإسلامية .

فمن الناحية السلبية حاولت الزندقة، ودعاتها، تشويش التراث العربي من فكر ودين. ومن الناحية الإيجابية أغنت هذه الصراعات الفكرية التراث

---

(1) ابن الجوزي: تلبيس إبليس. ص86.
(2) المعري: رسالة الغفران، ص231.
(3) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص184. دار العلم للملايين، عن صالح بن عبد القدوس. وانظر أيضاً. المرتضى: الأمالي 1/ 144.
(4) الفرح والتهاني بأخبار الحسن بن هاني: مصورة معهد المخطوطات ـ جامعة الدول العربية. رقم 632. أدب .
(5) أبو هفان: (عبد الله بن أحمد بن حرب المهزمي) أخبار أبي نواس. تحقيق عبد الستار فراج. مكتبة مصر القاهرة 1953م. ص37.

الأدبي بمختلف فروعه، ونوّعته، وأدخلت عليه الكثير من مذاهب الفكر الهندي والفارسي واليوناني، وما ذلك إلا لامتزاج عناصر إنسانية كثيرة في ظل دولة إسلامية واحدة، ودخول الكثير من العنصر الغير العربي في الدين الجديد. وقد كان من هؤلاء الكتاب والأدباء والشعراء وعلماء الدين والفقه وغير ذلك.

وقد تصدّى، للكتّاب والأدباء والشعراء وأصحاب الفكر الزندقي، مفكرون أقوياء، قارعوا هذا النوع من الزندقة، وأيدت السلطات العباسية مساعيهم ورعت أفكارهم إذ أسس المأمون (بيت الحكمة)، وجعل منه مركزاً لجمع الكتب التي يفيد منها هؤلاء المفكرون. كما ترجمت كتب المنطق والفلسفة اليونانية لتكون سلاحاً قوياً فعّالاً في الجدل الفكري مع الزنادقة.

الزندقة غاية العبث الفكري:

اتخذت طائفة ـ من الطوائف التي تندرج في صفوف هذا النوع من الزندقة ـ العبث الفكري وسيلة من وسائل الشك، بغية اصطياد ضعاف النفوس، وهذه الوسيلة يلجأ إليها الشكاك دائماً، يرومون من ورائها العبث بعقائد الناس»[1]، وهي حالة نفسية عنيفة تتملكهم فتدفعهم إلى ما هو أشبه باللهو الفكري والمجون الشكي منه إلى أي شيء آخر.

واتخذت طائفة ثانية (المانوية) تراثها القومي مجالاً للتفاخر، إذا ما دعت الحاجة للمقارنة بين تراث العرب الفكري والديني، وتراث الفرس ودينهم[2].

---

(1) عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام، ص35 ـ 36. طبعة المؤسسة العربية، بيروت 1980.

(2) المصدر نفسه، ص35.

وهناك طائفة ثالثة غلب عليها دافع الشك الفكري وتضم المتكلمين من رجال الفكر وأصحاب المذاهب وجلّ اعتمادهم على العقل دون الإيمان. يقول ابن منظور عن كفريات أبي نواس:

«اشتهى علم الكلام، فقعد إلى أصحابه، فتعلم منهم شيئاً من الكلام، ثم دعاه ذلك إلى الزندقة»[1].

وطائفة رابعة، كانت أعظم دوافع زندقتها، النزعة الأعجمية، وليس هذا بغريب في دولة اتسعت حدودها وكثرت أعراقها.

يرى محمد بديع شريف أن لزندقة أبي نواس أسباباً أعجمية، فهو يقول: «كان ذكياً واسع الحيلة، يعرف كيف يجدّ، ويعرف كيف يهزل، تأثّر بالمانوية والمزدكية، استطاع بتلونه وقدرته أن يستخف بالعقيدة، وينشر الضلال والزندقة، ويتكلم دون حياء أو خجل»[2].

وقد تنبه الجاحظ إلى هذه الصلة بين الزندقة والأعجمية فقال عن عصبيتهم: «لا تبقي ديناً إلا أفسدته، ولا دنيا إلا أهلكتها، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية»[3].

هاجمت الزندقة الفكرية الثقافة العربية من جهة، والثقافة الأعجمية من جهة ثانية[4]، فالأولى بذلت كل جهدها للتصغير من شأن هذه الثقافة، وأظهرتها بقالب غير وافٍ بحاجات العصر، أما الثانية فقد رأت أن الثقافة

---

(1) ابن منظور (أخبار أبي نواس) 1/ 6. جزءان الأول مطبعة الاعتماد القاهرة 1924. الثاني مطبعة المعارف بغداد 1952.

(2) عباس محمود العقاد: أبو نواس. دراسة في التحليل النفساني والنقد التاريخي. مطبعة الرسالة: القاهرة، ص171.

(3) الجاحظ: رسالة في بني أمية: القاهرة 1342هـ / 1933م. ص299. وانظر أيضاً المقريزي: (تقي الدين احمد بن علي): النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم مصر سنة 1939م. ص101.

(4) سنرى ذلك في الفصل الرابع من البحث .

الأعجمية ترتبط مباشرة ببيئة غير إسلامية، وفي هذا التقاء الخصومات الفكرية والزندقة[1].

إن الزندقة الأعجمية، قد اتخذت من الثقافة والفكر سلاحاً ماضياً في وجه الخصوم العرب، وانتشرت على أيدي طبقة من العلماء الذين ألبسوا الكتب، المليئة بالأباطيل والخرافات ثوباً براقاً، يستهوي الناس امتلاكها وقراءتها، فكانت هذه الكتب كما يصفها الجاحظ «لا تفيد علماً، ولا حكمة، وليس فيها مثل سائر، ولا خبر ظريف، ولا صفة أدب، ولا حكمة غريبة، ولا فلسفة، ولا مسألة كلامية»[2].

ونتيجة هذه الكتب المليئة بالمغالطات، عقدت مجالس ومنتديات ظاهرها نشاط فكري، وباطنها نشر الزندقة. وقد أفاض الجاحظ في وصف هذه المجالس، التي يقرأ الحاضرون لها أمثال (يزدجمهر) وعهد (أردشير)، وكتاب مزدك مرجعهم الأول[3].

ولا نبالغ إذا قلنا إن ألوان الثقافات الهندية والفارسية واليونانية وصلت العرب منذ أقدم عصورهم، ولكنها قويت بعد الفتح الإسلامي، وبلغت ذروتها زمن بني العباس. ومعروف أن جمهور الهنود وثنيون يدينون بالبوذية، ومنهم براهمة[4]، ومن عقائدهم إنكار النبوات، والقول بالدهر، والإيمان بالتناسخ الذي دخل أفكار بعض المسلمين كاتباع الخرمية، وكان يؤمن بها أحمد بن حائط، المتكلم، ويدافع عنها دفاعاً شديداً[5]. بالإضافة إلى الثقافة الفارسية واليونانية التي كانت أقرب وأيسر إلى عقول العرب لقرب أتباعها جغرافياً من بلاد العرب، واختلاطهم بهم منذ العصور

---

(1) الدوري: الجذور التاريخية للشعوبية، ص93.

(2) الجاحظ: ثلاث رسائل. القاهرة 1344، ص42.

(3) الليثي: الزندقة والشعوبية، ص201.

(4) الشهرستاني: ملل ونحل، ص117، طبعة لندن .

(5) المصدر نفسه، 1/ 76.

القديمة، وكثرة المستعربين منهم بعد الفتح، كذلك كثرة الكتّاب والعلماء، ولهذا راجت المانوية رواجاً كبيراً، مما حدا «المهدي» أن يوجه الفقهاء ورجال الدين لشن حملة فكرية، ضد الزنادقة الذين أثروا في الجماهير، وخدعوا الجهلة والضعفاء، وأمر المهدي أن تنشر الكتب للرد عليهم، وتعلن أسماؤهم لمهاجمتهم فكرياً. واعتمد بصورة خاصة على أهل البحث الجدليين، «لإزالة الشبهات التي روّج لها المانوية والشكّاك والخلعاء»[1].

ويشير «جب» إلى خطر هذه الزندقة بقوله:

«إن خطر العصبية الأعجمية تكمن في التشكك الذي ولَّدتْه في نفوس المتعلمين، فإن الثقافة الآرامية ـ الفارسية القديمة في العراق، مركز المانوية، كانت لا تزال تحمل جراثيم ذلك الضرب من التفكير الحرّ الذي عرف بالزندقة، واتضح بوجود الأفكار الثنوية في الدين، وتجلى في الاستهتار والاستخفاف بجميع المذاهب الخلقية وعرف باسم المجون»[2].

إن المزج العرقي الطويل الأمد أنتج مزجاً فكرياً فعلى سبيل المثال وفي العراق، كان التشابه قوياً بين آراء المعتزلة وآراء النساطرة المتأثرة بالفكر الإغريقي، يعزز كلامنا، ما عرف عن معبد الجهني وغيلان الدمشقي وأخذهما القدرية عن مصدر إغريقي ـ فارسي وما عرف عن الجعد بن درهم[3] وتأثره بتلاميذ طالوت الذي كان يقول بخلق التورات وكان زنديقاً[4].

---

(1) فاروق عمر: التاريخ الإسلامي، وفكر القرن العشرين. ص139.

(2) جب (هاملتون): دراسات في حضارة الإسلام. ترجمة عباس ونجم وزايد. دار العلم للملايين. بيروت 1979. ص91.

(3) أول من تكلم بخلق القرآن .

(4) ابن الأثير: الكامل في التاريخ. دار المعارف القاهرة سنة 1867. ج7، ص26.

الشعر وسيلة فكرية للزندقة:

إن بحر الشعر الواسع، الذي شقت عبابه سفن العرب قديماً، وسفن المستعربين جديداً، وقد حَوَتْ أشعاراً كثيرة كان بعضها نتاج التعصب العرقي، الذي اعتبر في غالب الأحيان ضرباً من ضروب الزندقة.

إن التعصب العرقي أوجد الشعوبية التي تشمل ثلاثة معانٍ:

أ ـ الأول ويشمل العرب والعجم معاً.

ب ـ الثاني يقصر كلمة شعب (مفرد شعوبية) على العرب وحدهم.

ج ـ الثالث يطلق هذه الكلمة على العجم فقط، وهو الأكثر شيوعاً[1].

وليس أدل على عصبية العرب، واعتزازهم بأنفسهم، من قصة رفض تزويج النعمان (ملك الحيرة) ـ عامل الفرس ـ ابنته لكسرى أبرويز، وإظهاره للرسول الموفد استنكاف العرب في تزويج العجم[2]. أما الفرس فقد اعتبروا أنفسهم فوق العرب، إذ عدوا ملوك الحيرة تابعين لهم وعبيداً عندهم، فلا يعاملوهم معاملة الند للند[3]. حتى أن كسرى أبرويز أطلق لفظة عبد على (الرسول) عندما أرسل له كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، فقال: «يكتب إليّ هذا وهو عبدي»[4].

عمد الزنادقة الأعاجم إلى مهاجمة العرب، في اسلوب حياتهم، في ملابسهم، في لغتهم، في أنسابهم، في علاقتهم الاجتماعية وغير ذلك ...

---

(1) زاهية قدورة: الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول. ص9. دار الكتاب اللبنانية. 1972.

(2) المسعودي: مروج الذهب 2/ 100 وما بعدها. دار المعرفة .

(3) المصدر نفسه .

(4) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. المطبعة الحسينية. القاهرة 3/ 90 .

وكان الشعر أقصى أسلحتهم، وقد ظهر شعراء شعوبيون زنادقة كثيرون، وفي مقدمتهم بشار بن برد. الذي يقول في هذا المضمار:

ونبئتُ قوماً بهم جنّة يقولون من ذا وكنت العلم
ألا أيها السائلي جاهداً ليعرفني أنا أنف الكرم
نمت في الكرام بني عامر فروعي وأصلي قريش العجم[1]

ولم تقتصر زندقة بشار على عصبيته لعرقه، بل نلمسها أيضاً في نزعته الدينية، فقد كان يؤمن بالرجعة، ويكفر جميع الأئمة، ويصوب رأي إبليس في تقديم النار على الطين، يقول:

الأرض مظلمةٌ والنار مشرقة والنار معبودة مذ كانت النارُ[2]

لقد كانت زندقة هذا الشاعر علمية فكرية وأدبية يشارك فيها المجان[3]، قال عنه واصل بن عطاء: «إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لكلمات هذا الأعمى الملحد»[4].

لقد عبر الشعر عن اتجاهات زندقية متنوعة، سنعرض لها عندما نتكلم على الشعراء الزنادقة.

3 ـ زندقة سياسية:

شهدنا، فيما سبق، حركاتٍ عديدة قامت بها فرق وأحزاب، منذ حروب الردّة زمن أبي بكر وطوال العصر الأموي واستمرت إلى نهاية العصر الأول العباسي.

واتصفت معظم هذه الحركات بالخطورة، حيث قامت ثورات مسلحة، ورفعت رايات العصيان المدني، وتبلبلت العقول، وشوهت

---

(1) الأصفهاني: الأغاني 3/ 21. دار الفكر.

(2) المصدر نفسه 3/ 24.

(3) طه حسين: حديث الأربعاء. المجلد الثاني: ص512. وما بعد. دار الكتاب اللبناني.

(4) الليثي: الزندقة والشعوبية. ص203.

الأفكار، وعُبث بعقيدة الدولة وبنظمها السياسية والاجتماعية، ونتج عنها تيارات فكرية، وثقافية مختلفة المشارب والألوان، واهتم المجتمع بكل طبقاته العامة والخاصة بهذا الصراع. واتهم أصحاب هذه الحركات بالزندقة تارة، وبالزندقة والشعوبية تارة أخرى .

تركت حركات الزندقة أثرها في حياة العرب السياسية وبدت واضحة في أمور مهمة أشهرها:

1 ـ موقف العنصر العربي من العناصر العربية الأخرى[1].

2 ـ موقف العنصر العربي من العناصر الأعجمية وخاصة الموالي، وموقف الموالي من العرب.

3 ـ إقامة الخلفاء الأمويين نظام دولتهم السياسي على العنصر العربي.

4 ـ إقامة الخلفاء العباسيين نظامهم السياسي على أساس ديني دون تمايز في بادئ الأمر، بين العرب والعجم.

5 ـ موقف حكام العباسيين من وزرائهم.

أما إذا تدرجنا في الموقف العربي تاريخياً، وبدأنا بعرب الجاهلية فإن موقفهم معروف، صراع سياسي دائم، يتمثل بالغزو والسبي بين قبائل الصف الواحد حيناً، وبين عرب الشمال وعرب الجنوب تارة أخرى. وقد استمر هذا الموقف السياسي الزندقي[2]، زمن صدر الإسلام والدولة الأموية، وخفت بعد ذلك ولكنه لم ينته. وشاهدنا على ذلك، الشاعر أبو القاسم علي بن الحسين المغربي، الذي نسب إلى الأزد، وتعصب لقحطان على عدنان، وللأنصار على قريش، غالى كثيراً في حبه لآل البيت،

---

(1) بين عرب الشمال وعرب الجنوب مرة، وبين القبائل والعشائر من كليهما مرة أخرى. كبني هاشم وبني أمية .

(2) على رأي كثير من الباحثين، أمثال محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي: ص240 وما بعد. دار المعارف، مصر .

وأفحش في هجاء أبي بكر وبني أمية، وساوى علياً بالرسول، حتى خرج بميله السياسي إلى نوع من الإلحاد والزندقة، يقول في ذكر «يوم حنين»:

فنجا بمهجته فلولا ذَبُّنا عنه تنشَّب في مخالب ضارِ[1]
أفنحن أولى بالخلافة بعده أم عبد تيم حاملو الأوزارِ
وتداولتها أربعٌ لولا أبو حسنٍ لقلت لَؤُمْتِ من استارِ
من عاجزٍ ضرع ومن ذي غلظة جافٍ ومن ذي لوثة خوّار

❀ ❀ ❀

تالله لو ألقوا إليهِ زمامها لمشى بِهِمْ سَمْحَى بغير مَهَارِ
هو كالنبي فضيلة لكنَّ ذا من حظِّه كاسٍ وهذا عاري

❀ ❀ ❀

ثم امتطاها عبد شمس فاغتدت هزؤاً وبدّل ربْحَها بخسار
وتنقلت في عصبة أموية ليسوا بأطهار ولا أبرارِ
ما بين مأفون إلى متزندق ومداهن ومضاعف وحمارِ

الأبيات من قصيدة طويلة، يذكر في مطلعها أن الرسول استجار بالأنصار ولولاهم لهلك، وقوله عن أبي بكر عبد تيم، ولولا علي لقال في الخلفاء الراشدين الأربعة استار لؤم، وإن علياً كالنبي في الفضيلة.

ثم يذكر خلفاء بني أمية، بخمس صفات سيئة، فعثمان مستضعف ومعاوية مداهن، ويزيد بن معاوية مأفون، والوليد بن يزيد متزندق، ومروان بن محمد حمار[2].

كانت الخلافة عاملاً قوياً في عودة العصبية[3]، وها هو الشاعر ابن أبي عبرة القرشي يعبر عن هذه العصبية بعد مبايعة أبي بكر. أحسن تعبير، يقول:

---

(1) ابن أبي حديد: شرح نهج البلاغة. ج2، ص6و7، دار الهدى الوطنية، بيروت.
(2) المصدر نفسه، 2/ 7.
(3) كانت ولا تزال إيغالاً في الهوى السياسي تسيطر فيها العاطفة على العقل.

شكراً لمن هو بالثناء حقيق ذهب اللجاجُ وبُويع الصدّيق
قل للألى طلبوا الخلافة زلة لم يخط مثل خطاهم مخلوق
إن الخلافة في قريش مالكم فيها ورب محمد معروق[1]

وينبري شاعر آخر ـ أحد أبناء أبي لهب بن عبد المطلب ـ ليدعي أن الخلافة في بني هاشم ـ أحد أفخاذ قريش ـ وبخاصة في علي بن أبي طالب، يقول:

ما كنت أحسب أن الأمر منصرف عن هاشم ثم منها عن أبي حسن[2]

وتتطور هذه العصبية بعد ذلك، وفي نهاية العهد الراشدي تقريباً لتجتمع القبائل في أحزاب سياسية ـ كنا قد تعرضنا لها سابقاً ـ وحركات سياسية ثورية أدت في أكثر حالاتها للزيغ عن المعتقد المألوف إلى معتقدات أخرى، لها ألف سبب وسبب، وهذا الزيغ والانحراف دخل في مجمّعات الزندقة.

أما عن موقفي العنصرين، العربي والأعجمي، من بعضهما البعض فإننا لا نتحرى التاريخ ونسير وموقفيهما، منذ الجاهلية حتى نهاية العهد العباسي الأول، لنرى الظالم والمظلوم بداية ونهاية، بل نتوقف أمام انحرافات الفريقين المؤدية إلى الزندقة.

ألم تكن زندقةً أوامرُ «قباذ»، الملك الساساني إلى الحارث الكندي «بأن ينهض إلى مكة ويهدم البيت» ولكن الحارث يرفض ذلك، «وتتداخله حميّة العرب»[3]؟

ألم تكن زندقة مهاجمة الأعاجم لعقيدة العرب «الإسلام»؟ خاصة وإن العروبة والإسلام كانتا ظاهرتين متلازمتين، وهذا ما يثبته الثعالبي: «ومن

(1) ابن أبي حديد: شرح نهج البلاغة 2/ 8.
(2) المصدر السابق.
(3) كيستر: مجلة بين النهرين: «الحيرة وعلاقاتها مع الجزيرة العربية». العدد السابع. بغداد 1974.

أحبّ الرسول أحب العرب، ومن أحب العرب أحب اللغة العربية ...»[1].

ويقول الجاحظ في مهاجمة الأعاجم عقيدة العرب: «فإنما عامةمن ارتاب بالإسلام، إنما جاءه هذا عن طريق الشعوبية فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله... إذ كانت العرب هي التي جاءت بالإسلام، وكانوا السلف»[2].

ثم ألم تكن زندقة أن يفتخر الأعاجم بقومهم فخراً عنيفاً، ويحاولون الغضّ من العرب بكل ما وسعوه؟ كمثل قول بشار بن برد:

هل من رسولٍ مُخبِرٍ ... عني جميعَ العربِ
بأنني ذو حسبٍ ... عالٍ على ذي الحسبِ
جَدِّي الذي أسمو به ... كسرى، وساسان أبي
وقيصرٌ خالي إذا ... عَدَدْتُ يوماً نسبي[3]

ألم تكن زندقة هذه الثورة، على العرب وحياتهم وتقاليدهم وفنون أدبهم، التي قام بها أبو نواس ومن لفّ لفّه؟ في قوله:

عاج الشقيُّ على رسم يسائلُه ... وعُجتُ أسألُ عن خمّارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسدٍ ... لا درَّ دَرُّك قل لي: مَنْ بنو أسد؟
ومن تميمٌ ومن قيسٌ ولفُّهما؟ ... ليس الأعاريبُ عند الله من أحدِ[4]

ألم تكن زندقة سياسية، أن ينبذ الأمويون العرب الموالي الأعاجم ويقصوهم عن مراكز النفوذ، بحكم تعصبهم للعرب؟ إذ اختاروا الوالي والأمير والقاضي والإمام من العرب[5].

نظام العباسيين السياسي:

إن موقف الخلفاء العباسيين من العنصرين، العربي والأعجمي، تأثر

---

(1) فاروق عمر: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين. ص159.

(2) الجاحظ: البيان والتبيين: ص401 وما بعد. الشركة اللبنانية للكتاب.

(3) بشار بن برد: الديوان. طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر.

(4) أبو نواس: الديوان. دار الكتاب العربي، بيروت.

(5) ابن عبد ربه: العقد الفريد 3/ 413 ـ 417. طبع القاهرة لجنة التأليف والترجمة والنشر.

إلى حد بعيد بحركات الزندقة الثورية. فالمعروف عن الدولة العباسية أنها قامت على أكتاف الفرس بعامة، والخراسيين بخاصة، فلا غرو أن يستأثر الفرس بالمناصب الكبرى، إن في السياسة أو في الإدارة. ويتحدث (فان فلوتن) عن مركز الفرس في دولة بني العباس الأولى بقوله: «ومنذ ذلك الحين، أصبح الخراسانيون أشدّ الناس ولاءً لذلك العرش الجديد، ورفع الموالي المضطهدون - الذين كانوا السبب في سقوط الأمويين - رؤوسهم، واسندت إليهم المناصب المهمة، في القصر والجيش والمالية وإمارة الولايات، حتى حسدهم العرب[1].

ولكن حركات الزنادقة التي توالت وقضت مضاجع العباسيين، أثرت كثيراً في تسامح العباسيين وعدم تمايزهم بين العرب والعجم، خصوصاً أن الأعاجم هم عدّة وعدد حركات الزنادقة، ولذا بدأ الخلفاء العباسيون يعيدون النظر في سياستهم تجاه عناصر الشعب، وبدت هذه السياسة واضحة في عهد «المهدي» الذي شهد - وهو ولي العهد - حركة الراوندية، والسيسية، ثم واجه، بعد أن أصبح خليفة، حركة المقنع الخراساني، ولهذا نراه يرحل إلى الحجاز، ويتصل بوجوه العرب وبني هاشم، ويصطحب معه، خمسمائة منهم، أنصاراً وحرساً خاصاً له. كما يرحل إلى الشام ويلتقي زعماء العرب ويجزل لهم العطاء[2].

آثر الخلفاء العباسيون[3]، سياسة حفظ التوازن بين العرب والأعاجم، وكان أثر هذه السياسة حدوث صراع بين الجناح الفارسي والجناح العربي، جعفر البرمكي على رأس البرامكة والفرس، والفضل بن الربيع يتزعم جناح العرب وتؤيده «زبيدة» زوجة الرشيد.

---

(1) فان فلوتن: السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية. ترجمة حسن إبراهيم حسن وزكي إبراهيم. القاهرة 1934، ص34. وأنظر: الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 6/ 115و 130. المطبعة التجارية القاهرة.

(2) الخربوطلي: المهدي العباسي: (سلسلة أعلام العرب). القاهرة 1966، ص145.

(3) الأربع الأول: (السفاح - المنصور - المهدي - الرشيد).

والحقيقة أن صراع الأمين والمأمون، ولدي الرشيد، هو صراع هذين الحزبين وما اعتماد المعتصم، ولد الرشيد الثالث، على العنصر التركي، إلا محاولة منه لكبح جماح الحزبين، وملاً من صراعهما المستمر، وانتشار الزندقة بشكل واسع ومخيف[1].

إن حرص بني العباس على إقامة نظامهم السياسي على أساس ديني، بادئ أمرهم، دون تمايز بين العرب والعجم، أثر في نشوء حركات زندقية في الحياة السياسية.

لمسنا هذه النزعة الدينية عند الخلفاء، فأبو جعفر يقرب الفقهاء، والمهدي يشتد على الزنادقة وينشئ ديواناً للتنكيل بهم، والرشيد يحج سنة ويغزو أخرى، والمأمون والمعتصم يشتهران بالحرص على الدين ومتابعة الملحدين والزنادقة، يرى (فلهوزن) أن السياسة التي انتهجها العباسيون تقوم على أساس ديني، بعد أن عطل الأمويون أحكام الدين في اعتقادهم، لأن الأمويين اعتمدوا القومية العربية لهذا فقد كان موقفهم حازماً من الزنادقة، فاستعملوا من يطاردهم، وأنشأوا نظاماً لامتحان عقائدهم[2].

موقف الخلفاء العباسيين من وزرائهم:

على الرغم من إقدام «أبي مسلم الخراساني» في الدعوة لبني العباس، واستبساله في حرب «مروان بن محمد» آخر خليفة أموي، والقضاء عليه، فقد قتله المنصور، لدوره في قيام حركة زندقية[3].

أما المهدي فقد عزل وزيره «معاوية بن يسار» عندما نمي إليه أن ابن الوزير يعتنق تعاليم الزندقة.

---

(1) الليثي: الزندقة والشعوبية، ص173.

(2) فلهوزن: الدولة العربية: ترجمة (د. أبو ريدة) مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة، ص531 وما بعد.

(3) انظر حركات الزنادقة فيما سبق ـ البحث.

وقد أراد المهدي أن يتحقق بنفسه من هذه التهمة، فاستدعى الوزير وابنه، وسأله عن شيء من القرآن، فتلعثم، ولم يَحْرُ جواباً. فقال المهدي لوزيره: «ألم تخبرني أن ابنك يحفظ القرآن؟ فأجاب الوزير بلى يا أمير المؤمنين، ولكن فارقني من مدة فنسيه، فقال المهدي: قم فتقرب إلى الله بدمه. فقام الوزير فعثر ووقع وارتعد. فالتمس عم المهدي (العباس بن محمد) من الخليفة أن يُعْفَى الوزير من قتل ابنه، فأمر المهدي بعض من كان حاضراً فضربت عنقه»(1).

ورأى الرشيد أن البرامكة أظهروا الإسلام وأبطنوا عبادة النيران، واحتالوا بأن قالوا للمسلمين: «ينبغي أن تجمّر المساجد كلها، ويوضع عليها الند «فكان هذا سبباً من الأسباب التي دعته للقبض عليهم»(2)، يرى ابن النديم أن جميع البرامكة زنادقة، ما عدا محمد بن خالد بن برمك(3).

ذم الأصمعي البرامكة بعد نكبتهم مشيراً إلى زندقتهم: بقوله:

إذا ذكر الشرك في مجلس ... أضاءت وجوه بني برمك
وإن تليت عندهم آية ... أتوا بالأحاديث عن مزدكِ(4)

لم تفارق الزندقة السياسية العرب في كل عصورهم، ولطالما كفّر بعضهم بعضاً، دفاعاً عن قبيلة، وذوداً عن حزب أو حركة، أو أخذاً بمذهب ما، أو انتماء لجنس وعرق معين، وغير ذلك ... وشاهدنا على ذلك ما رآه الكميت، شاعر الزيدية، في بني أمية الذين استحدثوا البدع وأحلّوا الحرام وحرموا الحلال، وسفكوا دماء المسلمين، فحتام يا رب هذا العناء؟ ... يقول:

---

(1) ابن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية. ص165.

(2) البغدادي: الفرق بين الفرق. ص270، القاهرة 1948م.

(3) ابن النديم: الفهرست، ص473، دار المعرفة .

(4) الليثي: الزندقة والشعوبية. ص177.

وعُطّلت الأحكامُ حتى كأننا على ملّة غير التي نتنحّلُ
فتلك ملوكُ السوءِ قد طال ملكهم فحتى م حتى م العناءُ المطوَّلُ
لهم كل عام بدعة يحدثونها أزلّوا بها أتباعهم ثم أوصلوا[1]

كما أن أبياته التالية، تشهد بأن الكميت يستنفر أهل (مرو) من المرجئة للثورة على بني أمية، فهي والحالة هذه منشور ثوري ألقى به إلى ثوار المرجئة، يقول:

فلا تَهنوا ولا ترضوا بخسف ولا يغرزكم أَسَدٌ بعهد،
وإلا فارفعوا الرايات سوداً على أهل الضلالة والتعدي[2]

أما الشاعر كثير، شاعر الكيسانية التي غالت كثيراً في تشيعها لآل البيت، وقد سقط كثير إلى هذه الفرقة من أفكار السبئية، كالقول بالتناسخ، وأن قبس النبوة لا يزال يتنقل في عليّ وأبنائه فهم الآئمة وولاة الحق وآخرهم محمد بن الحنفية وقد تغيب في جبل رضوي، وسيعود يوماً فيقوض الحكم الأموي، ويرد الأمر إلى نصابه، فهو المهدي المنتظر[3]، فإنه يصور تطرف الكيسانية في عقيدتها، وبراءتها من مغتصبي الخلافة ـ دون علي وآله ـ كأبي بكر وعمر وعثمان، ومن مدعيها أيضاً كالخوارج، حيث يقول:

برئت إلى الإله من ابن أروى ومن دين الخوارج أجمعينا
ومن عمر برئت ومن عتيق غداة دعى أمير المؤمنينا[4]

مما تقدم، يتبين لنا، أن زندقة سياسية عارمة، كانت منذ كان العرب وسارت بركبهم، تضعف وتقوى، حسب ظروفهم وأحوالهم، شجرتها

---

(1) الكميت: الهاشميات. ص123، نشر هور ومتز .
(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 8/ 222، القاهرة 1326هـ .
(3) أنظر الشعر، في: كثير: ديوانه نشر بيرس الجزائر 2/ 184. والأصفهاني: الأغاني: 8/ 32، دار الفكر .
(4) نعمان القاضي: الفرق الإسلامية في الشعر الأموي. ص381، دار المعارف، مصر .

العصبية القبلية، وفروعها الخلافة والأحزاب والفرق والعناصر الإنسانية المختلفة.

إن المآرب الكبرى لهذه الزندقة السياسية، دفعت بمروجيها ودعاتها إلى الثورة، وغرس بذور الفكرة الاستقلالية، التي تحققت بقيام الدويلات في العصر الثاني لبني العباس.

4 ـ زندقة اجتماعية:

نادى الزنادقة بالحرية الاجتماعية، ومن كان منهم أعجمياً فقد تعصب لنظام مجتمعه القديم، وندد باخلاق العرب وقيمهم. وذهب الزنادقة إلى التحلل، ونزعوا إلى المجون، ودعوا إلى أفكار اجتماعية تتعارض وما هو مألوف عند العرب والمسلمين، واستتروا وراء الظرف والحضارة مما أدى إلى تفكيك روابط المجتمع وإضعاف البنية الاجتماعية.

حاول الزنادقة هدم القيم في المجتمع العربي الذي آثرها، واعتبرها فضائل خلقية، فأظهروا المثالب الفردية بصفات عامة، وتهجموا على مفاهيم الفروسية والمفاهيم الإسلامية أيضاً.

ولما كان العرب يعتزون بالكرم، فقد ركّز الزنادقة هجومهم على مفهوم العرب للكرم، وحاولوا تشويه البذل والتضحية[1]. وأقدموا على تأليف رسائل في البخل، وحاولوا جعل البذل مذمة وتخليطاً[2].

ولم يكتف الزنادقة بمهاجمة الفضائل الاجتماعية، بل راحوا يعملون على تفسيخ القيم الدينية، فأكثروا من المجون والشراب، وجاهروا

---

(1) الجاحظ: كتاب البخلاء. ص215 ـ 218.

(2) أشهر من كتب مثل هذه الرسائل هو سهل بن هارون. أنظر ابن النديم: الفهرست ص174. القاهرة 1348هـ .

بالخلاعة والانحراف الجنسي، معتبرين ذلك تحرراً ومثلاً في الظرف[1].

الظرف والحضارة من وسائل الزندقة:

استتر بعض الزنادقة وراء ستار الظرف، فزعموا أنهم لا يتزندقون عن عقيدة، وإنما ليشتهروا بالظرف. من هؤلاء محمد بن زياد ويحيى بن زياد، الذي قال عنهما الأصفهاني: «كان يحيى بن زياد يرمى بالزندقة، وكان من أظرف الناس وأنظفهم، فكان يقال أظرف من الزنديق، وكان محمد بن زياد يظهر الزندقة تظارفاً فقال فيه ابن مناذر »:

يا ابن زياد يا أبا جعفر ... أظهرت ديناً غير ما تخفي
مزندق الظاهر باللفظ في ... باطن إسلام فتى عف
لست بزنديق ولكنما ... أردت أن توسم بالظرف[2]

تحدث الثعالبي عن هذا الاتجاه الزندقي، وربط بين الظرف والزندقة، بقوله: «أما قولهم أظرف من الزنديق فقد صار مثلاً في زمان كثر ظرفاؤه وهو زمان المهدي، وكانوا يرمون بالزندقة، كصالح بن عبد القدوس، وبشار، وحماد الراوية، وحماد عجرد، ومطيع بن إياس، وما منهم في الظاهر إلا نظيف البزة جميل الشكل ظاهر المروءة»[3].

وهنا نرى الربط بين الظرف والزندقة ،ونرى أن من رمي بالزندقة كان ظريفاً، نظيف الظاهر، يستمتع بالملذات، ويعيش للدنيا، وقد كان «الصولي» صريحاً في توضيح معنى ظرف الزنادقة، حين يعلق على قول أبي نواس:

---

(1) أنظر أخبار يحيى بن زياد ومطيع بن إياس وحماد عجرد وبشار بن برد كأمثلة على ذلك في الأصفهاني: الأغاني 12/ 95 ـ 96 ـ 100 ـ 102. دار الفكر. وأنظر أيضاً: الدوري الجذور التاريخية للشعوبية: ص84 وما بعد. دار الطليعة، بيروت .

(2) الأصفهاني: الأغاني 17/ 15 دار الفكر .

(3) الثعالبي: ثمار القلوب: (القاهرة 1908) ص128 ـ 129.

وصـيـفُ كـأسٍ مُـحـدِّثٌ، وَلَـهَـاً   تـيـهُ مـغـنٍّ، وظـرفُ زنـديـقِ[1]

إذ يقول: «وإنما قال ذلك لأن الزنديق لا يَرعُ عن شيء، ولا يمتنع ممن يدعى إليه، فنسبُه إلى الظرف لمساعدته على كل شيء، وقلة خلاقه»[2].

وممن أشير إليه بهذا المعنى «يحيى بن زياد الحارثي»، الذي عرف بالزنديق: وكانوا إذا وصفوا إنساناً بالظرف قالوا: هو أظرف من الزنديق ـ يعنون يحيى ـ لأنه كان ظريفاً[3]. لكن هذه الزندقة الظرفية ما لبث أن خرجت من نطاق الظرف إلى التهتك والانحلال الخلقي والفساد الاجتماعي، وتدرجت بتصرفات وأفعال وأقوال، فيها معنى الكفر والإلحاد. وقد رأى بعضهم أن ينعت أصحاب هذه الصفات بالزنادقة. لأن «علامة الزندقة هي شرب الخمر، والرشا في الحكم، ومهر البغي»[4].

دعوة التحرر والتحلل سبيل الزندقة الاجتماعية:

عمد بعض المستظرفين إلى الخروج من ربقة القيود الدينية والروابط الاجتماعية فاغرقوا أنفسهم في دنان الخمر، وتهافتوا على الحرمات والملذات، وغاصوا في الشذوذ والانحراف، فتهتكوا ودعروا، وتخرقوا وفجروا، وتخرموا وعهروا.

ولقد حفل كتاب الأغاني بالكثير من القصص الغريبة، التي تشهد فصول الانحلال الاجتماعي والخلقي، وكان أبطال هذه القصص، يحيى،

---

(1) أبو نواس: الديوان: (دار الكتاب العربي ـ بيروت 1982) ص451. الأوصاف في البيت للمذكر، والمراد المرأة على تأويل. في الصولي: «محدث ملكا «وفي الأصفهاني» محدث ملك» .

(2) المرتضى: أمالي: 1/ 143، دار الكتاب العربي .

(3) المصدر نفسه .

(4) ابن عبد ربه: العقد الفريد. 2/ 179. دار الكتاب العربي .

ومطيع، والحمادون، وبشار، وأبو نواس، وغيرهم ...[1].

كوّن الحمادون الثلاثة، عصبة المجان، وداروا على أندية اللهو والمجون في مدن العراق، واجتمعوا أنى تيسر لهم الاجتماع ـ في الدور والبساتين والحانات، وسخروا في اجتماعاتهم من أصول الديانات والأخلاق، ومن النظم الاجتماعية التي تخطر لهم[2].

كان حماد عجرد[3]، أكثر الثلاثة تهتكاً ومجوناً وخلاعة، في عصبة المجان والزنادقة[4]، ومن أشعاره نرى تأثره بالمزدكية، وإباحته تعاطي النساء وتبادلهن، محلاً امرأته لسواه، وامرأة سواه لنفسه. يقول:

بكى حُرَيْثٌ فَوَقُّرْه بتعزيةٍ   مات ابن نهيًا وقد كانا شريكين
تفاوَضَا حين شابا في نسائِهما   وحلَّلا كلَّ شيءٍ بين رجلين[5]

كما كان مريضاً بالشذوذ الجنسي، شأنه في ذلك شأن مطيع بن إياس[6].

قال عنه طه حسين: «كان حماد عجرد من زعماء الزنادقة، أو هؤلاء المتهمين في دينهم، وكانت لهم أنديتهم ومجالسهم، وعلام كانوا يجتمعون؟ على الشراب والغناء والعبث بالنساء والغلمان، ويسخرون من أصول الديانات والنظم الاجتماعية، وليس من شك أنهم كانوا يذكرون المانوية، ويؤثرونها على الإسلام، تفكهة وانتقاماً من هذا الدين»[7].

---

(1) الأصفهاني: الأغاني 12/ 95 ـ 96و100 ـ 102. مطبعة التقدم القاهرة.
(2) المصدر السابق 5/ 166 وطه حسين: حديث الأربعاء. ص483. دار الكتاب.
(3) سنتحدث عنه بالتفصيل في الباب الذي يلي (الزنادقة).
(4) أنظر ما قال عنه وعن رفيقيه ابن المعتز: طبقات الشعراء. تحقيق عبد الستار أحمد فراج. دار المعارف، مصر / ص69، وابن قتيبة: الشعر والشعراء (دار المعارف مصر 1966) ص779.
(5) الأصفهاني: الأغاني 140/ 324. دار الكتب.
(6) الشابشتي: (أبو الحسن علي بن محمد): الديارات ص255 مطبعة المعارف. بغداد 1966.
(7) طه حسين: حديث الأربعاء ص487.

كان حماد يخيف المجتمع، يخيف الأمراء والشعراء وكبار الناس، لأنه ماهر في الهجاء، سريع إليه، حديد اللسان فيه. ولشدة تأثيره في ذلك فقد قطع أحدهم الصلاة ليرضيه. وذلك أن حماداً دعي ذات يوم للغداء، عند رجل من أشراف البصرة، وتأخر موعد الطعام لانشغال أحد الحاضرين بأداء الصلاة. فسخر حماد وأنشد:

ألا أيُّهذا القانتُ المتهجِّدُ صلاتُك للرحمن أم لي تسجُدُ
أما والذي نادى من الطُّوْرِ عبدَه لَمِنْ غيرِ ما بِرٌّ تقوم وتقعدُ

فلما سمع الرجل هذين البيتين، قطع الصلاة، وجاء مبادراً، فقال له: «قبّحك الله يا زنديق! فعلت بي هذا كله، لشرهك في تقديم أكل وتأخيره»[1].

أوليس هذا تحرراً وتحللاً من الدين وشرائعه والمجتمع وقيوده ونظمه؟

أوليست تصرفات حماد ورفاقه زندقة؟

إن «والبة بن الحباب» كان مسرفاً في البطالة، مجاهراً بالإباحة، يبتذل ولا يتوفر، يتعهّر ولا يتستر، قال عنه ابن المعتز: «لوالبة في المجون والفتك والخلاعة ما ليس لأحد، وإنما أخذ أبو نواس ذلك عنه»[2]. وقال فيه الأصفهاني: «كان ظريفاً شاعراً غزلاً وصافاً للشراب والغلمان المرد»[3].

إن شعره يوضح هذه الصفات، فيشرب ويبيح، ويتخلع ويتأنّث، إذ يقول:

---

(1) طه حسين: حديث الأربعاء، ص487.

(2) ابن المعتز: طبقات الشعراء. ص88.

(3) الأصفهاني: الأغاني 18/ 100 وما بعد. دار الكتب المصرية.

قد قابَلَتْنا الكؤوسُ ودابَرَتْنا النحوسُ

❀ ❀ ❀

حتى إذا ما انْتَشَيْنا وهزَّنا إبليسُ
رأيت أعجبَ شيءٍ منّا ونحن جلوسُ
هذا يقبّل هذا وذاك هذا يَبُوسُ[1]

ولعلّ ما شاع من شذوذه، وشذوذ عصبة المجان، وأمثالهم، هو الذي دفع الأقدمين إلى اتهامهم بالزندقة التي كانت اجتماعية أكثر منها دينية، فوالبة يشرب ويصخب، ويهوى الغلمان ولا يستحي ولكن يلوح من شعره قبس خافت من العبث الفكري والشك الديني. والدليل على ذلك قول ابي سلهب الشاعر: «كان والبة بن الحباب صديقي، وكان ماجناً، خفيف الروح، خبيث الدين، وكنا ذات يوم نشرب بغمّى، فانتبه من سكره، وأنشدني»:

شربتُ وفاتكٌ مثلي جموحٌ بغمّى بالكؤوس وبالبواطي
يعاطيني الزُّجاجةَ أرْيَحيّ رخيمُ الدَّلِّ بُورِك من مُعاطي
أقولُ له على طَرَبٍ أَلِطْني ولو بمُؤَاجِرٍ عِلْجٍ يُبَّاطي
فما خيرُ الشراب بغيرِ فِسْقٍ يُتابَعُ بالزِناءِ وباللِّواطِ
جعلتُ الحجَّ في غُمّى وبنّا وفي قطْرَبُّلٍ أبداً رباطي
فقل للخمرِ آخر مُلتقانا إذا ما كان ذاك على الصِّراطِ[2]

العصبية والعنصرية سبيل الزندقة:

من الزنادقة المجّان، الشاعر بشار بن برد، الذي كانت نزعته العنصرية من أكبر دوافع زندقته، أضف إلى ذلك العبث والمجون، وروح التشاؤم والسخرية من الناس، والنزعة المانوية الواضحة[3]، حيث يلاحظ

---

(1) ابن المعتز: طبقات الشعراء. ص88 ـ 89. والأصفهاني: الأغاني 18/ 100. دار الكتب.
(2) المصدران السابقان. وياقوت الحموي: معجم البلدان. 4/ 208. مادة غمّى، دار صادر .
(3) عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام. ص37 ـ 38.

أن شعره وقصائده كانت مدائح وأدعية صلاة عند أتباع ماني.

قال عنه طه حسين: «إنه يؤثر النار على الطين، ويفضل النور على الظلمة، فهو من هذه الناحية فارسي الزندقة، ثم كان في حقيقة الأمر فارسياً في كل شيء، فارسياً في زندقته، وأهوائه وميوله السياسية، لا يحب العرب، ولا يرتاح إليهم، يرى أن الفرس ليسوا أقلّ كرامة ولا شرفاً ولا حرية من العرب، وربما فاخر بنسبه الفارسي، ويقولون إنه اجترأ على ذلك بين يدي المهدي»[1].

لم يكتف بشار بدعوته إلى الفسق والمجون والإباحية، بل جهد في إحياء ديانات الفرس القديمة، التي تدعو إلى مبادئ مزدك. كان يدين بالرجعة، ويكفر الأمة كلها بعد موت (الرسول)، ولما سئل عن (علي) تمثل بقول عمرو بن كلثوم:

وما شرُّ الثلاثةِ أمّ عَمْرٍ بصاحبِك الذي لا تصحبينا[2]

لقد دعا بشار صراحة إلى عبادة النار، وفضّل هذه العبادة على عقيدة الإسلام، فقال:

إبليسُ أفضل من أبيكم آدم فتبينوا يا معشر الأشرار
النارُ عنصُره وآدم طينة والطين لا يسمو سموَّ النار[3]

وقال أيضاً:

الأرضُ مظلمةٌ والنارُ مشرقةٌ والنارُ معبودةٌ مذ كانت النارُ[4]

ولكن، لماذا يفضل بشار النار وهي عنصر إبليس على الأرض التي

---

(1) طه حسين: حديث الأربعاء. ص513. دار الكتاب اللبناني.
(2) المصدر نفسه.
(3) بشار بن برد: ديوانه. نشر محمد الطاهر بن عاشور. لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة.
(4) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 24. دار الفكر عن بولاق.

جبل منها آدم؟ ألأن النار هي معبودة آبائه وأجداده الفرس؟! ربما، وهو الذي تغنّى بهم وفضّلهم على العرب بقوله:

هـــل مـــن رســـولٍ مـــخـــبـــرٍ عـــنـــي جـــمـــيـــع الـــعـــرب
جَـــدِّي الـــذي أســـمـــو بـــه كـــســـرى، وســـاســـانُ أبـــي[1]

إن شاعرنا، وهذه مشاربه، يبادر ـ بحكم عصبيته للفرس ـ إلى شنّ حملة شعواء على حركة الولاء التي سادت العصر العباسي، وقامت على نوع من الارتباط الاجتماعي بين العرب والعجم، وأخذ يسفه من شأن المنضمين إلى الأسر العربية، محاولاً إشاعة الفوضى في المجتمع[2].

ومن كانت هذه أهواؤه ونواياه، لا يتورع عن إذكاء نيران الفتنة بين أبناء الصف الواحد. وميمية أبي نواس التي تلون بها تلون الحرباء، فقالها لإبراهيم بن عبد الله بن الحسن مادحاً ومحرضاً له على المنصور، حولها ـ عندما قمع المنصور ثورة إبراهيم ـ وكأنه لم يمدح إبراهيم، ولم يهج المنصور، بل هجا بها أبا مسلم الخراساني[3] والقصيدة تبدأ:

أبا جَعفرٍ ما طول عيشٍ بدائمٍ ولا سالمٌ عما قليلٍ بسالم

وفيها يقول:

لحى الله قوماً رأَسوك عليهم وما زلت مرؤوساً خبيثَ المطاعمِ

الخناقون قمة التطرف في الزندقة العنصرية الاجتماعية:

تطورت الزندقة الاجتماعية تطوراً خطيراً، فبعد أن كانت مجوناً وخلاعة وصراعاً عنصرياً، أقدم دعاتها على اغتيال معارضيهم من أهل التقوى والورع، وعرف غلاة الزنادقة هؤلاء باسم الخناقين. وظهر نشاط

(1) بشار: الديوان. القاهرة.

(2) العدوي (الدكتور إبراهيم) المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية. مكتبة نهضة مصر. القاهرة 1961. ص209.

(3) طه حسين: حديث الأربعاء ص528. دار الكتاب.

بعض فرقهم (المغيرية والمنصورية) واضحاً في عهد المهدي. يقول النوبختي عن العجلي رئيس المنصورية: «أنه كان يأمر أصحابه بخنق من خالفهم وقتلهم بالاغتيال، ويقول من خالفكم فهو مشرك فاقتلوه فإن هذا جهاد خفي»[1]. ويقول البغدادي عن (المنصورية).

«وكفرت هذه الطائفة بالقيامة والجنة والنار، وتأولوا الجنة على نعيم الدنيا، والنار على محن الناس في الدنيا، واستحلوا مع هذه الضلالة خنق مخالفيهم»[2].

وربما كان الاغتيال سبيلاً سلكه بعض غلاة العنصرية العجمية للقضاء على الخصوم من العرب. ويعلق الدوري على ذلك بقوله: «ومن هذا نرى أن الغلاة لم يكتفوا بالقيام بحركات ضد المجتمع العربي الإسلامي، بل لجأوا إلى وسائل الإرهاب واستخدموا الحجارة والخنق والحبال للتنكيل بالناس»[3].

وهذا واصل بن عطاء يشكو من تصرف بشار فيقول: «أما والله لولا أن الغيلة سجية من سجايا الغالية لدسست إليه من يبعج بطنه في جوف منزله»[4].

ولمجابهة هذه الحركات الإرهابية، التي قام بها زنادقة محترفون، تطوعت جماعة لحماية الناس والدين. قال عنهم ابن خلدون: «وتوافر أهل الدين والصلاح على مَنْعِ الفساق وكف عاديتهم»[5]. وقال عنهم الطبري: «فلما رأى الناس ذلك، وما قد أظهروا الفساد في الأرض والظلم والبغي،

---

(1) النوبختي: (أبو محمد الحسن بن موسى): كتاب فرق الشيعة. استامبول 1931، ص35.

(2) البغدادي: الفرق بين الفرق. ص245. دار المعرفة، بيروت، وانظر أيضاً الجاحظ: الحيوان 2/ 264. مطبعة السعادة القاهرة 1907.

(3) الدوري: الجذور التاريخية للشعوبية. ص88. دار الطليعة، بيروت، ط ثانية.

(4) الأصفهاني: الأغاني 3/ 24. دار الكتب.

(5) ابن خلدون: المقدمة. ص134 (المطبعة البهية ـ القاهرة).

وقطع الطريق، وأن السلطان لا يغير عليهم، قام صلحاء كل بيت وكل درب فمشى بعضهم إلى بعض»[1].

وإلى جانب هذه التيارات الزندقية المتمثلة في المجون والفسق والعنصرية إلى الإرهاب والقتل، ظهر تيار مغاير لهذه الحركات، وتلك، ألا وهو تيار الزهد. وقد مثل هذا التيار «أبو العتاهية» خير تمثيل.

ورغم ما اشتهر به هذا الشاعر من ميل إلى الزهد، فإن المستشرق «فيدا» يرى أن أبا العتاهية يؤمن بالاثنينية بكل صراحة، ويعني بهما النور والظلمة»[2].

كما أن أحمد أمين يرى في إيمان أبي العتاهية نزعة «مانوية»، ويستند في ذلك على رأي للصولي يقول: إن مذهب أبي العتاهية الإقرار بوحدانية الله، وإن الله خلق جوهرين متضادين لا من شيء، وسيّر كل شيء إلى الجوهرين المتضادين، وكان يقول بالوعيد ويتشيع بمذهب الزيدية البترية المبتدعة، وكان مجبراً[3].

ضمّ الاتهام بالزندقة فئات متباينة من الناس، بين عجم وعرب، في أعصر مختلفة ونتيجة عوامل كثيرة ـ كما بيّنا فيما سبق ـ ورمي بالزندقة أناس كثيرون، من أدنى طبقات المجتمع إلى أعلاها، وعلى الأخص في القرن الثاني للهجرة. وما ذلك إلا لوجود أجناس مختلفة وأعراق متباينة من الناس تعددت ثقافاتها وأديانها وعاداتها وتقاليدها، فاختلطت العقليات والشخصيات نتيجة حتمية لهذه المعارف الزاخرة بالفلسفات والمنطق وعلم الكلام، المليئة بالمذاهب والنحل الموروثة والمستحدثة التي جعلت الفكر العربي في حالة من الشك مؤقتة أو مستمرة أحياناً عند بعض الشعراء والأدباء ورجالات العلم وذوي الشأن من أصحاب المناصب السياسية. وانضاف ذلك كله إلى عوامل أخرى سياسية واجتماعية فقوي وانتشر تيار

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 8/ 210. القاهرة 1949.

(2) بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام. ص38.

(3) أحمد أمين: ضحى الإسلام. 1/ 195. القاهرة 1956.

الزندقة وكثر الزنادقة الذين عدهم البعض أحراراً[1]. ولكن هذه الزندقة التي أردنا سبر غورها، لم تكن زندقة دينية وحسب، بل تعدّت ذلك إلى الفكر والسياسة وعادات وتقاليد المجتمع وتصرفاته. وقد أوردنا شواهد عديدة على أنواع الزندقة نؤيدها بهذا النذر القليل. يقول أبو نواس:

وأيسرُ ما أبثُّك أنَّ قلبي بتصديق القيامة غيرُ صافِ[2]

إنها زندقة دينية حيث ينكر الشاعر البعث والقيامة. وكم كرر هذه المعاني، وهذا هو يشير إلى عصبة المجان ـ وهو منها ـ، وإلى إيمانهم بقوله:

عاذلتي بالسَّفاة والزَّجْرِ استمعي ما أبث من أمري
باحَ لساني بِمُضْمَرِ السرِّ وذاك أني أقول بالدهر
بين رياضِ السرور لي شِيَعٌ كافرة بالحسابِ والحشر
موقِنَةٌ بالمَمَاتِ جاحِدَةٌ لِمَا رَوَوْه من ضغطةِ القَبْرِ
وليس بعد المَمَاتِ مُنْقَلَبٌ إنما الموتُ بيضةُ العِقْرِ[3]

وهذه الأبيات صريحة في الزندقة والكفر، فالشاعر ينكر البعث والحساب، ويؤمن بالدهر. يشاركه في ذلك أقرانه من المجان والفاسقين. وفي الأبيات كما نرى زندقة دينية فكرية واجتماعية.

وعلى الرغم من المظهر الديني الذي بدأ به الزنادقة، فقد كانت الأغراض الزندقية تهدف إلى صراعات سياسية وعنصرية وعصبية، بدأت مع العرب، وعايشتهم في كل مراحل تاريخهم، وأظن أنها باقية بقاءهم إلى ما شاء الله.

---

(1) يوهان فك: العربية: ترجمة عبد الحليم النجار. مطبعة دار الكتاب العربي، القاهرة، 1951م، ص990 و291.

(2) الراغب الأصفهاني: (أبو القاسم حسين بن محمد): محاضرات الأدباء، المطبعة الشرقية، القاهرة 1326هـ ج2، ص183.

(3) الجرجاني (علي بن عبد العزيز) الوساطة بين المتنبي وخصومه. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1951، ص63.

الفصل الرابع

الزنادقة

(من العصر الجاهلي حتى نهاية العصر العباسي الأول)

القسم الأول
زنادقة العصر الجاهلي

توصلنا في الفصل الثاني من البحث إلى إثبات وجود الزندقة، في العصر الجاهلي، وربما لم نتوصل إلى وجود كلمة الزندقة باصطلاحها المتأخر، ولكن الذي يقرأ أدب الجاهليين يعثر على الكثير من معاني الزندقة.

وسنبحث فيما يلي، في شؤون الزنادقة الذين عثرنا عليهم في بطون الكتب.

1 ـ جاء في كتاب «المعارف»: «أن الزندقة كانت في قريش، وأن قريشاً أخذتها من الحيرة»[1]، ويعترف المعري بوجود الزندقة في قريش، زمن ما قبل الإسلام وإبانه، ويؤيد رؤيته هذه بشعر «شداد بن الأسود الليثي»، الذي يقول:

(1) ربما عنى ابن قتيبة «المجوسية» لأن الحيرة كانت ربيبة الفرس في دنيا العرب، أو ربما عنى مذهباً من مذاهب النصارى التي كانت الحيرة أحد معاقله. (المذهب النسطوري). ابن قتيبة: المعارف، ص621، دار المعارف.

ألا من مبلغ الرحمن عني | بأني تاركٌ شهرَ الصيام
إذا ما الرأسُ زايل منكبيه ، | فقد شبع الأنيس من الطعام
أيوعدنا ابن كبشة أن سنحيا | وكيف حياةُ أصداءٍ وهام؟
أتترك أن تردَّ الموت عني ، | وتحييني إذا بليت عظامي؟[1]

لا يعترف الشاعر هنا بالبعث والنشور، بل يؤمن بالموت والفناء الكلي، ويتساءل عن مدى صحة ما يسمع هو وقبيلته التي خُتم بعض رجالاتها بخاتم الزندقة أمثال: «أبي سفيان بن حرب، وعقبة بن أبي معيط، وأبي بن خلف الجمحي، والنضر بن الحارث بن كلدة، والعاص بن وائل السهمي، والوليد بن المغيرة المخزومي»[2].

وما دامت الزندقة على أنواع، منها الدينية والفكرية والسياسية والاجتماعية فإننا نراها متفشية زمن الجاهلية، وربما دخلت صفوف أكثر القبائل حتى وصلت إلى قريش المؤتمنة على مقدسات العرب.

فبنو حنيفة اتخذوا في الجاهلية إلهاً من (حَيْس)[3]، فعبدوه زمناً طويلاً، ولما حلت بهم سنوات القحط والمجاعة، أكلوا هذا الإله، فقال رجل من تميم:

أكلت ربَّها حنيفة من جُو | عِ قديمٍ بها ومن إعوازِ

وقال غيره:

أكلت حنيفةُ ربَّها | زمن التقحُّم والمجاعَهْ
لم يحذروا من ربِّهم | سوءَ العواقب والتَّباعَهْ[4]

أما قبيلة تميم فقد استشرت بين صفوفها «المجوسية» ومن الذين تمجسوا: «زرارة بن عدس التميمي، وابنه حاجب بن زرارة الذي تزوج

(1) المعري: أبو العلاء: رسالة الغفران. ص211 الشركة اللبنانية.
(2) محمد بن حبيب: المحبر: ص161. جيدر أباد 1361هـ.
(3) الحيس: خليط من الإقط (اللبن) والتمر والعسل.
(4) ابن قتيبة: المعارف، ص621.

ابنته، والأقرع بن حابس، وأبو سود»[1].

وربما استشرت المجوسية في تميم من جراء اتصالها بالفرس، وقرب مضاربها منهم، والمعروف أن حاجب بن زرارة كان من جملة الذين انتقاهم النعمان بن المنذر وأرسلهم بوفد إلى كسرى[2]، وقد وفد على كسرى ثانية عندما منعت تميم من ريف العراق، وأقام عهداً مع ملك فارس بحفظه الوفاء حيث رهنه قوسه التي استعادها ابنه عطارد مع كسوة كسروية، أهداها فيما بعد للرسول فرفضها[3].

الحارث بن عمرو الكندي: إبان حركة مزدك، كان يتولى أمر الحيرة، المنذر الثالث (506 ـ 554م)، فدعاه قباذ ملك الفرس إلى الدخول معه في الدعوة الدينية الجديدة[4]، فأبى. وكان الحارث بن عمرو الكندي طامعاً في ملك الحيرة، فاعتنق المزدكية وآمن بها، وأدرك قباذ أن الحارث قوي الشخصية، واسع الدهاء، فعقد معه معاهدة، وملكه الحيرة، بعد أن طرد منها المنذر بن ماء السماء عام 529م[5]. لكن إقامة الحارث في الحيرة لم تطل، لأن مزدك قتل على يدي: أنوشروان «ولي عهد فارس، الذي لم يكن على رأي أبيه، فعندما آل إليه الملك عام 531م، ألغى المزدكية كدين رسمي للدولة، وأعاد المنذر الثالث إلى الحيرة، وهذا بدوره عزم على الانتقام من الحارث بن عمرو الكندي الذي هرب بماله وولده، ولكن خيل

---

(1) المصدر السابق.

(2) ابن عبد ربه: العقد الفريد 2/ 9 دار الكتاب العربي.

(3) المصدر السابق 2/ 20.

(4) ظهر مزدك عام 487 في فارس، ودعا إلى شيوعية فوضوية، وكان يرى أن الناس ولدوا سواء فليعيشوا سواء، وأن الذي يمنع ذلك: الغيرة والحقد والغضب والحرص والفقر، وقوام هذه الأفكار الشيطانية الخمس المال والنساء، فينبغي أن يباحا بين الخلق أجمعين. وتبعه آلاف من الناس، وكذلك قباذ الملك الذي تعصب له وجعل المزدكية الدين الرسمي لفارس. أنظر في ذلك. الطاهر أحمد مكي: امرؤ القيس، حياته وشعره. ص63. دار المعارف مصر، ط ثانية 1970 .

(5) المصدر نفسه.

المنذر لحقت به وقتلت ولديه عمراً ومالكاً، كما أسر بنو تغلب ثمانية وأربعين من بني آكل المرار، قدموا بهم على المنذر فضرب رقابهم بحفر الأملاك في ديار بني مَرين العباديين[1].

والسؤال الذي يطرح نفسه! لماذا لاحق المنذر الحارث ومن ينتمي إليه قرابة وولاءً؟ ألخصومة سياسية نشأت وانتفت بسرعة، أم لاختلاف في العقيدة والإيمان؟ إن من يرى المذبحة التي دبرها سيده «أنوشروان» لمزدك وأتباعه، يجد له تبريراً لضرب رقاب أربعين شخصاً ملكياً! هذه المذبحة التي ردد ذكرها بأسى شعراء عديدون، على رأسهم امرؤ القيس الذي يقول[2]:

ألا يا عين بكّي لي شَنينا   وبكّي لي الملوك الذاهبينا
ملوكاً من بني حُجْرِ بن عمرو   يُساقون العشيّةَ يُقتلونا
فلو في يوم معركة أصيبوا   ولكن في ديار بني مرينا

عندما كان الحارث الكندي على ملك الحيرة، فرق أولاده على قبائل وسط الجزيرة العربية ليحكموها. فرحبت بكر وحنظلة وقيس عيلان، وتغلب، وعبد القيس بأولاد الحارث، تخلصاً من جور اللخميين (ملوك الحيرة). ويحتمل أن يكون أبناء الحارث قد أخذوا المزدكية عن أبيهم، وعن طريقهم وصلت إلى القبائل التي حكموها وإلى غيرها في دنيا العرب، حتى تفشّت الزندقة ودخلت بيوتات قريش، كما أسلفنا. ولكن بعض العرب وقف بالمرصاد للدعوات الزندقية، وظل موحداً رغم كل شيء، أمثال النابغة الجعدي الشاعر، الذي يقال عنه أنه أنكر الخمر، زمن الجاهلية، وهجر الأوثان وعبادتها، وقال:

الحمدُ لله لا شريك له   من لم يقلها فنفسه ظلما[3]

(1) مكان بين دير هند والكوفة.

(2) الطاهر أحمد مكي: امرؤ القيس. ص65. الشين أو الشن = الصب.

(3) محمد نعمان الجارم: أديان العرب في الجاهلية ص193. القاهرة 1923.

امرؤ القيس والإباحية المزدكية:

امرؤ القيس، أمير شعراء الجاهلية، هو حفيد الحارث الكندي الذي «تمزدك»، وتملك الحيرة زمن قباذ، وهو ابن حجر الكندي ملك قبيلة «أسد» التي ثارت في وجه أبيه لأنه كان يغير على نسائها[1].

جاء في «خزانة الأدب»[2] أن «امرأ القيس» كان يشبب بزوجة أبيه، «هرّ بنت سلامة بن عبد»، وأم الحارث بن حصين الكلبي، فقد أشار إليها كناية في البيت السابع من المعلقة، متأسياً عن حاضره بماضيها وراجياً أن يحظى من صواحبه اليوم، ما حظي عندها بالأمس:

كدأبِكَ من أمِّ الحويرثِ قبلها   وجارَتِها أم الربابِ بمَأْسَلِ[3]

ونراه يسميها، ويشرب عندها، مذ كان فتى، حتى ذهبت بشبابه، إذ كان يقبلها، فيجد لفمها طعم خمر معتقة مستوردة بقوافل التجار يقول:

أُغادي الصبوحَ عند هرٍّ وفَرْتني   وليداً، وهل أفنى شبابي غيرُ هرّ
إذا ذُقتُ فاها قلتُ طعمَ مُدامةٍ   معتقةٍ ممّا يجيئُ به التُّجُرْ[4]

أوليست هذه إباحية مطلقة؟ وخصوصاً إذا صحّ القول أن «هر» هي زوجة والد امرئ القيس فعلاً. أوليس ما ناره زندقة اجتماعية؟ في عصر كان يقول فيه شاعر آخر:

وأغضُّ طرفي ما بَدَت لي جارتي   حتى يُواري جارتي مأواها[5]

فأين موقف هذا؟ من موقف ذاك! وكيف تفسر موقفي الشاعرين من المرأة؟ أهو الفارق الطبقي بين ابن ملك وابن أمة؟ أم هو السلوك الديني

---

(1) الطاهر أحمد مكي: امرؤ القيس، حياته وشعره. ص93. ربما كان يفعل ذلك على مذهب مزدك الذي أشاع المال والنساء.

(2) البغدادي (عبد القادر بن عمر) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. القاهرة 1930، ص86.

(3) الزوزني: شرح المعلقات السبع. ص11. دار الجيل، بيروت. مأسل: جبل.

(4) أحمد مكي: امرؤ القيس. ص91.

(5) عنترة ابن شدّاد: الديوان. تحقيق فوزي عطوي. ص102. دار المعرفة، بيروت 1968.

لكليهما؟ أرجح السلوك الديني، مع الإشارة إلى إباحية مزدك وسريان هذه الإباحية في مجتمع (كندة) بدءاً بجد الشاعر «الحارث بن عمرو».

إن امرأ القيس لا يتعرض لزوج أبيه عرضاً، بل هو يعني ما يقول، حيث أننا نراه، يتساءل عنها في مقدمة طَلَلِيَّة: أظعنت، أم بقيت؟ ويتجاوز ذلك ليقر أن جمالها مصيدة للرجال، لا يكاد أحد يراها حتى تأسر قلبه، فيصبح أسير هواها، لقد رمته فأصابت قلبه، فوقع صريع هواها، ولكنها لم تقع هي، وأفلت منها حجر أبوه، يقول:

وفيمن أقام من الحيِّ هِرٌّ — أم الظاعنون بها في الشُطُر
وهرّ تصيد قلوب الرجالِ — وأفلت منها ابن عَمْروٍ حُجُر
رَمَتْني بسهم اصاب الفؤادَ — غداة الرحيل فلم انتصر.[1]

من غير المستبعد أن يكون الابن قد شبب بامرأة أبيه، فمن ينصب الشباك لابنة عمه «بدارة جلجل» عاشقاً، يمكن أن يلاحق زوج أبيه مشتهياً، وليس في أخلاق امرئ القيس ـ كما يصورها شعره ـ ما يأبى أياً منها، وليست تأباه أيضاً مثاليات أسرة يقبل الجد الأقرب فيها مبادئ مذهب يدعو إلى المشاع في المال والنساء، ألم يخلف امرؤ القيس أباه حجراً على زوجته هند بنت ربيعة بن الحارث، بعد وفاته؟... أوليس هو القائل، مصرحاً بفجوره، عندما كان يتحين الفرص للإيقاع بابنة عمه:

ألا رُبَّ يوم لك منهُن صالحٍ — ولا سيَّما يوم بدارةِ جُلْجُلِ
ويومَ دخلتُ الخدرَ خدرَ عُنيزةٍ — فقالت لك الويلاتُ إنك مُرْجلي
تقولُ وقد مال الغبيطُ بنا معاً — عقرْتَ بعيري يا امرأ القيسِ فانزلِ
فقلتُ لها سيري وأرخي زمامَه — ولا تُبعديني من جَناكِ المعلَّلِ
فمثلِك حُبلى قد طرقتُ ومُرضعٍ — فألهيتُها عن ذي تمائمَ مُحْوِلِ[2]

والسؤال المطروح الآن عن أمير شعراء الجاهلية، هل كان حقاً من

---

(1) أحمد مكي: امرؤ القيس. ص92.

(2) الزوزوني: شرح المعلقات السبع. ص14 ـ 16. وانظر بقية الأبيات حتى ص40.

أتباع مزدك؟ إن طلب الثأر في سيرته، والإسراف في الانتقام من قتلة أبيه، لا يتفق ومبادئ المذهب المزدكي، الذي جاء لينهي عن المباغضة والقتال، ويبطل الخلاف بين العقائد والأمم[1]. وإذا لم يكن مزدكياً، فهل هو مسيحي[2]؟ وهناك صور في شعره ملتقطة من جو مسيحي. كقوله:

يضيءُ الظلام بالعشاءِ كأنه مَغَارةُ مُمْسَىً راهبٍ متبتِّلِ[3]

أم هو يهودي؟ لأنه يشير في شعره إلى صور يهودية[4]. أي دين كان يملأ وجدان الشاعر؟ أوثني هو؟ وقد حجّ إلى الوثن «ذي الخلصة»[5] واستقسم بالقداح عنده لغزو بني أسد ثأراً لأبيه.

إن شاعراً مثله، يمثل الذروة في مجال الثقافة والشعور والتفاعل مع ما حوله، وفي عصر جاهلي، لا بد أن يلم بكل الأديان المعروفة، لكن سلوكه لا يدل على أنه مسيحي بالقول والعمل، ولا وثني عندما يحطم القداح ويرمي بها وجه الصنم، ولا مزدكي، لأنه يطلب الثأر بشغف وإلحاح. وإذا كان فيه بعض الإيمان بالمسيحية أو غيرها، فإيمانه ركيك للغاية. وهو أقرب ما يكون بمذهبه إلى الزندقة.

ادعاء النبوّة:

أ ـ مسيلمة بن حبيب الحنفي:

ذكر أهل الأخبار، أن مسيلمة الحنفي كان ممن ادعى النبوة قبل

---

(1) الشهرستاني: ملل ونحل 2/ 86. دار المعرفة بيروت.

(2) الأب لويس شيخو: شعراء النصرانية.

(3) أحمد مكي: امرؤ القيس، ص101.

(4) المصدر نفسه، ص104.

(5) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. 6/ 272. دار العلم للملايين وانظر الأصفهاني: الأغاني 9/ 92 ـ 93. دار الكتب.

الإسلام، وصنع أسجاعاً[1]. وأتى بمخاريق كثيرة، وخدع عديدة، كإدخاله البيضة في القارورة، ووصل جناح المقصوص من الطير، وزعمه أنه صاحب الجن، وله تابع خاص[2]، ولذلك قال الشاعر، يصف مخاريقه وخدعه:

ببيضة قارور وراية شادن وخلة جِنِّيٍّ وتوصيل طائر[3]

حيث صبّ على بيضة خلا قاطعاً، فلان قشرها، وأدخلها في قارورة ضيقة الرأس وتركها حتى جفت وعادت إلى شكلها السابق، وأخرجها إلى جماعة من الأعراب مدعياً أنها معجزة. وكذلك الخدع الثلاث الباقية المذكورة في البيت[4].

وذكر الرواة، أنه كان يسمى بـ (الرحمان) قبل مولد (عبد الله) والد (محمد)، «وكانت قريش حين سمعت: بسم الله الرحمن الرحيم، قال قائلهم: دقّ فوك، إنما تذكر مسيلمة رحمان اليمامة». وقالت قريش أيضاً: «إنا قد بلغنا أنك إنما يعلمك رجل باليمامة يقال له الرحمان، ولن نؤمن به أبداً»[5].

عمّر مسيلمة طويلاً، وأدرك (الرسول)، وكان في جملة رجال (وفد حنيفة) الذي قصد (محمداً)، لكنه بقي مع رجال الوفد، ولم يؤمن بما آمن به رفاقه، وعاد إلى اليمامة ليكتب إلى (الرسول): «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، أما بعد، فإني قد أشركت معك في الأمر، وإن لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشاً لا ينصفون»، فكتب إليه (الرسول): «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد النبي إلى مسيلمة

---

(1) جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 6/ 84.

(2) الجاحظ: الحيوان 4/ 458. دار صعب. وابن قتيبة: المعارف 405. دار المعارف.

(3) الجاحظ: الحيوان: 4/ 458.

(4) أنظر شرحها في: جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام 6/ 85 وما بعد.

(5) جواد علي: المصدر السابق 6/ 86 عن الروض الأنف 1/ 200.

الكذّاب، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين، والسلام على من اتّبع الهدى»[1].

ومما ذكر عن مسيلمة هذا، وبعد تلقيه نبأ (قرآن محمد) أنه نظم قرآناً يضاهيه به، ومما جاء فيه: «يا ضفدع نقي كم تنقين! نصفك في الماء ونصفك في الطين إلا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين»[2].

يظهر من بعد ملاحظات الأخباريين أن مسيلمة الذي ادعى النبوة، بحسب رأيهم، كان ـ إلى جانب مخاريقه وزيفه ـ يعرف (الرحمن) وليس بغريب على رجل مثله، وفي عصر كثر فيه النزق والطيش والجهل والغباوة، أن يخلط بين عبادة السماء وعبادات الأرض، ومن يغفل ذلك يكون قد تزندق بالمفهوم المتأخر للكلمة.

قتل مسيلمة على زمن أبي بكر في حروب الردة من جراء حملة قادها خالد بن الوليد على ربوع اليمامة، واختلف في قاتله[3].

وقال بعض شعراء بني حنيفة يرثيه:

لهفي عليكَ أبا ثُمامة ... لهفي على رُكْنَيْ تهامة
كم آيةٍ لك فيهم ... كالشمسِ تطلعُ من غَمَامَه[4]

عُرف مسيلمة بين أتباعه بـ (رسول الله)، وآمن به مشايعوه إيماناً شديداً، وتعصبوا له. واتخذ مسيلمة مؤذناً يؤذن له في أتباعه، اسمه (حجير) أو (عبد الله بن النواحة)[5].

---

(1) اليعقوبي: تاريخ. دار صادر بيروت ج2 ص 130. والبلاذري. فتوح البلدان. دار الكتب العلمية. بيروت 1983. ص97 وما بعد.

(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك 3/ 283 وما بعد. دار سويدان.

(3) البلادري: فتوح البلدان، ص98.

(4) ابن قتيبة: المعارف، ص405.

(5) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 3/ 283 والبلاذري: فتوح البلدان، ص100.

إن أخباراً كهذه، إن صدقت، تدعو إلى التساؤل، هل كان مسيلمة يعرف برسول الله قبل مبعث (محمد) أم بعده؟ وإن كان قبله؟ فهل حوربت دعوته، وماتت أفكاره واتجاهاته قبل أن تولد؟ أم أنها ولدت وترعرعت في زمن ما، وبيئة ما، ثم جوبهت بالإسلام فتراجعت وامحت؟ والسؤال الآخر هل عرف الآذان قبل الإسلام؟ وحتى نجد الأجوبة الصحيحة لا بد من وثائق وحقائق، هي متعذرة، وربما توصل البحاثة إلى إيجاد شيء منها... لكن الحقيقة الواضحة أن مسيلمة كان متزندقاً دينياً واجتماعياً.

ب ـ سجاح المتنبئة:

عرفت أيضاً باسم (تميمة) و (صادر) من بني يربوع، وكان مؤذنها (زهير بن عمرو)، ويقال: إن (شبث بن يربعي) أذن لها أيضاً. قال فيا عطارد بن حاجب بن زرارة:

أمست نبيتنا أُنثى نُطيف بها   وأصبحت أنبياء الناس ذُكرانا[1]

ذكر أنها كانت كاهنة زمانها، تزعم أن رئيها ورئي سطيح واحد، ادعت النبوة، واختلفت مع مسيلمة وكذبت نبوته، لكنها وهبت نفسها له وتزوجته بعد أن اتصلت به. وزعموا أنه قال لها:

ألا قومي إلى المخدع   فقد هُيِّي لك المضجع
فإن شئت سلقناك   وإن شئت على أربع
وإن شئتِ بثلثيه   وإن شئت به أجمع

فرضيت به أجمع، فضرب المثل بغلمتها، حتى قيل: أغلم من سجاح[2]. وفيها قال قيس بن عاصم[3]:

(1) ابن قتيبة: المعارف، ص405.

(2) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام. 6/ 95. عن ثمار القلوب ص315.

(3) المصدر السابق. ونسب الشعر أيضاً لعطارد بن حاجب بن زرارة.

أضحت نبيتنا أنثى نُطيف بها ... وأصبحت أنبياء الله ذكرانا
يا لعنة الله والأقوام كلهم ... على سجاح ومن بالإفك أغرانا
أعني مسيلمة الكذاب لا سقيت ... أصداؤه ماءَ مُزن حيثما كانا

إننا لا نعرف بين نساء العالم امرأة واحدة (نبية)، اللهم إلا النبيات التسع في العهد القديم[1]، والشاعر هنا، يلعن ويستمطر اللعنات من مختلف الأقوام على هذه النبية المدعية، وأيضاً على مسيلمة الكذاب صاحب الإفك الذي ضلّ وأضلّ.

ولكن جواد علي، لا يستبعد تأثر مسيلمة باليهود والنصارى وأخذه منهم، وما دعوته إلى عبادة (الرحمن) إلا صدى تأثره باتباع أهل الكتاب[2].

والمتبصر للشعر المروي على لسان مسيلمة إلى هذه النبية، يرى بوضوح الإباحية المطلقة، والكلام الفاحش البذيء الذي لا يمكن أن يصدر عن نبي، ولا حتى عن إنسان عادي، أو شاعر فاحش متأخر كأبي نواس وبشار ... وهل هناك زندقة فكرية اجتماعية أكثر من هذه؟

ج ـ أنبياء أدعياء آخرون:

كان هناك كثيرون، ادعوا علم الغيب، وتخصصوا بـ (الكهانة والعرافة)[3] اشتهر بالأولى: عزي سلمة، وشق أنمار، وسطيح بن مازن، وخنافر بن التوأم الحميري، وسواد بن قارب الدوسي، وطريفة الكاهنة، وزبراء، وسلمى الهمدانية، وعفيراء الحميرية، وفاطمة بنت مر الخثعمية. واشتهر بالثانية: رباح بن عجلة عراف اليمامة، والأبلق الأسدي عراف نجد[4].

(1) قاموس الكتاب المقدس. أنظر أسماءهن ص952.
(2) جواد علي: تاريخ العرب قبل الإسلام 6/ 97.
(3) الكهانة مختصة بالأمور المستقبلة. والعرافة بالأمور الماضية.
(4) الألوسي: (محمود شكري) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب. القاهرة 1342هـ/ 1924م. ج3، ص275. وما بعدها.

هؤلاء وأمثالهم زجروا الطير، وضربوا الحصى، وخطوا الرمل، وضللوا الكثير من الناس، ولكن بعض الناس أنكروا الطيرة، وعارضوا فكرة الزجر، من ذلك قول ضابيء بن الحارث البرجمي:

وما أنا ممن يزجر الطيرَ همّه أصاح غراب أم تعرَّض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشية أمرَّ سليمُ القرن أم مرَّ أعضبُ[1]

كذلك عارضوا الطرق بالحصى لمعرفة جواب المستفسر كقول لبيد:

لَعَمْرُك ما تدري الضواربُ بالحصى ولا زاجراتُ الطيرِ ما الله صانعُ[2]

كما استقسموا بالأزلام، برميهم القداح على ذي الخلصة وآمنوا بـ (البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي)[3]، كما تعودوا حمل التمائم والتعاويذ للمداوة، أو خوفاً من الموت أو البلاء، وعلقوا الحلى والجلاجل على اللديغ ليشفى، وإلى ذلك يشير النابغة الذبياني:

فبتُّ كأني ساورتني ضئيلةٌ من الرُّقْشِ، في أنيابِها السُّمُّ ناقِعُ
يُسهَّدُ، من ليلِ التَّمامِ، سليمُها، لحِلْي النساءِ، في يديه، قعاقعُ[4]

شعراء زنادقة:

عندما نتكلم عن الزندقة، في العصور الأولى للعرب، لا نقف عند المدلول الاصطلاحي للكلمة الذي عرف في صدر الدولة العباسية، وأطلق على من اعتنق «المانوية»[5]، بل نتخطى هذا المدلول المحدود إلى معنى أوسع يشمل كل من خرج عن عقيدة الجماعة المتبعة وأعرافهم وتقاليدهم

---

(1) علي الجندي: تاريخ الأدب الجاهلي. مكتبة الجامعة العربية، بيروت، ط ثانية 1966، ص106.

(2) لبيد بن ربيعة العامري: الديوان. ص90، دار صادر، بيروت.

(3) أنظرها في: الأب جرجس داود: أديان العرب قبل الإسلام. ص347.

(4) النابغة الذبياني: الديوان. ص80، المؤسسة العربية للطباعة، بيروت .

(5) أنظر القسم الأول من الفصل الثاني.

متجاوزين دائرة الدين إلى حلبات العبث والمجون وغيره.

والإلحاد داء قديم، وبلية خلقت مع الإنسان الأول. يرى أبو العلاء المعري أن الزندقة قديمة قدم الإنسان، وأن الإلحاد «لم يزل في بني آدم على مرِّ الدهور، حتى إن أصحاب السير يزعمون أن آدم بعث إلى أولاده فأنذرهم بالآخرة وخوفهم من العذاب فكذبوه وردوا قوله، ثم على ذلك المنهاج إلى اليوم ...»[1].

فالزندقة والحالة هذه، تسير سير الإنسان ترافقه في كل زمان ومكان، أفلا تجوب معاقل العرب، وتدخل مضاربهم، وتلج ألبابهم، ومن ثم تتردد على ألسنة شعرائهم؟ تنساب انسياب الرقطاء بين رمال الصحراء.

أ ـ الأعشى والزندقة:

إذا ما كان الخمر والمجون زندقة، فإن أعشى قيس يعتبر زنديقاً كبيراً زمن ما قبل الإسلام. إذ يقول:

فقد أشرب الراحَ قد تعلميـ — نَ يومَ المُقام ويومَ الظَّعنْ
وأشربُ بالرِّيفِ حتى يُقا — لَ قد طال بالرِّيف ما قد دَحَنْ
وأقررتُ عيني من الغانيا — تِ إما نكاحاً وإمّا أُزَنْ[2]

فهو يشربها في الحل والترحال، وقد يدأب على شربها في الريف ليالي وأياما. وقد أشار القدماء إلى أثر الأعشي في شعراء الخمر الذين جاءوا بعده، كالأخطل وأبي نواس. ويطول بنا المقام إذا أحصينا المعاني التي تداولها الشعراء من بعده.

إن الأعشى في خمرياته، متلاف لا يقارنها بثمن ولا يبخل عليها بشيء.

---

(1) المعري: رسالة الغفران. ص211.

(2) الأعشى الكبير: الديوان. شرح وتعليق د. محمد حسين. نشر مكتبة الأدب. بالجماميزت. قصيدة رقم 2 ص17.

يعترف أن الخمر والنساء والإسراف في فاخر الطعام قد اتلفت ماله. يقول:

إنَّ الأحـامـرةَ الـثـلاثـةَ أهـلَـكَـتْ ما لـي وكـنـتُ بـهـنَّ قِـدْماً مُـوْلَـعـا
الخمرَ واللحمَ السمين مع الطِّلَى بـالـزعـفـرانِ ولا أزال مـردَّعـا[1]

ويشربها الأعشى عند سقّاء يهودي، معتقة بدليل وجودها في إناء مختوم. يقول:

وصـهـبـاءَ طـافَ يـهـوديُّـهـا وأبـرَزَهـا وعـلـيـهـا خُـتُـم
وقـابـلـهـا الـريـحُ فـي دَنِّـهَـا وصـلَّـى عـلـى دَنِّـهـا وارتـسـمْ
تـمـزَّزْتُـهـا غـيـرَ مـسـتـدبِـرٍ عَنِ الشُّرْب أو مُنكرٍ ما عُلِمْ[2]

ولقد يصرف الأعشى شبابه من رفاق مع أصحاب اللذ ة والفتك، يغدو معهم إلى الحانوت حيث المأكل والمشرب ـ وهم يعلمون «أن ليس يدفع عن ذي الحيلة الحيل». يقول:

وقد أقود الصِّبى يوماً فيتبعُني وقد يصاحبُني ذو الشَّرَّةِ الغَزِلُ
وقد غدوتُ إلى الحانوتِ يتبعُني شاوٍ مِشَلٌّ شلول شلشلٌ شَوِلُ
في فتيةٍ كسيوف الهندِ قد علموا أنْ ليس يدفعُ عن ذي الحِيلةِ الحِيَلُ
نازَعْتُهم قُضُبَ الرَّيْحانِ مُتّكِئاً وقهوةً مُزّةً رَاوُوقُها خضِلُ[3]

وقد يحاول أن ينهي نفسه عن التصابي والمجون، ولكن الشوق القديم إليهما يعاوده، ولكم سعى قبل مخاطبته لجارته أن يلتمس الفجور في القطيع من البقر، ولا عجب بعد هذا أن يطارحها الغرام في إباحية مطلقة. يقول:

أَلَـمْ تـنـهَ نـفـسَـك عـمَّـا بـهـا بـلـى عـادَهـا بـعـضُ أطـرابِـهـا
لـجـارتِـنـا إذ رأتْ لـمَّـتـي تـقـولُ لـك الـويـلُ أنّـى بـهـا

❀ ❀ ❀

(1) الأب لويس شيخو: شعراء النصرانية.
(2) ديوان الأعشى. قصيدة 4، ص35.
(3) ديوان الأعشى. قصيدة 6، ص59.

وقبلَكِ ساعيتُ في رَبْربِ إذا نام سامرُ رقَّابها
تُنازِعُني إذ خَلَتْ بُرْدَها مُفَضَّلةً غيرَ جلبابِها

❀ ❀ ❀

فطوراً تكونُ مَهاداً لنا وطوراً أكونُ فيُعلى بها
وكأسٍ شربتُ على لَذَّةٍ وأُخرى تداويت منها بها
لكي يعلمَ الناسُ أنِّي امرؤٌ أتيتُ المعيشةَ من بابها[1]

ومع هذا الفسق والفجور للشاعر نرى «أبا العلاء» قد أدخله الجنة بعد أن توسط له علي بن أبي طالب. يقول الأعشى: قلت لعلي: وقد كنت أؤمن بالله وبالحساب وأصدق بالبعث وأنا في الجاهلية الجهلاء، فمن ذلك قولي:

وما أَيْبُلِيٌّ على هيكلٍ بناه وصلَّب فيه وصارا
يُراوحُ من صلواتِ المليك طوراً سجوداً وطوراً جُؤَارا
بأعظمَ منه تُقىً في الحسابِ إذا النَّسَمَاتُ نَفَضْن الغُبارا

فذهب علي إلى النبي ... فشفع لي فأدخلت الجنة»[2].

فكيف نوفّق بين إقرار الشاعر بالإيمان بالله وبالحساب، وبين مجونه؟ تُرى هل يجوز أن يعدّ الأعشى زنديقاً؟ ربما، إذا اعتبر العبث والمجون من أنواع الزندقة. وعندئذٍ يكون الأعشى زنديق خمر ونساء، لا زنديق كفر ورياء، هذا مع الإشارة إلى اعتراف الأعشى برئي يملي عليه الأشعار، يرافقه ولا يفارقه، وقد سماه مسحلاً في مثل قوله:

دَعَوْتُ خليلي مِسْحلاً ودَعَوْا له جَهَنَّامَ جَدْعاً لِلْهَجين المُذَمَّمِ[3]

---

(1) المصدر نفسه. قصيدة 22، ص171 وما بعد. وانظر أيضاً القصائد رقم: (5 ـ 8 ـ 10 ـ 20 ـ 21 ـ 29 ـ 30 ـ 33 ـ 36 ـ 54 ـ 55 ـ 64 ـ 78). والربرب: جماعة البقر ما كان دون العشرة.

(2) المعري: رسالة الغفران. ص77.

(3) ديوان الأعشى. قصيدة رقم 15، ص125.

وليس هذا بغريب في ذلك العصر، ولكن الغريب هو تصريح الأعشى بأنه لا يتلعثم بالكلام، لأن وراءه مسْحَلٌ يُسدِّي له القول، وهما شريكان صفيان موفقان، وشاهدنا على ذلك قوله:

وما كنتُ شاحرْداً ولكن حسِبْتُني إذا مِسْحَلُ سدّى ليَ القولَ أنطِقُ
شريكانِ فيما بينَنَا من هَوَادةٍ صفيَّانِ جِنِّيٌّ وإنْسٌ مُوَفَّقُ[1]

إن «المعري» في (غفرانه)، وقد أدخل الأعشى وأقرانه في زمنه جنة الله، كما أدخل بشاراً وأنداده، الجنة، يوم استحكمت الزندقة، واستفحلت فيما بعد، يجد مخرجاً لهؤلاء، وهم يتندرون ويروون غزلياتهم وخمرياتهم بين مفاتن الفردوس، حيث يقول الأعشى:

فظللتُ أرعاها، وظلَّ يحوطُها حتى دنوتُ، إذ الظلامُ دنا لها
فرميتُ غفلةَ عينِه عن شاتِه، فأصبتُ حبَّة قلبها وطِحالَها[2]

يجد المعري المخرج فيقول: «ونحو ذلك مما روي عنه، فلا يخلو من أحد أمرين: إما أن يكون قاله تحسيناً للكلام على مذهب الشعراء، وإما أن يكون فعله فغفر له. «قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم»[3]. وتحسين الكلام على مذهب الشعراء، ربما يكون المعري قد عنى بذلك ما جاء في القرآن: «والشعراء يتبعهم الغاوون، ألم ترَ أنهم في كلِّ وادٍ يهيمون. وأنّهم يقولون ما لا يفعلون»[4]. أما أن يكون قد تزندق وضلّ وغوى، فإن الله يغفر الذنوب جميعاً. وتهمة الضلال وجهها إليه النابغة الجعدي في غفران أبي العلاء، حيث يحتدم النقاش بين الشاعرين

---

(1) المصدر نفسه. قصيدة 33. ص221. «شاحرد» متعلم.

(2) المصدر نفسه. قصيدة 3، ص27. الشاة: يقصد بها الزوجة. والمعري: رسالة الغفران: ص97.

(3) قرآن كريم: سورة الزمر رقم 39، آية 53.

(4) سورة الشعراء، آية 224 ـ 226.

وتُكال الاتهامات، فيقول الجعدي: «اسكت يا ضلّ بن ضلّ»[1]. فأقسم أن دخولك الجنة من المنكرات، ... لحقّك أن تكون في الدرك الأسفل من النار، ولقد صلى بها من هو خير منك، ولو جاز الغلط على ربّ العزّة، لقلت: إنك غُلط بك! ألست القائل؟:

فـدخـلـتُ إذ نـام الـرقـيـ ... ـبُ، فـبـتُّ دون ثـيـابـهـا
حـتـى إذا مـا اسـتـرسـلـت ... مـن شـدَّةٍ لـلـعـابـهـا
قـسَّـمْـتُـهـا قـسـمـيـن كـ ... ـلَّ مُـوجَّـهٍ يُـرمـى بـهـا
فَـثَـنَـيْـتُ جـيـدَ غـريـزةٍ ... ولـمـسـت بَـطْـنَ حِـقَـابـهـا
كـالـحُـقَّـةِ الـصـفـراءِ صـا ... كَ عـبـيـرُهـا بـمَـلاً بـهـا
وإذا لـنـا تـامـورةٌ ... مـرفـوعـةٌ لـشَـرَابِـهـا[2]

ب ـ سويد بن عامر المصطلقي:

أطلقت لفظة زنديق في صدر الدولة العباسية على من اعتنق (المانوية)، التي ترد العالم إلى أصلين من نور وظلمة، أو من خير وشر. ومن المرجَّح أن يكون هذا المدلول قد عرف في الجاهلية، وإن لم يصرح به. وقد ورد في شعر بعضهم، يقول سويد بن عامر المصطلقي:

لا تَـأْمَـنَـنَّ وإن أمسيتَ في حَـرَمٍ ... إنّ الـمـنـايـا بـكَـفَّـيْ كـلِّ إنـسـانِ
واسلك طريقَك تمشي غيرَ مُخْتَشِعٍ ... حتّى تبيَّنَ ما يَمْني لكَ الماني
فـكـلُّ ذي صـاحـبٍ يـومـاً يُـفـارِقُـهُ ... وكـلُّ زادٍ وإنْ أَبْـقَـيْـتَـهُ فـانِ
والـخـيرُ والـشرُّ مقرونانِ في قَرَنٍ ... بـكُـلِّ ذلـك يـأتـيـك الـجـديـدانِ[3]

فالخير والشر مجموعان في حبل لا يفترقان ما دام الليل والنهار متجددان دائماً.

---

(1) يا وارث الضلال عن آبائك.

(2) ديوان الأعشى. قصيدة رقم 39، ص255. التامورة: إناء للخمر.

(3) الشريف المرتضى: الأمالي. دار الكتاب العربي 1/ 368

ج ـ طرفة بن العبد:

إن هذا الشاعر الفتى، أو ابن العشرين، أو الغلام القتيل، كما كانوا يلقبونه، نشأ يتيماً، فانصرف إلى اللهو ومعاقرة الخمرة، ومعاشرة النساء، ينفق ماله الموروث، لا يردعه رادع ولا يصغي إلى صوت وازع. نرى مجونه المستظرف «كظرف زنديق» في معلقته الشهيرة: إذ يقول:

ندامايَ بيضٌ كالنجوم، وقَيْنَةٌ   تروحُ علينا بين بُرْدٍ ومَجْسَدِ
رحيبٌ قطابُ الجيب منهَا، رقيقةٌ   بجسِّ النَدامى، بضَّةُ المتُجرَّد
وما زال تشرابي الخمورَ، ولذَّتي   وبَيْعي وإنفاقي طَريفي ومُتْلَدي
ألا أيُّهذا اللائمي احضُر الوغى،   وأن أشهد اللذَّاتِ، هل أنت مُخلدي؟

❀ ❀ ❀

كريمُ يُروِّي نفسَه في حياته،   ستعلم، إن مُتنا غداً، أيُّنا الصدي
أرى قبرَ نحَّامٍ بخيلٍ بمالِه،   كَقبرِ غويٍّ في البطالةِ مُفسِدِ[1]

فهو في أبياته يتنقل بين ملتمس جسد القينة الندي البضّ، وبين شرب الخمر والتلذذ من الحياة، لأنه فانٍ ولا يعتقد بالخلود، فالموت، والنفس مروية، خير منه وهي عطشانة إلى الملذات. لأن القبر واحد في جمعه بين المقتر والمبذر.

وطرفة الذي سعى في حتفه بنفسه، حيث حمل بيده صحيفة مقتله، من عمرو بن هند ـ ملك الحيرة إلى عامله في البحرين [2]. نراه يقسم عند (النصب) كأنه مؤمن بما يقول:

فأقسمتُ عند النُّصْبِ: إنِّي لهالِكٌ   بملتفَّةٍ، ليست بغَبْطٍ ولا خَفْضِ[3]

---

(1) طرفة بن العبد. الديوان. المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت، المعلقة، ص30 وما بعد.

(2) المصدر نفسه، ص8.

(3) المصدر نفسه، ص66. ملتفة: أرض ناسها أو شجرها كثير. غبط: حسن الحال والمسرة. خفض: لين العيش وسعته.

د ـ النابغة الذبياني:

هو زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني، كنيته أبو أمامة، ولقبه النابغة، لنبوغه في الشعر، قال عنه ابن رشيق: إنه كان نظيف الشعر، خالياً من العيوب، لكونه شعر وهو كبير السن.[1]

يجمعه المعري في (غفرانه) مع النابغة الجعدي وأبي بصير في جنة الله، فيقول: «أما نابغة بني جعدة فقد استوجب ما هو فيه بالحنيفية، وأما أنت يا أبا أمامة فما أدري ما جهتك، فيقول الذبياني: إني كنت مقراً بالله، وحججتُ البيت في الجاهلية، ألم تسمع قولي»[2]:

فلا لعمرُ الذي قد زرتُه حججاً، وما هُريقَ على الأنصاب، من جَسَدِ
والمؤمنِ العائذاتِ الطيرَ تمسحُها ركبانُ مكة بين الغَيْلِ والسَّندِ

والنابغة هنا كسابقه طرفة، يقسم بمن يتوجه إليه الحاج، ثم لا ينسى النصب فيقسم بما أريق عليها من جسد والمقصود به الدماء الحمراء التي كانت تسيل على الأنصاب.

ويتابع المعري الكلام عن مجلس المنادمة في الجنة، والنابغة فيه، فيقول: «فإذا أكلوا من طيبات الجنة، وشربوا من شرابها الذي خزنه الله لعباده المتقين، قال: يا أبا أمامة، كيف حسن لك لبُّك أن تقول للنعمان بن المنذر:

زعم الهمامُ بأن فاها باردٌ عذبٌ، إذا ما ذقته قلت ازدد
زعم الهمامُ، ولم أذقه، بأنه يُشفَي ببرد لثاتها العَطِشُ الصَدِي

ثم استمر بك القول حتى أنكره عليك خاصة وعامة»[3].

---

(1) النابغة الذبياني: ديوان. المؤسسة العربية للطباعة والنشر. بيروت ص5.

(2) المعري: رسالة الغفران. ص88 وروي في الديوان: البيت الأول: الذي مسحت كعبته. والكلمة الأخيرة. في البيت الثاني. السعد. ص35.

(3) المعري: الغفران، ص89.

إن في قصيدة النابغة (أمن آل مية) مجوناً وزندقة اجتماعية فهو يعرض للمجتردة زوج النعمان بوصف لدقائق جسدها فيبيح وينكر عليه. كما وأنه يتعرض لمعتقدات الجاهليين في البوارح والسوانح من الطير، فيقول:

زَعَم البوارحُ أن رحلتَنا غداً   وبذاك خبَّرنا الغرابُ الأسود[1]

والبوارح ما تشاءم منه العرب كذلك الغراب الأسود. ثم ينثني النابغة إلى وصف (مَهْدَد) الجارية[2]. فيقول:

والبطنُ ذو عُكنٍ، لطيفٌ طيُّه،   والإتبُ تَنْفُجُه بثَدْيٍ مُقْعَدِ
زعم الهُمامُ بأن فاها باردٌ،   عذبٌ مُقَبَّلُه، شهيُّ المَوردِ[3]

ولا يكتفي النابغة بهذا القدر من جمالها، بل يقول: إنها إذا ما عرضت لناسك متبتل مسن، لترك عبادته ورنا لحسنها وأخذ بمنطقها، يقول:

لو أنّها عرضت لأشمطَ راهبٍ،   عَبَدَ الإلهَ، صَرُورةٍ، مُتعبِّدِ
لرنا لبهجتها، وحُسْنِ حديثها   ولخالَهُ رُشْداً وإن لم يَرْشُدِ[4]

أوليست هذه التصرفات زندقة؟ فمن زيارة النصب والاعتقاد بها، إلى الغزل الإباحي، ثم إلى التشاؤم بالبوارح والتفاؤل بالسوانح من الطير. ولم يكتفِ النابغة ونظراؤه بالتطير من الطير، بل تطيروا بأشياء كثيرة: منها العطاس[5]. وفي ذلك يقول امرؤ القيس:

وقد اغتدي قبل العُطاسِ بهيكلٍ   شديدِ مِشَكِّ الجنب فَعْم المُنْطَقِ[6]

---

(1) النابغة الذبياني: الديوان ص38 والبيت فيه أقواء (الضمة).

(2) ربما عنى زوجة النعمان التي سقط ثوبها وهو ينادم الملك.

(3) عكن: ثنية لحم البطن. الإتب: الثوب. تنفجه: ترفعه. مقعد: المنتصب.

(4) النابغة الذبيان: الديوان. ص41. أشمط: خالط شعره الشيب. صرورة: متبتل.

(5) كانوا إذا عطس من يحبونه قالوا له: «عمراً وشباباً» وإذا عطس من يبغضونه قالوا له: «ورياً وقحاباً» والوري: داء يصيب الكبد فيفسدها.

(6) أحمد مكي: امرؤ القيس، حياته وشعره. دار المعارف. ص326.

والمعنى أنه يتنبه للصيد قبل أن يتنبه أحد، لئلا يسمع عطاساً فيتشاءم به. ومنها الغراب، ويسمونه حاتماً، لأنه يحتم بالفراق[1].

ومنها الجرادة، قال زبان بن منظور الفزاري، في حديث له مع النابغة الذبياني الذي تطير من جرادة حطت عليه فرجع من الغزو، ومضى زبان فظفر وغنم:

تـعـلَّـم أنَّـه لا طـيـرَ إلاّ   عـلـى مُـتَـطَـيِّـرٍ، وهـي الـثـبـورُ
بـلـى شـيءٌ يـوافـقُ بـعـضَ شـيءٍ   أحـايـيـنـا، وبـاطـلُـه كـثـيـرُ[2]

بلى إنها الحياة، كما يقول الشاعر، الذي دخل بكفره وفلسفته إلى صميم الواقعية.

فلم هذه الأوهام والأباطيل؟ ألا نرى أنها لا تزال في عقول الناس وتصرفاتهم حتى اليوم؟

إن كثيراً من هذه الانحرافات الزندقية، نفاها شاعر قديم فقال لزبان المذكور:

لا يـمـنـعـنَّـك مـن بـغَـا   ءِ الـخـيـر تَـعْـقَـادُ الـتـمـائِـمْ
لا، والـتـشـاؤمُ بـالـعُـطـا   سِ ولا الـتـيـامُـن بـالـمـقـاسـم
ولـقـد غَـدُوتُ وكـنـتُ لا   أغَـدو عـلـى واقٍ وحـاتـم
وإذا الأشـائـمُ كـالأيـا   مِـنِ، والأيـامِـنُ كـالاشـائـم
قـد خُـطَّ ذلـك فـي الـزبـو   رِ الأولـيـاتِ الـقـدائـمْ[3]

هـ ـ زنادقة آخرون:

جاء في القرآن الكريم: ﴿يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبسْ من نوركم قِيلَ ارجعوا وراءَكم فالتمسوا نوراً فضُرب بينهم

---

(1) ابن رشيق: العمدة (1 ـ 2). دار الجيل. ط الرابعة 1972. ج2، ص260.
(2) المصدر السابق، ص262.
(3) المصدر السابق. ص262. الواق: طائر. وحاتم: صفة للغراب.

بسور له بابٌ باطنُه فيه الرَحْمةُ وظاهرُه من قِبَلِه العذاب. ينادونهم ألم نكنْ معكم قالوا بلى ولكنّكم فتنتُم أنفسَكم وتربَّصْتُم وارتبتُم وغرَّتكم الأماني...﴾[1].

إذا نُظر في جحيم غفران، أبي العلاء، يفهم أنه يتمثل الصور القرآنية، وكذلك يفعل في جنة غفرانه، ونراه يركز بما جاء على ألسنة الشعراء من تشبيب بالمحبوبة وتشراب الخمور واعتقاد بالجن والأوثان والنصب. ولا فرق عنده بين شعراء الجنة وشعراء النار ... والذين دخلوا الجنة، دخلوها، لأن الله غفور رحيم. ويستعير أبو العلاء صوراً من الشعر الجاهلي يمثلها في جحيمه مشخصة.

1 ـ عنترة العبسي:

وينظر فإذا عشرة العبسي متلذذ في السعير، فيقول: مالك يا أخا عبس؟ كأنك لم تنطق بقولك:

ولقد شربتُ من المدامةِ بعدما   ركدَ الهواجُر، بالمشوف المُعْلَم
بزجاجةٍ صفراءَ ذاتِ أسرَّة   قُرنَت بأزهرَ في الشمالِ مُفَدَّمِ[2]

فكأنَّ المعري يعاتب عنترة ويغمز إلى أن مثل هذا القول قد أدخله النار ويتابع: لقد شق علي دخول مثلك إلى الجحيم. ولكن أذنه تصغي إلى قينات الفسطاط وهي تغرد بقول عنترة:

أمن سمية دمع العين تذريفُ   لو أن ذا منكِ قبلَ اليوم معروفُ
تجلَّلَتْني إذ أهوى العَصَا قِبَلي   كأنها صَنَمٌ يَعتادُ مَعكوفُ
لا شكَّ للمرءِ أن الدهرَ ذو خُلُفٍ   فيه تفرّق ذو إلفٍ، ومألوفُ[3]

---

(1) سورة الحديد: آية 13 ـ 15.

(2) المعري: رسالة الغفران: ص158. ركد الهواجر: سكنت الهاجرة، هدأ الحر. ذات أسرة: ذات خطوط كخطوط اليد. أزهر: أبريق. مفدم: مسدود الرأس بالفدام.

(3) عنترة بن شداد: الديوان تحقيق فوزي عطوي. دار المعرفة ـ بيروت ط أولى 1968. ص181.

فعنترة الذي اتهم بسمية زوج أبيه وضرب بالعصا ضرباً مبرحاً ربما استحق دخول الجحيم بنظر أبي العلاء على الأقل، إما انتقاصاً وإما افتخاراً. أو ربما الذي لاقاه عنترة وأمثاله البعيدون زمناً عن أبي العلاء، هو نفسه الذي لاقاه بشار والحمادون وغيرهم، من الاتهام بالزندقة ورميهم في جحيم الحياة ـ القريبون حياة منه.

2 ـ علقمة بن عبدة:

ينظر المعري فإذا علقمة بن عبدة في جهنم عابس يُستضحك[1]، فيقول: «لو شفعت لأحد أبيات صادقه ليس فيها ذكر الله، سبحانه، لشفعت لك أبياتك في وصف النساء، أعني قولك:

فإن تسألوني بالنساءِ فإنني بصير بأدواء النساء طبيب
إذا شاب رأسُ المرء، أو قلَّ مالُه، فليس له في ودِّهن نصيب
يُرِدْنَ ثراءَ المال حيث عَلِمْنَه، وشرخ الشباب عندهن عجيبُ[2]

ثم يتابع المعري كلامه، فيقول: وإن في نفسي لحاجة من قولك:

كأس عزيز من الأعناب عتَّقها لبعض أربابها حانيّة حُومُ
يهدي بها أكلف الخدَّين مختبر من الجمال كثير اللحم عيثومُ[3]

ترى! لماذا أدخل المعري علقمة إلى جهنم؟ ألأنه كان زنديق نساء وخمر وغلمان، كما يظهر من الأبيات السابقة؟ أم أدخله جحيمه لسبب آخر لتشفع له هذه الأبيات، وربما عناها المعري أو أوردها بسخرية وتهكم؟ الشيء الذي لن يفوتنا هو أن صاحب الغفران أوجز في وصف العذاب، وألجم خياله عن التصوير والتشخيص، فأحياناً يقدم الشعراء في جهنم بعبارات تصف عذابهم وصفاً سريعاً موجزاً، وكأنه لا يريد أن يراهم في مثل هذا الألم، لأنهم لا يستحقوه.

---

(1) المعري رسالة الغفران: ص161. بنت الشاطئ: الغفران: ص138.

(2) المعري: رسالة الغفران: ص161.

(3) المصدر السابق: ص162. العيثوم: السريع الجري.

3 ـ عمرو بن كلثوم التغلبي:

ليت شعري، ماذا فعل هذا الشاعر حتى أدخله المعري في جحيمه؟ ربما لأنه اصطبح بصحن الغانية، واغتبق من الدنيا الفانية. حيث بدأ معلقته:

ألا هُبّي بصحنِك فاصْبَحينا ولا تُبقي خمُورَ الأندرينا
وكأسٍ قد شربتُ ببَعْلَبْكَّ وأخرى في دِمَشْقَ وقاصِرِينا[1]

أم لأنه شبّب فافحش وأسفه فأوحش، بقوله:

تُريك إذا دَخَلْتَ على خلاءٍ وقد أَمِنَت عيونَ الكاشحينا

❀ ❀ ❀

وَثَدْياً مثلَ حُقِّ العاج رَخْصاً حَصاناً من أكُفِّ اللاّمسينا

❀ ❀ ❀

ألا لا يَجْهَلَهن أحدٌ علينا فَنَجْهَلَ فوقَ جَهْلِ الجاهلينا[2]

4 ـ الحارث اليشكري: بن حلزة[3]:

وإذا ما كانت عبادات بعض الجاهليين للأصنام والأوثان والنصب، ـ من دون الله ـ، زندقة. وكذلك بعض عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية، فإن الحارث اليشكري يعد زنديقاً لقوله:

لا تكْسَع الشَوْلَ بأغبارها، إنك لا تدري مَنِ الناتجُ
واحلُبْ لأضيافك ألبانَها، فإنَّ شرَّ اللَّبَنِ الوالجُ[4]

---

(1) الزوزني: شرح المعلقات السبع. دار الجيل، ص165و167. (الأندرين) قرى بالشام.

(2) المصدر السابق. ص168و169و178.

(3) في بعض المصادر «الحرث» وليس الحارث. ابن منظور: لسان العرب 8/ 310.

(4) ابن منظور: لسان العرب: 8/ 310. وكسع الناقة بغبرها: ترك في خلفها بقية من لبن. والوالج: الذي يلج في ظهورها من اللبن المكسوع.

وفي الجاهلية كسعوا ناقة الميت على قبره، وزعموا أنه إذا نهض ليوم حشر، وجدها قد بعثت له، فيركبها ويخف إلى حيث شاء[1].

5 ـ تابط شراً:

وثابت بن جابر بن عميثل[2]، ألا يكون زنديقاً، وهو الذي لها بفتاة عذراء، نازعته في كأسه، ونكح الغول لاعتقاده أنها تتقمص جسم إنسان، يقول:

أنا الذي نكح الغيلان في بَلَدٍ	ما ظلَّ فيه سماكيٌّ ولا جادا
وقد لهوتُ بمصقولٍ عوارضها	بكر تنازعني كأساً وعنقادا
ثم انقضى عصرها عني وأعقبه	عصر المشيب، فقلْ في صالحٍ: بادا[3]

وهو القائل أيضاً:

فأصبحت الغولُ لي جارةً	فيا جارتا لك ما أهولا
فطالبتُها بضعها فالتوت	عليَّ وحاولتُ أن أفعلا
فمن كان يسأل عن جارتي	فإن لها باللوى منزلا[4]

جاء في الأغاني أن «تأبط شراً» لقي الغول في ليلة مظلمة، في موضع يقال له: رحى بطان، فقطعت عليه الطريق، فقتلها وبات عليها، ولما أصبح حملها تحت إبطه وجاء بها أصحابه، فقالوا: تأبطت شراً، فقال يصف ما فعل، ويصف الغول:

ألا من مبلغ فتيان فهم ،	بما لاقيت عند رحى بطان
وأنّي قد لقيت الغول تهوي	بسهب كالصحيفة صحصحان
فلم أنفكّ متكئا عليها	لأنظرَ مِصْبَحاً ماذا أتاني
إذا عينان في رأس قبيحٍ	كرأس الهرّ مشقوقِ اللسان[5]

---

(1) المعري: الغفران. ص165.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 18/ 209. وابن عمسل في: ابن قتيبة: الشعر والشعراء 1/ 229.

(3) المعري: رسالة الغفران: ص179.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 18/ 210.

(5) المصدر السابق.

ومجمل القول أن الزندقة بكل تعريفاتها ومدلولاتها كانت منذ كان الإنسان ورافقته في كل أعصر حياته ... وتنتفي الزندقة إذا لم يكن هناك زنادقة، وما أكثرهم في أعصر بحثنا.

وقد نكتفي بزنادقة «الجاهلية» الذين أوردناهم حتى لا يطول بنا البحث ونكون قد مخرنا البحر واستوقفتنا رحلة المحيط.

القسم الثاني

زنادقة العصر الإسلامي والأموي

جاء على لسان الشريف المرتضى، أنه «كان في الجاهلية وقبل الإسلام، وفي ابتدائه قوم يقولون بالدهر، وينفون الصانع، وآخرون مشركون يعبدون غير خالقهم، وقد نشأ بعدهم جماعة، يتسترون بإظهار الإسلام» للمحافظة على حياتهم وأموالهم، «زنادقة ملحدون وكفار مشركون»، منعهم سلطان الإسلام من الجهر وإظهار ما يضمرون، ولجأوا خوفاً من القتل إلى التستر والخفية»[1].

وجاء في رواية عن عمرو بن دينار، قال: «أدركت تسعة من أصحاب رسول الله، يقولون: من قال: القرآن مخلوق فهو كافر»[2].

وروى سفيان الثوري عن عمر، قال: «بلغني عن عمر أنه كتب إلى بعض عماله، أوصيك بتقوى الله عز وجل، واتباع سنة رسوله، ... وترك ما أحدث المحدثون بعده بما قد كفوا مؤنته»[3].

فمن هذه الروايات نستشف أن مسيرة الزنادقة ظلّت متواترة بالرغم من سيطرة الإسلام سيطرة تامة على كامل أجزاء شبه الجزيرة العربية،

---

(1) الشريف المرتضى: الأمالي 1/ 127.

(2) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص89.

(3) المصدر السابق.

والنفاذ من أطرافها إلى معاقل الأمم الأخرى، وبسطه المعتقد الجديد بالترغيب تارة، والترهيب طوراً.

ومن كلام الشريف المرتضى يتبين أن ثمة أناساً ـ في صدر الإسلام ـ يعتقدون بالدهر، وآخرين ينفون الخالق، وغيرهم يشركون بعبادة الله ... وبعض هؤلاء الناس يظهر الإسلام ويبطن ما يؤمن به ... هم الزنادقة.

وفي رواية ابن دينار: نلاحظ أن قوماً قالوا: بخلق القرآن، لذلك كُفِّروا ـ وما روي عن عمر، أن أناساً أحدثوا ما يغاير الإيمان الجديد، ومن خرج عن إيمان الجماعة اعتبر «زنديقاً» لكونه غايرهم في سلوكه ومعتقده وأحدث جديداً.

وفيما يلي نقدم بعض زنادقة هذا العصر وسنعرض لما جاء في مسلكه ومعتقده من زندقة.

1 ـ الحطيئة (45هـ)[1]:

شاعر هجاء، أفحش بالقول في أعراض المسلمين، تحدثنا عنه[2]، عند تعرضنا للزندقة في صدر الإسلام.

كان ذا شرٍّ وسفه، أسلم ثم ارتد، وقال في ذلك:

أطعنا رسول الله إذ كان بيننا ... فيا لعباد الله ما لأبي بكر
أيورثها بكراً إذا مات، بعدَه ... وتلك لَعمر الله قاصمة الظهرِ[3]

يتساءل الحطيئة، ما لأبي بكر، ويعجب من هذا الذي حصل، وقد أطاع «الرسول»، لكن بموت الرسول انتفت هذه الطاعة. حتى إنه يخاف من أن تورث الخلافة، فتنتقل من الخليفة الأول إلى ابنه بكر.

---

(1) شاعر مخضرم من فحول الشعراء، جاهلي أدرك الإسلام فأسلم ثم ارتد، اسمه جرول بن أوس بن مالك. لقبه الحطيئة: الأصفهاني: الأغاني 2/ 43 دار الفكر عن (بولاق).

(2) راجع البحث ص 100.

(3) الأصفهاني: الأغاني 2/ 43.

هجا الحطيئة فأفحش، ولم تسلم أمه من لسانه السليط، وكذلك الرجل الذي تزوجته. يقول:

ولقد رأيتُكِ في النساء فسُؤْتِني   وأبا بنيكِ فساءَني في المجلس

ويقول أيضاً في هجائها:

جزاك الله شرّاً من عجوزٍ   ولقّاك العقوق من البنين
لسانُكِ مِبردٌ لا خيرَ فيه   ودَرُّك درّ جارية دهينِ[1]

روى عنه صاحب الأغاني أنه هجا الزبرقان بن بدر[2]، بقوله:

جارٌ لقوم أطالوا هون منزله   وغادروه مقيماً بين أرماس
ملّوا قِراه وهرَّتْه كلابُهم   وجرَّحوه بأنياب وأضراس
دع المكارم لا ترحل لبغيتها   واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
من يفعل الخير لا يعدم جوازيَه   لا يذهب العرف بين الله والناس[3]

فشكاه الزبرقان إلى عمر، فاستفتى فيه حسان بن ثابت الذي قال: «إنه هجاه وسلح عليه». فسجنه عمر، وقال: «والله لولا أن تكون سنة لقطعت لسانك»[4]، لأنك تقول الهجو، وتنسب بالحرم، وتمدح الناس، وتذمهم بغير ما فيهم.

لكن عمراً عاد وأطلق الحطيئة بعدما أنشده:

ماذا تقول لأفراخ بذي مرخٍ   زغب الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ

إلى آخر القصيدة

ويقول عمرو بن العاص: «ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء أعدل من رجل يبكي على تركه الحطيئة»[5].

---

(1) المصدر نفسه 2/ 45.
(2) ولاه الرسول عملاً، وأقره (أبو بكر) في عمله، وكذلك (عمر). المصدر السابق 2/ 52.
(3) المصدر السابق 2/ 54 و55. وانظر سبب هذا الهجاء.
(4) الأصفهاني: الأغاني 2/ 55 وما بعد.
(5) المصدر السابق 2/ 57.

ونتوقف عند قول عمرو في عمر لنسأل هل أعجب ابن العاص في عدل عمر وفي عطفه وحنانه على صغار الحطيئة، وبكائه عند سماع ذكرهم؟ أم أعجب ببكائه على فك قيود الشاعر؟ وهو لا يستحق هذا الحنان العمري!؟. ربما نجد جواباً عن تساؤله عندما نعرف أن عمراً لما أطلق الحطيئة، أراد أن يؤكد عليه الحجة، فاشترى منه أعراض المسلمين جميعاً بثلاثة آلاف درهم، فيقول الحطيئة:

وأخذتَ أطرافَ الكلامِ فلم تدع ... شتماً يضرُّ ولا مديحاً ينفعُ
وحميتني عرضَ اللئيم فلم يَخَفْ ... ذمّي وأصبح آمناً لا يفزعُ[1]

كما نجد الجواب عند أبي هريرة «وما رواه عن الرسول»: «كل المسلم على المسلم حرام، دمه وعرضه وماله»[2]. وعند «أبي الدرداء»، عن الرسول: «من ردّ عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»[3].

والحطيئة الذي هجا أمه، ونسي أو تناسى وصية الله بها وهجا الزبرقان وغيره، وقال قولته الأخيرة، بعدما اشترى منه عمر أعراض المسلمين، ألم يكن يدري ـ وهو يحيا بظهرانية الإسلام ـ ما جاء في القرآن من تحريم الشتم والسب بغير حقٍ: «والذين يُؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، فقد احتملوا بُهتاناً وإِثْمَاً مُبيناً»[4].

أو ما جاء على لسان الرسول: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»[5].

---

(1) المصدر السابق.

(2) صبحي الصالح: منهل الواردين، شرح رياض الصالحين. دار العلم للملايين. بيروت، ط ثانية 1973. حديث رقم 1525، ص832.

(3) المصدر السابق. حديث رقم 1526. ص833.

(4) القرآن الكريم: سورة الأحزاب، آية 58.

(5) صبحي الصالح: منهل الواردين: حديث رقم 1557، ص860.

لعله يدري بذلك، إن ما رواه صاحب الأغاني عن مجيئه إلى مجلس ابن عباس، والطلب إليه أن يفتيه، فيقول ابن عباس: «لا يصلح الهجاء، لأنه لا بد لك من أن تهجو غيره من عشيرته فتظلم من لم يظلمك وتشتم من لم يشتمك وتبغي على من لم يبغ عليك». يثبت أن الحطيئة يرفض فتوى ابن عباس ويقول ثانية في الزبرقان:

والزبرقان ذنابـاهـم وشـرُّهـم ليس الذُّنابى، أبا العبّاس، كالراس[1]

لقد كان الحطيئة زنديقاً في إسلامه، وما قاله قبل وفاته خير دليل على ذلك. إلى جانب ما أوردناه عنه.

حضرت الحطيئة المنية، واجتمع إليه أهله ليواسوه، وسأله بعضهم بأن يوصي، فتحدث عن الشعر والشعراء وأخذ يسمي أشعر القبائل وأشعر العرب. ولما ألحوا عليه بالوصية للإماء، قال فيهم: إنهم عبيد قن ما عاقب الليل النهار وعن ماله، قال: «للأنثى من ولدي مثل حظ الذكر». فقالوا: ليس هذا قضاء الله. فقال: لكني هكذا قضيت. قالوا فما توصي لليتامى؟ قال: كلوا أموالهم[2]، ... أمهاتهم.

وكأن الحطيئة وهو على فراش الموت قد تناسى ما جاء في القرآن: «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظُلماً إنّما يأكلون في بُطونهم ناراً، وسَيَصْلَوْن سعيراً»[3].

مات الحطيئة «زنديقاً بعد أن عاش جشعاً سُؤَّالاً، دنيء النفس، كثير الشر، قليل الخير، بخيلاً، مغموز النسب، فاسد الدين»[4].

---

(1) الأصفهاني: الأغاني 2/ 85.

(2) مكان النقاط كلمة سافلة. المصدر السابق 2/ 60.

(3) سورة النساء، آية 10.

(4) الأصفهاني: الأغاني. 2/ 46.

2 ـ الوليد بن عقبة (61هـ / 680م):

الوليد بن عقبة أخو عثمان لأمه[1]، من فتيان قريش وشعرائهم وشجعانهم وأجوادهم لكنه خليع ظهر فسقه عندما ولاه عثمان أمر الكوفة، قال عنه المسعودي: «إنه كان يشرب مع ندمائه ومغنيه من أول الليل إلى الصباح، ولما آذنه المؤذنون بالصلاة خرج متفضلاً في غلائله، فتقدم إلى المحراب ...، فصلى بهم أربعاً، وقال: أتريدن أن أزيدكم؟ وقيل: إنه قال، في سجوده وقد أطال: إشرب واسقني، فقال له عتاب بن غيلان الثقفي: ما تزيد لا زادك الله من الخير، والله لا أعجب إلا ممن بعثك والياً إلينا وأميراً علينا»[2] .

إن هذا الحدث دفع الحطيئة للقول عنه:

تكلّم في الصلاة وزاد فيها ... علانيةً وجاهر بالنفاقِ
ومجَّ الخمر في سنن المصلّى ... ونادى والجميع إلى افتراقِ
أَزيدُكمو على أن تحمدوني ... وما لكمو ومالي من خلاق[3]

وربما كان الحطيئة يسخر من الوليد، أو أنه لجأ إلى ذلك وأبان فساده وهو من هو من أمير المؤمنين ليبرر فجوره وزندقته.

خطب الوليد بالناس في المسجد ـ وكان ثملاً ـ فحصبه الناس، فدخل قصره يترنح ويردد أبياتاً لتأبط شراً:

ولستُ بعيداً عن مُدامٍ وقينةٍ ... ولا بصفا صلد عن الخير معزلِ
ولكنني أروي من الخمرَ هامتي ... وأمشي الملاَ بالساحب المتسلسلِ[4]

فهذا والٍ من قرابة (عثمان) يستهين بشعائر الدين، يزني ويشرب الخمر، ويتقيأ في المحراب، ويقرأ في الصلاة رافعاً صوته:

---

(1) أروى بنت البيضاء بنت عبد المطلب. المصدر السابق 4/ 177.

(2) المسعودي: مروج الذهب 2/ 344. دار المعرفة.

(3) الأصفهاني: الأغاني 4/ 178.

(4) المسعودي: مروج الذهب 2/ 344.

علـــق الــقـــلـــبُ الـــربـــابـــا بـــعـــدمـــا شـــابـــت وشـــابـــا[1]

ألا نسميه زنديقاً؟ ولو اعتذر عنه الحطيئة، بقوله:

شهـد الـحـطـيـئـة يـوم يـلـقـى ربَّـه أن الـــولـــيـــد أحـــقُّ بـــالـــعُـــذرِ[2]

فلعل اعتذار الحطيئة له، إنما جاء، لكونهما من طينة واحدة، ولكون الحطيئة مات فاجراً فاسق الدين، كما أسلفنا.

والذي يقوض ركناً من أركان العبادة ويستخف بالصلاة، ويدخل بيت الله ثملاً، لا يعرف، أو قل لا يعي ما يفعل ويفسد هذا الركن، يعد بالتالي زنديق دين. لأن صلاة الجماعة قد انتهت، والوليد هذا، إن صحت الرواية، يسأل المصلين أأزيدكم؟ ولو أنهم أرادوا لأوصل الصلاة إلى العشر، كما يقول رجل من بني عجل:

نـــادى وقـــد تـــمـــت صـــلاتُـــهـــمُ أأزيـــدُكـــم ثـــمـــلاً ولا يـــدري
لـــيـــزيـــدهـــم خـــيـــراً ولـــو قـــبـــلـــوا لـــقـــرنـــت بـــيـــن الـــشـــفـــع والـــوتـــر
فـــأبـــوا، أبـــا وهـــب، ولـــو فـــعـــلـــوا وصـــلـــت صـــلاتـــهـــمـــو إلـــى الـــعـــشـــرِ[3]

ألم يقرأ القرآن أخو (عثمان)؟: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون...﴾ وأيضاً: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلّكم تفلحون﴾[4]..

لا بد أنه قرأها، ولكنه فاسق زنديق كما شهد بذلك (علي) عندما أقام الحد عليه، أمام أخيه الخليفة (عثمان)،[5] وكما شهد أيضاً الفضل بن العباس بن أبي لهب، بقوله:

---

(1) الأصفهاني: الأغاني 4/ 179.

(2) البحث ص 217 والمصدر السابق. والمسعودي: مروج الذهب 2/ 344. أنظر تتمة الأبيات وفي الأغاني بعض الاختلاف في الرواية.

(3) الأصفهاني: الأغاني 4/ 179.

(4) قرآن كريم: سورة النساء، آية 43. والمائدة آية 90و91. والبقرة، آية 212.

(5) الأصفهاني: الأغاني 4/ 185. المسعودي: مروج الذهب 2/ 345.

وأنت امروٌ من أهل صفواءَ نازحٌ فما لكَ فينا من حميم تعاتبُهْ
وقد أنزل الرحمنُ أنَّك فاسقٌ فما لكَ في الإسلام سهم تطالبُه[1]

3 ـ أبو محجن الثقفي (30هـ / 650م):

شاعر مخضرم، أسلم في السنة التاسعة للهجرة[2]، ولكنه كان منكباً على شرب النبيذ. حده عمر على ذلك مراراً، ثم نفاه إلى جزيرة في البحر، فهرب ولحق بسعد بن أبي وقاص، وهو نازل بالقادسية. فقبض عليه وحبسه لشربه الخمر[3]، ولشعره في الخمر، ومنها قوله:

إذا متُّ فادْفنِّي إلى أصل كرمةٍ تروِّي عِظامي بعد موتي عروقُها
ولا تدفِنَنِّي في الفَلاةِ فإنَّني أخافُ إذا ما متُّ ألاَّ أذوقُها
وتُرْوِي بخمر الحصِّ لحدِي فإنني أسيرٌ لها من بَعْدِ ما قد أسوقُها[4]

ولكم تمنى أبو محجن، أن ترافقه الخمرة ولا تفارقه في حياته ومماته، فهو يوصي بأن يدفن بجانب كرمة عسى أن تصل جذورها إلى عظامه فترويها. ولكننا نراه يموت شهيد الإسلام في إحدى معارك العراق، ويلحد مع الشهداء[5].

وبهذا يكون الثقفي قد عاش زنديق خمر، ملاحقاً من الخليفة والأمراء، ومات، ربما شهيد دين، أو شهيد عصبية عربية دعته لمحاربة الفرس.

4 ـ النعمان بن عدي بن نضلة (30هـ / 650م):

شاعر صحابي هاجر مع أبيه إلى الحبشة في بدء الإسلام، يوليه

---

(1) المصدر السابق 2/ 357.
(2) الزركلي (خير الدين): الأعلام. دار العلم للملايين. بيروت ط خامسة، 1980، ج5، ص76.
(3) الطبري: تاريخ الأمم والملوك 3/ 573.
(4) المصدر السابق 3/ 549.
(5) الزركلي: الأعلام 5/ 76.

«عمر» على «ميسان»، لاعتقاده في صلاحه، ثم يبلغه قوله:

فإن كنتَ ندماني فبالأكبر اسقني ... ولا تسقني بالأصغر المتثلِّم،
لعلَّ أميرَ المؤمنين يسوؤه ... تنادُمُنا في الجوسق المتهدِّم

فيستقدمه عمر، ويقول: «وأيم الله لقد ساءني ذلك، وقد عزلتك «ولكنه يرد مستعطفاً» والله ما كان من ذلك شيء، وإنما هو فضل شعر قلته»[1].

والقصيدة أرسلها «ابن عدي» إلى زوجته التي أبت الخروج معه إلى ميسان، وقد بدأها:

ألا هل أتى الحسناءَ أن حليلَها ... بميسانَ يُسقى في زُجاج وحَنْتَم
إذا شئتُ غنَّتْني دهاقينُ قريةٍ ... وصنّاجَةٌ تجثو على حرف مَنْسِمِ[2]

ربما لم يفعل الشاعر ما قال، حسب اعترافه أمام عمر، لكنها زندقة ظرف ومجون، ونتيجتها كانت، عزله من الولاية وغربته إلى البصرة.

5 - ابن أرطاة (عبد الرحمن بن سيحان) 50هـ / 670م:

شاعر إسلامي عاقر الخمرة والشراب، وتغزل كثيراً، كان نديماً للوليد بن عثمان بن عفان، وحليفاً لبني حرب[3]، آنس ابن عثمان، ربما، لأنه صاحب شراب مثله. قال فيه وفي الوعاء الذي زوده به إبان رجوعه إلى أهله، وقد كان بصحبة الوليد في الحجاز:

لا تبعدّن اداوة مطروحةً ... كانت حديثاً للشراب العاتقِ
إن تصبحي لا شيءَ فيك فربما ... أُترعت من كأس تلذّ لذائقِ
بأبي الوليد وأمّ نفسي كلما ... بدت النجوم وذرّ قرن الشارق
فإلى الوليد إليه حنَّت ناقتي ... تهوي. بمغبّر المتون سمالق[4]

---

(1) البحث ص 101 والزركلي: الأعلام: 8/ 38.
(2) ياقوت الحموي: معجم البلدان 5/ 243. دار صادر.
(3) الأصفهاني: الأغاني 2/ 80. دار الفكر عن بولاق.
(4) المصدر السابق 2/ 81.

وَجَدَهُ مروانُ بنُ الحكم ـ والي الحرمين في أيام معاوية ـ خارجاً من دار الوليد وهو سكران، فأقام الحد عليه، وضربه ثمانين سوطاً[1].

لكن «ابن أرطأة» لم يشرب الخمر وحده، بل كان يشربه مع ابن عثمان، والوليد بن عقبة بن أبي سفيان، وعبد الرحمن بن الحكم، ويزيد ابن معاوية.

والعجب كل العجب، ما رواه صاحب الأغاني عن معاوية بن أبي سفيان، الذي قصده هذا الشاعر، فأبطل الحد عنه وكتب إلى الوليد بن عتبة، وإلى مروان بن الحكم بذلك وأمرهما بمكافأته، يقول في كتابه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله معاوية أمير المؤمنين إلى الوليد بن عتبة، أما بعد فالعجب لضربك ابن سيحان فيما تشرب منه ما زدت على أن عرفت أهل المدينة ما كنت تشر به، مما حرم عليك، فإذا جاءك كتابي هذا، فأبطل الحد عن ابن سيحان ... وطف به في المسجد، وأخبر من فيه أن أمير المؤمنين قد أبطل ذلك»[2].

وإذا ما صحت رواية الأصفهاني يكون معاوية قد غاير في تصرفه هذا ما فعله (علي) مع الوليد بن عقبة[3]، مع اعترافه صراحة بتحريم الشرب، إضافة إلى المكافأة. ومن المحتمل أن نعزو تصرف معاوية مع ابن سيحان إلى حلف قديم كان بين والد الشاعر وحرب بن أمية جد معاوية، وإلى قول الشاعر في هذا الحلف ومدحه بني أمية بأبيات يقول فيها:

وإني امرؤٌ أُنمى إلى أفضل الورى	عديدا إذا أرفضَّت عصا المتحلِّف
إلى نضد من عبد شمس كأنهم	....
غطارفة ساسوا البلاد فأحسنوا	سياستها حتى أقرَّت لمردف
سموا فَعَلَوْا فوق البريّة كلِّها	ببنيان عال من منيف ومشرفِ[4]

(1) المصدر عينه 2/ 81 وما بعد.

(2) المصدر السابق 2/ 82.

(3) والي عثمان على الكوفة وأخوه لأمه البحث ص 218.

(4) الأصفهاني: الأغاني 2/ 83.

ومن المعروف أن العصبية القبلية، والأحلاف بين العشائر، وإن تكن قد انعدمت زمن الرسول، وخبت بعض الشيء، أيام الراشدين، فقد عادت إلى زخمها الجاهلي إبان حكم الأمويين، وفي طليعتهم معاوية بن أبي سفيان. وكلا الشيئين ـ الخمر والعصبية ـ مغاير للإسلام، ويعد زندقة[1]. وقد نهى عنهما الدين: جاء في القرآن: ﴿... فلا تُزَكّوا أنفسكم، هو أعلم بمن اتّقى﴾[2]، كما جاء في الحديث عن عياض عن (الرسول) قال: «إن الله أوحى إليّ: أن تواضعوا حتى لا يبغي أحد على أحد، ولا يفخر أحدٌ على أحد»[3].

أكبّ ابن سيحان على الشراب ومنادمة الوليد بن عثمان، حتى أنه كان يقضي الليالي الطوال عنده، خوفاً من أن يظهر وهو سكران فيُحد فعاتبته امرأته على ذلك، واتهمته بالزواج والمبيت عند غيرها، فقال لها:

لا تعدميني نديماً ماجداً أنفا	لا قائلاً قاذفاً خلقاً ببهتانِ
أمسي أَعاطيه كأساً لذَّ مشربُها	كالمسك حفّت بنسرين وريحانِ
سبيئة من قرى بيروت صافية	أو التي سبئت من أرض بيسان
إنا لنشربُها حتى تميلَ بنا	كما تمايل وسنانٌ بوسنانِ[4]

وابن سيحان يريد الخمرة التي تسكر وهو يعلم علم اليقين أنها حرام عليه، إذ يأمر ابن عم له بشربها وترك نبيذ الزبيب، يقول: «يا ابن سريع إن كنت تشربه على أن نبيذ الزبيب حلال، فإنك أحمق، وإن كنت تشربه على أنه حرام تستغفر الله منه وتنوي التوبة، فاشرب أجوده فإن الوزر واحد، ثم قال:

(1) أنظر البحث (هامش رقم (1) ص220 البحث القرآن والخمرة.
(2) سورة النجم، آية 32. وسورة النساء، آية 49. ﴿فلا تُزكوا أنفسكم أي لا تمدحوا أنفسكم، ولا يمدح بعضكم بعضاً﴾.
(3) صبحي الصالح: منهل الواردين: حديث رقم 1587، ص874. ويبغي: يستطيل.
(4) الأصفهاني: الأغاني 2/ 86 و88.

دع ابن سريع شرب ما مات مرة ... وخذها سلافاً حيّة مزّة الطعم
تدعك على ملك ابن ساسان قادراً ... إذا حرّمت قرّاؤنا حُلُبُ الكرم
فشتان بين الحيِّ والميت فاعتزم ... على مُزّة صفراء راووقها يَهمي[1]

عاش هذا الشاعر إذاً زنديق خمر يفتش عن جيدها، في قرى بيروت وأرض بيسان، وهو خبير بمذاقها ولونها، وأوقات شربها. ويدعو إلى معاقرتها جهراً. يقول لنديمه الوليد:

أصبِحْ نديمَك من صهبَاءَ صافيةٍ ... حتى يروح كريماً ناعمَ البالِ
واشرب هُديتَ أبا وَهبٍ مُجاهرةً ... واختلْ فإنّك من قومٍ أولي خالِ[2]

6 ـ طويس (عيسى بن عبد الله) 92هـ:

طويس، أول من غنّى بالعربي بـ (المدينة)، وأول من تخنث بها، ظريف ينقر الدف ويهزج:

كيف يأتي من بعيد ... وهو يخفيه القريبُ
نازح بالشام عنّا ... وهو مكسال هيوبُ
قد براني الحبُّ حتّى ... كدتُ من وجدي أذوبُ[3]

هرب من وجه مروان بن الحكم ـ أمير المدينة يومذاك ـ حتى نزل السويداء لأن الأمير أمر بقتل مخنث يقال له النغاشي، وقال: من جاءني بمخنث فله عشرة دنانير.

فلماذا هرب طويس المغنِّي، المخنث من وجه مروان؟ ألأن الغناء حرام في الإسلام؟ أو أن التخنث هو الذي وقع عليه فعل التحريم؟

الجواب يأتينا من ابن عباس الذي روى عن (الرسول) قوله: «لعن رسول الله ﷺ المخنثين من الرجال، والمترجلات من النساء»[4].

---

(1) المصدر السابق 2/ 82.
(2) المصدر السابق 2/ 87.
(3) الأصفهاني: الأغاني 2/ 170 دار الفكر عن بولاق.
(4) صبحي الصالح: منهل الواردين. حديث رقم 1629، ص896.

وما روي عن أحمد بن حنبل، أنه قال: «كسب المخنث خبيث يكسبه بالغناء»[1].

وما رواه اسحق بن عيسى، قال: «سألت مالك بن أنس عن ما يترخص فيه أهل المدينة من الغناء». فقال: «إنما يفعله الفسّاق»[2].

وما روي عن أبي حنيفة. أنه كان يكره الغناء ويجعل سماعه من الذنوب مع إباحته شرب النبيذ.

وما روي عن الشافعي، قوله: «خلفت بالعراق شيئاً أحدثته الزنادقة يسمونه التغيير يشغلون به الناس عن القرآن...» ويردف: «الغناء لهوٌ مكروه يشبه الباطل، ومن استكثر منه فهو سفيه ترد شهادته»[3].

ولعل أولئك الفقهاء قد استدلوا على أحكامهم هذه بالقرآن والسنة. جاء في القرآن: ﴿ومِنَ الناس من يشتري لهوَ الحديث ليُضِلَّ عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً أولئك لهم عذابٌ مُهين﴾[4].

أما في السنة، فقد روت عائشة عن (الرسول) أنه قال: «إن الله عز وجلّ حرّم المغنية وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها ثم قرأ ومن الناس من يشتري ...»[5].

وروى سهل بن سعد عن الرسول، قوله: «يكون في أمتي خسف وقذف ومسخ، ... إذا ظهرت المعازف والقينات واستحلت الخمر»[6].

مما تقدم، يظهر لنا السبب في هروب طويس المغني، والمخنث الظريف من مروان. لأن الشعر الذي كان يغنيه هو وأمثاله ليس تواشيح دينية

---

(1) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص229.
(2) المصدر السابق.
(3) المصدر نفسه ص230.
(4) سورة لقمان، آية 6.
(5) ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص 229.
(6) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص234.

تربطهم بحبل الله وتبعدهم عن حبائل الشيطان كأغنية أهل المدينة لقدوم الرسول:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داعي

بل هي أشعار توصف فيها المستحسنات والخمر، كقول الشاعر:

ذهبيّ اللون تحسب مِن وجنتيهِ النار تُقْتَدح
خوفوني من فضيحته ليته وافى وأفْتَضح[1]

وتستفز فيها المشاعر، فتأرق العين ويسهد القلب، وتتحرك الأحاسيس فينتشي القائل والراوي والسامع. يردد طويس شعر خولة بنت ثابت، ـ أخت حسان بن ثابت ـ ويغنيه، تشبيباً بعمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي:

يا خليلي نابني سهدي لم تنم عيني ولم تكد
كيف تلحوني على رجل أنسِ تلتذه كبدي
مثل ضوء البدر طلعته ليس بالزمّيلة النكد[2]

ترى هل كان طويس فاسقاً زنديقاً بدلالة ما قدمنا؟ لعله كذلك وبما نضيف. إذ تراه يستل دفه من حضنه وينقره ويغني شعراً لابن زهير المخنث[3]، يعرض فيه لمخنثة تمر قبل انبلاج الفجر، بها يتزين عيد الفطر ويزدان الأضحى، يقول:

إنّ المخنثة التي مرّت بنا قبل الصباحِ
في حلّة موشية مكيّة غرثى الوشاح
زينٌ لمشهد فطرهم وتزينُهم يوم الأضاحي[4]

---

(1) المصدر السابق، ص226.

(2) الأصفهاني: الأغاني 2/ 173. والزمّيلة: الضعيف ـ الجبان ـ الرذل.

(3) المصدر السابق 2/ 174.

(4) المصدر السابق. غرثى الوشاح: خميصة البطن، دقيقة الخصر.

فهذا المغني المخنث تراه لا يرعوي عن ملاحقة الجواري ومطاردتهم وإن صدوه[1]، معارضاً بذلك ما رواه عمر بن الخطاب عن (الرسول): «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ... ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هجر إليه»[2]. ومبتعداً في زندقته عن الشرف العربي والإباء والأنفة، والحفاظ على العرض، وحتى عن مثل وأخلاق العربي في جاهليته، ألم يقل عنترة في حفاظه على أعراض الناس:

وأغضُّ طريف ما بدَت لي جارتي حتى يُواري جارتي مأواها[3]

فطويس الشاعر المسلم، يبتعد في أغانيه عن أخلاق الرجل المسلم، ويبتعد في تصرفاته عن تعاليم الإسلام، فهو يلاصق الخمرة ويتبع الغواني ويصح فيه ما صح في نعته بالزنديق.

7 ـ الأخطل (غياث بن غوث التغلبي) 19 ـ 90هـ / 640 ـ 708م:

هو شاعر نصراني من بني تغلب، وأحد الثلاثة المشهورين في صدر الإسلام. وكنيته «أبو مالك». قال عنه مسلمة بن عبد الملك: «ثلاثة لا أسأل عنهم، أنا أعلم العرب بهم: الأخطل والفرزدق وجرير، فالأخطل يجيء سابقاً أبداً، والفرزدق يجيئ (مرة سابقاً ومرة ثانياً)، وأما جرير فيجيء سابقاً مرة وثانياً مرة وسُكيتا مرة»[4].

ربما لقب بالأخطل لسفاهته، وخبث دينه، ومع كونه نصرانياً

---

(1) المصدر السابق.

(2) صبحي الصالح: منهل الواردين: حديث رقم 1 ص39. إلى ما هاجر إليه: المراد أن الغاية التي هاجر إليها حقيرة مهينة.

(3) عنترة بن شداد: الديوان: دار المعرفة. ص102.

(4) ابن قتيبة: الشعر والشعراء: 1/ 393. وفخر الدين قباوة: شعر الأخطل. دار الآفاق الجديدة. بيروت ط ثانية 1979. 1/ 13. والأصفهاني: الأغاني 7/ 169. دار الفكر عن بولاق. والزركلي: الأعلام: 5/ 122. والمرزباني: معجم الشعراء ص22.

والنصارى لا تقسم بالأصنام فقد أقسم بالات والعزى، استخفافاً بدينه[1].

لقد كان الأخطل زنديقاً في دينه، زنديقاً في مسلكه، فقد طلق امرأته، وتزوج بامرأة مطلقة غيرها[2]، ومن الطبيعي أن تذكر هذه الزوجة زوجها الأول وبخاصة عندما ترى إساءة من الثاني لم تعهدها في الأول. ويذكر ذلك الأخطل في شعره قائلاً:

كلانا على هَمٍّ يبيت كأنما بجنبيه من مسِّ الفراش قروحُ
على زوجها الماضي تنوح وإنني على زوجتي الأخرى كذاك أنوحُ[3]

حبسه «القس» في إحدى كنائس دمشق، لكونه فاسقاً يشتم أعراض الناس ويهجوهم، فتوسط له أحد القرشيين، فأطلقه القس رافعاً عصاه في وجهه وقائلاً: «يا عدو الله أتعود تشتم الناس وتهجوهم وتقذف المحصنات؟»[4]. فيجيب لست بعائد ولا أفعل. ولكننا نراه يعود إلى سيرته، حين يطلب من امرأته ـ وكانت حاملاً ـ وقد مر بهما الأسقف يركب حماره، أن تلحقه وتتمسح به تبركاً[5]، فلا تستطيع الوصول إلا إلى ذنب الحمار وتعود، فيقول لها هازئاً: «هو وذنب حماره سواء»[6].

والأخطل، وهو شاعر بني أمية بلا منازع[7]، لا يتورع عن شرب الخمر، وادمانه، حتى السكر الشديد[8]، يجاهر بهذه المعصية في حضرة

---

(1) الأصفهاني: الأغاني 7/ 170و171 واللات والعزى: صنمان مشهوران عند العرب في جاهليتهم. الأب جرجس داود: أديان العرب قبل الإسلام: ص300 ـ 301.

(2) المسيحية تنهى عن الطلاق. جاء في الإنجيل المقدس: «من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزني، ومن يتزوج مطلقة فإنه يزني. متى 5/ 32 و 19/ 9 ـ 12. ومرقس 10/ 11. ولوقا 16/ 18.

(3) الأصفهاني: الأغاني 7/ 177.

(4) الأصفهاني: الأغاني 7/ 183.

(5) هي من عادات المسيحين في كل الأزمنة.

(6) الأصفهاني: الأغاني 7/ 183.

(7) المصدر 7/ 181.

(8) حرم الإنجيل السكر: «اكورنتوس 5/ 11و6/ 10. وغلاطية 5/ 21. وأفسس 5/ 18».

الخليفة «عبد الملك بن مروان» حين يعرض عليه الإسلام بقوله: «ألا تسلم فنفرض لك في الفيء ونعطيك عشرة آلاف قال الأخطل: «وما تصنع بالخمر؟ فيقول الخليفة: إن أولها لَمُرٌّ وآخرها لسكر فيجيب الشاعر: إن بين هاتين لمنزلة ما ملكك فيها إلا كعلقة ماء من الفرات بالإصبع»[1].

وبين أولها وآخرها وفي هذه المنزلة يقول الأخطل، غير خائف من تحريم السكر في الإنجيل، ولا ينظر إلى دخول الملكوت، ولا يخاف عبد الملك:

صريعُ مُدّام، يرفعُ الشَّرْبُ رأسَه ... ليحيا، وقد ماتت عظامٌ، وَمفْصلُ
شربتُ، ولّا قاني لحِلّ أَلِيَّتي ... قطارٌ، ترَوَّى من فسلطينَ، مُثْقَلُ
فقلتُ: أصَبحُوني، لا أبا لأبيكم! ... وما وضعوا الأثقالَ، إلا ليفعَلوا
وجاؤوا ببيسانية، هي - بعدما ... يَعُلُّ بها الساقي - ألذُّ، وأسهلُ
تمرُّ بها الأيدي سنيحاً، وبارحاً ... وتوضعُ بـ «اللهُمَّ حيِّ»، وتُحْمَلُ[2]

فهذا الشاعر، الذي أدام شرب الخمر وأوغل فيه، فدبت الخمرة في عظامه وصرعته، وكادت أن تسكت لسانه الذي يقول لعبد الملك، عندما سأله، ما بلغ منك الشراب؟ «يا أمير المؤمنين، إذا شربتها فملكك أهون عليّ من شسع نعلي»! ثم ينشد بعدما هدد بضرب عنقه:

إذا ما نديمي علّني، ثم علّني ... ثلاثَ زجاجاتٍ، لَهُن هديرُ
خرجتُ أجرُّ الذَّيْلَ زَهواً، كأنني ... عليكَ، أميرَ المؤمنين، أميرُ[3]

يتبين لنا من هذه الأبيات، أن الأخطل كان جريئاً في حضرة الخليفة، وربما كانت له حظوة عند بني أمية لم ينلها شاعر غيره لهجائه

---

(1) الأصفهاني: الأغاني: 7/ 174.

(2) فخر الدين قباوة: شعر الأخطل. 1/ 15. وما بعد. وانظر القصيدة من السطر 4 حتى 20: والشرب: الشاربون. مفصل: اللسان. ألية: قسم. بيسانية: منسوبة إلى بيسان. يعل: يشرب مثنى وثلاث.

(3) فخر الدين قباوة: شعر الأخطل 2/ 180. الحاشية.

(الأنصار) وتجرؤه على مقاماتهم[1]، ومن جرأته قوله لعبد الملك عندما عرض عليه الإسلام: «إن أتت أحللت لي الخمرة، ووضعت عني صوم رمضان، أسلمت «فيرفض الطلب، ويقول الأخطل:

ولستُ بصائم رمضانَ، طوعاً ولستُ بآكلٍ لحمَ الأضاحي
«ولست بزائرٍ بيتاً، عتيقاً بمكّةَ، أبتغي فيه صلاحي»[2]
ولست بقائم، كالعير، يدعو لدى الإصباح: حيَّ على الفلاح
ولكني سأشربُها، شمولاً وأسجدُ، عند مُنْبَلَجِ الصبّاح[3]

فهو سيشرب الخمرة، ولن يصوم (رمضان) ويزور مكة حاجاً، ويستهجن النهوض باكراً، والآذان في الناس «حي على الفلاح» وكل ذلك في حضرة الخليفة، المؤتمن على العقيدة والمدافع عن الإيمان.

يفاخر في شربها، ويصفها بشراب الملوك، وذلك عندما يستدعيه عبد الملك ليسمع مدح جرير للخليفة ويحاول جرير هجاء الأخطل بقوله: «يا أمير المؤمنين إن رائحة الخمر لتفوح منه «فيجيب الأخطل على الفور». صدّق يا أمير المؤمنين وما اعتذاري من ذلك:

تعيبُ الخمر، وهي شرابُ كسرى ويشربُ قومُك العجبَ العجيبا
مَنيُّ العبدِ، عبدِ بني سُواجٍ أحقُّ من المُدامةِ، أن تعيبا[4]

ينغمس الأخطل في هذه اللذة الزندقية[5]، ويكثر من شرب الخمرة التي تفقد العقل، ولا يعود مدمنها يعي الحياة. ولكن الأخطل الشاعر الكبير الذي كان جليس الخلفاء، يفقه ما يقول: من أنه وندماءه ـ لعلهم

---

(1) سنذكر ذلك فيما بعد.
(2) المصدر السابق. هامش 2/ 756.
(3) المصدر السابق.
(4) الأصفهاني: الأغاني: 7/ 181 والعجب العجيب: هو مني العبد الذي سقاه أبو سواج لـ «صرد بن جمرة» من بني يربوع رهط جرير. انتقاماً لتعدي صرد على امرأة أبي سواج. المصدر السابق 7/ 182.
(5) شربها كفر وزندقة في الإسلام. وادمانها حرام وزندقة في المسيحية.

كانوا مسلمين ـ قد شربوا حتى الإعياء والموت، ولكنها ميتة جاهلية.

ربما ،لأن من عاقرها وانتشى .، بعد عن كل شرائع الأديان ودساتير الإنسان، فيموت وكأنه في زمن ما قبل الإسلام، ولم يسمع ما بشر به (محمد) وأنذر. ولكن هذا الموت لا يعني النهاية المعروفة، والفناء الكلي، لأن المخمور، الفاقد الوعي، يعود إلى رشده، فيحيا بعد موت دونما حشر وموعد بهذا الحشر. وشتان هذا الموت وهذا المَحْيَى، فكلاهما لذيذ. يقول الأخطل:

شربنا، فمُتنا مِيتَةً جاهليّةً ... مضى أهلُها، لم يعرفوا: ما محمَّدُ؟
ثلاثة أيّام، فلَمَّا تنبَّهت ... حشاشاتُ أنفاسٍ أتَتْنا، تَرَدَّدُ
حَيينا حياةً، لم تكن عن قيامةٍ ... علينا، ولا حَشْرٍ، لنا به موعِدُ
تُميتُ وتُحيي بعد موت، وموتُها ... لذيذٌ، ومَحْياها ألَذّ، وأمجدُ[1]

وفي هذا المعنى أيضاً، وكأن الخمرة قد أصبحت في نظره (إلهاً) يميت ويحيي ومن شربها، أو سقيها من الأموات، بعث وعادت إليه الروح يقول:

عانيّةٌ، ترفعُ الأرواحُ نفحَتَها ... لو كان تُسقى بها الأمواتُ قد نَشَرُوا[2]

وإلى جانب هذه المعرفة بعالم الخمرة، فلعل الأخطل اعتقد بتنصيب نفسه سيد شاربيها، حين تدار الأكؤس وتصدح القينات بصوت أبح، كثيراً ما طرب إليه وتاه فيه معاقر الراح. يقول:

وقد أكونُ عميد الشَّرْبِ، تُسمعنا ... بحّاءُ، تسمعُ في ترجيعها صَحَلا
من القِيانِ، هَتوفٌ، طالما ركدت ... لفتيةٍ، يشتهون اللَّهوَ والغزلا[3]

---

(1) قباوة: شعر الأخطل 2/ 164.

(2) المصدر السابق 2/ 141. والعانية: خمرة منسوبة إلى عانة بلد في شمالي سوريا. الأرواح: جمع ريح. النفحة: الرائحة.

(3) المصدر عينه 1/ 155. بحاء: في صوتها بح. الصحل: البحح.

ولم يكن الأخطل زنديق راحٍ وحسب، فتراه عندما يتعرض للنساء ليتغزل بهن، يفحش ويفجر. فشعره إلى الإباحة أقرب مما هو للتعفف الذي نادت به شرائع السماء، فهو دائماً وراء الغانيات والخمر. يقول:

بانَ الشبابُ، وربَّما علَّلْتُه بالغانيات، وبالشَّراب الأصهب
ولقد شربتُ الخمرَ في حانوتِها ولعبْتُ بالقَيْنَاتِ كلَّ المَلْعَبِ[1]

وهو يبيت عندهن، ولا إثم في ذلك، يفعل ما يريد ولسن بصاده عما يبغي، وما ذلك إلا لمنزلته الرفيعة بينهن. يقول:

ولقد أكونُ، من الفتاةِ بمنزلٍ فأبيتُ لا حَرِجٌ، ولا محرومُ
ولقد تباكرُني، على لذّاتها صهباءُ، عاريةُ القذى، خرطومُ
وتظلُّ تَنْصُفُنا، بها قرويَّةٌ إبريقُها، برقاعِها، ملثومُ[2]

كما أنه يتمنى أن تعود الليالي الحمراء، ليالي نعيم الشاعر، في بيت معشوقته، ينزع حليها، ويعبث بها، يعتنقان ويتزاقان كالطير. يقول:

يا يَومنا عندها، عُدْ بالنعيم لنا منها، ويا ليلتي في بيتِها، عُودي
إذْ بتُّ أنزعُ عنها حَلْيَها، عبثاً بعد اعتناقٍ، وتقبيلٍ، وتجريدِ
كما تطاعمَ، في خضراءَ ناعمةٍ، مطوَّقانِ، أصَاخَا بعد تغريدِ
وقد سَقَتْني رُضاباً، غيرَ ذي أَسَنٍ كالمسكِ، ذُرَّ على ماءِ العناقيدِ[3]

ألا يرعوي هذا الشاعر الفاحش، ويقف عند حرمة المنازل، ويغض الطرف ويستمع إلى قول الإنجيل: «من نظر إلى امرأة ليشتهيها في قلبه فقد زنى»[4]. هذا إذا كان نصرانياً حقاً، لا كما يبدو، إذ كان زنديقاً في النصرانية، فقد شرب الخمرة حتى الثمالة، وأفحش في جريه وراء المرأة، طلق امرأته، وتزوج مطلقة، مستهتراً بالدين المسيحي، هازئاً برجاله ...

---

(1) المصدر عينه: 1/ 88. عللته: ألهيته. الأصهب: الأحمر. القينة: الأمة المغنية.
(2) المصدر: 1/ 382و383. خرطوم: سلافة تسيل قبل العصر.
(3) المصدر 2/ 554.
(4) إنجيل مقدس. متى: 5/ 28.

ولم يقف عند هذا الحد، إذ تعرض بهجائه اللاذع إلى صحابة (الرسول)، وذلك ليس تعصباً لدين النصارى، بل جرياً وراء هوى سياسي، قبلي، أو هدف مادي بحت، فهجاهم إرضاءً ليزيد بن معاوية، كما هجا شاعر الأنصار، عبد الرحمن بن حسان بن ثابت[1]. يقول:

ذهبَتْ قريشٌ بالمكارمِ والعُلى ... واللؤمُ تحت عمائم الأنصار
فذَرُوا المكارمَ، لستُمُ من أهلِها ... وخُذُوا مساحِيَكُمْ، بني النَّجارِ
وإذا نَسبْتَ ابنَ الفُرَيْعَةِ خِلْتَه ... الجَحْشِ بين جِمارَةٍ، وحِمارِ[2]

كما هجا جريراً هجاءً مقذعاً، تعرض لأبيه وأمه ولقبيلته أيضاً وقد كان بين قبيلتي الشاعرين عداءٌ مستحكمٌ. يقول:

إذ كان منزِلُك المرُّوتَ، منجَحِراً ... يا ابنَ المُرَاغَةِ، يا حُبْلَى، بمُختارِ

❀ ❀ ❀

أمٌّ، ليئمةُ نَجْلِ الفَحلِ، مُقْرِفَةٌ ... أدَّت لفحلٍ، لئيم النَجْلِ، شخَّارِ[3]
قومٌ، إذا استنبحَ الأضيافُ كلبَهم ... قالوا لأمِّهم: بُولي على النَّارِ
فتُمسكُ البَوْلَ، بُخلاً أن تجودَ به ... وما تبوُلُ لهم، إلا بمقدارِ[4]

وليس جرير ورهطه بمنزلة الأخطل وآله، وأنى لجرير أم واب يستطيع أن يفاخر بهما أقرانه، فأمه ليست أصيلة فكيف تسبق؟ ومنزل أبيه يشبه علبة مدورة، وما ذلك إلا لأنه قمل أجرب «فأفرد إفراد البعير المعبد»[5]. يقول:

---

(1) شوقي ضيف: التطور والتجديد في الشعر الأموي: ص133.

(2) قباوة: شعر الأخطل: 2/ 483 ـ 184. المساحي آلات الحديد لنقب الأرض. الفريعة: أم حسان بن ثابت.

(3) المصدر السابق. 2/ 641. المروت: موضع. المراغة: لقب أم جرير. حبلى بمختار: جعله حبلى عن رضى واختيار. لأنه شرب مني العبد. أنظر البحث هامش رقم1 ص232.

(4) المصدر عينه. وانظر الأصفهاني: الأغاني 7/ 187. وقد قيل أن البيت (3) هو أهجى بيت شعر قيل بالعربية.

(5) المعبد: المطلي بالقطران. الزوزني شرح المعلقات السبع. دار الجيل. معلقة طرفة بن العبد، ص81.

ولقد شَدَدْتَ، على المراغةِ، سَرْجَها حتى نَزَعْتَ، وأنتَ غيرُ مُجيدِ
وأبوك ذو محنيَّةٍ، وعباءةٍ قَمِلٌ، كأجربَ، مُنْتَسيَ، مَوْرُوْدِ[1]

لم يقف الأخطل في تعرضه بالهجاء الفاجر، لجرير وأمه وأبيه، عند حد فتراه يتعرض أيضاً لقبيلة جرير، ويفحش في إظهار سوءات نسائهم فيظهرهن مسرعات إلى الفجور، مستعملاً في ذلك بذئ الكلم وأحط الألفاظ، مما يأباه الخلق، ويحرمه الدين، أي دين سماوي كان، يقول:

فلا تَدخل بيوتَ بني كُلَيْبٍ ولا تَقْرَبْ لهم، أبداً، رِحَالا
ترى فيها اللوامِعَ مُبْرِقاتٍ يَكَدْنَ، ...، بالحَدَقِ، الرجالا
قصيراتِ الخُطا عن كلِّ خَيْرٍ إلى السَّوْآتِ مُسمِحَةً، رعالا[2]

ومن هذه الألفاظ النابية والسباب اللئيم ـ الذي لا يستعمله إلا الزنديق نراه يقول إلى جرير:

أصِخْ، يا بنَ ثَفْرِ الكلب، عن آل دارمٍ فإنك لن تستطيعَ تلك الروابيا[3]

فالذي ينحط إلى هذا الدرك من التهتك بأعراض الناس، يعد زنديقاً، وزنديقاً كبيراً، وبالأخص إذا انتمى إلى المسيحية ـ كالأخطل ـ والمسيحية تقول: «ليكن كلامكم نعم نعم، ولا لا، ومن زاد على ذلك فهو من الشرير»[4].

فكم بالحريّ إذا دعا المسيحي إلى السبي والقتل ،متناسياً ما جاء على لسان السيد المسيح: «لا تقاوموا الشرّ بالشرّ، من ضربك على الأيمن فدر له الأيسر ...»[5]. كما في دعوة الأخطل، وإظهاره هجوم رهطه على

---

(1) قباوة: شعر الأخطل: 2/ 519 ـ 521.

(2) المصدر 1/ 134 وبنو كليب من يربوع رهط جرير. رحال: منزل. اللوامع: المرأة الفاجرة تلمع بيديه. الرعال: الجماعة. مسمحة: منقادة مسرعة. ومكان النقط في البيت الثاني لفظة يمجها الذوق السليم فلم نذكرها.

(3) المصدر 1/ 352. والثفر: الفرج.

(4) إنجيل مقدس: متى 5/ 37.

(5) المصدر السابق: لوقا 6/ 29. ومتى 5/ 39 ـ 42.

عشيرة «كلب» إحدى العشائر التي ينتمي إليها جرير، وسبيهم النساء وقد تمزقت سرابيلها، وظهرت عوراتها، يقول:

كم قد هجمنا عليهم، من مُسوَّمَةٍ شُعْثٍ، فوارسُها البيضُ، البَهاليلُ
نسبي النساءَ، فما تنفكُّ مُردِفَةً قد أنهجَتْ عن مَعاريها السَّرابيلُ[1]

هل نسي هذا الزنديق النصراني وصية سيده المسيح، : «لا تقتل»؟ إذ يقول:

شفى النفسَ قتلى من سُلَيْمٍ وعامرٍ ولم تَشْفِها قَتْلَى غنيٍّ، ولا جَسْرِ[2]

أو تناساها لأنه لا يعرف من المسيحية إلا اسمها، ويؤمن بما آمن به العربي قبل الإسلام؟ إذ زجر الطير، ليعرف من طيرانها الفأل، أخير هو أم شر. أوليس هو القائل:؟

فهلاَّ زجرت الطَّيْرَ، ليلةَ جئتَه بِضَيْقَةِ بين النَجْمِ، والدَّبَرانِ[3]

وخلاصة القول: فإن من كانت هذه حياته وصفاته في إدمان المسكر وإفحاش القول في الناس، وحبه لإراقة الدماء، لا بد أن يكون زنديقاً؛ زنديقاً في هواه السياسي، زنديقاً في عدم استقامة سيرته، إن في الحياة الاجتماعية، أو في ضعف معتقده الديني.

هذا هو شأن أحد الثلاثة الكبار، عصر بني أمية، فما هو شأن الآخَرَيْن؟ وكيف كانت حياتهما. هل تزندق جرير والفرزدق، أم لا؟ الجواب يأتينا فيما يلي.

8 ـ جرير بن عطية اليربوعي (28 ـ 110هـ / 640 ـ 728م):

ـ إذا كان الهجاء إشراكاً والاشراك زندقة[4]، فإن «جريراً» ـ وهو من

---

(1) قباوة: شعر الأخطل 1/ 63. مسومة: معلمة لعتقها. بهلول: سيد جامع كل خير. أنهج: بلي وتمزق.

(2) المصدر السابق 1/ 181.

(3) المصدر: 1/ 293. النجم الثريا. والدبران: نجم معروف.

(4) حسب قول «كعب بن جعيل» التغلبي الشاعر. أنظر ابن قتيبة: الشعر والشعراء: 1/ 394.

أعظم الشعراء الهجائين في الإسلام - يعد من أكبر زنادقة العصر الأموي.

- وإذا كان شرب الخمر كفراً وضلالاً - وهل الزندقة أشد إيلاماً من الكفر والضلال؟ - فإن جريراً، العفّ الدين[1]، لهو من الزنادقة لأنه شرب[2]، ما أوصى الإسلام باجتنابه[3].

- وإذا كان التفاخر والتباهي بالأنساب والقبائل، من مفاخر الجاهلية وأعرافها، وقد نفاه الإسلام على لسان (رسوله)، حيث قال: «أيها الناس! إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء، كلكم لآدم وآدم من تراب ...»[4]، فإن جريراً بنقائضه قد فاخر وتباهى، ولم يصمّ أذنيه عن ملاحاة قرينيه - الأخطل والفرزدق - وغيرهما، بل تراه قد أغلقهما عن سماع قول رسوله، أفلا يكون زنديقاً؟ وأغلقهما عما روي عن (النبي): «من تعلم القرآن ثم نسيه لقي الله تعالى يوم القيامة وهو أجذم»[5].

كان جرير من أشد الناس هجاءً[6]، هجا فأفحش وأقذع، وفتش عن كلمات هجائه فجاءت فاجرة داعرة، يعف لسان المؤمن، بأديان السماء، عن ذكرها .. ويا لكثرة ما رددها في تعرضه لرهط الأخطل والفرزدق وغيرهما. إنه يقول:

عضَّ الَّسَرِنْدَى على تثليم ناجِذِه ... من أُمِّ عِلْقَةَ بَظْراً عمَّه الشَّعرُ
وعضَّ عِلْقَةُ لا يَأْلُو بِعُرْعُرَةٍ ... من بَظْرِ أَمِّ السرندى وهو مُنْتَصِرُ[7]

---

(1) حسب رواية أبي عبيدة عن أبي عمرو. الأصفهاني: الأغاني 7/ 38. دار الفكر عن بولاق.
(2) المصدر السابق 7/ 49.
(3) القرآن: المائدة 5/ 90و5/ 91 والبقرة 2/ 219.
(4) شوقي ضيف: التطور والتجديد. دار المعارف، ص110.
(5) الشريف المرتضى: الأمالي 1/ 5. وابن منظور: لسان العرب 12/ 87 مادة (جذم) والأجذم: المقطوع اليد.
(6) ابن قتيبة: الشعر والشعراء: 1/ 376.
(7) عبد الله الصاوي (محمد إسماعيل): شرح ديوان جرير. دار الأندلس. ص288. وعلقة، والسرندى شاعران كانا يعينان عليه خصومه.

ترى! أليس زنديقاً من يفتش عن عورات الإنسان ليلاحي بها خصومه؟ لعل جريراً كان كذلك. أليس هو القائل في هجاء الراعي النميري وعشيرته:

إذا سَعَلَتْ فتاةُ بني تميم تَلقَّمُ بابَ عِضْرِطِها الترابا
ترى بَرَصاً بمَجْمَع إسْكَتَيْها كعَنْفَقَةِ الفرزدق حينَ شابا
ومُقْرِفَةِ اللهازم من عِقالٍ يُغَرِّقُ ماءُ نَخْبَتِها الذُّبابا
تُواجِهُ بَعْلَها بعُضارطيٍّ كأنَّ على مشافِرِه حُبَابا
أجَنْدل ما تقولُ بنو نُميرٍ إذا ما(...) في أستِ أبيك غابا[1]

نرى أن جريراً استعمل في هجائه هذا ـ إلى جانب وحشيّ الكلام ـ أقذع الألفاظ وأحطها، ولم يتورع عن ذكر عورات الرجل والمرأة على حد سواء، ومثل هذا كثير في شعره. قال يهجو اليتم:

ويتميَّةٍ خِزْيٌ محلُّ إزارها إذا القُنْبُ تحت الرُّكْبَتَين تذبذبا
ولولا لثا تيميّةٍ تحت قُنْبِها لقد كرَه الحرقوصُ أن يتعرَّبا[2]

فما هو هذا الأسلوب الفاحش البذيء الذي اتبعه جرير؟ ألم يسمع ما رواه الترمذي عن ابن مسعود عن (الرسول): «ليس المؤمن بالطعّان، ولا اللعّان، ولا الفاحش، ولا البذيء»[3].

فكيف به إذا قرن الفحش والبذاءة بالتعرض لدين سماوي اتّبعه الأخطل أحد خصومه، فلم تسلم أم هذا من لسانه السليط، وقد نعتها بأسف النعوت، فجاءت داعرة، يشبه عنقها عنق خنزيرة، تعمل في تغذية

---

(1) المصدر السابق ص69 وما بعد. العضرط: الفرج الرخو. مجمع اسكتيها: بأسفل أو بجانب أسكتيها. ماء نخبتها: الماء: السلح. نخبة: الدبر. الحباب: يشبه الزبد. أست: حلقة الدبر. ومكان النقاط في البيت الأخير كلمة نابية. وانظر ترجمة الراعي النميري (أبي جندل) في: ابن قتيبة: الشعر والشعراء. 1/ 327.

(2) الصاوي: ديوان جرير. ص15. القنب: بظر المرأة. اللثا: الوسخ. الحرقوص: خنيفس صغير.

(3) صبحي الصالح: منهل الورادين، ص938. حديث رقم 1732.

وتربية صغار الخنازير، يعلق شعار دينها «الصليب» على (مؤخرتها)، توليها القبلة، وتسجد للشيطان.

أهكذا وبكل بساطة يتهكم جرير على دين المسيح، الذي قال فيه القرآن الكريم: ﴿يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم﴾[1]. ألا يرعوي وهو يهجو الأخطل:

ألـم تـرَ أنَّ الـتـغـلـبـيـة لـم تَـبِـتْ   حَصاناً، ولا جذلانَ من يستفيدُها
يلحُ صليباها اللذان على اسْتِها   وجيدُ التي تفلو الخنانيصَ جيدُها
تُوَلِّي استها الوجهَ الذي أُمرتْ به   وتسجدُ للشيطان خاب سجودها[2]

ويقول أيضاً:

إن الأخـيـطـلَ خـنـزيـرٌ أطـافَ بـه   إحدى الدواهي التي تُخشى وتُنتَظَرُ

ويعكف إلى رهط الأخطل، كأنه يريد أن يوزع سبابه عليهم جميعاً:

رجسٌ يـكـون إذا صـلُّـوا آذانُـهُـمُ   قَرْعُ النواقيسِ لا يَدْرُون ما السُّوَرُ
تلقى الأُخيطلَ في ركبٍ مطارفُهُم   بُرْقُ العَبَاءِ وما حجُّوا وما اعتمروا
والـتـغـلـبـيـةُ فـي ثِـنْـيَـيْ عـبـاءَتِـهـا   بَظْرٌ طويلٌ وفي باع ابنها قِصَرُ
نسوانُ تغلبَ لا حِلْمٌ ولا حَسَبٌ   ولا جـمـالٌ ولا ديـنٌ ولا خَـفَـرُ
مـا كـان يـرضـى رسـولُ الله ديـنَـهُـم   والـطـيِّـبَـان أبـو بـكـرٍ ولا عُـمَـرُ[3]

فهذا الذي أخرج نصارى تغلب ـ رجالاً ونساءً ـ من الإيمان بالله ونصب نفسه ـ لسانه على الأقل ـ مكان (الرسول) وأبي بكر وعمر، برفض الجميع دين (عيسى) المسيح، ألا يكون زنديقاً. لعله كذلك، خاصة عندما يَتَّضِعُ بشعائر دين سماوي إلى مذلة ألفاظ سفيهة عاهرة عندما يقول:

---

(1) سورة آل عمران 3/ 45. وانظر القرآن أيضاً البقرة 2/ 87 2/ 253والنساء 4/ 171.

(2) الصاوي: ديوان جرير، ص157.

(3) المصدر السابق. ص260 وما بعد. وانظر أيضاً ص313 في هجائه أم الأخطل .

فأما النصارى العبادون صليبَهم   فخابوا وأما المسلمون فأفلحوا

❀ ❀ ❀

إذا جُرِّدَت لاح الصليبُ على اسْتِها   ومن جلدِها زَهْمُ الخنازير يَنفَحُ
ولم تمسحِ البيت العتيقَ أكفُّها   ولكن بقربانِ الصَّليبِ تُمَسَّحُ[1]

ولا ضير في هجاء هذا الشاعر الزنديق، لشاعر آخر ليس من دينه، إذا ما رأيته يقف للآخرين من معاصريه وعلى رأسهم الفرزدق، وبالكاد يخلص أحد من حبائله، ـ موقف الصياد المتربص للطريدة ليرميها في شباك هجائه.

تراه ينظر إلى الفرزدق ـ احد الثلاثة الكبار ـ ويأخذ عليه تقربه إلى النصارى واليهود، بقوله:

خرجْتَ من المدينة غيرَ عفٍّ   وقام عليك بالحَرَمِ الشُّهُودُ
تحبُّكَ يومَ عيدِهِمُ النصارى   ويومَ السبتِ شيعتُكَ اليَهُودُ[2]

كما ويَأْخُذُ عليه فحشه وفجوره، لذا فهو نجس وإن تطهر ودخل المسجد، نجس لتقربه من نصارى تغلب، الذين يحجون إلى الصليب ويقربون القربان ويأكلون الخنزير، بقوله:

إنَّ الفرزدق حين يدخل مسجداً   رَجِسٌ فليس طهوره بطَهُورِ
رهطُ الفرزدق من نصارى تغَلِبٍ   أوْ يدّعي كذباً دعاوَة زورِ
حُجُّوا الصليبَ وقرِّبُوا قربانَكم   وخُذوا نصيبَكم من الخِنزيرِ[3]

ولا يكتفي بهذا التجريح والإيذاء، بل تراه يتهم خصمه بدينه، بعد أن اتهمه بجدته بقوله:

---

(1) المصدر السابق. ص111 وما بعد. الزهم: رائحة الشحم.

(2) المصدر السابق. ص161.

(3) المصدر ص193 ـ 194.

أبـنـي قُـفَـيْـرَةَ قـد أنـاخ إلـيـكـم يـومَ الـتـقـاسُـم لُـؤمُ آلِ نِـزَارِ
كـنـتـم بـنـي أَمَـةٍ فـأُغْـلِـقَ دونـكـم بـابُ الـمـكـارِمِ يـا بـنـي الـنَّـخْـوَارِ
لا تـفـخَـرَنَّ فـإنَّ ديـنَ مـجـاشِـعٍ دينُ المجوسِ تَطوفُ حولَ دُوَارِ[1]

فإذا ما كان الفرزدق المسلم قد زاغ عن الإيمان[2]، فهل يعقل أن قومه جميعاً قد زاغوا؟ وهل يجوز أن يُجِّرح رجل مسلم بآخرين مسلمين؟ ألم يحرم القرآن احتقار المسلم للمسلم؟ بقوله: ﴿يا أيُّها الذين آمنوا لا يسخرُ قومٌ من قوم، عسى أن يكونوا خيراً منهم... ولا تَلْمِزُوا أنفسَكم ولا تَنَابزوا بالألقاب بِئْسَ الاسمُ الفسوقُ بعد الإيمان...﴾ وبقوله أيضاً: ﴿ويلٌ لكلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾[3]. ألم ينه رسوله عن سب الأموات[4]، ألم يُرْوَ عنه: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده...»[5]، إن جريراً تجاهل كل هذا، أفلا يكون زنديقاً؟

إن من هجا وأفحش، ولم يتورع عن ارتكاب الكبائر، يؤكد زندقته، فمن هذه الكبائر: شربه للخمر، حتى السكر الشديد[6]، وإيمانه أن الشعر تعاويذ ورقى من الشيطان، وأن تابعه جني راق، وذلك لقوله في عمر بن عبد العزيز:

وجدتُ رقى الشيطان لا تستفزُّه وقد كان شيطاني من الجنِّ راقيا[7]

وقد شهد بذلك أحد معاصريه، راعي الإبل الذي قال: «أقسم بالله

(1) المصدر ص319 ـ 320 وقفيرة: هي جدة الفرزدق لأبيه، وكانت أمها أمة وهبها كسرى لزرارة وزرارة وهبها لهند بنت عديس فحبلت من أخي زوجها «زنى» وولدت قفيرة هذه التي عاب جرير الفرزدق بها. أنظر ابن قتيبة: الشعر والشعراء 1/ 381.
(2) سبين ذلك فيما بعد.
(3) سورة الحجرات 49، آية 11. وسورة الهمزة 104، آية 1. ولمز: طعن. همزة لمزة: الغيبة والتجريح.
(4) صبحي الصالح: منهل الواردين: ص862. حديث رقم 1562.
(5) المصدر حديث. رقم 1563.
(6) الأصفهاني: الأغاني 7/ 49. وقد شرب باطية نبيذ وشوهد عرياناً.
(7) المصدر 7/ 58.

أن لجرير لأشياعاً من الجن»[1].

ومن كبائره أيضاً تباهيه وتفاخره على أقرانه من الشعراء، وعلى قبائلهم وعشائرهم، مدعياً أنه النهار والليل، والمسلمون يشهدون له بذلك، يقول للفرزدق ورهطه:

إنّي لَتُحرِقُ من قصَدْتُ لشَتْمِهِ   ناري ويَلْحَفُ بالغُواةِ سُعاري

❀ ❀ ❀

ماذا تقول وقد عَلَوْتُ عليكمُ   والمسلمون بما أقولُ قَوَاري
فأنا النهارُ علا عليك بضَوْئِه   واللّيلُ يَقبِضُ بَسطةَ الأبصارِ[2]

ومن كبائره أيضاً تفضيله لفئة من الناس على الآخرين. فقد كان أمويّ الهوى، رأى أن الخلافة قدرهم وسلطتهم مستمدة من سلطة الله، إيمانهم إيمان صدق وحق، ودين ما سواهم من العالمين دين تفرقة وضلال. يقول في عبد الملك:

يا آلَ مروانَ إن الله فضّلكم   فضلاً عظيماً على من دينُه البِدَعُ[3]

فمن هم أصحاب البدع في نظر جرير؟ لعلَّهم شيعة (علي) أو الخوارج، أو أتباع ابن الزبير، وكلهم مسلمون. ولكن الجميع ضالون، ما عدا بنو أمية الذين لهم الحق الإلهي في الخلافة، لأنها قدرهم، وقد ولدوا لها، طبقاً للنبوءات الواردة في الزبور والتوراة، يقول في مدح أيوب بن سليمان بن عبد الملك:

أنتَ الخليفةُ للرحمن يعرفُهُ   أهلُ الزبور وفي التوراة مكتوبُ
الله فضّله واللهُ وفَّقه   توفيقَ يوسفَ إذ وصَّاهُ يعقوبُ[4]

---

(1) المصدر السابق. 7/ 50

(2) الديوان: ص318. وقوار: الذين يتبعون أقوال الناس ويشهدون.

(3) المصدر السابق. ص356.

(4) المصدر السابق، ص35.

ولا يملّ جرير تكرار هذه النغمة في مدائحه لبني أمية، ومن حين إلى حين يعرض لخصومهم وأنهم ضلوا سواء السبيل، فمثلهم مثل قوم نوح وهود وثمود، من مثل قوله في يزيد بن المهلب، حين ثار وقتله الأمويون:

آلُ المهلَّب فرَّطوا في دينهم   وطَغَوْا كما فعلت ثمودُ فباروا[1]

فهذا الذي يوزع الاتهامات يمنة ويسرة ويجرح بعقائد الناس وأعراضهم يسف في القول ويفحش في الكلام، ألا يعد زنديقاً؟ الجواب عند هشام بن عبد الملك يسأل (سبة بن عقال) وعنده الثلاثة الكبار[2]، ألا تخبرني عن» هؤلاء الذين مزقوا أعراضهم وهتكوا أستارهم، وأغروا بين عشائرهم في غير خير ولا بر، أيهم أشعر؟»[3].

9 ـ الفرزدق، همّام بن غالب (110هـ / 728م):

أحد الثلاثة الكبار، في الإسلام، نبيل من أهل البصرة، عظيم الأثر في اللغة. كان يقال: «لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث لغة العرب ولولا شعره لذهب نصف أخبار الناس»[4]. هو صاحب الأخبار مع قرينيه جرير والأخطل، وملاحاتهم أشهر من أن نذكرها. كنّي في شبابه بأبي مكيّة، وهي ابنة له، لقوله:

شاهدْ إذا ما كنتَ ذا مَخمِيَّةْ   بدَارِ ميٍّ أُمُّه ضَبِّيَّةْ
صَمَخمَحٍ مثلِ أبي مكِّيَهْ[5]

لقب بالفرزدق[6]، وعمّر حتى المائة. لعله كان أكثر الثلاثة زندقة لفسقه واستهتاره وفجوره، بالإضافة إلى هجائه اللاذع وميله السياسي،

---

(1) المصدر السابق. ص219.

(2) جرير والفرزدق والأخطل.

(3) الأصفهاني: الأغاني. 7/ 73.

(4) الزركلي: الأعلام: 8/ 93.

(5) الشريف المرتضى: الأمالي 1/ 62 الحاشية.

(6) المصدر السابق: إما لجهامة وجهه وغلظه، وإما لشبهه بقطعة العجين.

وفخره بنفسه وعشيرته. فمن فجوره وفسقه وحبه لغير حلاله ما نراه منه وقد لاحق عشيقته، فاختبأ في مكان لا تراه أعين الرقباء حتى يجنّ الليل، ودلت له بحبل يصعد إليها بواسطته، فعاقرا خمرة (دارين)، ويلذ له المقام، لولا خوفه من الفضيحة. ثم نرى معشوقته تستعين بوصيفة لها وتدلانه بحبل من علو يقارب الثمانين قامة. وكل هذا في سبيل لذة جانحة، ونفس ميالة إلى العهر والخيانة، نرى ذلك في قوله:

أتيتُ لها مِنْ مُخْتَلٍ كنتُ أدَّري ... به الوحشَ، ما يُخشى عليَّ عوائرُهْ
فما زلت حتى أصْعَدَتْني حبالُها ... إليها، وليلي قد تخامَصَ آخرُهْ
فلمّا اجتَمَعْنا في العلاليِّ، بيننا ... ذَكيٌّ أبى من أهل دارين تاجرُهْ
فلم أرَ منزولاً به بعد هَجعةٍ ... ألذَّ قرىً لولا الذي قد نحاذرُه
فقلتُ لها: كيف النزولُ؟ فإنني ... أرى الليل قد ولّى وصوَّتَ طائرُه
فجاءت بأسباب طوالٍ وأشرفت ... قسيمة ذي زورٍ مخوفٍ تراترُه
فلما استوت رجلاي في الأرض نادتا: ... أحيٌّ يُرجّى أم قتيلٌ نُحاذرُه؟
فقلتُ: ارفعا الأسباب لا يشعروا بنا ... ووليتُ في إعجاز ليلٍ أبادرُه
هما دلتاني من ثمانين قامةً ... كما انقضَّ بازٍ أقتمُ الريشِ كاسرُه
وباتت كدوداةِ الجواري، وبعلها ... كثيرٌ دواعي بطنِهِ وقراقرُه
ويحَسَبُها باتت حَصانا، وقد جَرَت ... لنا بُرتاها بالذي أنا شاكره
فيا ربِّ إن تغفر لنا ليلةَ النَّقا، ... فكل ذُنوبي أنت يا رب غافرُه[1]

لم تبت هذه المرأة حصانا، كما يظن زوجها، وفجر بها الفرزدق، زير الغواني[2]، فسمع «عمر بن عبد العزيز» بفجوره وفسقه فنفاه عن المدينة[3]، وكأن جريراً كان له بالمرصاد، الريشة بيده، واللوحة أمامه، يفتن في إخراجها، صورة قرد يتسلق الحبال، لا يأمن مسلم شره، فهو

(1) سايمز (المستشرف جيمس د) شرح ديوان الفرزدق. مكتبة الثقافة العربية ـ بغداد، ص113.

(2) الزركلي: الأعلام 8/ 93.

(3) ابن قتيبة: الشعر والشعراء 1/ 399.

فاجر في صباه، فاجر في شيبه، يقول جرير:

لـقـد وَلَـدّت أمُّ الـفـرزدق فـاجـراً ... فـجـاءَت بـوزواز قـصـيـر الـوقـائـم
ومـا كـان جـارٌ لـلـفـرزدق مُـسـلـمٌ ... لـيـأمـنَ قـرداً لـيـلُـه غـيـرُ نـائـم
يـوصِّـلُ حـبـلَـيْـه إذا جـنَّ لـيـلُـه ... لـيَـرقـى إلـى جـاراتِـه بـالـسـلالـم
أتـيـتَ حـدودَ الله مـذ أنـت يـافـعٌ ... وشبتَ فما ينهاكَ شيبُ اللهازمِ
تـتـبَّـعُ في الـمـاخـور كـلَّ مُـريـبَـةٍ ... ولستَ بأهلِ المُحصَناتِ الكرائمِ
تـدلَّـيـتَ تـزنـي عـن ثـمـانـيـن قـامـةً ... وقصَّرْتَ عن باعِ العُلى والمكارم
لقد كـان إخـراجُ الـفـرزدق عـنـكـم ... طهُوراً لما بين المُصَلَّى وواقِمِ[1]

فكيف يلاحق الفرزدق النساء؟ وقد نهى الإسلام عن ذلك: ﴿وإذا سالتموهن متَاعاً فاسالوهن من وراءِ حجابٍ﴾[2]. «وإياكم والدخول على النساء «و» لا يخلونّ أحدكم بامرأة إلا مع ذي محرم»[3].

لم يعر الفرزدق هذا الكلام أي اهتمام وتراه يجري وراء شهواته لم يردعه شيبه، بقوله:

وتقولُ: كيف يميل مثلُك للصِّبا ... وعـلـيـك مـن سِـمَـةِ الـكـبـيـر عِـذارُ
والـشـيـبُ يـنـهـض في الـشـبـابِ كـأنـه ... لـيـلٌ يـصـيـحُ بـجـانـبـيـه نـهـارُ[4]

هذا عن فجوره وعهره، أما عن فسقه واستهتاره وجريه وراء الخمرة يشربها صرفاً، مستهيناً بما جاء في القرآن عن رجاستها[5]، فقد نستدل على ذلك بما رواه «ابن قتيبة، حيث مر الفرزدق بيحيى بن الحضين الرقاشي، فقال له: يا أبا فراس هل لك في جدي سمين، ونبيذ زبيب جيد؟ فانطلق به يحيى وبابن عم له فأكلوا، ثم دعا بالشراب، فقال الفرزدق: اسقني صرفاً يا غلام» ثم قال:

---

(1) الصاوي: ديوان جرير: ص560. اللهازم: خالط الشيب خديه.
(2) قرآن كريم: الأحزاب، آية 13.
(3) صبحي الصالح: منهل الواردين ص895. حديث رقم 1626 ـ 1627.
(4) الديوان، ص90 سايمز (المستشرف جيمس د) مكتبة الثقافة العربية. بغداد.
(5) قرآن كريم 2/ 219 و 5/ 90 ـ 91.

اسقني خمساً وخمساً وثلاثاً واثنتين
من عُقارٍ كدمِ الجو فِ يُحِرُّ الكُلْيتين
واسقِ هذين ثلاثين يَروحا مَرِحَيْنِ[1]

ونستدل على معاقرته للخمرة، وانكبابه عليها ـ حتى اتهامه بالزندقة واتباعه دين المجوس ـ من نقائض جرير، حيث نجده يرمي الفرزدق من هذا الجانب، ويرمي قومه معه، من مثل قوله:

إن المواجنَ من بناتِ مُجاشِعٍ مأوى اللُّصوصِ ومَلْعَبُ العُهَّارِ
إنَّ البعيثَ وعبد[3] آل مُقاعِسٍ لا يقرآن بسورةِ الأحبارِ
وتَبيتُ تشربُ عند كُلِّ مُقَصَّصٍ خَضِلِ الأناملِ واكفِ المِعْصارِ
لا تفخرنَّ فإنَّ دينَ مُجاشِعٍ دينُ المجُوسِ تطوفُ حَوْلَ دُوَارِ[2]

وإذا ما صح زعم جرير فإن الفرزدق وصاحبه البعيث لا يحفظان القرآن، ولا يسيران على السراط المستقيم، ونراه يصور فسق الفرزدق وملازمته لبيوت الخمارين من أهل الذمة، وادعائه أن دين مجاشع كلها دين المجوس، وإن غالى كثيراً في هذا الادعاء ... ولكن! مهما يكن الأمر فإن الفرزدق شرب الخمرة ولم يتق الله، عارضاً عما فرضته عليه الشريعة. جاء في الأغاني: أن الأخطل قال له عندما تعارفا: «أنتم معشر الحنيفية لا ترون أن تشربوا من شرابنا، فقال له الفرزدق: خفِّض قليلاً وهات من شرابك، فاسقنا، وأخذا في شرابهما وتناشدهما حتى عملت الراح في أبي فراس»[4].

إذن شرب الفرزدق الخمرة حتى الثمالة، ولاحق النساء حتى الدعارة، أنشد سليمان بن عبد الملك:

---

(1) ابن قتيبة: الشعر والشعراء 1/ 385.

(2) الصاوي: ديوان جرير: ص319 ـ 320 المقصص. الذمي الذي جزّت ناصيته.

(3) يقصد الفرزدق.

(4) الأصفهاني: الأغاني 7/ 187.

ثلاثٌ واثنتان فهنَّ خمسٌ   وسادسةٌ تميلُ إلى شِمامي
فبتْنَ جَنَابَتَيَّ مُطرَّحاتٍ   وبتُّ أفضُّ أغلاقَ الخِتَام
كأنَّ مفالِقَ الرُمَّانِ فيه   وجمرَ غضاً قَعَدْنَ عليه حامِ[1]

فقال له سليمان: أقررت عندي على نفسك بالزنا، وأنا إمام، فلا بد لي من إقامة الحد عليك نزولاً عند قوله عز وجل: «الزانية والزاني فاجلدوا كلّ واحدٍ منهما مائة جلدة»[2]. قال الفرزدق: لكن كتاب الله يدرؤه عني[3]، وهكذا فإن لم يكن الفرزدق قد تزندق فعلاً، فقد فعلها قولاً هجا فأفحش، وأسف في هجائه لجرير ورهطه، في مثل قوله، لجرير:

ابنَ المراغةِ كيف تطلب دارماً   وأبوك بين حمارةٍ وحمارِ

ولقوم جرير:

مثلُ الكلابِ تبولُ فوقَ أنوفِها   يَلْحَسْن قاطرَهُن بالأسحارِ[4]

ولجرير أيضاً:

تصاغرتَ يا ابن الكلب لما رايتني   مع الشمس في صعبٍ عزيزٍ معاقلُه
تركناجريراً وهو في السوق حابسٌ   عطيّةَ، هل يلقى به من يبادلُه
فقالوا له: ردَّ الحمارَ، فإنّه   أبوك، لئيمٌ رأسُه وجحافلُه[5]

وبهذه الألفاظ والنعوت قذف الفرزدق خصومه، وإن كانوا مسلمين[6] وحطّ بهم إلى درجة الحيوان، يبقى هو ونسبه في مرتبة الإنسان العليا، إنه يقول:

(1) ابن قتيبة: الشعر والشعراء 1/ 389.
(2) القرآن الكريم: سورة النور آية 2.
(3) والشعراء يتبعهم الغاوون. ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، سورة الشعراء آية 224.
(4) ديوان الفرزدق: ص77 ـ 78.
(5) المصدر السابق: ص186.
(6) إن سب المسلم من المسلم حرام. انظر البحث ص 238 ـ 240.

بأيِّ أبٍ يا ابنَ المراغةِ تبتغي   رهاني إلى غاياتِ عمّي وخاليا[1]

وقد تعالى الفرزدق بفخره على الناس أجمعين، وساوى بين قومه وبين بيتي عبد شمس وهاشم، عندما قال:

وهل في معدٍّ من كفاءٍ نعدّه   لنا غير بيتي عبد شمس وهاشم
ألسنا أحقَّ الناس حين تقايسوا   إلى المجد بالمستأثرات الجسايمِ[2]

ولكن الأمر الأهم من كل ما قدمنا، هو اعتراف الفرزدق وإقراره بغوايته وضلاله. ففي غوايته يقول:

فهل يُرجعن الله نفساً تشعَّبتْ   على أثر الغاوين كلَّ مكان
فأصبحت لا أدري أأتبعُ ظاعناً،   أمِ الشوقُ منّي للمقيمِ دعاني[3]

ويقول أيضاً:

ثلاثين عاماً ما أرى من عمايةٍ،   إذا برقت، إلا شددت لها رحلي[4]

أما ضلاله وكفره، فنراه في الحديث الذي جرى معه وهو على فراش الموت، إذ قيل له وهو يفارق: أذكر الله، فسكت طويلاً ثم قال:

أرَوْني من يقوم لكم مقامي   إذا ما الأمرُ جُلَّ عن الخطابِ
إلى من تفزعون إذا حَثوْتُم   بأيديكم عليَّ من التُّرابِ

فأجابته مولاة له، نفزع إلى الله، فقال أخرجوا هذه من الوصية[5]، فإذا ما صحّت هذه الرواية، يكون الفرزدق ضالاً، يموت على الكفر، بعد أن عاش زنديقاً، إن لم يكن كل حياته فعلى الأرجح أكثرها.

ومما يثبت، أن الفرزدق عاش أكثر حياته زنديقاً، قصيدته الطويلة التي يعاهد فيها الله بأن لا يسبّ مسلماً ما عاش، بعد أن حبس نفسه وقيد

---

(1) الفرزدق: الديوان. ص292. وهنا يفخر على جرير. وفخره كثير في ديوانه، وهذا أيضاً منهي عنه في الإسلام.
(2) المصدر السابق: ص232.
(3) المصدر السابق: ص275.
(4) المصدر السابق. ص191.
(5) الأصفهاني: الأغاني 19/ 44. وابن قتيبة: الشعر والشعراء 1/ 386.

رجليه وعاهد الله أن لا يفكهما حتى يحفظ القرآن[1]، وهو يعترف صراحة بقذف المحصنات بسوء الكلام، ويعترف بترك الله والزيغ عن طريقه، واتباعه لوساوس الشيطان زهاء سبعين سنة، لا يتركه عدو الإنسان اللدود. فتارة يكون وراءه وطوراً أمامه، وكم مناه بالعيش الرغد الهنيء وعدم الموت ... إن الشيطان الذي أخرج آدم وحواء من جنتهما، وزين لهما مخالفة الخالق، هو نفسه قد تفل في فمي، وقادني إلى سبّ الناس وشتم الأعراض ... يقول:

ألم ترني عاهدت ربّي، وإنني ... لبين رتاج قائم ومقام[2]

على قسم لا أشتمُ الدهرَ مُسلماً، ... ولا خارجاً من فيَّ سوءُ كلامِ

بتوبة عبدٍ قد أناب فؤاده، ... وما كان يُعطي الناسَ غير ظلامِ

اطعتك يا إبليس سبعين حجةً، ... فلما انتهى شيبي، وتم تمامي

فررت إلى ربِّي، وأيقنت أنني ... ملاقٍ لأيام المنونِ حمامي

ألا طال ما قد بتُّ يوضع ناقتي ... أبو الجنِّ إبليس بغير خطام

يظلُّ يُمنّيني على الرحل واركاً، ... يكون ورائي مرَّة وأمامي

يبشّرني أن لن أموت، وأنّه ... سيخلدني في جنّة وسلامِ

وإن ابن إبليس وإبليس ألْبَنَا ... لهم بعذاب الناس كلّ غلامَ

هما تفلا في فيَّ من فَمَوَيْهما، ... على النابح العاوي أشدُّ رجام[3]

فهذا الشاعر الزنديق، وقد رأينا من سلوكه ما رأينا، يزني بالنساء ولا تشبع غريزته وميوله الحيوانية، ويصف مطارحتهن الغرام بشعر إباحي[4]، نعف عن ذكره لسفاهته وبذائته، ينسل إلى حجلاتهن[5]، دونما رادع أخلاقي أو ديني، يشرب النبيذ المُسَعْبَرْ، ويشتهي الغناء الذي يفتق

---

(1) الأصفهاني: الأغاني 19/ 2 وما بعد. والشريف المرتضى: الأمالي 1/ 63.

(2) يشير إلى حبس نفسه ليحفظ القرآن.

(3) الديوان: ص259 ـ 261.

(4) الأصفهاني: الأغاني 19/ 19.

(5) حجلة: مخدع. المصدر 19/ 34.

السمع[1]، ومن الجانب الآخر نراه شيعي الهوى، يميل إلى بني هاشم[2]، يجاهر بعقيدته ومذهبه، حين حج (علي بن الحسين) واستجهر الناس جماله، وجعلوا يقولون: من هذا؟ وكان هشام بن عبد الملك موجوداً، فقال الفرزدق:

هذا الذي تعرف البطحاءُ وطأتَه   والبيت يعرفه والحِلُّ والحَرَمُ
هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلهمُ ،   هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العلَمُ
مشتقّةٌ من رسول الله نَبعتُهُ،   طابت مغارسُه والخيمُ والشيَمُ
من معشرَ حبُّهم دينٌ، وبُغضُهم   كفرٌ، وقُربُهُمُ منجى ومُعتَصَمُ[3]

وقد نال هذا الشاعر جزاء مجاهرته بحب (آل البيت)، من هشام الذي كان يحج بالناس زمن أبيه عبد الملك، الغضب والحبس، فلم يسكت ولم يتورع ويتعظ، بل تراه أطلق لسانه في هجاء الأمير، ابن الخليفة:

أتَحبِسُني بين المدينة والتي   إليها قلوبُ الناسِ يَهْوِي منيبُها
يُقلِّب رأساً لم يكن رأسَ سيّدٍ   وعيناً له حولاءَ، بادٍ عيوبُها[4]

إن هذا الشاعر الزنديق، الذي يترنّح مع الريح، تارة يحب آل البيت ويهجو بني أمية ـ بشخص هشام ـ، وطوراً يعود ليمدحهم ـ بشخص الوليد بن عبد الملك ـ، وربما كان ذلك للتكسب وهو الأغلب، أو ربما كان لتعصبه ـ اللاديني والزندقي ـ للإسلام ضدّ المسيحية. يقول مادحاً الوليد مشيداً بعمله العظيم ـ استيلائه على ما تبقى من كنيسة القديس يوحنا المعمدان[5]، في ضم الكنيسة إلى المسجد، وذاماً النصارى مشهراً بإيمانهم، ناعتاً إياهم بأهل الصليب وعبّاد الصنم:

أما الوليدُ، فإن اللهَ أورثَه   بعلمه فيه مُلكاً ثابتَ الدعمِ

---

(1) المصدر 19/ 36 والمسعبر: الكثير.
(2) المرتضى: الأمالي 1/ 66. أنظر حكايته مع الشاعر الكميت.
(3) المصدر: 1/ 67. والأصفهاني: الأغاني 19/ 41. والديان 205.
(4) الأصفهاني: الأغاني 19/ 41 المرتضى: الأمالي 1/ 69 والديوان ص207.
(5) الجامع الأموي اليوم.

فرّقت بينَ النصارى في كنائسهم، والعابدين مع الأسحار والعتمِ
وهم معاً في مُصلاّهم وأوجههم شتّى، إذا سجدوا لله والصنمِ
وكيف يجتمع الناقوسُ يضربُ به أهلُ الصليب مع القرّاء لم تنمِ[1]

وكأنه لم يسمع كلام القرآن: «يا أيها الذين آمنوا ... لا تعتدوا إن الله لا يحبّ المعتدين» وأيضاً: «... ولتجدنّ أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنّا نصارى ذلك بأنّ منهم قِسّيسين ورُهباناً وأنّهم لا يستكبرون»[2].

وخلاصة القول في الفرزدق أنه أكثر الثلاثة زندقة، عاش ومات فيها.

10 ـ الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان: (88 ـ 126هـ / 707 ـ 744م)

أحد خلفاء بني أمية، (وأحد ملوكهم)[3]، كان شجاعاً جواداً، ولكنه انغمس في الملذات، وانهمك في اللهو وسماع الغناء، حتى ضلّ وألحد وتزندق[4]، وبلغ من مجونه وإلحاده، أنه أراد أن يبني على الكعبة بيتاً يجلس فيه للهو، ووجه مهندساً لهذه الغاية[5]، ومع أنه كان أميراً من العائلة المالكة ومن ثم (خليفة) على رأس الهرم، وبيده مفتاح الحلّ والربط، فقد أطرح الدين جانباً غير محتشم في القول والفعل، وغير وجل من عين مراقب. فتراه ينادي بالإباحية المطلقة التي لم يصل إليها مزدك الزنديق الكبير، فيتغاضى عن النساء ليصل إلى الرجال، في مثل قوله:

اسقياني وابن حَرْبٍ واستُرانا بإزارِ
واتركا من طَلَبَ الجنّـ ـةَ يَسعى في خَسَارِ
سأسوسُ الناسَ حتى يركبوا دينَ الحمارِ[6]

(1) الديوان: ص268.
(2) قرآن كريم: 5/ 78و5/ 82.
(3) الزركلي: الأعلام 8/ 123.
(4) الشريف المرتضى: الأمالي 1/ 128 وما بعد.
(5) اليعقوبي: تاريخ: دار صادر المجلد الثاني. ص333.
(6) المرتضى: الأمالي: 1/ 129 ويركبوا دين الحمار: أي ينزو بعضهم على بعض كما تتنازى الحمير.

شكك بما جاء في القرآن عن يوم الحشر والحساب، ووصل به الجبروت إلى تمزيقه ورميه بالسهام والنبل، إنه يقول:

تُذكّرني الحسابَ ولستُ أدري أحقّاً ما تقولُ مِنَ الحسابِ
فقُلْ لله يَمنعُني طعامي وقلْ لله يمنعُني شرابي

وعندما فتح المصحف ذات يوم، ورأى فيه: «واستفتحوا وخاب كلّ جبّارٍ عنيدٍ»[1]. رماه بالنبل حتى مزقه، وهو يقول:

أتُوعدُ كلَّ جبَّارٍ عنيدٍ فها أنا ذاك جبَّارٌ عنيدُ
فإن لاقيتَ ربَّك يومَ حَشْرٍ فقلْ يا ربِّ خرَّقني الوَليدُ[2]

فهل هناك كفر أكثر من ذلك؟ يجاهر به خليفة المسلمين وأمير المؤمنين. ألا يؤمن المسلم أن القرآن الكريم هو كتاب مُنْزَل ووحي من رب العالمين؟[3]. لا شكّ في ذلك .، ولكن الوليد وقد كشف قناع التزندق إلى أبعد الحدود. يبغي لذة الحياة الدنيا، ولا يهمه ما يأتي في الآخرة، زد على ذلك أنه يسأل الله غير هياب أن يكون وقوداً لنار جهنم، مقابل قبلة من فتاة نصرانية. فلنسمعه يقول:

ما زلتُ أرمُقها بعَيْنَيْ وامِقٍ حتى بَصُرْتُ بها تُقَبِّلُ عُودا
عودَ الصليبِ، فَوَيْحَ نفسي من رأى منكم صليباً مثلَه مَعبودا!
فسألت ربِّي أن أكونَ مكانَه وأكونَ في لَهَبِ الجحيمِ وَقُودا[4]

فهذا الذي استخف بالدين، وهتك حرمته ـ بتمزيقه القرآن ـ ألا يكون زنديقاً؟ كيف لا؟ والوليد تربى وتأدب على يد عبد الصمد بن عبد الأعلى الذي رمي بالزندقة[5]، وإذا ماصحّ قول العلاء البندار فإنه كان ثنوياً أيضاً،

---

(1) سورة إبراهيم، آية 15.
(2) المرتضى: الأمالي: 1/ 130.
(3) القرآن الكريم: سورة البقرة، آية 4 تدل على ذلك.
(4) المرتضى: الأمالي 1/ 131. الهامش.
(5) الأصفهاني: الأغاني 6/ 102.

آمن بماني نافياً نبوة كل الأنبياء قبله وبعده[1]، مع أننا نشك بهذا القول، لأن هناك هوّة كبيرة بين فساد الوليد وإباحيته وبين زهد ماني ودعوته إلى تحريم القتل والزنا ...[2]، ربما كان الوليد، ـ نظراً لتصرفاته ـ أقرب إلى المزدكية[3]، من المانوية.

لم يتورع هذا الخليفة عن لَهْجِهِ بالغناء وطَرَبِهِ الشديد له، حتى إتيانه بأقبح الأفعال[4]، حيث أمر ذات يوم، جارية له، ـ بعدما واقعها وهو سكران ـ أن تخرج وتصلي بالناس[5].

لم يتعظ الوليد وهو رأس الهرم في دولة بني أمية ـ وينهض بما يمليه عليه شرع دينه، بل تراه ينساق وراء شهواته ولذائذه، فينتهك المحرمات فيشرب الخمور حتى الثمالة، وينكح أزواج أبيه، ويستخف بأمر الله[6].

وهو لا يرى صلاحه في الدنيا ورشاده إلا في الخمرة، يقول:

ليت حظّي اليومَ من كلِّ ... معاشٍ لي وزادِ
قهوةٌ أبذُلُ فيها ... طارفي ثم تلادي
فيظلُّ القلبُ منها ... هائماً في كل واد
إن في ذاك صلاحي ... وفلاحي ورشادي[7]

ويريدها خمرة معتّقة، ولم لا؟ وهو مؤمن بعدم دخوله النار ،ربما، لأنه موقن بالفناء ولا يؤمن بالحشر، وما دام الأمر كذلك، فلم لا يعاقرها

(1) المصدر السابق 6/ 135.
(2) الشهرستاني: ملل ونحل: 2/ 81 ـ 85.
(3) التي تدعو إلى الإباحة في المال والنساء. المصدر السابق 2/ 86 وما بعد.
(4) الأصفهاني: الأغاني 6/ 124. وقد كشف عن عورته، وأمر أشعب المغني أن يسجد لها.
(5) المصدر السابق.
(6) المصدر السابق 6/ 139.
(7) المصدر 6/ 134.

كل الناس ويزنون لا بالنساء وحسب، بل بالرجال أيضاً[1]، تاركاً طالبي الجنة يسعون للهلاك حتماً، يقول:

أدرِ الكأسَ يميناً لا تدرها باليسار
اسق هذا ثم هذا صاحب العود النضار
من كميت عتقوها منذ دهر في جرار
ختموها بالأفاويه وكافور وقار
فلقد أيقنت أني غير مبعوثٍ لنار
ساروض الناس حتى يركبوا (...) الحمارِ
وذروا من يطلب الجنّة يسعى لتَبَار[2]

شرب الخمرة صرفاً، لما أتاه نعي أمير المؤمنين، هشام، وطرب لغناء قينة ثم لها بها. يقول:

طاب يومي ولذ شرب السلافة إذ أتاني نعيُ من بالرصافة
فاصطبحنا من خمر عانة صرفاً ولهونا بقينةٍ عزَّافة[3]

وما اكتفى هذا (الخليع) بإقامة ليلة حمراء، فرحاً بموت الخليفة، بل تراه يتهكم على بناته، ويدعو نفسه بالمخنث إن لم يواقعهن. يقول:

إنّي سمعت بليلٍ ورا المصلّى برَنّه
إذا بنات هشام يندبن والدَهن
أنا المخنَّث حقّاً إن لم (............)[4]

لا عجب في ذلك، وقد شهد هو بنفسه على عهره وفجوره وفسقه، حيث قال:

---

(1) المصدر 6/ 124. تكلم بعض جلسائه، والمغنية تغني، فكره ذلك، فقال لبعض جلسائه: قم (فلط) به، ففعل أمام الناس.

(2) المصدر 6/ 123 وفي السطر القبل الأخير مكان (...) كلمة سفيهة نعف عن ذكرها. وتبار: الهلاك.

(3) المصدر 6/ 109.

(4) المصدر السابق. ومكان النقط كلمة بذيئة.

أشـهـد الله والـمـلائـكـة الأبـ رارَ والـعـابـديـن أهـلَ الـصـلاحِ
أنـي اشـتـهـي الـسـمـاع وشربَ الْـ كَأسِ والـعـضَّ لـلـخـدود الـمـلاحِ
والـنـديـمَ الـكـريـمَ والـخـادمَ الـفـارِ هَ يـسـعـى عـلـيَّ بـالأقـداحِ[1]

فمن كانت هذه صفاته، وقد أفضنا في التمثيل عن ذلك لا يعقل إلا أن يكون زنديق دين، وزنديق فكر، وزنديقاً اجتماعياً كبيراً، وربما كان لحياة الترف والدلال أثر كبير في سلوكه. فيزيد أبوه اشتهر بحبه لمباهج عصره، ولم تكن المباهج حينئذ سوى الخمر والغناء والثياب الحريرية والنساء. وصفه أبو حمزة الخارجي بـ «أنه يشرب الخمر، ويلبس الحلة قومت بألف دينار ... حبابة عن يمينه، وسلامة عن يساره، تغنيانه»[2]. فبين هذه المعازف، وحياة الدلّ، المشحونة باللهو والخمر والقيان، وبين يدي مؤدب زنديق، شبّ الوليد، لاهياً، ماجناً، خليعاً، تحيط به بطانة من المغنيين والجواري والفتيان، وتحول قصره ـ قصر الخلافة ـ إلى مقصف للخمر والعزف والغناء، وجعل اللذة الحسية مذهباً له[3]، يمارسها في القصر وخارجه، يزور الأديرة والحانات في بطانة له، فيشرب ويرتوي ثم يقول:

حـبّـذا لـيـلـتـي بـدَيْـرِ يَـوَنّـا حـيـثُ نُـسقـى شـرابَـنـا ونُـغَـنَّـى
كـيـفـمـا دارتِ الـزجـاجـةُ دُرْنـا يُـحـسـبُ الـجـاهـلـون أنَّـا جُـنِـنَّـا
وجَـعَـلْـنـا خـلـيـفـةَ اللهِ فُـطـرو سَ مـجـونـاً والـمـسـتـشـارَ يُـحـنَّـا[4]

ولعل زيارة هذا الدير وغيره من الأديرة، كان لها بعض الانطباعات في نفس هذا الشاب الأديب الغني المترف، فهو يمجن ويفكر في حقيقة الأديان.

---

(1) المصدر عينه 6/ 112.
(2) الجاحظ: البيان والتبيين: ص276. الشركة اللبنانية
(3) شوقي ضيف: التطور والتجديد: ص297.
(4) المصدر السابق ص 304. عن ديوانه ص56.

ولعل اختلاطه بغير المسلمين، وبمؤدبه، ألحق به بعض الشك، فالرصافة كانت تمور بأجناس كثيرة من البشر، لكل منها حضارتها وثقافتها، ودمشق كانت تتأثر بالثقافة اليونانية عن طريق المسيحيين أمثال يوحنا الدمشقي[1]، فكان هذا وما يضارعه، يترك بعض الظل في نفس الوليد الميالة بحد ذاتها، إلى الدعابة والمجون، وربما إلى شيء من الإلحاد، وقد ردّ على الخليفة هشام ـ وهو لا يزال أميراً ـ عندما قال له: «ويحك يا وليد! والله ما أدري أعلى الإسلام أنت أم لا! ما تدع شيئاً من المنكر إلا أتيته» فكتب إليه الوليد[2]:

يـا أيُّـهـا الـسـائـلُ عـن ديـنِـنـا   نـحـن عـلـى ديـن أبـي شـاكـرِ
نـشـربُـهـا صِـرْفـاً ومـمـزوجـةً   بـالـسُّـخـنِ أحـيـانـاً وبـالـفـاتـرِ[3]

فمثل هذا الشعر، وما سبق أن تمثلنا به، يعطي شيئاً من نزعة الشك في عقل الوليد، وهو صدى التحوّل في العقلية العربية، وما أصابها تحت تأثير البحث في العقائد والآراء ...

لعل المساوئ التي ذكرها يزيد بن الوليد في كتابه إلى أهل العراق، بعد مقتل الوليد، وإلصاقها به، تلقي بعض الأضواء على عقيدة الوليد، يقول يزيد: «ثم أفضى الأمر إلى عدو الله الوليد، المنتهك للمحارم التي لا يأتي مثلها مسلم، ولا يقدم عليها كافر، مع أمور فاحشة ،... وإن عدو الله لم يكن يرى من شرائع الإسلام شيئاً إلا أراد تبديله، والعمل فيه بغير ما أنزل الله ...»[4].

ولعلنا نستشف بعض مذهب الوليد من خطبة يزيد، خليفته وقاتله،

---

(1) شوقي ضيف: التطور والتجديد: ص304.
(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك: 7/ 210 دار سويدان.
(3) المصدر السابق. وأبي شاكر: كنية مسلمة بن هشام المرشح للخلافة بعد أبيه.
(4) المصدر السابق. 7/ 276.

وابن عمه، وذلك عندما قام خطيباً بعد مقتل الوليد: «أيّها الناس ... إني خرجت غضباً لله ودينه، لما هدمت معالم الهدى، وأطفئ نور التقوى، وظهر الجبار العنيد المستحل لكل حرمة، والراكب لكل بدعة، مع أنه والله ما كان يؤمن بيوم الحساب، ولا يصدق بالثواب والعقاب ...»[1].

ربما استحل الوليد المحرمات[2]، وعربد، وفجر، ولها، لكن اتهامه من خصومه، مسألة فيها نظر، لأن الحسد والبغض والتناطح على السلطة يفضي بالإنسان لإلصاق أشنع وأبغض التهم بخصمه.

ومع كل هذه التهم فإن للوليد قلب المحب الولهان، يصدر عنه شعر في المحبوبة يلج المسامع، ولوج الموسيقى العذبة الرنانة، التي يعشقها ذوو الأحاسيس الرقيقة، فمعشوقته «سلمى»[3] تستحق أن تكون إماماً، وأن يسجد لها ويحج، وليس في ذلك حرج، أوليست قمراً؟ وهو القائل فيها:

شاعَ شِعْري في سُليمى وظَهَرْ ... ورواه كُلُّ بَدْوٍ وحَضَرْ
وتهادَتْه الغواني بينها ... وتغنَّيْنَ به حتى انتشر
لو رأينا من سُليمى أثراً ... لَسجدنا ألفَ ألفٍ للأثر
واتخذناها إماماً مُرتضى ... ولكانت حجَّنا والمُعْتمر
إنما بنتُ سعيدٍ قمرٌ ... هل حَرِجْنا إن سَجَدْنا لِلْقمر[4]

فمثل هذه المقطوعة الرشيقة وغيرها، التي تختص بالعشق والهيام أحياناً، وبالخمر وسقاتها ووصف آلاتها أحياناً أخرى، ظهر إبداع الوليد في الشعر العربي. وربما كان الوليد رائد هذا الفن المتخصص القائم بذاته

---

(1) الجاحظ: البيان والتبيين: ص284.

(2) ابن قتيبة: عيون الأخبار 2/ 42 دار الكتاب العربي ـ بيروت. وقد قال سليمان أخوه: **«لعن الله الوليد أخي فإنه كان فاجراً، والله لقد أرادني على أن يفعل بي»**.

(3) هي أخت زوجته سعدى: بنت سعيد بن عمرو بن عثمان بن عفان. ابن عبد ربه: العقد الفريد 4/ 452.

(4) المصدر السابق 4/ 454.

على موضوع واحد في القصيدة الواحدة. وهو الذي أثّر من خلال فن الخمريات، فيمن جاءوا بعده وبخاصة أبي نواس[1]، وسنعرض للوليد وخمرياته في الفصل الأخير من هذا الباب، عندما نتكلم عن النصوص المختارة لشعراء زنادقة.

وخلاصة الكلام عن الوليد بن يزيد، الذي أبدع في تشبيه بنت سعيد بالقمر والذي لا يتحرج من السجود للقمر. أن هذا الخليفة ماجن حتى الزندقة، تأثر ببيئته المترفة، وبعائلته الحاكمة، ومحيطه المثقف، تسري في عروقه دماء الجاهلية ـ وهو غير بعيد عنها ـ التي تعبدت للأوثان ومنها القمر الذي ظل له أثر بالغ في حياة الناس بعد الإسلام، من حيث الإمساك والإفطار في رمضان. وتعيين العيد، كما يكتسب من الثقافات والحضارات الأجنبية المتواجدة في حاضرة مملكته فينكب على لذته التي يعتبرها مثله الأعلى والأوحد في حياته، ويموت وهو وراء هذه اللذة التي استحوذت عليه مشاعره وأنسته نذير الآخرة، فمات زنديقاً.

11 ـ عبد الله بن معاوية: (129هـ / 746م)[2]

عربي قريشي، كسابقه الوليد بن يزيد، لكنه من النبعة الطالبية الهاشمية، كان جواداً شاعراً، طلب الخلافة بالكوفة عام (127هـ)، في أواخر دولة بني أمية، واستفحل أمره في العراق وفارس ... أسر وقتل على يدي أبي مسلم الخراساني[3].

لم يكن عبد الله بن معاوية، بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، محمود المذهب في دينه، ورمي بالزندقة، وكثيراً ما استغل بسببها، لأنها كانت نقطة ضعفه[4].

---

(1) أنظر الأصفهاني: الأغاني 6/ 102. وما بعد المقطوعات الرشيقة في الخمر .

(2) الزركلي: الأعلام: 4/ 129.

(3) المصدر السابق والطبري: تاريخ الأمم والملوك 7/ 302 ـ 309. دار سويدان.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 11/ 72.

استكتب (عمارة بن حمزة) الزنديق، ونادم مطيع بن إياس[1] ـ وكان زنديقاً مشهوراً ـ والبقليّ[2]، وأقام على شرطته قيساً وكان دهرياً لا يؤمن بالله معروفاً بذلك. دخل قيس هذا يوماً، على ابن معاوية، فلما رآه قال ابن معاوية وكان معه نديمه مطيع بن إياس:

إن قيساً وإن تقنَّع شيباً لخَبيثُ الهوى على شمطه
ابن تسعين منظراً ومشيباً وابن عشر يُعدُّ في سقطه

ثم نظر إلى نديمه مطيع، وقال قل أنت، فقال:

وله شرطة إذا جنه الليـ ـلُ فعوذوا بالله من شرطه[3]

وحيث يعترف ابن معاوية بأن رئيس شرطه خبيث الهوى، فكيف يأمن له ويجعله رئيس حرسه إن لم يكن فيه نفس المعتقد.

ادعى ابن معاوية، بأنه يوحى له، وشهد بذلك رجل بحضرته، غضب عليه من قبله وضرب بالسياط، فناداه: «يا زنديق أنت الذي تزعم أنه يوحى إليك»[4].

عاشر قريباً له، وصادقه وآخاه، وهذا الصديق القريب هو الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب، وقال الناس فيهما: إنما تصافيا على الزندقة، ولكن الودّ لا يدوم، فتهاجرا، فقال ابن معاوية:

وإن حُسَيْناً كان شيئاً ملففاً فمحصه التكشيف حتى بدا لِيا
وعين الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ولكن عينَ السخط تُبدي المساويا
وأنت أخي ما لم تكن ليَ حاجة فإن عَرَضَت أيْقَنْتُ أن لا أخاليا[5]

---

(1) سنتحدث عنه في الفصل التالي، عندما نذكر زنادقة العصر العباسي.

(2) سمي بذلك، لانه كان يقول الإنسان كالبقلة، فإذا مات لم يرجع.

(3) المصدر السابق: 11/ 75.

(4) المصدر عينه.

(5) المصدر السابق 11/ 76.

وهكذا نرى أن ابن معاوية، قد تزندق، لأن ندماءه وأهل بطانته اتهموا في دينهم. ومن هنا فربما كانت زندقته زندقة دينية، وهي أخطر أنواع الزندقة.

12 ـ الأحوص (عبد الله بن محمد) (105هـ / 723م):[1]

شاعر من سكان المدينة، جدُ أبيه (عاصم بن ثابت) من الأنصار، وهو حميّ الدبر[2].

شاعر هجاء، صافي الديباجة، معاصر لجرير والفرزدق والأخطل، رمي بالأبنة وسوء المعتقد والزنا.

جلده سليمان بن عبد الملك لأنه قال: «إذا أخذت صريري لم أبال أي الثلاثة لقيت، ناكحاً أو منكوحاً أو زانياً»[3].

وفد على الوليد بن عبد الملك ليمدحه، فكان يراود الخبازين في القصر على أنفسهم، ويريدهم أن (يلوطوا به)، فأرسله الوليد إلى عامله بالمدينة وأمره أن يجلده مائة سوط، ويصب على رأسه زيتاً، ويقيمه على البلس، فيصرخ قائلاً:

ما من مُصيبةِ نكبةٍ أمنَى بها — إلا تُشرِّفُني وتُعظِمُ شاني
إني إذا خَفِيَ اللئامُ وجدتَني — كالشمسِ لا تَخفى بكُلِّ مكانِ[4]

إن مثل هذا الزنديق المأبون، لا يهاب صولة الحاكم وقصاصه، ويعتبر القصاص على فجوره، شرفاً وتعظيماً.

تخنث[5]، ولاحق المغنيات يطارحهن العشق والهوى، ضافياً على

---

(1) الزركلي: الأعلام: 4/ 116.
(2) الأصفهاني: الأغاني 4/ 41. والدبر: النحل والزنابير التي حمت جثته كي لا يمثل بها.
(3) المصدر السابق: 4/ 43.
(4) المصدر السابق: 4/ 44. وابن قتيبة: الشعر والشعراء: 1/ 426.
(5) المصدر السابق: 4/ 52. شهد بذلك عبد الملك بن مروان.

من لا يفعل ذلك صفة الصخر الذي لا يشعر ولا يحس. إنه يقول:

إذا أنت لم تعشَقْ ولم تدرِ ما الهوى فكن حَجَراً من يابسِ الصَّخر جَلَمدا[1]

فمن كانت الحياة في رأيه عشقاً وهوىً، وقد تحول إلى كل مغنية في مدينته يحاول أن يشرب معها كأس الحب مترعة، ألا نسميه زنديقاً؟ لقد هام بحبابة وسلامة اللتين اشتراهما فيما بعد، يزيد بن عبد الملك، كما عشق عقيلة والذلفاء التي لا يخشى في حبها عذل عاذل، حبها داء في القلب، وهي أحسن بني البشر. يقول فيها:

إنما الذَّلْفَاءُ هَمِّي فَلْيَدَعْني من يَلُومُ
أحسنُ الناسِ جميعاً حين تمشي وتقومُ
حُبُّها في القلبِ داءٌ مستكنٌّ لا يَرِيمُ[2]

نفاه عمر بن عبد العزيز إلى قرية بحرية في اليمن، ولما كلمه فيه بعض الأنصار ـ لمكانة جد أبيه ـ قال عمر: من القائل:

أدورُ ولولا أن أرى أم جَعفرٍ بأبياتكم ما درتُ حيث أدورُ

قالوا: الأحوص، قال فمن الذي يقول:

ستُبلى لكم في مُضمَرِ القلبِ والحشا سريرةُ حُبٍّ يوم تُبلى السرائرُ

قالوا: الأحوص، قال فمن القائل:

اللهُ بيني وبينَ قيمِّها يفرُّ مني بها واتَّبِعُ

قالوا الأحوص. قال عمر: لا رددتُه إلى المدينة ما كان لي سلطان[3].

فالذي يغضب عليه عمر بن عبد العزيز، ـ وهو خامس الخلفاء

(1) المصدر السابق: 13/ 151. طبعة الساسي.
(2) المصدر السابق: 8/ 200 طبعة دار الكتب.
(3) ابن قتيبة: الشعر والشعراء. 1/ 424 ـ 425.

الراشدين الأربعة - ألا يكون فاسقاً زنديقاً؟ لعله هكذا! وهو الذي يرى أن الحياة هي ما تلذ وتشتهي، وهو ليس وحيداً في هذا المضمار. لكنه يجهر بعقيدته، يقول ويفعل وغيره يفعل ويستتر. أوليس هو القائل؟

وما العيشُ إلا ما تلذُّ وتشتهي ... وإن لام فيه ذو الشّنانِ وفنَّدا
بكيت الصبا جهداً فمن شاء لامَني ... ومن شاء واسى في البكاءِ واسعدا
وإني وإن عُيِّرتُ في طلب الصِبا ... لأعلم أنِّي لست في الحبِّ أو حدا[1]

أوليس هو القائل أيضاً؟

وإني لأهواها وأهوى لقاءَها ... كما يشتهي الصادي الشرابَ المبَّردا
علاقةَ حُبٍّ لجَّ في سَنَنِ الصِّبا ... فأبلى وما يزدادُ ألا تجدُّدا[2]

ومن حبه العاهر إلى فخره بجد أبيه على فخر سكينة بنت الحسين بجد أبيها - الرسول -، روى الأصفهاني، أن الأحوص كان يوماً عند سكينة فأذن المؤذن، ولما قال: أشهد أن محمداً رسول الله، فخرت سكينة بما سمعت، فقال الأحوص:

فَخَرَتْ وانتمتْ فقلتُ ذَرِيني ... ليس جهلٌ أتيتِه ببديع
فأنا ابن الذي حَمَتْ لحمَه الدُبُـ ... ـرُ قتيلِ اللحيان يوم الرجيع
غسلت خالي الملائكةُ الأبـ ... ـرارُ ميتاً طوبى له من صريع[3]

وهكذا عاش الأحوص المأبون، المتهم في دينه، الزنديق في سيرته، وراء اللذة الجسدية، مطارداً من خلفاء بني أمية[4]. يجلد تارة ويسجن وينفى طوراً، ولا يخرج من السجن، إلا على زمن يزيد بن عبد الملك، الذي يطرب لغناء سمعه من حبابة كان شعراً للأحوص، فيعفي عنه ويستقدمه إلى دمشق، حيث يموت وأبياته تتردد على السنة الناس في لياليه

---

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق: 1/ 426.

(3) الأصفهاني: الأغاني: 4/ 43.

(4) سليمان والوليد ابنا عبد الملك، وعمر بن العزيز.

المعسولة بين أحضان الحبيب، في قوله:

لي ليلتان، فليلةٌ معسولة ألقى الحبيب بها بنجم الأسعد
ومريحةٌ همّي عليَّ كأنني حتى الصباح معلق بالفرقد[1]

13 ـ إسماعيل بن يسار النسائي: (130هـ / 748م)

فارسي الأصل، مولى لبني تيم بن مرة (تيم قريش)، زبيري الهوى ومن ثم أموي، مدح عبد الملك والخلفاء من ولده[2]. ومع مدحه للزبير والمروانيين، فقد اشتهر بشدة تعصبه للعجم، يفتخر بهم حتى في حضرة الخليفة[3]. هذا التعصب العجمي على العرب، والذي عرف باسم (الشعوبية)، ربما أخذه ابن يسار عن أبيه ورضعه مع حليب أمه ـ وللوالدين أثر كبير في تربية الولد وتنشئته، وتوجيه مسلكه .، فقد روى صاحب الأغاني عن لسانه، رداً على سؤال سائل: «أي مروانية كانت لك أو لأبيك؟» قال: «بغضنا إياهم. امرأته طالق، إن لم تكن أمه تلعن مروان وآله كل يوم مكان التسبيح، وإن لم يكن أبوه لما حضره الموت، وقيل له: قل: لا إله إلا الله، فقال: لعن الله مروان تقرباً بذلك إلى الله تعالى وإبدالاً له من التوحيد»[4].

وإذا ما كانت العصبية ـ قبلية كانت أو عرقية ـ زندقة[5]، فإن ابن يسار قد تعصب لأبناء بجدته وفخر بهم على العرب، مشيداً بخؤولته وأعمامه وأصله، معللاً تسميتهم بالفرس لكونهم الفوارس الشجعان، هاجياً العرب لوأدهم بناتهم، وهن أحياء. يقول:

---

(1) المصدر السابق: 4/ 55.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 4/ 119.

(3) الزركلي: الأعلام: 1/ 329.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 4/ 120.

(5) الإسلام يقول: لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى، ويقول أيضاً: إن الله أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء، كلكم لآدم، وآدم من تراب. أنظر البحث ص 238.

رُبَّ خـالٍ مُـتُـوَّجٍ لـي وعـمٍّ ... مـاجـدٍ مُجْتَدَى كـريـم الـنـصـابِ
إنـمـا سُـمِّـيَ الـفـوارسُ بـالـفـر ... سِ مـضـاهـاة رفـعـة الأنـسـاب
إذ نـربِّـي بـنـاتَـنـا وتـدسُّـو ... ن سفاهاً بناتكم في الترابِ[1]

وهذا الفخر المقرون بالعصبية الشديدة للفرس، قوم الشاعر، لم يتورع عن إعلانه أمام هشام بن عبد الملك، الخليفة العربي، عندما استنشده ليرى مديحه له، فإذا به ينشد قصيدة طويلة يفتخر فيها بالعجم، منها:

أصلي كريمٌ ومجدي لا يُقاسُ به ... ولي لسانٌ كحدِّ السيفِ مسمومِ
أحمي به مجد أقوامٍ ذوي حَسبٍ ... من كلِّ قرم بتاج الملك معمومِ
من مثل كسرى وسابورِ الجنودِ معاً ... والهرمزان لفخرٍ أو لتعظيم
هناك إن تسألي تُنبي بأنَّ لنا ... جرثومةً قهرت عزَّ الجراثيم[2]

فمن عظمته كعظمة كسرى؟ ومن شجاعته كشجاعة سابور والهرمزان؟ وكل هذا والخليفة على بلاد حدودها شرقاً السند وغرباً المحيط الأطلسي، يسمع، فيغضب ويقول: «يا عاضّ بظر أمه أعليَّ تفخر، وتمدح نفسك واعلاجَ قومك، غطوه في الماء، فغطوه في البركة حتى كادت نفسه تخرج»[3].

وإلى جانب زندقة ابن يسار الشعوبية، نرى فيه زندقة من نوع آخر، فهو يفحش بغزله للنساء، ولسان حاله يقول:

دار هـنـد وهـل زمـانـي بـهـنـدٍ ... عـائـد بـالـهـوى وصـفـو الـجـنـاب
غـادة تـسـتـبـي الـعـقـول بـعـذبٍ ... طـيِّـب الـطـعـم بـارد الأنـيـاب[4]

ويأتي معشوقته متستراً بسواد الليل، والأخ والخال والحمو نيام، لا

(1) الأصفهاني: الأغاني: 4/ 120.
(2) المصدر السابق. 4/ 125.
(3) المصدر السابق: 4/ 125.
(4) المصدر السابق: 4/ 120.

يرعوي من أن يصرح بأن رفيقيه إليها هما الله وسيفه الصارم، ألا يفقه هذا الزنديق معنى كلامه؟ ... وهل يرافق الله ويوافق الإنسان في هتك الأعراض؟ كلا، فإن الله يوفر العمل القبيح إلى يوم الحساب. ولنسمعه يقول:

أخافِتُ المشيَ حذارَ العدا	والليلُ داجٍ حالِكٌ مُظلِمُ
وليس إلا الله لي صاحب	إليكم والصارمُ اللهذم
فبتُّ فيما شئت من نعمةٍ	يَمنحنيها نحرُها والفمُ
حتى إذا الصبح بدا ضوءهُ	وغارت الجوزاءُ والمِرْزَمُ
خرجت والوطءُ خفيٌّ كما	ينساب من مكمنه الأرقمُ[1]

فهذا الذي لا يخاف الله في فعلته، ويخاف أعين الرقباء من البشر، فيخرج من دار من أشبعت غريزته، منساباً دونما حركة كانسياب الأرقم من حجره، أفلا يكون زنديقاً؟!

14 ـ مروان بن محمد (آخر خلفاء بني أمية) (72 ـ 132هـ / 692 ـ 750م) والجعد بن درهم (118هـ / 736م)

لم نصل إلى شيء من زندقة مروان بن محمد، إلا أنه ـ وهو صغير ـ كان يتأدب على أيدي الجعد بن درهم، أحد رؤساء (المانوية)،[2] وقد أعدم (هشام بن عبد الملك) الجعد هذا لزندقته، حيث كان من طلائع نشاط المانوية[3].

وبعد هذا العدد الذي أبرزناه من زنادقة عصر صدر الإسلام والعصر الأموي، لا بد من كلمة أخيرة في زندقة هؤلاء الزنادقة، فمنها ما كان تشكيكاً في الدين، وتجريحاً لرموزه، كزندقة الوليد بن يزيد وعبد الله بن

---

(1) المصدر السابق: 4/ 123. والمرزم: نجم.

(2) أنظر المانوية وتعاليمها في: الشهرستاني: الملل والنحل: 2/ 81و85. دار المعرفة.

(3) الدوري: الجذور التاريخية للشعوبية: ص22. دار الطليعة.

معاوية ومنها ما كان استهتاراً ومجوناً وتخلقاً بأخلاق الجاهلية كزندقة الشعراء الثلاثة الكبار، والحطيئة وأبي محجن الثقفي، ومنها ما كان تهتكاً وتدرجاً في هذا التهتك إلى الخروج عن الدين أحياناً بألفاظ ماسة، ثم المغالاة في ذلك إلى أقوال فيها معنى الإلحاد من غير نظر أو تفكير[1]، مما يحدو بنا إلى تسميتها زندقة، كزندقة الآخرين.

هذا وفي بحثنا فيما بعد عن شجون وشؤون زنادقة العصر العباسي، سنتحدث أيضاً عن عدد من الزنادقة المخضرمين، الذين عاشوا بعض حياتهم زمن بني أمية، وعاشوا بقيتها في عصر بني العباس، وسنرى أن بعضهم من مشاهير الزنادقة، وهذا ينفي الكلام عن عدم وجود زنادقة في العصر الأموي والعصور التي سبقت[2]، بالإضافة إلى ما قدمنا آنفاً، حيث رأينا أن الزندقة قد نمت في عروقهم، وسببت بهلاك بعضهم، كما لاقى الجعد بن درهم حتفه على يد هشام، الخليفة الأموي[3]، بسبب آرائه في خلق القرآن، وقد أخذ الجعد آراءه عن أبان بن سمعان ـ تلميذ طالوت، تلميذ ابن الأعصم اليهودي، الذي قال بخلق التوارة، وكان زنديقاً[4]. الذي يشتم من اسمه أنه كان نصرانياً.

وهكذا نرى أن الفكر المسيحي، والفكر اليهودي، على اختلاف المذاهب فيهما، قد لعبا دوراً كبيراً في عقل المفكرين واتجاهاتهم في المدن الإسلامية، وبخاصة في دمشق والكوفة والبصرة، وبغداد بعدئذٍ. وما ذلك إلا لتمازج الشعب العربي بسكان تلك المدن من نصارى ويهود ومجوس. وأيضاً لامتزاجه بالأعاجم من فرس وهنود وروم.

---

(1) أحمد أمين: ضحى الإسلام: 1/ 146 ـ 150 مكتبة النهضة المصرية طبعة 1961 .

(2) عطوان (حسين): الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول. دار الجيل ـ بيروت، ص17.

(3) بعضهم قال: إن قاتل الجعد هو خالد القسري، والي الكوفة من قبل هشام. (ابن نباته): سرح العيون في شرح رسالة ابن خلدون. م الحلبي: القاهرة 1861م. ص166 ـ 188.

(4) ابن الأثير (عز الدين): الكامل في التاريخ. م المعارف. القاهرة 1867م. 7/ 26.

ومن الضروري أن نذكر هنا أن بعض المسلمين قد اطلعوا على العقائد المسيحية، واليهودية، وما ضمتا من مذاهب، اختلف أصحابها في نظرتهم إلى الخالق والمخلوق.

تأثر بعضهم بنظريات تلك المذاهب، وأخذوا يدرسونها، ويتحدثون عنها، فشذوا عن إيمانهم وسنة نبيهم، واعتبروا زنادقة. من أولئك على سبيل المثال لا الحصر المغيرة بن سعد العجلي، الذي قال بخلق القرآن[1]، وجهم بن صفوان الذي أخذ عن الجعد بن درهم وقال بخلق القرآن أيضاً، كما قال بفناء الجنة والنار، وكان جبرياً لا يثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً[2]. وعمر المقصوص الذي ظهر بدمشق، وكان مؤدباً للخليفة معاوية بن يزيد بن معاوية، هو من القدرية التي كانت تثبت أن للإنسان قدرة على افعاله وحرية في اختيارها[3]. قتله الأمويون بتهمة إفساد الخليفة[4].

ومعبد الجهني الذي تكلم كثيراً في البصرة نافياً القدر، عذبه الحجاج وصلبه بأمر عبد الملك بن مروان[5].

وغيلان الدمشقي، أخذ آراءه من معبد الجهني في نفي القدر، وبخه على ذلك، عمر بن عبد العزيز وكتب إلى عماله في مختلف الأمصار بمراقبة أمثاله وملاحقتهم، ترك غيلان للسانه العنان في نشر معتقده بعد موت عمر، قبض عليه هشام بن عبد الملك وامتحنه فأقر بنفي القدر، فأمر

---

(1) المصدر السابق: 5/ 82. قتله خالد القسري.

(2) ابن بناته: سرح العيون، ص159.

(3) الدينوري (ابن قتيبة): تأويل مختلف الحديث في الرد على أعداء أهل الحديث. القاهرة، 1925م، ص98.

(4) ابن العبري (أبو الفرج الملطي): تاريخ مختصر الدول. بيروت 1890م. ص191.

(5) المقريزي: (تقي الدين) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. القاهرة 4/ 181. فيما بعد: الخطط.

به فقطعت يداه ورجلاه، ومات مصلوباً على باب دمشق[1].

سمى ابن قتيبة غيلان هذا بغيلان القبطي[2]، وبه ننهي فصل زنادقة بني أمية، لننتقل زمناً ومكاناً وخلافة إلى زنادقة بني العباس في عصرهم الأول.

القسم الثالث

زنادقة العصر العباسي الأول

لم تتوقف مسيرة الزندقة بسقوط دولة الأمويين، وانتصار العباسيين، بل قويت شوكتها، وتعددت ألوانها لغير سبب.

فقد استعاد الموالي حريتهم وحقوقهم بعد معركة الزاب[3] الفاصلة، وصار الفرس يتقلدون المناصب الرفيعة في دولة بني العباس، كما حلت محل الأرستقراطية العربية طبقة من الأجناس كافة، واختلط الموالي بالعرب، وانتقل مركز العالم الإسلامي من الشام إلى العراق[4]. وتنبه الفرس إلى قوتهم بانتصارهم الساحق على «مروان بن محمد» آخر خلفاء بني أمية، فأثر ذلك كثيراً في بعث الوعي العرقي عندهم، وتهيئة الظروف لنشاط الحركات الدينية كالزرادشتية، والمانوية، والمزدكية والخرمية، والسيسية[5].

وفي العراق نشط الزنادقة نشاطاً واسعاً، بعد قيام دولة العباسيين، وأصبحوا يشكلون حركة منظمة قوية واسعة، لأسباب عدة، منها: طبيعة

---

(1) ابن بناته: سرح العيون. ص157 ـ 158 .، وابن قتيبة: عيون الأخبار. 2/ 345.

(2) ابن قتيبة: المعارف. ص625.

(3) حدثت بين الأمويين والخراسانيين عام 131هـ وانتصر فيها «أبو مسلم الخراساني على مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية».

(4) Lammens: S.J. "Etudes sur le Siecle des omayyads" (Beyrouth, 1936) p. 488.

(5) أكثر أفراد هذه الحركات، يظهرون الإسلام ويبطنون ديانات الفرس القديمة.

التركيبة البشرية في العراق، إذ كان إلى جانب العرب أجناس مختلفة من الناس، لكل جنس دينه وثقافته وحضارته، فاختلطت هذه الأجناس، وتباينت، وبدت ظاهرة الزندقة ضرورة حتمية لذلك[1]. ومنها النهضة العلمية التي حركت العقول، وشحنت الذهن وأعطت حرية التفكير في الفلسفة والمنطق، فتاه أصحابها بين العقل المفكر والمحلل، وبين القلب المصدق والمسلم، وساروا في مفاوز من الضياع والإلحاد[2]، يستلون سيوف العبث الفكري، والمجون الشكي، يرومون من وراء ذلك العبث بعقائد الناس وإبعادهم عن الصراط المستقيم[3].

- ومنها الجو الاجتماعي الزاهر بألوان الترف، من قصور وأديار وخمارات، الذي أنتج زنادقة ظرف ومجون[4].

- ومنها التشنج والمغالاة في الهوى السياسي والمذهبي. إذ لا سبيل إلى إنكار ذلك وتأثيره في الزندقة، فمن جسّم الله وألّه الأئمة وآمن بحلول الأرواح وتناسخها، ورجعتها أيضا، لا مجال لنفي زندقته الدينية والاجتماعية[5].

ولكن أهم هذه الأسباب، سببان أساسيان أدّيا إلى نشأة الزندقة واستفحال خطرها، أولهما ديني، والثاني سياسي. أما السبب الأول فقد مال «جورج فيدا» إلى الاعتقاد بأن المانوية هي أصل الزندقة، ومصدرها الأول، وأن أنصارها آمنوا بها عن رغبة دينية مخلصة، واتخذوها عقيدة لهم، يحافظون عليها أشدّ الحفاظ[6].

---

(1) اللبان (إبراهيم عبد المجيد): الفلسفة والمجتمع: ط النهضة المصرية. القاهرة 1950 ص71-72.

(2) المسعودي: مروج الذهب: مطبعة السعادة مصر 1958. 4/ 314.

(3) بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام: ص35و36.

(4) هدارة: اتجاهات الشعر العربي. ص240.

(5) المصدر نفسه. ص238.

(6) عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام. ص31 وما بعد.

ولكنه يبدو أن الزندقة الدينية الحقيقية لا تنتمي إلى المانوية وحدها، بل تعود إلى الملل الأعجمية المختلفة، كالمرقونية[1]، والديصانية[2]، والمزدكية[3]، والمجوسية[4]، بشكل عام، حيث ذكر المسعودي، أن المهدي حارب المانوية وأتباع الديانات الفارسية الأخرى[5].

والسبب الثاني المهم هو سياسي، فقد رأى بعض الموالي أن انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين لم يحقق لهم ما يبغون، من أن تكون الحكومة فارسية في حقيقتها وسلطتها، ولغتها ودينها، إذ أن كلا الحكومتين ـ الأموية والعباسية ـ إسلامية عربية، فأخذوا يعملون لنشر معتقداتهم القديمة، ظاهراً إن أمكن، وباطناً إذا اشتد الأمر عليهم[6]. وقد أشار الجاحظ إلى أثر العصبية العرقية الفارسية في ظهور الزندقة وتفشيها[7].

والزندقة بهذا المفهوم، استشرت في العراق، في العصر العباسي الأول، حيث العناصر الفارسية الكثيرة، والمعتقدات والمذاهب التي يجمعها مفهوم الزندقة.

فالعراق ملتقى العرب والعجم ـ وما يمثلون من جنس ولغة ودين وحضارة ـ منذ ما قبل الإسلام وحتى يومنا هذا[8]، حيث كانت الحيرة مملكة عربية رائدة، وفي الوقت ذاته خاضعة لسلطان الفرس[9]، تتأثر

---

(1) الشهرستاني: الملل والنحل. 2/ 89.
(2) المصدر نفسه 2/ 88.
(3) المصدر نفسه 2/ 83.
(4) المصدر نفسه 2/ 73.
(5) المسعودي: مروج الذهب: 4/ 315. دار المعرفة.
(6) أحمد أمين: ضحى الإسلام 1/ 139. دار الكتاب العربي، بيروت.
(7) الجاحظ: الحيوان 7/ 220. مطبعة الحلبي، مصر 1938.
(8) أنظر البحث: القسم الأول.
(9) الأب جرجس داود. أديان العرب: مملكة الحيرة. ص115 وما بعد. وياقوت: معجم البلدان 2/ 331.

سياسة ملوكها وشعبها ومعتقداتهم بما يكون عليه الحاكم الساساني[1].

ويأتي العصر العباسي، فتستبدل الحيرة بالكوفة وبالبصرة وببغداد. و تصخب هذه المدن بالعرب وتضج بالعجم وتظهر الزندقة بالكوفة مختلطة بأنواع المجون والتهتك والإباحة، أما البصرة فتبرز فيها نزعة عدم المبالاة بالدين، استناداً إلى وجود عدد كبير من المسلمين العجم، الذين جاء إسلامهم مشوشاً نتيجة آراء دينية مختلفة، إما موروثة عن الأجداد أو حاصلة بالاختلاط والامتزاج العرقي[2].

وعلى العموم، يمكننا القول إن العراق بحكم موقعه، وظروفه المختلفة، كان كالقوس الذي تخرج منه سهام الزندقة في الجاهلية وصدر الإسلام وعصر الدولتين الأموية والعباسية. يقول «طه حسين» مبيناً نوع زندقة القرن الثاني وأصلها وسببها: «إن وجدتَ ذكراً للزندقة وللعبث والعابثين آخر أيام بني أمية، فإنك واجد، أن هذه الزندقة وهذا العبث والمجون إنما حمل كله من العراق إلى الشام بأمر الوليد بن يزيد، وغيره، من مجان بني أمية. الزندقة إذن عراقية لأنها فارسية... وقد تجد شيئاً غير قليل من تأثير اليونان وفلسفتهم في زندقة هؤلاء الزنادقة، وإباحة هؤلاء الشعراء... وزندقة القرن الثاني للهجرة ضرب من السخط على العرب وعاداتهم وأخلاقهم ومحافظتهم ودينهم بنوع خاص... ومن الكلف بحياة الفرس وعاداتهم ولذاتهم وحضارتهم وما ذاع فيهم من عقيدة دينية... والزندقة الأدبية كانت في عصر بني أمية ضعيفة مترددة متسترة... فلما اجترأ خليفة من خلفاء بني أمية على أن يجهر بالفجور قويت واستطاعت أن تظهر. ثم انتصر الفرس فانتصرت معهم»[3].

فهذا النص يشير بوضوح إلى ألوان الزندقة، ومصدر تفجرها ـ إلا

---

(1) كما تأثر الحارث الكندي بمعتقد قباذ. فتمزدك وتزندق. أنظر البحث ص92 .

(2) فون كريمر: الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية: ترجمة مصطفى طه بدر. نشر دار الفكر العربي. القاهرة 1947. ص99.

(3) طه حسين: حديث الأربعاء. دار المعارف، مصر 1958: 2/ 161-162-163.

أننا نضم أقطاراً أخرى غير العراق[1]، اختلط فيها العرب بالعجم - وربطها بحركة الشعوبية والفكر اليوناني، وجعلها أثراً من آثار المذاهب الفارسية المختلفة.

وما من شك في أن الارتياب في الدين مرحلة تظهر في كل حضارة إنسانية عند انتقالها من حالة فكرية إلى أخرى، أو عندما تتلاقى الثقافات لشعوب متباينة. فعندما دخلت الثقافات الأجنبية في الممالك العربية، وقد كانت تعتمد على النظر العقلي، التقت بالثقافة الإسلامية القائمة على الإيمان. ولما كان الانتقال من الموروث من العقائد والتقاليد إلى الحرية العقلية لا يتم إلا تدريجاً، كانت الخطوة الأولى في هذا السبيل هي خطوة الشك، فظهرت في العالم العربي تيارات فكرية مختلفة نتيجة لهذا التلاقي الثقافي، وظهر بين العلماء والأدباء طائفة من الشكّاك مثل بشار بن برد[2]. فالشك إن كان بالدين أو بالمجتمع وعاداته وتقاليده، ربما ينتج عن التقاء الثقافات والعلوم والمعارف، ويؤدي إلى الزندقة بأحد ألوانها[3].

وما دامت ظاهرة الشك والإلحاد والظرف والمجون، والتمسك بالإيمان الجديد أو العودة إلى إيمان الآباء والأجداد ظاهرة طبيعية في كل مجتمع يجتاز الظروف التي مرّ بها المجتمع العربي الإسلامي في قرونه الأولى فينبغي أن لا نعزو الزندقة في جميع فروعها إلى الأعاجم، خصوصاً حين نجد من العرب بل من الهاشميين من اتهم بالزندقة، أمثال عبد الله بن معاوية... بن أبي طالب، والحسين بن عبد الله... بن عبد المطلب[4]، وآدم

---

(1) الشام واليمن في الجاهلية.

(2) اللبّان (إبراهيم عبد المجيد): الفلسفة والمجتمع الإسلامي. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة 1950، ص71-72.

(3) جرجي زيدان: تاريخ آداب اللغة العربية. الطبعة الثالثة، مطبعة الهلال، القاهرة 1936. 2/ 51.

(4) الأصفهاني: الأغاني 11/ 75. دار الكتب.

بن عبد العزيز الأموي[1]، وابن داود بن علي ويعقوب بن الفضل وهما هاشميان، وقد وجد المهدي بنتاً ليعقوب هذا واسمها فاطمة حبلى من أبيها، وقد اقرت بالزندقة فقتلت وقتل أبوها[2].

أولاً: الزنادقة من غير العرب وغاياتهم:

إن أغلب الزنادقة، على اختلاف الدوافع التي ساقتهم إلى الزندقة، وتباين الغايات التي رموا إليها، كانوا من غير العرب، وكان منهم موظفون كبار في الدولة العباسية. ويروي ابن النديم: أن البرامكة جميعهم إلا محمد ابن خالد بن برمك كانوا زنادقة، وكذلك الفضل بن سهل وأخوه الحسن، ومحمد بن عبيد الله كاتب المهدي اعترف بزندقته فقتل[3].

وكان هناك الشعراء الكثيرون[4]، أمثال الحمادين الثلاثة[5]، ومطيع بن إياس[6]، وبشار بن برد[7].

وكانت غايات هؤلاء الزنادقة متشعبة ومتعددة. منها تفسيخ الدولة العربية الإسلامية. ومنها نسف الإسلام لأنه عامود الدولة وركيزتها. وإذا ما نجحوا فقد يحيون تراثهم الديني والثقافي والسياسي. ولبلوغ أهدافهم فقد ساروا في شعب ثلاث :

أ ـ بعث الديانات الفارسية القديمة، عن طريق ترجمة كتبها وإشاعتها في المجتمع العربي، كما هو واضح في كتب ابن المقفع، الذي قال

---

(1) المصدر نفسه: 15/ 287.
(2) الطبري: تاريخ 8/ 191.
(3) ابن النديم: الفهرست: ص473. دار المعرفة.
(4) سنتعرض لكل واحد بمفرده فيما بعد.
(5) ابن المعتز (عبد الله) طبقات الشعراء تحقيق عبد الستار أحمد فراج. طبع دار المعارف بمصر، ص69. والأغاني 14/ 322. دار الكتب.
(6) المصدر نفسه، ص96. والأغاني 13/ 279. دار الكتب.
(7) ابن المعتز: الطبقات، ص21.

المهدي عنها: «ما وجدت كتاب زندقة قط إلا أصله ابن المقفع»[1].

ب ـ تشويه الدين الإسلامي، إذ أجادوا العربية وتفقهوا في الدين فأعلنوا الإسلام، وأبطنوا الكفر[2]. متسترين ببعض شعائر دينهم المانوي المشابهة لشعائر الإسلام كالصلاة والصوم[3].

ج ـ إغراء الشباب في المجتمع الإسلامي بالفجور والتعهر وإدمان الخمر، وطلب اللهو واللذة والتغزل بالمذكر، واللواط بالغلمان، واستباحة المحرمات وانتهاك الأعراض[4].

أدرك خلفاء بني العباس نيات الزنادقة، فتصدوا لهم، وجاهدوهم جهاداً صارماً، وشهروا السيف لمحاربتهم في عهد المنصور، ثم جد في طلبهم والبحث عنهم في الآفاق ابنه المهدي، وولى أمرهم «عمر الكلواذي»، فقطع رؤوس كثير منهم[5]. وتعقبهم ابنه الهادي أيضا، وصرع جماعة منهم[6]، وكذلك فعل الرشيد[7]، وابنه المأمون من بعده[8].

ولم يكتف العباسيون بشهر السيف في وجه الزنادقة، بل تراهم يأمرون أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب، للرد على الملحدين والجاحدين، وإقامة البراهين للمعاندين، وإزالة شبههم، وإيضاح الحق للمشككين[9].

فمن هم هؤلاء الزنادقة:

---

(1) المرتضى: الأمالي: 1/ 134.
(2) المصدر نفسه: 1/ 127.
(3) ابن النديم: الفهرست، ص465.
(4) ابن المعتز: الطبقات، ص69.
(5) اليعقوبي: تاريخ 2/ 400. دار صادر. والطبري: تاريخ الأمم والملوك: 8/ 165. والمسعودي: مروج الذهب 4/ 315.
(6) الطبري: تاريخ المم والملوك 8/ 167.
(7) المصدر نفسه 8/ 266.
(8) المصدر نفسه: 8/ 297.
(9) المسعودي: مروج الذهب: 4/ 315. أنظر ما فعله المهدي.

1 ـ أبو دلامة (161هـ / 778م):

هو زند بن الجون الأسدي بالولاء، شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة، نشأ في الكوفة، واتصل بالخلفاء من بني العباس، اتهمه أبو الفرج بالزندقة، وقال عنه: «كان فاسد الدين، رديء المذهب، مرتكباً للمحارم، مضيعاً للفروض، مجاهراً بذلك»[1].

ولم يتهمه غير أبي فرج بالزندقة صراحة[2]، واتهم بالمجون والخلاعة، والاستهانة بالدين، والتحلل من أركانه. وربما كانت زندقته زندقة اجتماعية اتخذها أصحابها وسيلة للتظرف، وحسن المنادمة، والتحرر والانطلاق من قيود المجتمع[3].

إن كثيراً من تصرفت أبي دلامة تنطق بمثل هذه الزندقة الاجتماعية، إذ نراه وقد دعاه موسى بن داود العباسي للحج معه، ويدفع له عشرة آلاف درهم، فأخذها وهرب، وجعل ينفقها بالخلاعة والمجون وشرب الخمر، ولما التقاه موسى بطريقه إلى الحج، وكان سكراناً، أمر بتقييده وطرحه في محمل بين يديه، فاستعطفه بإطلاقه، مصرحاً أنه لا يرغب في حج طريقه خالية من الحانات، ـ وهو لا يصبر عن الخمر ـ وقد فسد حيث لا وسيلة إلى إصلاحه وهديه طريق الحق، يقول:

إنـي أعـوذُ بـداودٍ وأعـظُـمِـهِ   من أن أُكلّف حَجّاً يا ابن داودِ
خُبِّرتُ أنَّ طريقَ الحجِّ مُعْطِشَةٌ   من الشراب وما شُرْبي بتصْريدِ
والله ما فيَّ من أجرٍ فتطلبه   ولا الثناءُ على ديني بمحمودِ[4]

فخلّى عنه موسى ليعود إلى قصفه ومجونه. وترى أبا دلامة لا يتورع

(1) الأصفهاني: الأغاني 9/ 120. دار الفكر عن بولاق.
(2) ابن قتيبة: الشعر والشعراء: ص660. وابن المعتز: طبقات الشعراء: ص54.
(3) هدارة: اتجاهات الشعر العربي، ص244.
(4) الأصفهاني: الأغاني: 9/ 126.

عن الكتابة إلى الخليفة أبي جعفر المنصور الذي أمره بلزوم الجماعة في مسجد قصره، بعد أن بلغه أنه معتكف على الخمر، ولا يحضر صلاة في مسجد ـ متوسطاً إلى المهدي أن يوصل أمنيته إلى أبيه، مردداً أنه لا يريد الصلاة ليغفر الله له ذنوبه، بل يريد أن يبقى منغمساً في لذاته من مجون وخمر، ولا يهمه أن يحمل آثام البشر جميعاً:

ألَمْ تَرَيا أن الخليفةَ لزَّني ... بمسجده والقصرِ ما لي وللقَصْرِ!
فقد صدَّني عن مسجد استلِذُّهُ ... أعلَّلُ فيه بالسماع وبالخمر
يكلِّفُني من بعدِ ما شبتُ توبةً ... يحُطُّ بها عنِّي المثاقيلَ من وِزْري
لقد كان في قومي مساجدُ جَمَّةٌ ... ولم ينشَرِحْ يوماً لغشيانِها صَدْري
ووالله ما لي نيَّةٌ في صلاته ... ولا البرُّ والإحسانُ والخيرُ من أمري
وما ضرَّهُ والله يغفرُ ذنبَه ... لو أنَّ ذنوبَ العالمينَ على ظهري[1]

كما تراه يضرع إلى «ريطة» زوجة ابن المهدي أن تشفع له عند عمها ليعفيه من الصلاة في شهر رمضان، هذا الشهر الذي يستثقله، ويمقت ليلة القدر مقتاً شديداً. بقوله:

أبلغا رَيْطَةَ أنّي ... كنت عبداً لأبيها
فمضى يرحمُه اللَّـ ... ـهُ وأوصى بي إليها
جاء شهرُ الصومِ يمشي ... مشيةً ما أشتهيها
قائداً لي ليلةَ القد ... رِ كأني أبتغيها
ولقد عشت زماناً ... في فيافيَّ وَجِيهَا
قاعداً أوقُد ناراً ... لضِبابٍ اشتويها
وصبوحٍ وغبوقٍ ... في علابٍ احتسيها
ما أبالي ليلةَ القد ... رِ ولا تُسمِعُنيها
فاطلبي لي فَرَجاً مِـ ... ـنها وأجري لكِ فيها[2]

---

(1) المصدر نفسه: 9/ 127. وابن المعتز: الطبقات. ص61. وابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: دار صادر، بيروت: 2/ 232.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 9/ 128.

وهكذا نرى أبا دلامة يعيش للمجون، متحللاً من فرائض الدين، عابثاً، أوليس هو القائل في ليلة القدر :

ما ليلةُ القدر من همي فأطلبُها إني أخاف المنايا قبل عشرينا
لا بارك الله في خيرٍ أؤمله في ليلة بعد ما قمنا ثلاثينا[1]

أليس هو المتمني أن يحل الصوم بأرض غير أرضه؟ وأن لا يرى المسجد أبداً، حيث يخونه النظر إليه، ربما كان تهكماً منه على بيوت العبادة، يقول:

أضحى الصيام منيخاً وسط عرصتنا ليت الصيامُ بأرضٍ دونها حَرَشُ
إن صحتُ أوجعني بطني وأقلقني بين الجوانح مسَّ الجوع والعطش
وإن خرجتُ بليلٍ نحو مسجدهم أضرَّني بصرٌ قد خانه العمشُ[2]

فزندقة أبي دلامة، وحالته هذه، إنما تعد زندقة اجتماعية.

2 ـ الحمّادون الثلاثة:

أ ـ حمّاد الراوية (95 ـ 155هـ / 714 ـ 772م): هو حماد بن سابور بن المبارك، أبو القاسم، أول من لقب بالراوية، لقوله للوليد بن يزيد الأموي، عندما سأله ما مقدار ما تروي من الشعر؟ إني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مئة قصيدة كبيرة سوى المقطعات، من شعر الجاهلية دون الإسلام[3]. وهو من مخضرمي الدولتين ـ الأموية والعباسية ـ، تقدم عند بني أمية، وجفاه وأهمله العباسيون.

كان مشهوراً بالكذب في الرواية وصناعة الشعر، وإضافته إلى شعراء متقدمين، قال فيه الرواة: قد أفسد حماد الشعر، فاختلط لذلك الصحيح بالسقيم، وهذا الفعل منه، وإن لم يكن دالاً على الإلحاد، فهو فسق

---

(1) الأصفهاني: الأغاني: 9/ 128.
(2) المصدر نفسه 9/ 130 ـ 131.
(3) الزركلي: الأعلام: 2/ 271. والأصفهاني: الأغاني: 5/ 164 ـ 165.

وتهاون بالكذب والسرقة.

ومن فسقه وخلاعته، أنه ترك سنة الله[1]. وكان يلوط بالغلمان[2]. ويجتمع مع رهط من أمثاله على الشرب وقول الشعر، يهجو بعضهم بعضاً، وكل منهم متهم في دينه»[3]. ومن هذا الهجاء قول «أبي الغول» فيه، وقد اتهمه في معرفة دينه وإقامة شعائره وجريه وراء الخمر يعبّ منها حتى تتهدل شفتاه ويصفر وجهه:

نعم الفتى، لو كان يعرف ربَّه	ويقيم وقتَ صلاتِه حمّادُ
هدلت مشافرَه الدنانُ فأنفُه	مثلُ القدوم يسنّها الحدادُ
وابيضَّ من شرب المدامة وجهُه	فبياضه يوم الحساب سوادُ[4]

وجملة القول: إن زندقة حماد الراوية كانت في أكثرها زندقة اجتماعية وفي أقلها زندقة دينية.

ب ـ حمّاد عجرد (161هـ / 778م): أحد الحمادين الثلاثة الذين عاشوا بالكوفة «يتنادمون ويتعاشرون، كأنهم نفس واحدة، ويرمون جميعاً بالزندقة»[5].

شاعر من الموالي، ومن مخضرمي الدولتين ـ الأموية والعباسية ـ نادم الوليد بن يزيد الزنديق، لكنه لم يشتهر إلا زمن العباسيين، حيث كانت بينه وبين بشار بن برد أهاج فاحشة[6]. شهرته في الضلالة كشهرة نديه وفوق

(1) روي عن (الرسول) قوله: «لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل... ولا يفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد...» صبحي الصالح: منهل الواردين: ص 895. حديث رقم 1625.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 5/ 170.

(3) المرتضى: الأمالي: 1/ 131.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 5/ 171.

(5) ابن قتيبة: الشعر والشعراء: 2/ 663.

(6) الزركلي: الأعلام: 2/ 272.

ذلك رمي بالتثنية[1]. وبالمانوية الواضحة[2]، خصوصاً إذا ما لوحظ أن شعره وقصائده كان يتغنى بها وتستعمل في صلوات الزنادقة[3]، ومن المحتمل أن يكود حماد عجرد قد تزندق بعد اطلاعه على المذاهب المجوسية، اطلاعاً واسعاً مما أتاح له أن يضع المؤلفات فيها، مروجاً لتلك المذاهب[4]، ولكن الرواة لم يحددوا نحلة هذا الزنديق فربما كان ثنوياً لقول بشار فيه:

يا ابن نِهْيَا رأسٌ عليّ ثقيلُ   واحتمالُ الرأسين خطبٌ جليلُ
فادعُ غيري إلى عبادةِ رَبَّيْـ   ـنِ فإني بواحدٍ مشغولُ[5]

أو ربما كان مزدكياً، لإيمانه بإباحة النساء، محلاً امرأته لسواه، وامرأة غيره لنفسه. في شهادة بشار فيه حين مات وتعزيته لحريب صديقه بقوله :

بكى حُرَيب فوقّرْهُ بتعزيةٍ   مات ابن نهبى وقد كانا شريكين
تفاوضا حين شابا في نسائهما   وحلّلا كلَّ شيءٍ بينَ رِجْلين[6]

ولعله كان مانوياً ديصانيا بحسب شهادة «مساور الوراق» فيه:

لو أنَّ ماني ودَيْصاناً وعُصبتَهم   جاءوا إليك لما قلناك زنديقُ
أنتَ العبادةُ والتوحيدُ مُذْ خلقا   وذا التزندقُ نيرنجٌ مخاريقُ[7]

إن أهاجي خصومه فيه تدل على ضعف عقيدته، وفساد دينه، فهم ينعتونه بارتكاب المنكرات والمعاصي، وترك الصلاة، والشذوذ الجنسي، قال بشار فيه :

---

(1) المرتضى: الأمالي: 1/ 133.
(2) بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام. ص38. قول فيدا.
(3) الأصفهاني: الأغاني 13/ 74.
(4) المسعودي: مروج الذهب: 4/ 315.
(5) المرتضى: الأمالي: 1/ 133. والأغاني 13/ 74 وقد روى نهبى بدلا من نهيا والاثنين بدلاً من ربين.
(6) المصدر نفسه.
(7) المرتضى: الأمالي: 1/ 134.

ما لمت حماداً على فسقه ... يلومه الجاهلُ والمائقُ
ما بات إلا فوقَه فاسقٌ ... (...) أو تحته فاسقٌ[1]

وقال فيه أيضا، راسلاً أبياته التالية للربيع بن يونس الذي كلف حماداً بتأديب ولده مبيناً شذوذه:

يا أبا الفضل لا تَنَمْ ... وقع الذئبُ في الغنم
إن حمَّادَ عجردٍ ... إن رأى غفلةً هجم
بين فِخْذَيْهِ حَرْبَةٌ ... في غلافٍ من الأَدَم
إن خلا البيتُ ساعةً ... مَجْمَجَ الميمَ بالقلم[2]

هذا كلام خصومه فيه، فما شهادته هو في نفسه ؟ لنراه يكتب لصديقه يحيى بن زياد الذي هجر المجون والخلاعة وأظهر تورعاً ونزوعاً عما كان عليه :

هل تذكُرَنْ دلجى إليـ ... ـكَ على المضمّرة القلاص
أيامَ تُعطيني وتأ ... خذُ من اباريق الرصاص
فلطالما زكيّتني ... وأنا المقيمُ على المعاصي
وأنا وأنت على ارتكا ... ب الموبقاتِ من الحراص[3]

فهو يشرب مع صديقه ويرتكب المعاصي والموبقات، مجاهراً بتفوق شعره على القرآن الكريم[4]، هاجياً خصومه بأفحش القول، وبخاصة عند هجاء بشار :

واللهِ ما الخِنزيرُ في نَتْنِه ... بُربْعِه في النَّتْنِ أو خُمْسِهِ
ووجهُه أحسنُ من وجهِهِ ... ونفسُه أفضلُ من نفسِهِ
وعُودُه الكرمُ من عُودِهِ ... وجنسُه أكرمُ من جنسِهِ[5]

---

(1) الأصفهاني: الأغاني: 13/ 77 ومكان النقاط (...) كلمة يمجها الذوق.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه: 13/ 79.
(4) المرتضى: الأمالي: 1/ 134.
(5) المصدر نفسه.

فأقوال خصومه فيه وأقواله هو لا تدلان إلا على زندقة ربما أسميناها زندقة «دينية اجتماعية فكرية». حيث أن حماد عجرد لم يزل ممعناً في إبتذاله وضلالته حتى قتله محمد بن سليمان العباسي على الزندقة[1].

ج ـ **حمّاد بن الزبرقان:** هو ثالث الحمادين المشهورين بالزندقة، وربما دان هذا بدين الخرمية، وهم أهل التناسخ[2]، وكان متهتكاً فاجراً ضالاً، نادم سميَّيْه على الشراب، وتناشد الشعر، ورمي معهما بالزندقة[3]، ولعل زندقته كانت دينية ـ اجتماعية.

3 ـ مطيع بن إياس: (166هـ/783م):

شاعر من مخضرمي الدولتين أيضا، كان ظريفاً، ماجناً، متهماً في دينه، مدح ونادم الوليد بن يزيد الزنديق في العصر الأموي، ولازم جعفر ابن المنصور زمن العباسيين. صادق حماد عجرد وحماد الراوية المتهمين بالزندقة[4].

نسب إليه الاتهام بالزندقة ضمن مجموعة كبيرة من شعراء عصره، حيث كان وإياهم يتنادمون كأنهم نفس واحدة، يقول الأصفهاني في ذلك: «كان مطيع بن إياس، ويحيى بن زياد الحارثي، وابن المقفع، ووالبة بن الحباب، يتنادمون ولا يفترقون، وكانوا جميعاً يرمون بالزندقة»[5].

والشيء الذي يثبت زندقته، ما رواه أحمد بن إبراهيم الكاتب عن أبيه أنه قال: «رأيت بنتاً لمطيع بن إياس أتي بها الرشيد مع جماعة من

---

(1) ابن خلكان: وفيات الأعيان: 2/ 213.

(2) المرتضى: الأمالي: 1/ 132. وانظر التناسخية في الشهرستاني: الملل والنحل 2/ 91.

(3) ابن قتيبة: الشعر والشعراء: 2/ 663. وابن المعتز: الطبقات: ص69.

(4) الزركلي: الأعلام. 7/ 255.

(5) الأصفهاني: الأغاني: 12/ 80و81. والشابشتي: الديارات: مطبعة المعارف بغداد. ط ثانية.

الزنادقة، فأقرت بالزندقة، واعترفت بقراءة كتبها، وقالت: هذا دين علمنيه أبي، وتبت، فقبل الرشيد توبتها وردها إلى أهلها»[1].

فإذا ما صحت هذه الرواية تكون زندقة مطيع زندقة دينية، لا ريب فيها، فهو يقرأ كتب الزندقة، ويلزم ابنته أن تقرأها، ولكننا لم نتوصل إلى لون هذه الزندقة، وإن كنا نجزم بأنها نوع من الأنواع التي كان يشملها معنى الزندقة كالمانوية أو المزدكية أو ما أشبه.

وإذا كنا لم نستطع أن نعثر على شعر له، فيه ما يكشف القناع عن ملّته التي كان يبطنها، فنحن لا ننفي عنه زندقة أحداها، مع معرفتنا بأن مثل هذه الأشعار ـ إن منه أو من غيره ـ التي تروج لعقيدة لا تبيحها الدولة، تكافح وتصادر ويزور عنها الرواة.

ومع هذا فإننا وقعنا على بعض الشواهد من أشعاره تؤكد رأينا في زندقته التي تسلخه من الإسلام الذي ازدراه، واشتغل عنه بالارتماء في أحضان اللذة؛ فقد كان يمجن، ويفحش في الصلاة مع يحيى بن زياد والكثير من أصحابه وهم سكارى. روى صاحب الأغاني: أنهم قاموا للصلاة، فأذن مطيع وقال للمغنية: «تقدمي فصلي بنا» فتقدمت، و«كانت بلا سراويل وعليها غلالة رقيقة. فلما سجدت انكشف متاعها، فوثب إليه مطيع فقبله، ثم قال»:

ولما بدا هَنُها جاثماً ... كراس حليق ولم تعتمد
سجدتُ له ثم قبَّلتُه ... كما يفعل العابد المجتهد[2]

ومطيع لا يبالي بالدين، ولا بفرائضه، مؤثراً الانهماك في شرب الخمر ـ هو ورفيقه يحيى بن زياد، بدير زرارة قرب الكوفة ـ على أداء

(1) الأصفهاني: الأغاني: 12/ 89 والمرتضى: الأمالي: 1/ 142. 1966. ص250.
(2) الأصفهاني: الأغاني: 12/ 105. والشابشتي: الديارات ص252 ـ 253.

فريضة الحج، إذ يقول :

ألم ترَني ويحيى إذ حَجَجْنا وكان الحجُّ من خير التجارَة
خَرَجْنا طالِبَيْ حجٍّ ودين فمال بنا الطريقُ إلى زَرارَة
فآب الناسُ قد غنموا وحجّوا وأُبْنا مُوقَرينَ من الخسارة[1]

ومطيع مشهور بجريه وراء الغلمان، يلوط بهم، ويلوطون به في أنٍ، مدعياً أنها لذة مضاعفة[2]، يدعو صراحة إلى اقتراف الفواحش والموبقات، حيث يقول:

نعم لنا نبيذٌ وعندنا حماد
وخيرنا كثير والخير مستزاد
وكلنا من طربٍ يطير أو يكاد
ولهونا لذيذٌ لم يلهُهُ العباد
إن تشتهِ فساداً فعندنا فساد
أو تشتهي غلاماً فعندنا زياد
ما إن به التواءٌ عنّا ولا بِعاد[3]

وتراه يحث الناس في أبيات أخرى، داعياً إلى الانغماس في الانحلال والفجور، ناصحاً بتعاطي الخمرة، وسماع القيان، وتحقيق أكبر متعة في هذه الحياة القصيرة:

اخلع عذارَك في الهَوَى واشرَب معتَّقةَ الدّنان
وصلِ القيانَ مجاهراً فالعيشُ في وصلِ القيان
لا يُلهينَّكَ غيرُ ما تهوى فإنَّ العمرَ فانِ[4]

وكأن زندقته بهذه الأبيات زندقة فكرية، التي تطلب تحرر الإرادة

---

(1) الأغاني: 12/ 91. والديارات. ص248.
(2) الأغاني: 12/ 107. والديارات 254.
(3) الأغاني: 12/ 90. والديارات 253 وما بعد. في خبره مع أبي الإصبغ.
(4) الديارات: ص256. وجرونباوم (جوستاف فون) شعراء عباسيون (مطيع بن إياس سلم الخاسر، أبو الشمقمق) دار مكتبة الحياة، بيروت 1959. ص76.

الإنسانية وتقود الفرد أن يفعل ما يهوى ويلذ، كما في قوله: (لا يلهينك غير ما تهوى). ويمكننا أن نلمح بعض عناصر هذه الزندقة الفكرية لمطيع في قوله:

قَبِّليني سعادُ باللهِ قُبله واسأليني لها فَدَيْتُك نِحْلَهْ
فَوَربِّ السماءِ لو قلتِ لي صلِّ لوجهي جعلتُك الدَّهْرَ قِبْلَهْ[1]

فتراه متحرراً كثيراً حتى الإفحاش والمروق، لا يخاف لومة لائم، ولو كان هذا اللائم أهله وذويه[2]، وأعز أصدقائه، فهو يقول لعمر بن سعيد الذي عاتبه في أمر قينة، فضح أهله وعابهم وعيرهم بشأنها:

قد لامني في حبيبتي عُمر واللوم في غير كنهه ضجر
قال: أفِقْ قلتُ: لا، فقال بلى قد شاع في الناس عنكما الخبرُ
قلت: قد شاع فاعتذاري مما ليس لي فيه عندهم عُذر
أعشق وحدي فيؤخذون به كالترك تغزو فيُقتل الخزرُ[3]

فهذا الذي كانت أحب الأشياء إلى قلبه «صهباء صافية تمزجها غانية بماء غادية»[4]، والذي يبادر لشتم الملائكة[5]، والذي قال عنه المهدي: «خبيث الدين، فاسق، مستحل للمحارم»[6]، وقال عنه جرونباوم: «لا يبالي بالدين وسلوكه منحرف»[7]، والذي يعق أباه ويبغضه ويهجوه[8] ولا يقول: لا إله إلا الله عندما تحضره الوفاة، بإلحاح من أهله، بل ينشد:

لهف نفسي على الزَّمان وفي أي زمانٍ دَهَتْنيَ الأزمانُ[9]

---

(1) الأغاني: 13/ 85. دار الكتب.
(2) الأصفهاني: الأغاني: 12/ 82.
(3) المصدر السابق: 12/ 84.
(4) المصدر نفسه 12/ 94.
(5) المصدر نفسه 12/ 100.
(6) المصدر السابق.
(7) شعراء عباسيون: ص18.
(8) الأغاني: 12/ 103.
(9) أمالي المرتضى: 1/ 142.

والذي يستبدل صلاة ليلة الأضحى بإنشاده:

قد شربنا ليلة الأضحى وساقينا يزيد[1]

ماذا يكون؟

لا ريب في أنه زنديق في دينه ومجتمعه وفكره وسياسته أيضا وهو يقول:

أمسيتُ جمَّ بلابلِ الصدْرِ دَهْراً أزجِّيهِ إلى دَهْرِ
إن فُهتُ طُلَّ دمي وإنْ كُتِمَتْ وَقَدَتْ عليَّ توقُّدَ الجمرِ
مما جناهُ على أبي حَسَنٍ عُمَرٌ وصاحبُه أبو بَكْرِ[2]

ولولا منافقته لأبي جعفر المنصور، يوم بويع ابنه محمد ولياً للعهد، وترويجه لحديث أنه المهدي المنتظر[3]، لقتل على الزندقة، كأمثاله من أعلامها.

4 ـ والبة بن الحُباب: (170هـ / 786م)

شاعر غزل، ظريف، ماجن، وهو أستاذ أبي نواس، رآه غلاماً يبري العود، فاستصحبه معه[4]، حدّث عنه «أبو سلهب الشاعر» قال: «كان والبة صديقي، وكان ماجناً طبعاً خفيف الروح خبيث الدين»[5]، عدّه الجاحظ[6]، من الزنادقة واتهمه أبو الفرج في دينه مع آخرين كثيرين[7]. جعله الخطيب البغدادي من المجّان الخلعاء[8]، ووصف ابن المعتز بطالته

---

(1) الأغاني: 12/ 89.
(2) المصدر السابق 12/ 88. وشعراء عباسيون، ص49.
(3) الأغاني: 12/ 101.
(4) الأصفهاني: الأغاني: 16/ 150 والزركلي: الأعلام: 8/ 19.
(5) الأصفهاني: الأغاني: 16/ 150.
(6) الجاحظ: الحيوان. تحقيق عبد السلام هارون. طبع مصطفى البابي الحلبي بمصر 1938. 4/ 447.
(7) الأصفهاني: الأغاني: 16/ 148 ـ 149.
(8) الخطيب البغدادي (الحافظ أبو بكر محمد بن علي) تاريخ بغداد. مطبعة السعادة القاهرة 1931: 13/ 518.

وإباحته، ورأى أن مسرته في مجالس لهوه وخمره، فهو متكسر متأنث، خليع متخنث[1]، وذلك لقوله:

قد قابلتنا الكؤوسُ ودابَرَتْنا النحوسُ
حتى إذا ما انتشَيْنَا وهزَّنا إبليس
رأيتَ أعجبَ شيءٍ منا ونحن جلوسُ
هذا يُقبِّلُ هذا وذاك هذا يبوسُ[2]

وتراه، في شعره، متهتكاً داعراً، ومتخرماً عاهراً، ولواطياً فاجراً، إذ يقول:

قلتُ لساقينا على خَلْوَةٍ أدنُ كذا رأسك من رَاسي
وادنُ فضع صدرَك لي ساعةً إنِّي امرؤٌ أنكحُ جلاَّسي[3]

فإذا ما كانت هذه حالة والبة، وإذا صحّ ما روي عنه ونقل، فإن زندقته زندقة اجتماعية في أكثرها، فهو يشرب ويطرب، ويصخب ويعربد، ويباشر الغلمان المرد. وربما لاح في قليل من شعره العبث الفكري والشك الديني، يقول:

شربتُ وفاتكٌ مثلي جموحٌ بغُمَّى بالكؤوس وبالبواطي
يُعاطيني الزُّجاجة اريَحِيٌّ رخيمُ الدَّلِّ بُورك من مُعاطي
أقولُ له على طَرَبٍ: أَلِطْني ولو بمؤاجر عِلْجٍ نباطي
فما خيرُ الشرابِ بغيرِ فِسْق يُتابَعُ بالزِّناء وباللُّواط
جعلتُ الحجَّ في غُمَّى وبنّا وفي قُطْرُبُّل أبداً رِباطي
فقل للخمسِ آخرُ مُلْتقانا إذا ما كان ذاك على الصِّرَاطِ[4]

(1) ابن المعتز: طبقات الشعراء: ص88.
(2) المصدر السابق: والأغاني: 16/ 151.
(3) طبقات ابن المعتز: ص89 والأغاني 16/ 148.
(4) الأغاني: 16/ 151 وغمى وبنّا وقطربل: أسماء أمكنة.

5 ـ يحيى بن زياد الحارثي: (160هـ / 776م)

شاعر ماجن أيضا، من أهل الكوفة، رمي بالزندقة مع زنادقة عصره، الذين كانوا يتنادمون، ويجتمعون على الشراب، ويهجو بعضهم بعضاً[1]، ولكننا لم نجد له من الشعر ما يثبت أو ينفي هذه التهمة، ولعله كان كاقرانه، مجرد فتى عابث ماجن يجاهر بحريته الفردية، وقدرته على ارتكاب الفواحش برغم قيود وتقاليد المجتمع الذي كان فيه، علماً أنه قريب لأبي العباس السفاح[2]، ولعل خفة روحه هي التي جعلت الناس يرمونه بالزندقة، يقول الشريف المرتضى عنه: «كان يحيى يعرف بالزنديق، وكانوا إذا وصفوا إنساناً بالظرف قالوا: هو أظرف من الزنديق ـ يعنون يحيى ـ لأنه كان ظريفاً»[3].

ولكنه فيما يبدو، غير طريقة حياته، فنزع عن المجون وأظهر تورعاً، وهجر حماداً وأشباهه لتهتكهم وفجورهم، فلم يرق ذلك لحماد الذي كتب إليه:

هل تذكرن دلجي إليـ ... ـك على المضمرة القلاص
أيام تعطيني وتأ ... خذُ من أباريق الرصاص
وأنا وأنت على ارتكا ... بِ الموبقات من الحراصِ[4]

فلم يسكت يحيى على معاتبة حماد له، وهجائه، بل نسب حماداً إلى الزندقة ورماه بالخروج عن الإسلام، فقال حماد، يعرض بإيمان يحيى ويشكك بما يضمره في صدره من الإيمان:

لا مؤمنٌ يُعرف إيمانُه ... وليس يحيى بالفتى الكافر
منافقٌ ظاهرُه ناسِكٌ ... مخالفُ الباطنِ للظاهرِ[5]

وربما كان حماد على حق فيما قاله عن نفاق يحيى في انه يظهر غير

---

(1) المرتضى: الأمالي: 1/ 131.

(2) ابن خاله.

(3) المصدر السابق 1/ 143.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 13/ 79.

(5) المصدر نفسه. وانظر الأمالي 1/ 143.

ما يبطن لأن من يرفض شهادة: لا إله إلا الله، ونفسه تخرج من جسده يعتبر مارقاً عن الإسلام[1].

ولكن الغالب على زندقة يحيى هو الظرف والتحلل من القيم الاجتماعية.

6 ـ أبان بن عبد الحميد اللاحقي: (200هـ / 815م)

شاعر بصري، من الموالي، اتصل بالبرامكة، فأكثر من مدحهم، ونظم لهم «كليلة ودمنة» شعراً، وكتباً أعجمية أخرى، منها كتاب مزدك[2].

سماه الجاحظ زنديقاً، دون أن يبين لون زندقته[3]، وأشار صاحبه المعذل بن غيلان إلى لون زندقته فنعته بالمانوية، حيث يهجوه ويقول:

رأيتُ أبانـاً يـومَ فِطـرٍ مُـصلِّـياً   فقُسِّمَ فكري واستفزَّني الطَربْ
وكيف يصلِّي مُظلِمُ القلبِ دينُه   على دينِ مانٍ إنَّ ذاك من العَجبْ[4]

ونسبه أبو نواس إلى المانوية أيضا، وأكثر من ذلك، فقد أظهره بهجائه له ـ مادياً لا يؤمن بغير ما يرى، ورافضاً للأنبياء ورسالتهم، كافراً هازئاً بكتاب الله، قال أبو نواس فيه:

جـالـسـتُ يـومـاً أبـانـا   لا دَرَّ دَرُّ أبـانِ
حـتـى إذا مـا صـلاةُ الأُ   ولـى دَنَـتْ لأوَانِ
فـقـال كـيـف شـهـدتُـم   بـذا بـغـيـر عَـيَـانِ؟
لا أشـهـدُ الـدهـرَ حـتـى   تـعـايـنُ الـعـيـنانِ
فـقـلـتُ سـبـحـانَ ربِّـي   فـقـال سـبـحـانَ مـانـي
فـقـلـتُ عـيـسـى رسـولٌ   فـقـالَ مـن شـيـطـانِ

❀ ❀ ❀

(1) المصدر نفسه.
(2) الزركلي: الأعلام 1/ 27.
(3) الجاحظ: الحيوان 4/ 447. طبعة البابي مصر 1938.
(4) الأصفهاني: الأغاني 20/ 74.

وقـمـتُ أسـحـبُ ذيـلـي عـن هـازلٍ بـالـقـرآنِ
عـن كـافـرٍ يـتـمـرَّى بـالـكـفـر بـالـرحـمـنِ[1]

لكن «الصولي» يراه حسن السيرة، حافظاً للقرآن، عالماً بالفقه[2]، وهكذا رآه الخطيب البغدادي[3].

وتجاه هذا الاضطراب في أخباره، نتتبع سيرته وأشعاره لنرى مدى صحة الأقوال فيه، وإلى أي نوع زندقي انتمى.

يبدو أن أبان بن عبد الحميد، كان عالماً منطقياً[4]، فربما اتهم بالزندقة لما ذاع عن معرفته بعلم الكلام والمنطق، كغيره من الشعراء الذين اتهموا، لنظرتهم الفلسفية، وجدلهم المنطقي، وعبثهم الفكري، وشكهم الديني، حيث عمل القصيدة التي ذكر فيها مبدأ الخلق وأمر الدنيا وشيئاً من المنطق، وسماها ذات الحلل[5].

وربما اتهم بالزندقة أيضا، لأنه أجاد الفارسية، ونقل آثارها شعراً كما بينا أعلاه، ولازم البرامكة فكرموه كثيراً، حيث أن مادحيهم من الشعراء، لم يحصلوا على أعطياتهم. إلا من خلاله، وبواسطته يفرق المال على الشعراء، ومن بينهم «أبو نواس»[6]، وربما لاحظ الجاحظ هذا التعصب لتراث الفرس[7]، كما أدرك «فيدا» هذا الاتجاه العرقي، فقرر أنه أبرز أنواع زندقته، يقول:

«كان يعرف الفارسية، ويترجم عنها، وكان على اطلاع وسعة علم

---

(1) المصدر السابق: 20/ 73. وانظر: أبو نواس: الديوان ص543. دار الكتاب العربي.
(2) الصولي (أبو بكر، محمد بن يحيى) الأوراق، قسم أخبار الشعراء. مطبعة الصاوي القاهرة 1934. ص2.
(3) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد. 7/ 45.
(4) ابن المعتز: طبقات الشعراء. ص241.
(5) الأغاني: 2/ 73. والصولي: الأوراق، ص1. وتاريخ بغداد: 7/ 44.
(6) الأصفهاني: الأغاني: 20/ 77. وطبقات ابن المعتز ص202.
(7) الجاحظ: الحيوان: 4/ 451. طبعة البابي مصر 1938.

بأدب الفرس القديم، فكان ذلك داعياً له إلى التعلق بتراث الفرس، والتغني به في جميع مظاهره»[1]، وإضافة إلى ذلك فإننا نرى زندقة أبان، زندقة اجتماعية فكرية عرقية، أكثر منها زندقة دينية، فقد كان من الشعراء الظرفاء[2]، هازلاً عابثاً، يخالط عصبة المجان، ويمازح القيان[3]، ويعشق بعض الغلمان، لكنه كان يتستر في ذلك، ولا يجهر به، قال أبان بن سعيد «أحد حفدته: اشترى جارٌ لجدي أبان، غلاماً تركياً بألف دينار، وكان (جدي) يهواه ويخفي ذلك عن مولاه، فقال فيه:

ليتني والجاهلُ المغـ	ـرورُ مَنْ غُرَّ بلَيْت
نلتُ ممّن لا أسمّي	وهو جاري بيتَ بيتِ
قبلةً تُنعشُ ميتاً	إنّني حيٌّ كمَيْتِ
نتساقى الرِّيقَ بعد الشُّـ	ـرب من راح كُمَيْتِ
لا أسمّيهِ ولكن	هو في كَيْتَ وكَيْتِ[4]

7 ـ عليّ بن الخليل:

شاعر كوفي، مولى لمعن بن زائدة الشيباني[5]، من الذين اتهموا بالزندقة في القرن الثاني للهجرة، اتهمه بها أبو الفرج[6]، ربما لأنه كان يعاشر صالح بن عبد القدوس، وأُخذ معه إلى سجن الزنادقة.

واتهمه الجاحظ بالزندقة أيضا[7]، وابن النديم[8]، والشريف المرتضى[9]، ويبدو أنه رمي بالزندقة لسببين:

---

(1) بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام: ص38.
(2) ابن المعتز: طبقات الشعراء: ص241.
(3) الأصفهاني: الأغاني: 20/ 76 ـ 77.
(4) المصدر السابق: وكان اسم الغلام «يتك».
(5) الأصفهاني: الأغاني: 13/ 14.
(6) المصدر عينه.
(7) الجاحظ: الحيوان: 4/ 447. ط مصر 1938.
(8) ابن النديم: الفهرست، ص437.
(9) المرتضى: الأمالي: 1/ 146.

أ ـ أولهما، أنه كان من رابطة المجان المشهورين. أمثال الحمادين الثلاثة، ومطيع بن إياس، ووالبة بن الحباب... وغيرهم[1]. الذين عاشوا القصف واللهو والمجون حتى الثمالة.

كان علي بن الخليل يطارد الخمرة، وتتولع نفسه بها، ويقول في ذلك:

أولعت نفسي بلذتها ... ما ترى عن ذاك إقصارا

ولا يتورع في طلب الراح العتيق من مولاه، معن بن زائدة، فيشرب وتطيب نفسه فيقول:

يا صاحِ قد انعمتَ إصباحي ... ببارد السلسالِ والراح
قد دارتِ الكأسُ برقراقة ... حياة أبدانٍ وأرواحِ[2]

ب ـ وثانيهما، مرافقته الدائمة لصالح بن عبد القدوس، الذي اتهم بالزندقة وقتل عليها. روى «الشريف المرتضى» أن الرشيد تعقبه حين تعقب الزنادقة فتوارى منه، ثم وفد عليه بالرقة، واعتذر إليه، فعفا عنه، وكتب إلى «حمدوية» (صاحب الزنادقة) ألا يعرض له[3].

وقد مدح علي بن الخليل الرشيد عند الاعتذار إليه، بقصيدة، يبين فيها صفاته التي من أجلها طورد كزنديق. فهو يقر بمجونه وخلاعته، وتتبعه الحسان، ولهوه مع الفتيان، حيث يقول:

يا خيرَ من وَخَدَت بأرحُلِهِ ... نُجُبُ الرِّكابِ بَمْهمَهٍ جَلْسِ
خيرُ الخلائفِ أنت كلُّهمُ ... من يومكَ الماضي وفي أمسِ
إني رحلتُ إليك من فزعٍ ... كان التوكّلُ عندَه تُرسي
ما ذاك إلا أنَّني رَجُلٌ ... أصبو إلى بَقَرٍ من الأُنسِ
وأجاذبُ الفتيانَ بينَهُمُ ... صهباءَ مثلَ مُجاجةِ الوَرْسِ
للماءِ في حافاتها حَبَبٌ ... نظمٌ كطَيِّ صحائفِ الفُرسِ

---

(1) الحيوان. 4/ 447.
(2) الأغاني: 13/ 17.
(3) الأمالي: 1/ 147.

ولكنه، مع كل هذا يعترف بإتمامه الفروض الدينية الإسلامية في بيته الأخير، فيقول:

والـلـهُ يـعـلـمُ فـي بـنـيَّـتِـهِ ما إن أَضَعْتُ إقامةَ الخَمْسِ[1]

فمن قصيدته هذه، ومن قوله للمهدي أنه تاب عن معاقرة الخمرة، نستدل أن زندقته كانت زندقة اجتماعية لا دينية، وإن كان الفصل بينهما صعب للغاية.

أما قصيدته التي قالها للمهدي، وفيها يبين توبته وتوديعه للذات ووصال الغانيات والقينات. فنأخذ منها قوله:

علـى الـلـذّات والـرّاحِ الـسـلامُ تـقـضّى الـعـهـدُ وانـقـطَعَ الـذِّمامُ
مضى عهدُ الصّبا وخرجتُ منه كـمـا مـن غـمْـدِه خرجَ الـحُـسـامُ
وَقُرْتُ على المَشيبِ فليسَ مِنّي وصـالُ الـغـانـيـاتِ ولا الـمُـدامُ
وولّـى الـلّـهـوُ والـقـيـنـاتُ عـنـي كـمـا ولّى عن الصُّبحِ الظّلامُ[2]

8 ـ صالح بن عبد القدوس: (160هـ / 777م)

شاعر حكيم، متكلم، وعظ الناس في البصرة، ناظر العالم الفقيه «أبا الهذيل العلاف»[3] جعله ابن المعتز من الزنادقة[4]، وقال فيه الشريف المرتضى: «إنه كان يؤمن بمذاهب الثنوية»[5]، أما الخطيب البغدادي فعده من مشاهير الزنادقة[6]. واتهمه أبو الفرج مع عبد الكريم بن أبي العوجاء بالثنوية، وجعلهما من اصحاب الكلام[7].

(1) الأمالي: 1/ 147. والأغاني: 13/ 15.
(2) الأغاني: 13/ 17.
(3) الزركلي: الأعلام: 3/ 192.
(4) ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص90.
(5) المرتضى: الأمالي: 1/ 144. ولكنه لم يشر إلى لون مذهبه.
(6) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد: 9/ 303.
(7) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 24.

وربما كان صالح من المتكلمين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الزندقة[1] ومما يؤيد كلامنا مناظرته ومجادلته لأبي الهذيل العلاف وجوابه له عندما سأله، على أي شيء نعزم يا صالح؟ فقال: أستخير الله وأقول: بالإثنين[2]. وعندما ناظره أبو الهذيل في مسالة مشهورة في المزج بين النور والظلمة، الذي ربما، اعتقده صالح وغلب في هذه المناظرة، أنشأ يقول:

أبا الهُذَيلِ هَداك اللهُ يا رجلُ ... فأنت حقاً لَعَمري مُعضِلٌ جَدِلُ[3]

والحقيقة أن زندقة هذا الرجل التي اتهم بها، تندرج في سياق الزندقة الدينية، فهو يؤمن بإحدى عقائد الثنوية ـ لا مجال لتحديد نوعها ـ التي هي شعار المانوية والمزدكية والديصانية والمرقونية[4].

وربما يكون صالح بن عبد القدوس قد تأثر بالفكر والفلسفة اليونانية عندما ألف كتاباً للشكوك، وجذع على موت ابنه جزعاً شديداً، لأنه فارق الدنيا ولم يقرأه، لأن: «من قرأه شك فيما كان حتى يتوهم أنه لم يكن، وفيما لم يكن، حتى يظن أنه قد كان»[5].

لقد كان صالح يخشى السجن والعذاب والقتل، إذا افتضح سره الذي يخفيه في صدره، عندما يقول:

رُبَّ سِرٍّ كتمتُه فكأني ... أخرَسٌ أو ثنى لساِنِيَ خَبْلُ
ولو أني أبيتُ للناس علمي ... لم يكن لي في غيرِ حَبْسِيَ أكلُ[6]

ولهذا تراه يصلي أتم صلاة وأحسنها، وعندما يسأل: «أتصلى ومذهبك معروف؟ يقول: سنة البلد، وعادة الجسد، وسلامة الأهل والولد»[7].

---

(1) ابن النديم: الفهرست. 473.
(2) المرتضى: الأمالي: 1/ 144.
(3) المصدر السابق.
(4) حددنا تعريفها فيما سبق.
(5) ابن نباته: سرح العيون، ص227.
(6) المرتضى: الأمالي: 1/ 145.
(7) المصدر نفسه 1/ 144. وابن المعتز طبقات الشعراء، ص91.

لقد خاف السجن والقتل، فهرب من وجه المهدي عندما تعقب الزنادقة، واستخفى في دمشق زمناً، ولكن المهدي عرف مكانه، فقبض عليه، وألقي في أحد سجون بغداد، ففزع وتألم وقال:

خَرَجْنا من الدنيا ونحن من أهلها فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى
طوى دوننا الأخبارَ سجنٌ مُمنَّعٌ له حارسٌ تهدا العيونُ ولا يَهْدا
قُبرنا ولم نُدفَن فنحنُ بِمَعزِلٍ من الناسِ لا نَخْشَى فَنَغْشى ولا نَغْشى
الا أحدٌ يأوي لأهلِ محلَّةٍ مُقيمين في الدنيا وقد فارقوا الدُّنْيا[1]

وكاد المهدي يأمر بتخلية سبيله، لولا أن تذكَّر مقولته:

وإنّ من أدَّبْتَه في الصِّبا كالعود يُسقى الماءَ في غَرْسِهِ
حتى تراه مُورقاً ناضراً مِنْ بَعْدِ ما أبصرتَ من يُبْسِهِ
والشيخُ لا يتركُ أخلاقَه حتى يُوارى في ثَرَى رَمْسِه
إذا ارعوى عاد إلى جهله كذي الضَّنا عاد إلى نُكْسِهِ[2]

فأمر المهدي بقتله... ونتساءل لماذا؟

ألأنه خاف من السجن؟ وهرب ! أم لأنه تفلسف وتمنطق بكلام اليونان والهنود والفرس؟ وتكلم وناقش وناظر، فَحُسِدَ أما أن أبياته التي سقناها كشواهد، على اتهامه، ممن سبقنا، هي التي أتت على نسمة الحياة فيه هل يغضب عليه الخليفة لأبياته، أعلاه، التي تعج بالحكمة، وتجعل منه إلهاً متأنساً؟ لا أصدق ذلك، ولا أقره، إذا ما عرفنا أن صالحاً له ما لأحد في الزهد في الدنيا، والترغيب في الجنة، والحث على طاعة الله، والأمر بمكارم الأخلاق[3].

ومن كان قاتل صالح على الزندقة؟ المهدي أو الرشيد ـ سيان ـ

---

(1) الأمالي: 1/ 145. وابن قتيبة: عيون الأخبار: 1/ 81. وابن المعتز: الطبقات، ص92.

(2) ابن المعتز: الطبقات: ص90. والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد: 9/ 303. وعلي بن الحسن بن عبد الله (أبو القاسم) تهذيب تاريخ ابن عساكر: دار المسيرة، بيروت: 1975: 6/ 373. وابن خلكان: وفيات الأعيان: 2/ 492.

(3) ابن المعتز: الطبقات: 91و92.

فسبب اعتقاله وقتله أكبر مما ذكرنا وأكثر مما تخيرنا له من أشعار، حاولنا استطلاع زندقته منها. فربما كان قتله على الزندقة لتعرضه لمقام الرسول، واتهامه بالمعشار حيث يقول:

غـصـبَ الـمـسـكـيـنَ زوجَـتَـه ... فَـجَـرَت عـيـنـاه مـن دُرَدِهْ
مـا قـضـى الـمـسـكـيـنُ مـن وَطَـرٍ ... لا ولا الـمـعـشـارُ مـن وطـرهْ
عُـذْتُ بـالـلـه الـلـطـيـفِ بـنـاً ... أن يـكـونَ الـجَـوْرُ مـن قَـدَرِه[1]

فإذا ثبت أن سبب قتله هو قوله لهذا الشعر في (الرسول) عند تزوجه (بزينب بنت جحش) الأسدية بعد أن طلقها مولاها زيد بن حارثة، وما نزل في ذلك من القرآن، فإن زندقته دينية ـ اجتماعية.

9 ـ بشار بن برد: (95 ـ 167هـ / 714 ـ 784م)

مولى بني عقيل، أفصح في شعره عن فسقه وفجوره، وإلحاده وكفره؛ ربما تزندق لاطلاعه الواسع على الديانات الفارسية القديمة، حيث نرى «حماد عجرد» يصفه، بأنه «أعلم بالزندقة من ماني»[2].

كان بشار من أكبر شعراء القرن الثاني الهجري، متهماً بالزندقة، إذ كان (يدين بالرجعة ويكفر جميع الأمة)[3]. جعله عبد القاهر البغدادي كاملياً[4] لقوله: أن الصحابة «وعلياً» معهم قد كفروا متمثلاً بقول عمرو بن كلثوم:

ومـا شـرُّ الـثـلاثـةِ أمَّ عـمـروٍ ... بـصـاحـبـك الـذي لا تـصـبـحـيـنـا[5]

---

(1) ابن عبد البر (أبو عمر يوسف): الاستيعاب في معرفة الأصحاب: تحقيق علي محمد البجاوي: نهضة مصر ـ القاهرة. ص1849. والشيباني: أسد الغابة 5/ 463.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 13/ 76. دار الفكر عن بولاق.

(3) الجاحظ: البيان والتبيين. ص28و41. الشركة اللبنانية للكتاب.

(4) من أتباع «أبي كامل» الذي كفر جميع الصحابة لتركهم بيعة علي، وكفر «علياً» لتركه قتالهم. البغدادي: الفرق بين الفرق. ص54.

(5) المصدر السباق. ص55.

ولشهادة صفوان الأنصاري، وقوله فيه:

أتهجو أبا بكرٍ وتخلعُ بعدَه   عليّاً وتعزو كلَّ ذاك إلى بُرْدِ
كأنك غضبانٌ على الدين كلِّه   وطالبُ ذَحْل لا يبيتُ على حِقْدِ[1]

فصفوان هذا ينسب بشاراً إلى الزندقة الفكرية في سخطه على الدين عامة كما يضعه في صف أتباع الناعطية[2]، ومن المؤمنين بالتناسخ والرجعة، حيث يقول فيه:

أتجعلُ ليلى الناعظيّةِ نِحْلَةً   وكلَّ عريقٍ في التناسخ والردِّ[3]

فبشار، مخضرم الدولتين، الذي ولد أعمى من أب وأم أعجميين، وتربى في أحضان العرب، وولج المساجد في صغره، وقصد البادية بعد ذلك ليجيد الفصحى، وتثقف بمعارف عصره من الفلسفة والمنطق وعلم الكلام، جعله كل ذلك حائراً متخبطاً مخلطاً في عقيدته وتصرفاته[4]، فتارة تراه أعجمياً حاقداً كارهاً للعرب كرهاً شديداً، وطوراً تراه يهاجم الفرس ويمتدح العرب.

تارة تراه يهاجم الإسلام برجاله وكتابه ورسوله، وطوراً تراه يحترم الدين ويحاول إقامة شعائره[5].

فالعناصر التي أسلفنا، والتي تكونت منها شخصية بشار، دفعته إلى التزندق الديني حيناً والفكري والاجتماعي والسياسي، حيثاً آخر. وليس ضرورياً، أن نعزو زندقته إلى هذا المذهب أو ذاك من المذاهب الدينية الثنوية، لأننا نراه، واضرابه، قد عكف في فكره وسلوكه على كثير منها.

(1) المصدر السابق. ص56.

(2) امرأة كوفية عاشت زمن «ابن الحنفية» ولما انتهت ثورة المختار، استقبلت كل مغال في الدين سراً. هدارة: اتجاهات الشعر العربي: ص272. هامش 1 .

(3) الجاحظ: البيان والتبيين، ص30.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 24. وما بعد.

(5) المصدر عينه. والمرتضى: الأمالي: 1/ 138.

ولأجل ذلك نراه مشوشاً في حياته وعقيدته، لا يؤمن إلا بما وقعت عليه حواسه، إذ يقول:

طُبعتُ على ما فيَّ غيرَ مُخيَّرٍ هَوَايَ ولو خُيِّرتُ كنتُ المهذَّبا
أريدُ فلا أُعطَى وأُعطَى ولم أُرِدْ وقصَّر علمي أن أنالَ المُغَيَّبا
فاصرف عن قصدي وعِلمي مُقَصِّرٌ وأُمْسِي وما أَعْقَبْتُ إلا التعجُّبَا[1]

لقد قدس بشار النار، ونوه بعبادتها، وفضلها على الأرض، عندما قال:

الأرضُ مظلِمةٌ والنارُ مشرقةٌ والنارُ معبودةٌ مذ كانت النارُ[2]

وقدم «إبليساً» لأنه مخلوق من النار، على آدم المخلوق من التراب، وصوب رأي إبليس في عدم سجوده لآدم، عندما قال:

إبليسُ خيرٌ من أبيكم آدم فتنبّهوا يا معشرَ الفُجَّارِ
إبليسُ من نارٍ وآدم طينةٌ ذوالأرضُ لا تسمو سُمُوَّ النارِ[3]

وربما كان إيمانه هذا، واستخفافه بالدين الإسلامي، واتهام الناس له بالزندقة قد حداه للحج كذباً، إذ عرج، ونديم له، على قرية تُدعَى «زرارة»، قضيا وقتهما بين القيان والخمر، والفسق والعهر، حتى عودة الحجيج، إذ حلقا رأسيهما، واندسا بين الجماعة عائدين، وتلقاهما الناس مهنئين، فقال نديمه سعد بن القعقاع:

ألم ترني وبشاراً حججنا وكان الحجُّ من خيرِ التجارهْ
خرجنا طالبَيْ سَفَرٍ بعيدٍ فمال بنا الطريق إلى زراره
فآب الناسُ قد حجُّوا وبرُّوا وأُبنا موقرين من الخساره[4]

---

(1) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 62 والأمالي: 1/ 139. وقد رويت بعض كلمات السطر الثاني مختلفة عن الأغاني.

(2) الأغاني: 3/ 24. والأمالي: 1/ 138 مع تبديل في مواضع الكلمات. والبيان والتبيين. ص24.

(3) ديوان بشار بن برد: 4/ 78. نشر محمد الطاهر بن عاشور. طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 42.

وإلى جانب استخفافه بفريضة الحج، تراه يستخف بفريضة اخرى، وهي الصلاة، إذ يقول بعض أصحابه: «حضرت الصلاة، صلاة الظهر والعصر والمغرب ولم يصل» وقد قال عندما سئل عن ذلك: «إن الذي يقبلها تفاريق يقبلها جملة»[1]، ولكنه لم يمارسها تفاريق وجملة، إذ يقول أصحابه: «إذا حضرت الصلاة، قمنا إليها، وجعلنا على ثيابه تراباً حتى ننظر هل يقوم يصلي، فكنا نعود والتراب بحاله وما صلى»[2]. ويطرب بشار عند سماعه غناء جارية، تردد شعره، فيستخفه صوتها ويقول: «والله هذا أحسن من سورة الحشر»[3] مبيناً استهتاره بالقرآن الكريم.

وكم سخر بشار من القصاصين الدينيين، وعلى الأخص، عند وصفهم اتساع دور الجنة واستقبالها العابدين الخاشعين، بقوله: «بئست والله الدار هذه في كانون الثاني»[4].

وتراه يهزأ من الحزانى والمعذبين الشاكرين الله[5]، ولم يكتف بشار بتكفير جميع المسلمين وإدانته بالرجعة والتناسخ، وتصويب رأي إبليس في تقديم النار على الطين، وسخريته بالصلاة والحج... ليكون زنديق دين وحسب، بل تراه زنديقاً في العرق والسياسة أيضا.

تارة يفتخر بولائه لقيس[6]، وأكثر أطواره يتبرأ من ولاء العرب، عازياً انتسابه إلى الله تعالى، وربما كان ذلك لاعتراف العرب المسلمين صراحة بأن «الله أكبر» في مثل قوله:

أصبحت مولى ذي الجلالِ وبعضهم مولى العريب فجدْ بفضلِك فافخَرِ

---

(1) المصدر عينه. 3/ 43.

(2) المرتضى: الأمالي: 1/ 138.

(3) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 55.

(4) المصدر السابق: 3/ 30.

(5) المصدر عينه: 3/ 31.

(6) المصدر: 3/ 21.

مولاك أكرم من تميم كلها أهل الفعالِ ومن قُرَيشِ المعشر[1]

وكم فاخر العرب بأعجميته، مدعياً أنه من بني الأحرار، مسمياً العرب أبناء الرعاة، في مثل قوله لأعرابي:

سأخبرُ فاخِرَ الأعراب عني وعنه حين تأذن بالفخارِ
تفاخر يا ابن راعيةٍ وراعٍ بني الأحرار حسبُك من خسارَ
وكنتَ إذا ظمئتَ إلى قراحٍ شركتَ الكلبَ في ولغ الإطارِ[2]

فهو من خراسان، من بيت كريم، من فرع ناضر يسمو إلى العلا، إذ يقول:

من خراسان وبيتي في الذرى ولدى المسعاةِ فرعي قد سبقْ

ويقول:

وإني لَمِن قومٍ، خراسان دارُهم، كرامٍ، وفرعي فيهمُ ناضرٌ بَسقْ[3]

ولكنه، كما أسلفنا، وقد كان حائراً في تصرفاته مخلطاً في عقيدته، كذلك كان في انتمائه. في مثل قوله:

ونبئتُ قوماً بهم جُنّةٌ يقولون من ذا وكنتُ العلم
نَمَتْ في الكرام بني عامرٍ فروعي، وأصلي قريشُ العجم[4]

إذن تزندق بشار دينياً، وتزندق سياسياً، وزاد على ذلك بزندقة اجتماعية، لعلها كانت سبب مقتله.

ومن المظاهر البينة لزندقته هذه، خلاعته ومجونه، وإفحاشه في غزل فاجر إفحاشاً شديداً، نهاه المهدي عنه[5]، لإفساده به الفتيان. يظهر هذا التعهر والفجور في قصيدة صور فيها تغريره بفتاة صغيرة، وعبثه بها

---

(1) المصدر: 3/ 21.

(2) المصدر 3/ 33.

(3) الجاحظ: البيان والتبيين: ص41.

(4) الأغاني: 3/ 21.

(5) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 41.

ومضاجعته لها، واختراعه حيلة دلها عليها لتتبرأ أمام أمها، وتراه لا يرعى فيها حرمة دين، ولا يخشى سلطاناً ويصف مباشرته للمرأة وصفاً سهلاً مفصلاً، محبباً إليها الانجراف في تيار الإثم والفسق والميل نحوه، واللين له، والتهالك على لذته، يقول[1]:

قد لامني في خليلتي عُمُر ... واللومُ في غيرِ كُنهِهِ ضَجَرُ
قال أَفِقْ قلتُ: لا قال: بلى ... قد شاعَ في الناسِ منكما الخَبَرُ
قلتُ وإذْ شاعَ ما اعتذارك مما ... ليس لي فيه عندهم عُذرُ
حَسبي وحسبُ الذي كلفتُ به ... مني ومنه الحديثُ والنظرُ
أو قُبلةٌ في خلال ذاك وما ... بأسٌ إذا لم تُحَلَّ لي الأُزرُ
أو عضَّةٌ في ذراعها ولها ... فوقَ ذراعي من عضِّها أَثَرُ
أو لمسةٌ دون مِرطِها بيدي ... والبابُ قد حال دونَه السُّتُرُ
واسترخت الكفُّ للعراكِ وقا ... لت إيهِ عني والدمعُ منحدرُ
انهضْ فما أنت كالذي زَعموا ... أنت وربي مغازل أَشِرُ

❀ ❀ ❀

أهوى إلى معضدي فعضَّضه ... ذو قوّةٍ ما يُطاقُ مُقتدِرُ
حتى علاني واسرتي غِيَبٌ ... ويلي عليهم لو أنَّهم حضروا
كيف بأمي إذا رأت شفتي ... أم كيف إن شاع منكِ ذا الخبرُ
قلت لها عند ذاك يا سَكَني ... لا بأسَ إنِّي مُجرِّبٌ خَبِرُ
قولي لها بَقَّةٌ لها ظُفُرٌ ... إن كان في البقِّ ما له ظُفُرُ

وكما أغرى المرأة بالتهافت على الرجل، كذاك أغرى الرجل بالتهافت عليها، والمتاع بها مبيناً أن صدها هو وصال الرجل وبذل نفسها له، يقول:

لا يؤيَسنَّكَ مِنْ مخبَّأةٍ ... قولٌ تغلِّظُهُ وإن جَرَحا
عُسرُ النساءِ إلى مُيَاسرَةٍ ... والصَّعْبُ يُمكن بعدما جَمَحا[2]

---

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر: 3/ 69.

ويمضي بشار في غزله الفاجر، يقوله أمام الخليفة المهدي، الذي رأى جارية تستحم فلما رأته «حصرت ووضعت يدها على فرجها» فأنشأ يقول: نظرت عيني لحيني، ثم ارتج عليه فسأل من بالدار من الشعراء؟، قالوا بشار فأذن له وقال له أجز، فقال بشار[1]:

نـظـرت عـيـنـي لـحـيـنـي | نـظـراً وافـق شـيـنـي
سـتـرت لـمـا رأتـنـي | دونـه بـالـراحـتـيـن
فـضـلـت مـنـه فـضـول | تـحـت طـي الـعـكـنـتـيـن
فـتـمـنـيـت وقـلـبـي | لـلـهـوى فـي زفـرتـيـن
إنـنـي كـنـت عـلـيـه | سـاعـةً أو سـاعـتـيـن[2]

ولعراقة بشار في الغزل الإباحي، حاول الاحتجاج للمعصية، فأحلّ القبلة والملامسة واقتطاف ثمرات الجسد، دونما حياء وخفر، فالحياة فرص للذة لا يملك هذه الفرص إلا المقدام الجسور، يقول:[3]

لا خيرَ في العيشِ إن كُنَّا كذا أبداً | لا نلتقي وسبيلُ المُلَتقى نَهجُ
قالوا حرامٌ تلاقينا فقلتُ لهم | ما في التلاقي ولا في قُبلةٍ حَرَجُ
مَنْ راقب الناسَ لم يَظْفَر بحاجَتِه | وفازَ بالطيّبات الفاتكُ اللَّهِجُ

وإذا ما اجتزنا غزل بشار التهتكي الإباحي الفاجر، وخمرياته ومجونه[4]، نصل بزندقته الاجتماعية إلى هجائه اللاذع ولسانه السليط في هذا الميدان، فنراه وقد هاجم المجتمع بكل طبقاته، حتى توصل إلى رأس الهرم في الدولة العباسية، إذ أنشد في حلقة يونس النحوي أبياتاً شنيعة هجا فيها المهدي وزوجه الخيزران[5]. فحملت الأبيات إلى الوزير يعقوب بن

---

(1) المصدر: 3/ 64.
(2) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 64.
(3) المصدر السابق: 3/ 49. نهج: الطريق الواضح.
(4) المصدر السابق: 3/ 66و3/ 43.
(5) المصدر السابق: 3/ 70. في الأبيات كلمات داعرة نعف عن ذكرها. وانظر هجاءه للعلماء 3/ 50.

داود وكان قد وجد على بشار لقوله فيه:

بـنـي أُمـيّـةَ هـبُّـوا طـالَ نـومُـكـم إنَّ الـخـلـيـفـة يـعـقـوبُ بـنُ داودِ
ضاعت خلافتكم يا قومُ فالتمسوا خـلـيـفـة الله بـيـن الـزقّ والـعـودِ[1]

وحملها الوزير إلى المهدي في حقدٍ وإغراء عليه، وشهد أمام الخليفة بزندقته فأمر أن يضرب ضرب التلف، وبسبب هذا الضرب، مات بشار[2].

ومجمل القول في هذا الشاعر، الذي سئل مرة، أي متاع الدنيا آثر عندك؟ فقال: طعام مزّ وشراب مرّ وبنت عشرين بكر»[3]. هو ما رآه فون كريمر «من أن بشاراً لم يستطع أن يتخذ له وجهة معينة، فكان بين الشك واليقين وعلى الأغلب ملحداً حتى آخر حياته، اعتنق الإسلام ظاهراً، ونفاه باطناً[4]. فيكون والحالة كما قدمنا زنديق دين واجتماع وسياسة.

10 ـ آدم بن عبد العزيز:

شاعر عربي قريشي، حفيد لعمر بن عبد العزيز[5]، الخليفة الأموي الذي عد في مصاف الخلفاء الراشدين لزهده وتقواه. عاش شبابه خليعاً ماجناً ظريفاً، منهوكاً في الشراب، أخذه المهدي وضربه ثلثمائة سوط على أن يقر بالزندقة، فقال: «والله ما أشركت بالله طرفة عين، ومتى رأيت قرشياً تزندق»[6]. ولكن الذي يتتبع ما روي له من أشعار، يشتم منها رائحة زندقة اجتماعية في مثل قوله:

---

(1) المصدر عينه.
(2) طه حسين: حديث الأربعاء. دار الكتاب اللبناني 1980. ص531.
(3) الأغاني: 3/ 50.
(4) فون كريمر: الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية. ترجمة مصطفى طه بدر. نشر دار الفكر العربي. القاهرة. 1947م. ص101.
(5) هو آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم، وأمه بنت سفيان بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم. الأصفهاني: الأغاني 14/ 60.
(6) المصدر السابق: 14/ 61.

اسـقِـنـي واسـقِ غُـصَـيـنـاً	لا تَـبـع بـالـنـقـدِ ديـنـاً
اسـقـنـيـهـا مُـرَّةَ الـطـعـم تُـريـك الـشـيـن زيـنـاً[1]

فهو يريد الخمرة له ولغصين، معتقة، طعمها مرة. ويشتم من قول له آخر رائحة زندقة اجتماعية دينية، حيث ينكب على شرب الخمر طيلة الليل، مفرطاً في سكره ومجونه، لا يخاف لومة فقيه، وتراه يدعوه إلى تركها والانسياق وراء إيمانه في رجاء الآخرة، هذه الآخرة التي لن يحصل فيها الفقيه إلا البكاء على ما مرّ من عيش لذيذ لم يحياه في حياته الدنيا، يقول:

اسـقِـنـي واسـقِ خـلـيـلـي	فـي مَـدَى الـلـيـلِ الـطـويـلِ
قـهـوةً صـهـبـاءَ صِـرْفـاً	سُـبـيَـت مـن نـهـرِ بـيـل

❁ ❁ ❁

فـي لـسـانِ الـمـرءِ مـنـهـا	مـثـلُ طـعـم الـزنـجـبـيـلِ
مَـن يَـنـلْ مـنـهـا ثـلاثـاً	يـنـسَ مِـنْـهـاجَ الـسـبـيـلِ
فـمـتـى مـا نـالَ خـمـسـاً	تـركـتـه كـالـقـتـيـلِ

❁ ❁ ❁

قـل لـمـن يـلـحـاكَ فـيـهـا	مـن فـقـيـهٍ أو نـبـيـلِ
أنـت دعـهـا وارجُ أُخـرى	مـن رحـيـقِ الـسَـلْـسَـبـيـلَ
تـعـطـش الـيـومَ وتُـسـقـى	فـي غـدٍ نـعـتَ الـطـلـولِ[2]

لعلّ آدم بن عبد العزيز لم يشك بالله، ولم يكفر به، كما قال في حضرة المهدي: «كنت فتى من فتيان قريش أشرب النبيذ، وأقول ما قلت على سبيل المجون، والله ما كفرت بالله قط، ولا شككت فيه»[3]، ولكنه شكك بالدنيا الآخرة، وبهذه المحرمات التي فرضت على الإنسان، وهي

---

(1) المصدر عينه.
(2) المصدر عينه.
(3) المصدر عينه.

بنظره مستحلات، فيها لذة الإنسان وسروره، فهو يطلب الخمرة، كؤوساً بعد كؤوس من مدامة معتقة، ومن لامه على ما يفعل نعته بأفحش السباب عند العرب. يقول:

اسقني يا معاوية سبعة أو ثمانية
اسقنيها وغنِّني قبل أخذِ الزبانية
اسقنيها مُدامة مُزّة الطعم صافية
ثم من لامنا عليها فذاك ابن الزانية[1]

11 ـ سَلْم الخاسر: (168هـ / 802م)

شاعر خليع ماجن، من أهل البصرة من الموالي[2]، أبطن الكفر وأظهر الإسلام، فرمي بالزندقة[3]، روى ابن المعتز[4]، أنه كان فاسقاً ماجناً، وأنه سمي (خاسراً) لأنه باع مصحفاً ورثه عن أبيه، واشترى بثمنه طنبوراً، فقيل له: «ويلك ! في الدنيا أحد فعل ما فعلت؟ تبيع مصحفاً وتشتري بثمنه طنبوراً؟ فقال: ما تقرب أحد إلى إبليس بمثل ما تقربت إليه، فإني أقررت عينه»!!.

وإذا ما صحت هذه الرواية فإن سلماً يكون زنديق دين، حيث يعترف صراحة بأنه أقر عين إبليس بابتعاده عن القرآن وما يحوي بين دفتيه من تقرب إلى الله، وملازمته الغناء لشرائه الطنبور بثمن القرآن.

وسلم هذا اغرق في التهتك، وأوغل في الإباحة والخلاعة والفسق والفجور[5]، ولا سيما أنه كان من تلامذة بشار، السالف الذكر، فتعلم على منواله، وسار سيره، طبعاً ومذهباً وشعراً. هذا في الشطر الأول من

(1) المصدر عينه.
(2) الزركلي: الأعلام: 3/ 110.
(3) ابن النديم: الفهرست: ص473.
(4) ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص93. دار المعارف مصر 1956.
(5) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد: 9/ 136.

حياته، أما في الشطر الثاني فقد طلب اللهو والهزل والظرف[1]، ليندرج اسمه أيضا في مصاف الزنادقة الاجتماعيين.

ويبدو أن شعره في المجون والخلاعة والفسق قد ضاع، لكننا نستخلص من بعض أهاجيه، أنه كان يقنع في الكلام، ويطعن في الأعراض، ويزري في الإفحاش، من ذلك قوله في والبة بن الحباب، وقد تنافرا وتهاجرا:

يا والبَ بن الحُبابِ يا حَلَقِي   لستَ من أهلِ الزِّناء فانطلِقِ
تُدخِلُ فيه الغُرمولَ تولجُه   مثلَ وُلوجِ المفتاحِ في الغلقِ[2]

وفي أخباره الفاحشة المزرية، أنه طلب من أبي محمد اليزيدي أن يهجوه تماجناً وتعابثاً، فهجاه هجاءً خبيثاً، اتهمه بالتنكر لوالديه، وباللواط، فهتك حرمته وكرامته، حيث يقول:

عقَّ سَلْمٌ أمَّهَ صِغراً   وأبا سَلْمٍ على كِبَرِهْ
كلَّ يوم خلفَه رجُلٌ   رامحٌ يسعى على أثره
يُولجُ الغُرمُولَ سَبَّتَهُ   كَوُلوجِ الضَّبِّ في جُحُرِه[3]

وسلم المولى الأعجمي الأصل يمدح البرامكة في شخص يحيى بن خالد[4]، ويدعوهم إلى الإقبال على متع الدنيا وملذاتها، وانتهاز فرصها، آخذاً معنى استاذه بشار في قوله: «من راقب الناس» بصياغته هو:

من راقب الناسَ مات همّاً   وفاز باللذة الجسورُ

ويبدو لنا من أشعاره التي وصلتنا أن زندقته كانت زندقة اجتماعية، وربما دينية على رأي الرواة.

---

(1) ابن المعتز: طبقات الشعراء: ص100. والبغدادي: تاريخ بغداد: 9/ 139. وابن خلكان: وفيات الأعيان 2/ 352.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 16/ 261 طبعة ساسي. الحلقي: من قولهم: أتان حلقية، إذا تداولها الحمر حتى أصابها داء في حرمها. الغرمول: الذكر.

(3) المصدر السابق: 19/ 271. السبة: الأست.

(4) المصدر: 3/ 49. دار الفكر عن بولاق.

12 ـ أبو نوّاس: (146 ـ 198هـ / 763 ـ 814م)

الحسن بن هانئ، مولى عبد الله الحكمي، شاعر العراق في عصره، ورجل اللغة والفصاحة، أول من نهج للشعر طريقته الحضرية وأخرجه من اللهجة البدوية، تنقل بين أفنان الشعر، وحط على فنن، لزاجه رحيق الحياة وأنفاسه عطر المدامة[1].

لم يسلم من تهمة الزندقة، التي قرفه بها بعض أهل عصره، وكثير من القدماء، لسبب أو لآخر. فالفضل بن الربيع، رماه بها، ليوقع به، وينال منه بعد أن عرض بنسبه، فجمعه في حلقة مع الفقهاء ـ والشعراء حاسديه ـ، بين يدي الرشيد، ثم قال له: ألست القائل:

يا أحمدُ المُرتجَى في كل نائبةٍ قم سيِّدي نعصِ جبّار السماواتِ

قال: بلى، قال: يا أمير المؤمنين، كافر، ثم أخذ رأي الفقهاء والشعراء فوافقوه ولكن الرشيد صدقه وسفه خصومه عندما قال: «أنى يكون زنديقاً من يقر أن للسماوات جباراً!!»[2]. وأما الفضل فما زال يرصده بعد ذلك حتى سمع عنه أنه قال:

ما جاءني أحدٌ يُخبِّرُ أنه في جنَّةٍ مَنْ مات أو في نارِ

فحبسه بهذا البيت[3].

وسليمان بن أبي جعفر العباسي، اتهمه في مجلس الرشيد، بالإلحاد، وإنكار البعث والحساب، وإدمان الشراب، والإغراق في المجون، وروى شيئاً من شعره الذي يؤيد كلامه، فقال الرشيد للفضل «برئت من المنصور

---

(1) الزركلي: الأعلام 2/ 225.

(2) أبو هفان (عبد الله بن أحمد بن حرب المهزمي) أخبار أبي نواس: تحقيق عبد الستار أحمد فراج. نشر مكتبة مصر بالقاهرة 1953. ص106 وأحمد المذكور: غلام كان أبو نوّاس يتعشقه.

(3) المصدر عينه.

إن لم يبت هذا الكلب في المطْبِق!»[1].

والخليفة (الأمين)، نسبه إلى الزندقة لظرفه وهزلة، فحاول بشعره دفع عنه تهمة الكفر بالله، واعترف بإقامة الصلوات، والتطهر، ولكنه اعترف أيضا بمعاقرته للخمرة، إذ يقول:

أصلِّي صلاة الخمس في حين وقتها	وأشهدُ بالتوحيدِ لله خاضعا
وأُحسِنُ غسلاً إن رَكِبت جنابةً	وإن جاءَني المسكين لم أكُ مانعا
وإني وإن حانت من الكأس دعوةٌ	إلى بَيْعةِ السَّاقي أجبتُ مسارِعا[2]

ومهلهل بن يموت ـ وهو من القرن الرابع ـ يكتب عن كفريات أبي نوّاس. وابن منظور يكتب عن زندقته[3]. فهل كان أبو نوّاس زنديقاً؟ وما نوع الزندقة التي عاشها؟

إن صاحب «الفرح والتهاني» ينسبه إلى الثنوية دون تحديد نوعها[4]. وقد حددها محمد بديع شريف بالمانوية والمزدكية، ونقل عن فون كريمر قوله في أبي نوّاس: «إنه كان واسع الحيلة، فاستطاع بذلك أن يستخف بالعقيدة، وينشر الضلال والزندقة ويتكلم بما يريد دون حياء أو خجل» ثم عقب على ذلك بقوله: «إننا نجد في شعر أبي نوّاس مظهراً واضحاً من مبادئ المانوية والمزدكية من حيث إثارة الشك في العقيدة ومهاجمة الدين، والإباحة المطلقة، والغزل بالمذكر، وتعصبه لقومه والحط من شأن الدين والأدب العربي»[5].

---

(1) المرزباني: (أبو عبيد الله، محمد بن عمران): الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء: تحقيق علي محمد البجاوي. طبع دار نهضة مصر 1965. ص426. فيما بعد الموشح.

(2) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد 7/ 440. طبع مكتبة الخانجي بمصر 1931.

(3) هدارة: اتجاهات. ص254.

(4) الفرح والتهاني بأخبار الحسن بن هاني، (مجهول المؤلف)، مصورة معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية رقم 632. ورقة 15.

(5) محمد بديع شريف: الصراع بين الموالي والعرب. دار الكتاب العربي. مصر 1954. ص93 وما بعدها.

ومحمد جابر عبد العال، يراه ناكراً للبعث والحساب، محلاً الخمر، ومبيحاً النساء والغلمان واقتناص الملذات، رافعاً ممدوحه ـ علي بن موسى الرضا ـ إلى مصاف الآلهة، حيث أن «جبريل» قد خدم أباه، في قوله:

أنا لا أستطيع مَدْحَ إمام كان جبريلُ خادماً لأبيه[1]

وابن قتيبة بكفره أو يكاد، لقوله:

تعلَّل بالمنى إذ أنت حيٌّ وبعد الموتِ من لَبَنٍ وخَمْرِ
حياةٌ ثم موتٌ ثم بعثٌ حديثُ خُرافةٍ يا أمَّ عَمْرِو[2]

ولكن إلى أي مدى وصل أبو نواس في شعره الذي اتهم بالزندقة بسببه؟ إن أول ما نراه من هذا الشعر إنكاره للبعث والنشور، إنكاراً تاماً، فهو يقول:

وأيسرُ ما ابثُّك أنَّ قلبي بتصديقِ القيامةِ غيرُ صافِ[3]

ويقول في موضع آخر:

قلتُ والكأس على كَفِّيَّ تَهوِي لالتثامي
أنا لا أعرف ذاك اليومَ في ذاكَ الزِّحامِ[4]

كما نراه ينكر القدر والجبر، ويظهر إيمانه بالموت والفناء فحسب[5] بقوله:

ما صحَّ عندي من جميع الذي يُذكر إلا الموتُ والقبرُ

---

(1) محمد جابر عبد العال: حركات الشيعة المتطرفين، وأثرهم في الحياة الاجتماعية والأدبية لمدن العراق، إبان العصر العباسي الأول. مطبعة السنة المحمدية. القاهرة 1954. ص273.

(2) ابن قتيبة: الشعر والشعراء: 2/ 691.

(3) الراغب الأصفهاني: (أبو القاسم حسين بن محمد): محاضرات الأدباء ـ المطبعة الشرقية ـ القاهرة ـ 1326هـ: 2/ 183.

(4) مهلهل بن يموت بن المزرع: تحقيق محمد مصطفى هدارة. سرقات أبي نوّاس: دار الفكر العربي ـ القاهرة 1957. ص144.

(5) الجرجاني (علي بن عبد العزيز) الوساطة بين المتنبي وخصومه. نشر دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1951م. ص63.

ويكرر هذه المعاني، مشيراً إلى عصبة المجان التي ينتمي إليها لأن أفرادها جميعهم مؤمنون بأفكاره، يقول:

عـاذلـتـي بـالـسَّـفَـاةِ والـزَّجـرِ ... اسـتـمـعـي مـا أَبُـثُّ مـن أمـري
بـاح لـسـانـي بِـمُـضْـمَـرِ الـسـرِّ ... وذاك أنّـي أقـولُ بـالـدهـر
بـيـن ريـاضِ الـسـرور لـي شِـيَـعٌ ... كـافـرةٌ بـالـحـسـابِ والـحَـشْـرِ
مُـوقِـنَـةٌ بـالـمـماتِ جـاحـدَةٌ ... لِـمَـا رَوَوْهُ مـن ضـغـطـةِ الـقـبـرِ[1]

وأبياته هذه صريحة في زندقتها وكفرها، لأنه ينكر البعث والحساب، ويؤمن بقول الدهرية، إن حالة الإنسان إلى فناء وزوال، كحالة الحيوان والنبات، وشك في الجنة والنار ومثلها قوله:

ومُلِحَّةٍ بـالـعَـذْلِ تـحـسِـبُ أنَّـنـي ... بـالـجَـهـلِ أُوثـرُ صُـحْـبَـةَ الـشُّـطَّـارِ
بَـكَـرَتْ عـلـيَّ تـلـومُـنـي فـأجـبـتُـهـا ... إنـي لأعْـرِفُ مـذهـبَ الأبـرارِ
فـدَعِـي الـمـلامَ فـقـد أضعـتُ غـوايـتـي ... وصـرَفـتُ مـعـرفـتـي إلـى الإنـكـارِ
ورأيـتُ إيـثـاري الـلـذاذةَ والـهَـوَى ... وتـعـجُّـلـي مـن طـيـبِ هـذي الـدّارِ
أحـرى وأحْـزَمَ مـن تـنـظُّـرِ آجِـلٍ ... عـلـمـي بـه رَجْـمٌ مـن الأخـبـارِ
مـا جـاءنـا أحـدٌ يُـخـبِّـر أنَّـه ... فـي جَـنَّـةٍ مُـذْ مـاتَ أو فـي نـارِ[2]

في كلامه هذا ضرب من الزندقة الدينية، وفي بيتيه الأخيرين نشتم رائحة زندقة فكرية فلسفية منطقية، وربما يكون أبو نواس قد اطلع على مثل هذه العلوم ودرسها وتعمق فيها، وبان أثرها في أشعاره، كما يذكر صاحب «الفرح والتهاني» الذي يقول: «صحب أبو نواس إبراهيم النظام واشتهى الكلام فبان ذلك في أشعاره»[3]، وتأثير هذه العلوم في نفسه ربما أدى به إلى ذلك الشيء من الشك والارتياب، فتمرد على الدين، وأظهر القول

---

(1) المصدر السابق.

(2) أبو هفان: أخبار أبي نواس: ص21و37. وأنظر المرزباني (أبو عبيد الله، محمد بن عمران): الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، تحقيق علي محمد البجاوي - طبع دار النهضة، مصر، 1965، ص429.

(3) الفرح والتهاني بأخبار الحسن بن هاني: ورقة 4 (مخطوط).

بالدهر وأعلن الكفر بالنشر والحساب، غير مصدق للثواب والعقاب. ويستخرج ابن منظور هذا المعنى للزندقة، وينص على أنه أقوى وجوه زندقة أبي نواس، مبعداً إياه عن الزندقة الدينية ومضيفه إلى الزندقة الفكرية[1].

وأبو نواس، الشاك في البعث والحساب، والرافض لعقيدة الجنة والنار، والقائل بالدهر، لم يكتف بمثل هكذا زندقة، بل تراه سكيراً ماجناً فاجراً، تعدى جريه وراء المرأة إلى تصرف شاذ، حيث يعلق قلبه بالغلمان المرد، فيعبث بهم بما يخالف سنة الحياة وطبيعة الإنسان. ولنسمع قوله في غلام شادن، مصوراً نفسه يبكي، ليس شوقاً وتلهفاً إلى جنة موعودة فيها حور العيون، ولا خوفاً من هول قبر، بل يبكي عندما يرى بكاء غلام يحبه، ويود أن يتقيه بنفسه:

لم أبكِ في مجلس منصورِ ... شوقاً إلى الجنَّةِ والحُورِ
ولا من القَبْرِ وأهوالِه ... ولا من النفخةِ والصُّورِ
لكن بكائي لِبُكا شادِنٍ ... تَقيهِ نفسي كلَّ محذُورِ[2]

وفي شعر آخر من غزله الشاذ بالغلمان المرد، تراه يفحش ويثور على الدين، فيجحد البعث والقيامة، ويرتاب بالحساب والعقاب، ولولا خوفه من إمام ينعته بالفسق والفجور لأحب أن يتبع هذا الحبيب ويدخل حتى في دينه ودين جماعته. يقول:

ومُلِحَّةٍ بالعذلِ ذات نصيحةٍ ... ترجو إنابةَ ذي مُجونٍ مارقِ
بَكَرَتْ تخوِّفني المَعَادَ وشيمتي ... غيرُ المعادِ ومذهبي وخلائقي
فأجبتها كفي ملامَك إنني ... مُختارُ دينِ أقِسَّةٍ وجثالقِ
والله لولا أنني مُتخوِّفٌ ... أن أُبتلى بإمامِ جَوْرٍ فاسقِ
لتبعتُهم في دينِهم ودَخَلْتُه ... ببصيرةٍ مني دخولَ الوامِقِ

---

(1) ابن منظور (جمال الدين بن مكرم المصري أبو الفضل): أخبار أبي نواس: الجزء الأول، مطبعة الاعتماد القاهرة 1924. والثاني، مطبعة المعارف، بغداد 1952. 1/ 6.

(2) الحسن بن هانئ: (أبو نواس) الديوان: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي، بيروت 1982، ص392.

ومُدامةٍ مثلُ الخَلُوقِ، عتيقةٍ   حُجِبَت زماناً في كنائس دابقِ
باكرتُها من كلِّ أغيدَ شادنٍ ،   حسنِ التنغُّم، فوق سؤْلِ العاشقِ
لَبِقٍ، بديعِ الحسنِ، لو كلَّمْتَه   لَنَبَذْتَ دينَكَ كلَّه من حالِقِ[1]

وما دمنا في غزله الإباحي المتهتك تارةً بالغلمان، وطوراً بالنساء، فلنر ما يقوله في (جنان)، التي كلف بها وأسرف في حبها، وورط نفسه في كثير من الإثم بسبب ملتقاها، وأين؟ في المسجد الحرام ! يتلامس الخدان، ويتهامس العشيقان، بدلاً من التخشع والسجود في مكان ترنو إليه أنظار المسلمين من كل بقاع الأرض، يقول:

وعاشِقَيْنِ التفَّ خدَّاهما   عند التثام الحجرِ الأسودِ
لولا دفَاعُ الناسِ إيّاهُما   لما استَفَاقَا آخِرَ المُسْنَدِ
قُلنا كِلانا ساتِرٌ وجهَهَ   مِمَّا يلي جانِبَه باليَدِ
نفعلُ في المسجِدِ ما لم يَكُن   يفعلُهُ لأبرارُ في المسجِدِ[2]

ولا يرعوي أبو نواس، عندما يزجره أحدهم بقوله: «ويحك ! ألا يمنعك خوف الله، ولا يردك حياء من الناس؟» فيقول: «يا أحمق: وحسبت قطع المهامه والسباسب والرمال إلا للذي حججت له وإليه قصدت !»[3].

فهذا الذي يفحش في مكة المكرمة حيناً، وحيناً آخر يدعو إبليس ليرد إليه غلامه المفضل الذي كان «يلوط به»، وأدبر عنه، في مثل قوله:

لمَّا جفاني الحبيبُ، وامتنَعَتْ   عنِّي الرسالاتُ منهُ والخَبَرُ
دعوتُ إبليسَ، ثم قلتُ له   في خلوةٍ، والدُّموعُ تنهمِرُ

ويدّعي أن إبليس قد استجاب لدعائه:

---

(1) المصدر السابق: ص219و220 والمرزباني: الموشح: ص428. والوامق: المحب. الحالق: الجبل المرتفع.

(2) ديوان أبي نواس، ص233.

(3) المصدر عينه (الحاشية). والذي زجره هو محمد بن عمرو الجماز، ابن أخت سلم الخاسر، وقد عرفه ورأى سوء فعلته.

فـمـا مَـضَـت بـعـد ذاك ثـالِـثَـةٌ حتـى أتـانـي الـحـبـيـبُ يـعـتـذِرُ[1]

ألا يكون زنديقاً؟ لا ريب أنه زنديق اجتماعي كبير، وقد يطول بنا المقام لو تتبعنا غزل أبي نواس في النساء والغلمان. ولكن الذي يقرأ قوله ومجونه في غلام، أفحش في وصاله، تحدوه الرغبة في وضع كتاب في هذا الباب، يقول:

رُبَّ غـــزالٍ كـــأنَّـــه قَـــمَـــرٌ لاح فـجـلّـى الـدُّجـونَ فـي الـبَـلَـدِ
سـألـتُـه الـوصـلَ كـي يَـجـودَ بـه فـضَـنَّ عـنِّـي بـه، ولـم يَـجُـدِ
فـقـلـتُ لـلـظـبـي فـي صـعـوبـتـه: يـا طـيِّـبَ الـروحِ، طـيِّـبَ الـجـسـدِ
كـم مـن أخٍ جـاد بـالـوصـالِ فـمـا أُخْـبِـلَ مـن وَصْـلِـنـا ولـم يَـلِـدِ!

❀ ❀ ❀

فـقُـمـتُ حـتـى حَـلَـلْـتُ مـئـزَرَه مـنـه، وسـوَّيْـتُ فَـخْـذَهُ بـيـدي
ثـم اعـتـنَـقْـنـا، وظَـلْـتُ أَلْـثُـمـه وثـغـرُهُ مـثـلُ سـاقـطِ الـبَـرَدِ[2]

ونمسك ختام غزلياته بتصريحه أنه يعشق غير هياب، وله دين في هذا المضمار وللناس آخر، فلم يفسدون عليه حياته؟ ويسفهون أقواله؟ يقول:

إنِّي عشِقتُ وما بالعِشْق من باسٍ ما مرَّ مِثلُ الهوى شيءٌ على راسي
ما لي ولِلناسِ كم يلحونَني سفهاً ديني لِنَفْسي، ودينُ الناسِ للنَّاسِ[3]

أما عن مجون أبي نواس في خمرياته، فالحديث عنها طويل وشيق، وكيف لا؟ وأبو نواس شاعر الخمرة الأول في كل تاريخ الأدب العربي، «واشد الشعراء عناية بالخمر، وأكثرهم افتناناً فيها، وأن الناس جميعاً شهدوا له في ذلك بالسبق والتقدم، لم يفضلوا عليه أحداً من الشعراء، الذي جاءوا قبله، أو بعده، وهم محقون في ذلك»[4]، فهو بشعره فيها لا يريد الوقوف على طلل، كما فعل سابقوه، بل يسأل عن خمارة البلد

(1) المصدر عينه. ص313.
(2) المصدر السابق، ص197.
(3) طه حسين: حديث الأربعاء. ص436.
(4) طه حسين: حديث الأربعاء، ص413.

ليشربها معتقة من كف غلام أهيف، يقول:

عاجَ الشقيُّ على رَسْمٍ يسائِلُه   وعُجْتُ أسألُ عن خمَّارةِ البلدِ
دعْ ذا عدِمْتُكَ واشربْها معتَّقَةً   صفراءَ تعرُقُ بين الروحِ والجَسَدِ
من كفِّ مُضْطمِرِ الزُّنَّارِ مُعْتَدِلٍ   كأنَّهُ غُصْنُ بانٍ غيرُ ذي أوَدِ[1]

وأبو نواس في جريه وراء الخمر، لا يحفل بقاعدة دينية أو خلقية، بل يتخذ الإباحة والصراحة مذهباً، ويرى الحياة، سكرةً بعد سكرة، وفتكاً ومجوناً ثم كفراً، وذلك بقوله:

ألا فاسقني خمراً وقُلْ ليْ هِيَ الخمرُ   ولا تسقِني سرّاً إذا أمكنَ الجهرُ
فعيشُ الفتى في سكرةٍ بعد سكرةٍ   فإن طالَ هذا عندَه قَصرَ الدَّهرُ
ولا خيرَ في فَتْكٍ بغَيْرِ مَجَانةٍ   ولا في مُجونٍ ليس يتبعُه كُفْرُ[2]

وإذا ما أردنا جمع وتحليل خمريات هذا الشاعر[3]، لضاق عنه هذا البحث، ولكننا نقول إن ظاهر نصوص خمرياته وغزله الفاحش، تنبئ بأنه كان زنديقاً، وأن زندقته أشبه بالزندقة الفكرية الاجتماعية والدينية. فمن زندقته الفكرية قوله:

دعْ عنك لومي فإنَّ اللومَ إغراءُ   وداوني بالتي كانت هي الداءُ

❀ ❀ ❀

وقل لمن يدَّعي بالعلم معرفةً   حفِظْتَ شيئاً، وغابَتْ عنك أشياءُ
لا تحظُرِ العفوَ إن كنتَ امرَأً حَرِجاً   فإنَ حظرَكَهُ في الدين إزراءُ[4]

أما الاجتماعية ففي قوله:

---

(1) المصدر السابق، ص416. والديوان، ص46. وهناك بعض الاختلاف في رواية الكلمات.

(2) الديوان: ص28. والبيت الأخير في: طه حسين: حديث الأربعاء: ص418. وانظر بقية القصيدة في الديوان. حيث تراه مع عصبة من المجان يفحشون ويفجرون بغلام يلوطون به الواحد تلو الآخر.

(3) انظر إلى القصائد في الديوان في باب الخمريات وخاصة ص1و6و24...

(4) المصدر نفسه.

وصيفُ كأسٍ مُحدِّثُهُ مَلِكٌ   تيهُ مُغَنٍّ وظرفُ زنديقِ[1]

وأما الدينية ففي مثل قوله:

حياةٌ ثم موتٌ ثم بعثٌ   حديثُ خُرافةٍ يا أمَّ عَمْرو[2]

وخلاصة القول أن ابا نواس عاش ماجناً يرى السعادة في اقتناص الملذات وسماع القيان وهو يعاقر الخمرة، ويقول:

لكنّما العيشُ في اللذَاتِ، متكئاً   وفي السماع، وفي مجِّ الأباريق[3]

ونستخلص مما تقدم في أبي نواس، أنه كان يعتنق المجون، ويتعبد لملاذ الحضارة التي عاشها، والتي سببتها حياة المدن والقصور، وتلاقي الأمم على اختلاف أعراقهم، ومزجهم في مجتمع بغداد والبصرة، ودمشق والكوفة، ولكل من هذه الشعوب ثقافة وعادات وربما أديان متأصلة في نفوسهم يحتاج انتفاؤها إلى قرون وقرون.

وهذا المجون العاهر جعل أبا نواس يطعن في الدين الإسلامي ،كأنه يرى فيه عائقاً لحياته الآثمة الغارقة في الخمر والمجون. ولذلك تراه مضطرباً في عقيدته تارة يعلن دهريته، ـ كما بينا ـ، وينفي البعث والنشور، وطوراً يظهر مؤمناً عاصياً[4]. وعلى الرغم من كل ذلك، تراه يطلب عفو الله ومغفرته، في رنة ذليلة خاضعة:

يا ربِّ إن عَظُمت ذُنوبي كثرةً   فلقد عَلِمتُ بأن عفوَكَ أعظَمُ
ما لي إليك وسيلةٌ إلا الرَّجا   وجميلُ عفوِك ثُمَّ إنِّيَ مُسلمُ[5]

تُرى ! هل يغفر الله لهذا الزنديق، آثامه وخطاياه، ويعفو عنه، وقد

---

(1) الديوان: ص6. المرتضى: الأمالي: 1/ 143.

(2) ابن قتيبة: الشعر والشعراء 2/ 691.

(3) الديوان: ص43.

(4) أبو هفان: أخبار أبي نواس، ص49.

(5) الديوان: ص618.

رجاه معلناً إسلامه؟ هل يصفح له بعد عكوفه الطويل على المعصية؟ بقوله:

ألـم تـرَنـي أبـحـثُ الـلّـهْـوَ نـفـسـي ودينـي، واعتكفتُ على المعاصي
كـأنّـي لا أعـودُ إلـى مَـعَـادِ ولا أخشى هنالك من قَصَاصِ[1]

أو يقبل الله توبة زنديق عجن بالمعصية، وغَرِقَ بدن لذتها حتى أذنيه؟ في مثل قوله:

فإنّي قد شبعتُ من المعاصي ومِنْ لـذَّاتِـهـا، وشبِعْنَ مِنّي[2]

ربما ! والله أعلم.

13 ـ أبو العتاهية (إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني)
(130 ـ 211هـ / 748 ـ 826م)

أحد الثلاثة الكبار الذين اتهموا بالزندقة في القرن الثاني الهجري[3]، ولكن منهجه وموضوع شعره، اختلف عن نظيريه اختلافاً بيّناً، فبينما يفصح بشار عن عقيدته بتقديس النار، وتفضيله إبليس على آدم[4]، ويجاهر أبو نواس بالغزل بالغلمان والفسق والمجون[5]، ترى أبا العتاهية يسلك درباً آخر معاكساً لهما إذ يطرق باب الزهد بشعر غزير لم يألفه المجتمع الإسلامي من قبل، فيرمى بالزندقة، رماه بها كثيرون من معاصريه، وكذلك ممن جاء بعده، وقرأ شعره وأخباره.

وأول من اتهمه بالزندقة من معاصريه، منصور بن عمار السلمي، المنافس له في فن الزهد والوعظ، عندما قال عنه: «أبو العتاهية زنديق» لأنه لا يذكر في شعره الجنة والنار، وإنما يذكر الموت فقط، فيرد عليه أبو العتاهية بهجاء لاذع، يتزندق فيه، وهو ينفي التهمة عن نفسه، يقول:

---

(1) المصدر، ص622.
(2) المصدر: ص617.
(3) والآخران، هما: أبو نواس وبشار بن برد.
(4) البحث ص 295 ـ 296.
(5) أنظر البحث ص 307 ـ 308.

يا واعظَ الناسِ قد أصبحتَ متَّهَماً   إذ عِبْتَ منهم أموراً أنت تأتيها
كالمُلْبِسِ الثوبَ من عُرْيٍ وعورتُهُ   للنَّاسِ باديَةٌ ما إنْ يُوَارِيها[1]

وربما شنع عليه منصور بن عمار بالزندقة لتهاونه بالجنة، وابتذاله ذكرها، إذ روى الأصفهاني مسنداً روايته إلى محمد بن أبي العتاهية أنه قال: «لما قال أبي في عتبة»[2]:

كأن عَتَّابَةَ مِن حُسنِها   دُمْيَةُ قسٌ فَتَنَتْ قَسَّها
يا ربِّ لو أَنْسَيْتَنِيها بما   في جَنَّةِ الفردوسِ لم أَنْسَها

شنع عليه منصور بالزندقة، كما شنع عليه أيضاً بقوله:

إنَّ المليكَ رآكِ أحْـ   ـسَنَ خَلْقِهِ ورأى جمالِكْ
فحذا بقُدْرةِ نفسِه   حُورَ الجِنَانِ على مثالِكْ

وقال: «أَيُصَوِّرُ الحور على مثال امرأة آدمية، والله لا يحتاج إلى مثال! وأوقع له هذا على ألسنة العامة، فلقي منهم بلاء»[3].

ورماه من معاصريه بالزندقة، أيضاً، سلم الخاسر، وربما كان ذلك لحسد أبي العتاهية منه، لانقطاعه إلى الفضل بن يحيى البرمكي وكثرة نواله من بره وخيره[4].

ودلل سلم «على زندقة أبي العتاهية بكذبه في تنسكه وتقشفه، فهو ينفر الناس من الدنيا، ويدعوهم إلى الزهد، ومع ذلك فهو يمدح ويسأل، ويتهالك على المال، ويحرص عليه، ويقر على نفسه. قال سلم يندد بمراءاة أبي العتاهية ونفاقه في زهده:

---

(1) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 142 والرازي (محمد بن عبد الرحمن بن أبي حاتم): الجرح والتعديل. طبع حيدر آباد الركن 1952. 4/ 176. والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد: 13/ 71.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 151.

(3) المصدر عينه.

(4) المصدر السابق: 19/ 261. طبعة ساسي.

ما أقبحَ التزهيدَ من واعظٍ يُزَهِّدُ الناسَ ولا يَزْهَدُ
لو كان في تزهيدِه صادقاً أضحى وأمسى بيتَه المسجدُ
ورفَضَ الدنيا ولم يلقَها ولم يكن يسعى ويَسْترفِدُ
يخافُ أن تَنفَدَ أرزاقُه والرزقُ عندَ اللهِ لا يَنْفَدُ
الرزق مقسومٌ على مَنْ ترى ينالُه الأبيضُ والأسودُ[1]

وثالث متهميه بالزندقة من معاصريه، هو إبراهيم بن المهدي، الذي رأى فيه إنساناً سيئ الطوية، رديء السيرة، ينتحل الزهد ويتكلفه ليصل إلى الشهرة الرفيعة، والمكانة العالية، كما رآه ينعى الحياة إلى الناس ويبكيها، ويفسد عليهم فرحة الدنيا وبهجتها، وهذا ما ينافي روح الإسلام. قال هبة الله بن إبراهيم بن المهدي: «بلغ أبا العتاهية أن أبي رماه بالزندقة في مجلسه، فعاتبه بقصيد على لسان اسحق الموصللي، فكتب إليه أبي»[2]:

يا ويحَ ذي السنِّ الضعيف أمالَه عن غيِّه قبلَ المماتِ تَنَاهي
إني رأيتُك مُظهراً لزهادَةٍ تحتاجُ منك لها إلى أشباهِ

وقد ارتاب به «صاحب الزنادقة» (حمدويه)، فاتهمه بالزندقة، وعزم على اعتقاله وقتله، فموه عليه، ونجا منه[3].

يبدو أن أشهر الأخبار التي وردت في رمي أبي العتاهية بالزندقة في حياته، كان أكثرها تنافساً وتحاسداً وتباغضاً، ـ بينه وبين بعض الوعاظ والشعراء من أهل عصره ـ ولعلهم لم يختلقوا التهمة اختلاقاً، بل تراهم وقد عللوها، واحتجوا لها، إذ وقفوا في زهده على شبهات، ووجدوا سلوكه يناقض قوله وما يدعو إليه، فارتابوا به، وطعنوه.

ويستفاد من تلك الأخبار، أن خصومه قرفوه بالزندقة لأسباب مختلفة. منها:

---

(1) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 164. وابن خلكان: وفيات الأعيان: 2/ 352.
(2) الأغاني: 3/ 177 وانظر بقية القصيدة.
(3) المصدر السابق: 4/ 7. دار الكتب.

أ ـ إكثاره في زهده من الحديث عن الموت والفناء والقبور وما يتبع ذلك من حزن ومرارة وأسى وكآبة، وتقليله عن البعث والحشر والجنة والنار، مما يخالف ما جاء في القرآن من وصف مفصل للآخرة ونعيم الجنة وعذاب النار، ومما يستثير الشك في مصدر زهده البعيد في جوهره عن الإسلام، والقريب، ربما، من ديانات الأعاجم.

ب ـ استخفافه بالقرآن، وادعاؤه أن بعض قصائده خير من بعض سوره ! روى الأصفهاني عن ابن سلمة قال: «سمعت أبا العتاهية يقول: قرأت البارحة «عمّ يتساءلون»[1]، ثم قلت قصيدة أحسن منها[2].

ج ـ نفاقه في زهده، فهو يدعو الغير للبذل والعطاء، وفي الوقت ذاته يجمع المال ويبخل به، ويكنزه، وذلك مغاير للزهد الإسلامي، موافق للزهد المانوي. حسب رأي الجاحظ[3]، والبيروني[4].

هذا عن معاصريه، لكن بعض من ترجموا له، وقفوا عند زندقته، وأبانوا عن أسبابها وحددوا نوعها، منهم:

1 ـ ابن قتيبة الذي جعله دهرياً، في إشارة أبي العتاهية إلى السماء، وقوله:

إذا ما استَجَزْتَ الشكَّ في بعضِ ما ترى　　فما لا تراه الدَّهرُ أمضى وأجْوَزُ[5]

وجعله زنديقاً، دون تحديد نوع زندقته في أقوال أخرى[6].

2 ـ أبو الفرج الأصفهاني، رآه مطلعاً على آثار اليونان وأقوال

(1) القرآن الكريم: سورة النبأ آية 1.
(2) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 143.
(3) الجاحظ: الحيوان: 4/ 457 ـ 459 طبعة البابي الحلبي بمصر 1938.
(4) البيروني (أبو الريحان، محمد بن أحمد) الآثار الباقية عن القرون الخالية: نشر إدوارد سخاو. ليبزغ 1923، ص207.
(5) ابن قتيبة: الشعر والشعراء: 2/ 679.
(6) أنظر البحث: ص 314 الهامش رقم 2 والأغاني 3/ 151.

فلاسفتهم، فزندقته على هذه الحال زندقة فكرية، ويتمثل بقوله في رثائه صديقه «علي بن ثابت» المتهم أيضاً بالزندقة[1]:

بَكَيْتُكَ يا عليُّ بدمعِ عيني فما أغنى البُكاءُ عليكَ شَيَّا
وكانت في حياتِك لي عِظاتٌ وأنت اليومَ أوعظُ منك حَيَّا

قال الأصفهاني[2]: «هذه المعاني أخذها كلها أبو العتاهية من كلام الفلاسفة لما حضروا تابوت الاسكندر،... قال بعضهم: كان الملك أمس أهيب منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمس». وهذا المعنى هو الذي ذكره أبو العتاهية في شعره.

3 ـ ابن المعتز، يعتقد أنه كان ينتحل الزهد، فيظهر التقشف والتقوى، ويبطن الخبث والفساد، ويجزم بمانويته، إذ يقول: «والذي يصح عندي أنه كان ثنوياً يذهب مذهبهم، خبيث الدين، ناسك الظاهر»[3].

ومما تقدم، نرى أهل عصره، والمترجمين له من الأدباء والعلماء الأقدمين، يتفقون على أنه رمي بالزندقة إما تأثراً بالمانوية والدهرية، فتكون زندقته زندقة دينية، وإما تأثراً بآداب الفرس وفلسفة اليونان، فتكون زندقته زندقة فكرية.

هذه آراء الأقدمين في أبي العتاهية، فكيف كانت آراء الكتاب المحدثين فيه؟

رأى «محمد بديع شريف» أن زندقة أبي العتاهية، كانت زندقة دينية خالصة، لأنه آمن بالاثنينية، ودان بالمانوية، فقد بدأ بالغزل، ومال إلى الزهد، وتزندق فيما قاله في تضاعيف شعره من المعاني الدالة على الاثنينية في زهد هو مبدأ أصيل من مبادئ المانوية يشكل بما تقع عليه الحواس،

---

(1) ابن النديم: الفهرست 473.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 147.

(3) ابن المعتز: طبقات الشعراء: ص228و364.

فكيف بمن لا تقع عينك عليه؟!»[1] كما رآه شعوبياً ورأى أن شعوبيته قادته إلى اعتناق المانوية، واتخاذ الزهد سلاحاً لتدمير الحياة العربية الإسلامية، إذ أن «الزهد يقتل الطموح، ويصرف الأنفس عن الحياة، وينقل الأمة من أفق واسع تنتظم فيه الإنسانية، إلى أفق ضيق منطوي، تسعى المانوية إليه»[2] وإذا ما كان أبو العتاهية شعوبياً، ويسعى إلى ترويج دين الشعوبية، فمن الممكن إضافة الزندقة السياسية إلى زندقته الدينية.

وقد رأى «محمد محمود الدش» أنه كان يبطن المانوية، ويصطنع الزهد ليستر به زندقته، وقد رام طمس الشريعة الإسلامية، وإضعاف العرب، وبعث الديانة المانوية، وإقامة الدولة الكسروية، وإذا ما كان زملاؤه الزنادقة قد أشاعوا مبادئهم عن طريق الخلاعة والمجون وأوصلوها إلى صفوف الخاصة، فقد سلك هو طريقه إلى بيوت العامة الفقراء عن طريق الزهد الذي يقوم على المسكنة والمذلة والخمول والسلبية في الحياة»[3].

أما «محمد جابر عبد العال» فرأى أن زهده متأثر بالمانوية والمذاهب الفلسفية اليونانية والرهبنة المسيحية[4].

ورأى «جولد تسيهر» أنه تأثر بالبوذية كثيراً، وربما تزين له أنه «ملك في زي مسكين» يعني بوذا، وهو ابن ملك زهد في الملك[5]، واستدل على ذلك بشعره:

---

(1) محمد بديع شريف: الصراع بين العرب والموالي. طبع دار الكتاب العربي ـ مصر ـ 1954. ص98.

(2) المصدر السابق: ص102.

(3) محمد محمود الدش: أبو العتاهية، حياته وشعره: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر. القاهرة سنة 1968، ص136.

(4) محمد جابر عبد العال: حركات الشيعة المتطرفين: مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة 1954، ص145 ـ 157.

(5) جولد تسيهر (إجناس) العقيدة والشريعة في الإسلام: ترجمة محمد يوسف موسى ورفاقه: دار الكاتب المصري، القاهرة 1946، ص142.

يا مَن تشرَّف بالدُّنيا وطينتها   ليس التشرّفُ رفعَ الطين بالطين
إذا أردتَ شريفَ الناسِ كلِّهم   فانظُرْ إلى ملكٍ في زيِّ مسكينِ[1]

يبدو من مراجعة أشعاره، وأخباره، أنه كان بصيراً بالمانوية، مؤمناً بالاثنينية، كما يقول فيدا[2]، محيطاً بالآداب الفارسية، ملماً بالرهبنة المسيحية، عارفاً بالبوذية مطلعاً على الفكر الفلسفي اليوناني.

وبما أن المانوية مزيج من المجوسية والمسيحية والبوذية، لذلك كان سلطانها مستحكماً في نفسه، مستفيضاً في شعره الزهدي[3]. ولم يكتف أبو العتاهية بهذه المنابع الفكرية، بل نهل أيضاً من منابع الفكر والأدب العربيين والدين الإسلامي واختلف إلى حلقات المتكلمين، ووقف على مذاهب أصحاب المقالات، كالزيد

ية البترية، والجبرية[4]، وحفظ الشعر، وأتقن العربية، وقرأ القرآن، وسمع الحديث، وفي شعره ما يدل على ذلك[5].

ويلوح من كل ما سبق أن عقيدة أبي العتاهية كانت مزيجاً من الإسلام والمانوية فهو ليس موحداً خالصاً، ولا مانوياً ثنوياً خالصاً، بل حاول الجمع بين العقيدتين[6]. فهو والحالة هذه مانوي من نمط جديد، يمزج بين الثنوية والإسلام[7]، إلى جانب تذبذبه في مذهبه، فإذا ما اعتقد شيئاً وسمع طاعناً عليه ترك اعتقاده إياه وأخذ غيره[8]، وأنه رجل عاش

---

(1) أبو العتاهية: الديوان: دار التراث بيروت: 1969م. ص274.
(2) عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام: ص38.
(3) الدش: أبو العتاهية: ص133و139.
(4) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 128 وابن نباتة المصري (جمال الدين) سرح العيون في شرح رسالة بن زيدون: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. نشر دار الفكر العربي ـ القاهرة 1964. ص457 وانظر: الشهرستاني: ملل ونحل: 1/ 108و207.
(5) الديوان: 103.
(6) أنظر ما قاله أحمد بن حرب في ذلك. الأغاني: 3/ 128.
(7) شوقي ضيف: العصر العباسي الأول: ص242.
(8) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 128.

وسط تيارات من الفلسفات المختلفة والمذاهب المتباينة، فاختلطت عليه الحياة، فهو يستخدم ما في الثنوية من فكرة الخير والشر بقالب إسلامي موحد ويظهر الزهد ويتقشف ويلبس الصوف، ثم يطرب بعد ذلك ويمجن[1]، ويحن إلى لهو الشباب، وانغماسهم في مفاتن الحياة وملذاتها[2]، ويحب الحياة، ويحرص على الدنيا ويجري وراء المال ويبخل به حتى على نفسه[3]، وهذا ما يرجح أنه كان زنديق دين ودنيا. أي أن زندقته ضمت جميع ضروب الزندقة.

14 ـ شعراء آخرون زنادقة:

إن الزندقة التي تفشت إلى حد كبير في القرن الثاني الهجري، لم تقتصر على الشعراء الذين أسلفنا ذكرهم، بل تعدتهم إلى شعراء آخرين اتهموا بالزندقة، أو ظهرت آثارها في أفعالهم وأقوالهم، ولكن كتب الأدب لم تحفل كثيراً بذكرهم، منهم:

ـ **سليمان الأعجمي**: أخو الشاعر مسلم بن الوليد، استجاب لفسق ومجون بشار بن برد بعد أن اختلف إليه في صغره، وقبل عنه مذهبه[4]، وقد رأينا أن بشاراً اتهم بالزندقة ومات، ربما، بسببها.

ـ **عمرو الخاركي**: عاش خبيث الدين، ماجناً، بدت في شعره عناصر زندقة واضحة، كمثل قوله:

إن كـنـتُ أرجـوكَ إلـى سَـلْـوةٍ   فـطـالَ فـي حـبسِ الـضَّنَى لَـبْـثي
وعِـشـتُ كـالـمـغـرورِ فـي ديـنِـه   يُـوقِـنُ بـعـد الـمـوتِ بـالـبـعـثِ[5]

ـ **منقذ بن عبد الرحمن الهلالي**: عاش في صدر الدولة العباسية،

---

(1) الأصفهاني: الأغاني: 4/ 78 دار الكتب.
(2) المصدر السابق: 4/ 45و109.
(3) المصدر السابق 4/ 50 و 2و16 ـ 17.
(4) الجاحظ: الحيوان: 4/ 195. مكتبة الحلبي القاهرة. 1938هـ
(5) ابن الجراح (عبد الله محمد بن داود): الورقة: دار المعارف ـ مصر 1953م، ص56.

في مدينة البصرة، مجن وتهتك وتعهر، واتهم بفساد الأخلاق والدين، ورمي بالزندقة[1]، فجاءت زندقته اجتماعية دينية.

- **ديك الجن الحمصي (161 - 235هـ / 778 - 850م)**: اسمه الحقيقي عبد السلام بن رغبان، لم يدخل أرض العراق طيلة عمره، ومع ذلك كان ماجناً خليعاً[2]، ولم يبرأ من الزندقة، ومما نسب إليه ودل على زندقته أبيات معروفة ومنسوبة إلى أبي نواس:

أأتــركُ لــذَةَ الــصَّــهْـبَـاءِ نـقـداً	لـمـا وَعَــدُوه مــن لــبــنٍ وخَــمْــرِ
حــيــاةٌ ثــم مــوتٌ ثــم بــعــثٌ	حــديــثُ خُــرافــةٍ يــا أُمَّ عَــمْــرو[3]

وإذا ما صحت نسبة هذا القول لديك الجن، أو أنه كان يتمثل بها في حياته، فإننا نراه يستهجن بما جاء في القرآن الكريم من وعد المؤمنين والمؤمنات بجنات فيها أنهار من لبن وخمر وعسل[4]، كما يصرح بأن البعث بعد الموت هو حديث خرافة فينفي أيضاً ما جاء في القرآن عن البعث والنشور[5]. وبهذا تكون زندقة ديك الجن زندقة دينية، مضافة إلى زندقته الاجتماعية الماجنة.

- **أبو الشمقمق (200هـ / 815م)**: مروان بن محمد، الشاعر الهجاء، ذو اللسان السليط، الذي هابه كل الناس حتى الشعراء الفحول، أمثال بشار بن برد الذي اشترى منه هجاءه له بمائتي درهم كجزية يدفعها كل عام[6]، خالط كبار الخلعاء والمجان في عصره، الذين اتهموا بالزندقة

---

(1) المرزباني: معجم الشعراء، ص404.

(2) الزركلي: الأعلام: 4/ 5.

(3) الراغب الأصفهاني (أبو القاسم حسين بن محمد): محاضرات الأدباء: المطبعة الشرقية، القاهرة 1326هـ. 2/ 183.

(4) سورة محمد: 47/ 15.

(5) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن. مادة (بعث) ص124. دار إحياء التراث العربي.

(6) الزركلي: الأعلام: 7/ 209.

مثل أبي نواس، ومسلم بن الوليد، وأيضاً الشاعر الزاهد أبا العتاهية[1]، وحذا حذوهم، وبهذا يكون قد تزندق اجتماعياً.

ـ وممن اتهم في دينه، فأظهر الإسلام وأبطن الزندقة الشعراء: إبراهيم بن سيابة واسحق بن خلف، وعلي بن ثابت[2].

ورمي بالزندقة شعراء آخرون أسرفوا في الخلاعة والمجون[3]، وهذه الكثرة من الشعراء، الذين انعكس في شعرهم تيار الزندقة في القرن الثاني، إنما يمثلون مذهباً ـ هو الزندقة ـ، كان وجوده نتيجة حتمية للثقافات الأجنبية الزاخرة بالمنطق وعلم الكلام والفلسفة، المتمثلة بمجتمع الكوفة والبصرة وبخاصة بغداد، الذي يعج بأقوام اختلفوا في الجنس والدين والعادات، وامتزجوا بالسكن والتزاوج، فجاء وليد هذا العصر مصهوراً من أفكار ومذاهب ونحل مختلفة، ناشئاً في حالة شك مؤقتة أو مستمرة أحياناً عند بعض الشعراء والعلماء والأدباء أيضاً.

يضاف إلى ذلك عوامل سياسية واجتماعية كثيرة، فقوي تيار الزندقة الذي رأيناه ولداً في الجاهلية، وشاباً زمن صدر الإسلام وبني أمية، ورجلاً كاملاً في العصر العباسي الأول، وكثر الزنادقة الذين ربطوا أنفسهم بنحل ومذاهب شتى، فتنوعت زندقتهم.

الزنادقة الكتّاب والأدباء، وغيرهم...

تحدثنا عن الزندقة في صفوف الشعراء، وأوردنا المشهورين منهم في هذا المجال، وأتينا ببعض ما قالوه وتزندقوا به، من جحود بالدين ومروق عنه، ونفاق في السريرة والطوية بحيث يبطنون ما لا يظهرون. وقد رأينا

---

(1) المرزباني: معجم الشعراء. ص397.

(2) ابن المعتز: طبقات الشعراء. ص93 وابن النديم: الفهرست: ص473.

(3) سنتحدث عنهم لاحقاً في فصل (المجون).

البعض يتعهر ويفجر ويرتكب الفواحش والموبقات، غير آبهٍ للضوابط الدينية والأخلاقية والاجتماعية، والبعض الآخر يعيش المجون والسكر والظرف، وأيضاً الزهد.

وحتى لا نظلم الشعراء في عالم يعيش الزندقة بكل معانيها فإننا سنبحث فيما يلي بزنادقة آخرين من الكتاب والأدباء والعلماء ورجال حكم وسياسة.

1 ـ النظّام: (إبراهيم بن سيّار بن هانئ البصري) (231هـ / 845م)

هذا المتبحر في علوم الفلسفة والمنطق، والمطلع على أكثر ما كتبه رجالها من طبيعيين وإلهيين، انفرد بآراء خاصة، كانت دستوراً لفرقة تبعته[1].

عاشر النظام قوماً من الثنوية، وقوماً من السمنية، وخالط ملاحدة الفلاسفة، ودون مذاهبهم وبدعهم وشُبههم، وأعجب بقول البراهمة بإبطال النبوات، استثقل أحكام الشريعة الإسلامية، وأنكر إعجاز القرآن في نظمه[2]، فكفره الكثيرون[3]، واتهموه بالزندقة[4].

ومما أخذ على النظام، رأيه بشأن فرائض الدين الإسلامي، بحيث يرى أن من ترك صلاة مفروضة عمداً، لا يصح قضاؤه لها بعد ذلك ولا يجب عليه قضاؤها[5]. وهذا كفر حسب رأي أكبر الفقهاء، إذ أفتى أحمد بن حنبل بكفر تاركها عمداً، وأوجب الشافعي قتل تاركها، وأوصى أبو حنيفة بحبس تاركها وتعذيبه[6].

---

(1) سميت بالنظامية نسبة إليه، البغدادي: الفرق بين الفرق. دار المعرفة ـ بيروت، ص131.
(2) المصدر نفسه: ص131 ـ 132.
(3) منهم أبو الهذيل، والجبائي، والأشعري، المصدر السابق، ص132 ـ 133.
(4) الزركلي: الأعلام: 1/ 43.
(5) البغدادي: الفرق بين الفرق: ص146.
(6) المصدر نفسه.

طعن النظام في أخبار الصحابة والتابعين، وعاب أصحاب الحديث الذين نقلوا عن أبي هريرة، وشكك بإيمان عمر بن الخطاب - يوم الحديبية، ويوم وفاة الرسول[1] -.

وكان النظام إلى جانب علمه الغزير، فاسقاً، جريئاً في ارتكاب عظيم الذنوب ،مدمناً في شرب المسكر، يقول في الخمر:

ما زلتُ آخُذُ روحَ الزِّقِّ في لطفٍ   واستبيحُ دماً من غير مذبوحِ
حتى انتشيْتُ ولي روحانِ في بدنٍ   والزقُّ مُطَّرَحٌ جسمٌ بلا روحِ[2]

2 - عبد الله بن المقفع: (106 - 142هـ / 724 - 759م)

إمام من أئمة الكتاب، وأول من عني في الإسلام بترجمة كتب المنطق، ترجمها للمنصور العباسي، كما ترجم عن الفارسية كتاب «كليلة ودمنة»، وأنشأ رسائل غاية في الإبداع[3].

ولد هذا العالم الأديب في العراق مجوسياً (مزدكياً)، وأسلم على يد عيسى بن علي، عم السفاح[4]، ولكن الدين الجديد لم يتمكن أن ينزع من قلبه ما علق به من دين الآباء والجدود، فتراه يمر ببيت نار للمجوس بعد أن أسلم، فتنازعه روحه، وتصبو نفسه إلى الميل إليه، ويتمثل بقول الأحوص:

يا بيتَ عاتكةَ الذي أتعزَّلُ   حَذَرَ العِدا وبه الفؤادُ موكَّلُ
إنِّي لأَمْنَحُك الصُّدودَ وإنني   قسماً إليكَ مَعَ الصُّدُودِ لأَمْيَلُ[5]

وبمثل هذا التصرف، يمكن أن يكون ابن المقفع قد أظهر الإسلام وأبطن دينه القديم (المجوسية) وألجأه خوف القتل إلى المساترة، فينضوي

(1) المصدر، ص147.
(2) المصدر، ص150.
(3) منها الأدب الصغير، والأدب الكبير، ورسالة الصحابة. الزركلي: الأعلام: 4/ 140.
(4) المصدر السابق.
(5) الشريف المرتضى: الأمالي: 1/ 135.

تحت لواء الزندقة الدينية، كما يعد إماماً في الزندقة الفكرية، فقد روي عن المهدي أنه قال: «ما وجدت كتاب زندقة قط إلا وأصله ابن المقفع»[1].

حاول ابن المقفع أن يعارض القرآن بكتاب من نظمه، وبذلك يكون قد نفى القدرة الإلهية عن «القرآن المنزل» ولم يقم وزناً لدين «محمد بن عبد الله»[2].

ولعل ابن المقفع كان يؤمن فعلاً بإحدى ديانات المجوس[3]، وربما شكك بها أيضاً كما شكك في الإسلام حين قال في «كليلة ودمنة، باب برزويه»: «فعدت إلى طلب الأديان والتماس العدل منها، فلم أجد عند أحد ممن كلمته جواباً فيما سألته عنها ولم أرَ فيما كلموني به شيئاً يحق لي في عقلي أن أصدق به ولا أن أتبعه»[4].

وهذا الشك بالإسلام واعتقاد الثنوية، تؤكده ملاحظة «أحمد بن يحيى ثعلب» على أبيات لابن المقفع، رثى بها يحيى بن زياد:

رُزِئْنا أبا عمرو ولا حيَّ مثله   فلِلّهِ ريب الحادثاتِ بمن وَقَعْ
فإن تكُ قد فارقْتَنا وتركْتَنا   ذوي خَلَّةٍ ما في انسدادٍ لها طَمَعْ
لقد جرَّ نفعاً فقدُنا لك أنَّنا   أمِنَّا على كلِّ الرزايا من الجَزَعْ[5]

فقد رأى ثعلب في البيت الأخير فكرة الثنوية، في أن الخير ممزوج بالشر، والشر ممزوج بالخير. وربما يكون ذلك في قلب ابن المقفع، سيما وأنه فارسي الأصل عربي المولد واللسان، مطلع على فكر وعلوم وديانات الهند والإغريق والفرس والعرب، فلا غرو بعد هذا أن يتزندق دينياً وفكرياً، ويقتل على يدي أمير البصرة متهما بالزندقة[6].

---

(1) المصدر السابق.

(2) محمد بديع شريف: الصراع بين الموالي والعرب. دار الكتاب العربي ـ مصر 1954م، ص67.

(3) عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام: ص40 وما بعد.

(4) المصدر السابق: ص51.

(5) أمالي المرتضى: 1/ 135. ويرى الأخفش أن الأبيات قالها ابن المقفع برثاء ابن أبي العوجاء.

(6) الزركلي: الأعلام: 4/ 140.

3 ـ عبد الكريم بن أبي العوجاء: (155هـ / 772م)

وهو من الذين اتهمهم الشريف المرتضي بإظهار الإسلام لصون أهله ودمه وماله، وهو مدغل في الدين، مموه على المستضعفين، كافر مشرك وزنديق ملحد[1]، قال لما قبض عليه والي الكوفة[2]، وأيقن بأنه مقتول: «أما والله لئن قتلتموني لقد وضعت في أحاديثكم أربعة آلاف حديث، أحرم فيها الحلال، وأحل فيها الحرام، والله لقد فطرتكم في يوم صومكم، وصومتكم في يوم فطركم»[3].

ومن اللافت للنظر تصريح ابن أبي العوجاء هذا في دسه «أكاذيب ومفتريات» على الإسلام، حتى ينتقم لثورة جارفة في صدره على هذا الدين الذي حل محل معتقده القديم ومذهبه السابق، ربما، أو لغاية مخفية في أعماقه، لم يجهر بها، ولم تكشف عنها مرويات الكتب.

ويكفيه زندقة دينية تصريحه هذا، بوضعه الحديث الكاذب على لسان «الرسول» وجهره بتحريم الحلال وتحليل الحرام، بعدما أفسد الأحداث من الصبية وعلمهم مذهبه[4] فيقتل ويصلب، ويتهمه بشار بالحمق حيث باع الإسلام بالكفر، ويراه لا يصلي، وإن صام فبعض النهار، يبحث عن عتيق الخمر، ومن ثم يحلي عنقه بالزندقة لا بالحنيفية[5]. يقول:

قلتُ عبد الكريم يا ابن أبي العو ... جاءِ بعتَ الإسلام بالكفر مُوقا
لا تصلِّي ولا تصوم فإن صُمْـ ... تَ فبعض النهارِ صوما رقيقا
لا تبالي إذا أصبتَ من الخمـ ... رِ عتيقاً، أن لا تكون عتيقا
ليت شعري غداة حُلِّيتَ في الجيـ ... دِ حنيفاً حُلِّيتَ أم زنديقا

---

(1) الأمالي: 1/ 127.

(2) وهو محمد بن سليمان والي الكوفة من قبل المنصور الخليفة العباسي. الطبري: تاريخ الأمم والملوك 8/ 47.

(3) المصدر السابق. والأمالي: 1/ 128.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 24. بولاق.

(5) المصدر السابق: 3/ 25. والأمالي 1/ 137.

فبشار الزنديق، يتهم غيره بالزندقة، وهذا لعمري أكثر إثباتاً وأشد إيلاماً. ولعل ابن أبي العوجاء قد جمع في نفسه أكثر من زندقة، إذ كان في السر على دين المانوية وفي العلن على دين الإسلام، كما أنه قال بالتناسخ، ومال إلى الروافض، واعتقد بالقدر في بابي التعديل والتجوير[1].

4 ـ ابن وزير المهدي:

تفشت الزندقة وانتشرت بين صفوف الخاصة والعامة، حتى سرت إلى بيوت الوزراء والحكام، فقد تواترت الأخبار عن عزل الوزير معاوية بن يسار من قبل الخليفة المهدي لاعتناق ابنه تعاليم الزندقة. وتقول هذه الأخبار «أن المهدي أراد أن يتحقق بنفسه من صدق الاتهام، فاستدعى إليه ابن الوزير، الذي قدم مع أبيه، وسأله المهدي عن شيء من القرآن الكريم، فلم يحر جواباً»، فقال لوزيره: ألم تخبرني أن ابنك يحفظ القرآن؟ فأجاب الوزير: بلى يا أمير المؤمنين، ولكن فارقني منذ مدة، فنسيه، فقال المهدي: قم فتقرب إلى الله بدمه، فقام ابن يسار فعثر ووقع وارتعد، فالتمس العباس عم المهدي من الخليفة أن يعفى الوزير من قتل ابنه، فأمر المهدي بعض من كان حاضراً، فضربت عنقه، ثم احتجب الوزير وانقطع بداره حتى مات سنة 170هـ[2].

لكن الرواية المتقدمة لم تبين لنا وتفصح عن زندقة ابن الوزير هذا، وإنما نستدل منها على أنه قتل لعدم حفظه القرآن، ونتساءل هل يقتل الناس لمجرد اتهامهم بالزندقة وعدم معرفتهم وحفظهم للقرآن؟ أم أن هناك أسباباً أخرى لم تكشفها بطون الكتب بعد؟

لعل المهدي ـ وإن كان واجداً على الزنادقة وملاحقاً لهم في كل

---

(1) عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق. نشر العطار، القاهرة 1948م، ودار المعرفة، ص273. ص163.

(2) ابن طباطبا (محمد بن علي المعروف بابن الطقطقي): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية: القاهرة 1923م.ص163 ـ 166.

مكان ـ قد تثبت من زندقة ابن وزيره، وإلا لما أمر وزيره المعظم، الذي كان قد فوضه تدبير المملكة والدواوين[1] أن يقوم ويتقرب إلى الله بدم ابنه. وهل يعقل أن يقتل الأب ابنه إلا لأمر شنيع وفعل فظيع؟ أو يشهد قتل ابنه إلا لمروقه عن الدين وعند ذاك يجب قتله حسب أوامر الشريعة. فمن هنا نستنتج أن زندقة ابن الوزير كانت زندقة دينية.

5 ـ يزيد بن الفيض:

كان كاتباً لدى «المنصور»، قبض عليه (صاحب الزنادقة) نمر الكلواذي في عهد المهدي، الذي جد في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الآفاق، فأقر يزيد بما نسب إليه، فسجن، ثم هرب وتوارى[2].

6 ـ يونس بن فروة: (150هـ / 767م)

كاتب أيضاً، متزندق، كتب للأمير «عيسى بن موسى» العباسي، ابن أخي السفاح، خالط من اتهم على الزندقة من الكتاب والشعراء أمثال ابن المقفع، ووالبة بن الحباب، وحماد عجرد، وبشار بن برد، وحماداً الراوية وآخرين... كانوا يجتمعون على الشرب وقول الشعر، ويهجو بعضهم بعضاً[3]، وضع يونس (العربي بالولاء) كتاباً في مثالب وعيوب الإسلام[4]، وفي يونس هذا وملازمته لعصبة المجان المتزندقين يقول حماد عجرد:

فلقد رضيتَ بعُصبة آخيتَهم ... وإخاؤهم لك بالمعرَّة لازم[5]

عاش يونس بن فروة آخر حياته هارباً مستخفياً عن «عيون الحكام: كنظيره يزيد بن الفيض، لأن ديوان الزنادقة لم يهدأ عن ملاحقتهم، حتى

---

(1) المرزباني: الموشح: ص395.
(2) الطبري: تاريخ 8/ 165.
(3) الزركلي: الأعلام. 8/ 263.
(4) الشريف المرتضى: الأمالي: 1/ 132.
(5) الزركلي: الأعلام: 8/ 264.

في عهد الرشيد، الذي بدأ حكمه بتأمين الهاربين المستخفين، غير نفر من الزنادقة، ومنهم يونس ويزيد[1].

7 ـ يزدان بن باذان:

استشرت الزندقة واستفحل أمرها، فاشتد الخليفة «موسى الهادي» في طلب الزنادقة لأمرين:

أولهما تنفيذ وصية أبيه المهدي، وثانيهما كثرة عددهم، وتراه يأمر بإعداد ألف جذع لصلب جثثهم[2].

بدأ «موسى» بتتبعهم فقبض على «يزدان بن باذان» بتهمة الإساءة إلى الإسلام وقد كان يزدان هذا كاتباً ليقطين ـ أحد رجال المنصور ـ ذكر عنه أنه حج، فنظر إلى الناس وهم يطوفون في البيت الحرام، مهرولين، فقال: «ما أشبههم إلا ببقر تدوس في البيدر». فصلبه الهادي لاستهزائه بشعائر الدين، وقد بين الشاعر «العلاء بن الحداد الأعمى» مدى زندقة هذا الرجل ومروقه عن الدين، وخبث إيمانه وكفره بقوله للهادي[3]:

أيا أمينَ الله في خَلْقِهِ ... ووراثَ الكعبةِ والمِنْبَرْ

ماذا ترى في رجلٍ كافرٍ ... يُشبِّه الكعبة بالبيدَرْ

ويجعل الناسَ إذا ما سَعَوْا ... حُمْراً تدوس البُرَّ والدَّوْسَرْ

فإذا ما صحت الرواية عن تشبيه الحجاج بطوافهم كبقر تدوس في البيدر، فيكون قد تزندق زندقة دينية.

8 ـ ثمامة بن أشرس: (213هـ / 828م)

أحد الفصحاء البلغاء المقدمين، اتصل بالرشيد والمأمون الذي اراد

(1) الطبري: تاريخ 8/ 234.

(2) سميرة الليثي: الزندقة والشعوبية، ص224.

(3) الطبري: تاريخ 8/ 190.

أن يوزره فاستعفاه، من تلاميذه الجاحظ الذي قال عنه: «ما علمت أنه كان في زمانه قروي ولا بلدي كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروق، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه»[1] ومع هذه البلاغة والفصاحة التي امتلكها، فقد عده المقريزي رئيساً من رؤوس الفرق الهالكة[2]، اتهم بالكفر لقوله: «إن الآخرة هي دار ثواب أو عقاب، وليس فيها لمن مات طفلاً، لا يعرف الله تعالى، طاعة يستحق بها ثواباً، ولا معصية يستحق عليها عقاباً، فيصير حينئذ تراباً. ولقوله أيضاً: إن الأفعال المتولدة أفعال لا فاعل لها، وهذا ما يجر إلى إنكار صانع العالم»[3].

لقد كان تمامة هذا مستهتراً مستهزئاً، سكيراً ماجناً، روي عنه قوله، في دار الإسلام أنها دار شرك، وقوله لرفيق له، يوم رأى الناس يتعادون إلى المسجد لخوفهم فوات صلاة الجمعة: «أنظر إلى هؤلاء الحمير والبقر» ثم يردف: ماذا صنع ذاك العربي بالناس؟، يعني «الرسول». كما روي عنه أن المأمون ركب يوماً فرأى تمامة سكران، قد وقع في الطين، فقال له: «تمامة؟! قال: أي والله، قال: ألا تستحي؟ قال: لا والله، قال: عليك لعنة الله، قال: تترى؛ ثم تترى»[4].

مما تقدم نرى أن تمامة قد تزندق زندقة فكرية، دينية، واجتماعية. قال بخلق القرآن، وسعى بأحمد بن نصر المروزي عند (الواثق) لمخالفته في المعتقد، فقتله الخليفة، وقد انتقم منه جماعته «بنو خزاعة»، في أرض مكة، وأطرحوا جثته للوحوش الضارية[5].

---

(1) الجاحظ: البيان والتبيين (1 ـ 3) تحقيق فوزي عطوي الشركة اللبنانية، ص73.

(2) المقريزي: المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ـ بولاق ـ القاهرة / 1270هـ / 2 / 347.

(3) البغدادي: الفرق بين الفرق. ص172.

(4) المصدر السابق: ص173.

(5) المصدر. ص174 ـ 175.

9 ـ زنادقة آخرون:

أ ـ ابن داود بن علي، ويعقوب بن الفضل: أقرا بالزندقة في مجلس الخليفة المهدي، الذي أودعهما السجن ولم يقتلهما لكونهما هاشميين، قائلاً: «أما والله لولا أني كنت جعلت لله علي عهداً إن ولاني هذا الأمر ألا أقتل هاشمياً لما ناظرتكما ولقتلتكما»[1]. وأوصى ابنه «موسى الهادي» وأقسم عليه ألا يناظرهما من بعده، بل يقتلهما على التو. ولكن ابن داود مات في الحبس قبل وفاة المهدي. أما يعقوب فقتل في سجنه في أول عهد الهادي، وربما كان يدين بالمزدكية[2]، فامرأته أقرت بالزندقة[3]، أمام الخليفة، ووجدت ابنته فاطمة حبلى من أبيها، واعترفت بذلك وبزندقتها أيضاً، فضربت ووالدتها على رأسيهما وماتتا[4].

ب ـ ابنة الشاعر مطيع بن إياس: تفشت الزندقة في مختلف طبقات المجتمع العباسي، فمن الشعراء إلى الكتاب، ومن العوام إلى الخاصة، وأصبحت مذهباً وعقيدة يستشهد الناس في سبيلها، وما دامت تستشري بين الذكور، فلم لا تدخل إلى خدور ربات الحجال؟ فتدين بها امرأة يعقوب بن الفضل وابنته، وكذلك ابنة الشاعر مطيع بن إياس التي اعترفت صراحة أمام «الرشيد» أن أباها لقنها تعاليم الزنادقة، وأنها قرأت كتب المانوية[5]. ومن هذا الإقرار الصريح نستنتج أيضاً أن مثل هذه الكتب قد أتلق لألف سبب وسبب. ولوحق أصحاب هذه التعاليم إلى فترات طويلة من الزمن ـ تعدت انتهاء تاريخ بحثنا[6] ـ إما مجاهرين بعقائدهم ملاحقين من الحكام وغيرهم، وإما مؤمنين سراً ظاهرين الإسلام.

---

(1) الطبري: تاريخ 8/ 190.

(2) الشهرستاني: الملل والنحل 2/ 86. دار المعرفة، والمزدكية قد أباحت النساء والمال.

(3) الطبري: تاريخ 8/ 191.

(4) المصدر السابق.

(5) الأصفهاني: الأغاني: 12/ 89 بولاق.

(6) نهاية القرن الثاني الهجري.

ج ـ هشام بن الحكم: (147هـ / 764م): اتهم بالزندقة، والقول بالدهر، وإظهاره الإسلام للعمل على هدمه في براعة وتبصر، إذ كان مجلياً في علم الكلام، قوياً في حججه وجدله عن ذات الإله وصفاته، كما اتهم في الطعن بالأنبياء والدفاع عن الأئمة[1]. لكننا نراه يجادل الزنادقة لردعهم، وليس ابتغاءً للخفية وهرباً من أعين الرقباء[2].

ولا غرو بعد هذا العرض للزنادقة في أعصر بحثنا، أن نرى الزندقة قد تفشت بمعانيها المختلفة بين أظهرهم، دعاهم إليها دواع مختلفة، إن لدين قديم ألفوه وورثوه من الخلف إلى السلف بطقوسه ورموزه وعباداته، ولكنهم رأوا مناصب عديدة وعزيزة لا يستطيعون الوصول إليها إلا باتخاذهم الدين الجديد ـ ولو ثياباً ظاهرية، يخلعونها إذا خلوا إلى أهلهم ـ وإن لشك في الأديان عامة، والقول بسلطان العقل إلى أقصى حدوده[3]. ومثل هؤلاء قد نبذوا الأديان جملة، ودعوا إلى الإلحاد بأبعد معانيه. وآخرون انجرفوا وراء شهواتهم وملذاتهم، فما الحياة إلا خمر ونساء وغلمان ! يغضبون على الدين عند تعارضه لرغباتهم.

والزنادقة كما رأينا توزعوا بين علية القوم وسفلاهم، خلفاء أمراء وزراء[4] وشعراء وكتاب وعلماء. ولم تقتصر الزندقة على الرجال وحدهم، وقد دلت النساء بدلائهن في هذا المضمار.

وإذا ما كانت الخصومة الأدبية سبباً في الرمي بالزندقة، كذلك كانت الخصومة الدينية والسياسية[5]. وقد عمد بعض الناس إلى اتخاذ الزندقة ذريعة للانتقام من خصومهم سواء في ذلك الشعراء والعلماء والأمراء والخلفاء.

---

(1) البغدادي: الفرق بين الفرق. ص65 وما بعد، الشهرستاني: ملل ونحل: 2/ 21 وما بعد.

(2) الدينوري: عيون الأخبار 2/ 153. دار الكتاب العربي.

(3) وهي ظاهرة تماشي الإنسان في كل أعصر تاريخ الإنسانية.

(4) الوليد بن يزيد والبرامكة. البحث. زنادقة الأمويين، وابن النديم: الفهرست: ص473.

(5) أحمد أمين: ضحى الإسلام: 2/ 157. دار الكتاب العربي.

ومن الممكن أن يكون قد رمى بها أناس كان لهم حرية رأي في بعض المسائل خالفوا فيها ذوي الرأي والشأن. على كل حال عرفت حركة الزندقة في العصر العباسي الأول عن الأعصر التي سبقت ونتج عن قرائح أصحابها شعر ونثر كثيران، كما قامت بالمقابل حركات الزهد والإيمان لترد على حركات الشك والارتياب بمقالات علمية فقهية، مما أغنى المكتبة العربية، وجعل الأدب العربي يزخر بأنواع عديدة وضروب متباينة من المواضيع والأفكار[1]، فإذا ما استعرضنا لبعض نتاج تلك الأعصر من فكر وعلم، نرى أن حياة اللهو والقصف والمجون قد صورت في كتاب الأغاني ودواوين الشعراء، وأن حياة الإيمان قد صورت في تراجم العلماء، أمثال طبقات ابن سعد، وطبقات المحدثين، فأنت تتأرجح عند اطلاعك عليها بين اللهو والإباحة وبين الورع والتقوى، وتنصف إن حكمت أن الحياة أنواع وألوان متباينة، فإن سرت مع الناس في مسكنهم ومأكلهم، ملبسهم ومشربهم، عاداتهم وتقاليدهم، وما يصدر عنهم في كل ذلك فسترى مسجداً وحانة، وقارئاً وزامراً، ومتهجداً يرتقب الفجر، ومصطبحاً في الحدائق، هناك تخمة من غنى، ومسكنة من إملاق، شكاً في دين ومذهب وسياسة، وإيماناً في يقين. كل هذا كان في تلك الأعصر، وكل هذا سيكون في كل الأعصر.

القسم الرابع
الخصومات السياسية والأدبية:
طريق إلى الزندقة

من الملاحظ أن الخصومات السياسية ـ تتبعها الخصومات الأدبية ـ نشأت في الجاهلية مع الجماعة العربية في شكلها القبلي، وانتقلت معها إلى مراتع الإمارات، ومرابع الممالك. وكان الأدب بشعره ونثره رَسْمَ

(1) ستتعرض لبعضها بالعرض والمناقشة في نهاية البحث.

الخصومات الداخلية وصحيفتها الخارجية.

ولما جاء الإسلام، وانتشر في الجزيرة، وانساح خارجها، أخذ الأدب يساند هذا الدين ويساير هذا النظام[1]. فكان سجل الأمة في طور تكوينها، وصحيفة الثورات الأهلية والصراعات الداخلية طوال احتدامها، وسيف الأحزاب السياسية القاطع في فترات تنافرها واصطراعها، حتى إذا ما قامت الدولة العباسية، رأيناه لوحات متنافرة، من طالبيين ناقمين، وأعاجم مناهضين، وعرب هالهم أن يروا تفوق الأعاجم، فانبروا يدافعون. فكانت الخصومات في ألوانها المختلفة تخرج من قالب أدبي ـ أكثره شعر ـ تتزين بالنسيب والوصف والمديح، وتتبرج بالهجاء والحماسة والفخر، تتجه إلى شخص أو قبيلة أو حزب أو أمة، تصور أكثر ما تصور ما لها وما عليها...

ومن الطبيعي أن يتناول الأدب ـ شعراً كان أم خطباً وكتابات وقصصاً. أمور الناس والدولة ونظامها، وللأدب حق مقرر ما دامت حريته مكفولة.

أولاً: الخصومات السياسية

أول ما يلقانا في هذا المجال، ما كان شعراً سياسياً، تحفّياً بالقبيلة واعتزازاً بمكانتها، لأنها دولة الشاعر التي يعيش في كنفها، ويرتبط معها بعقد اجتماعي أصّلته التقاليد ووثقته العادات. صوّر الشاعر الجاهلي فضائل قبيلته، المتصلة بالسيادة والمجد وشرف النسب، وسعة السلطان. قال حسان بن ثابت في جاهليته:

ولقد تُقلِّدُنا العشيرةُ أمرَها ونسودُ يومَ النائباتِ ونعتلي
وتزور أبوابَ الملوكِ ركابُنا ومتى نحكِّم في البريَّةِ نَعدلِ[2]

(1) زمن الرسول والراشدين والأمويين.

(2) الديوان: دار إحياء التراث العربي، بيروت، ص184.

قد بقيت نزعة هذه السيادة في شعر حسان سمة لقومه حتى بعد إسلامه، ولعلها كانت صدى لهذه المنافسة والخصومة بين المهاجرين والأنصار، وقد دل هذا الشاعر على ذلك بقوله:

ألا أيُّها الساعي ليُدرك مجدنا نَأَتْكَ العُلى فارْبَعْ عليك فسائلِ

❀ ❀ ❀

نَصَرْنا وآوينا النبيَّ وصدَّقت أوائلُنا بالحقِّ أوَّل قائل
وكُنّا متى يَغزُ النبيُّ قبيلةً نَصِلْ حافتَيْهِ بالقنا والقنَابلِ[1]

ويختصم حسان إلى النبي من قريش، أشهر وأهم قبائل العرب في الجاهلية والإسلام فيقول:

ويومَ قريشٍ إذا أتونا بجمعهم وَطِئنا العدوَّ وطأةَ المتثاقل[2]

لكنه يعود إلى نزعة السيادة، ولعلها صدى الخصومة السياسية بين المهاجرين والأنصار كما تقدم، فيقول:

وكُنّا ملوكَ الناسِ قبل مُحمّدٍ فلما أتى الإسلامُ كان لنا الفضلُ
أولئك قومي خيرُ قومٍ بأسرهم فما عُدَّ من خيرٍ فقومي له أهلُ[3]

والخصومات السياسية كانت على أشدها بين القبائل البدوية القديمة، سببها مادي وأدبي، ويكون إما طمع في إبل ومرعى وبئر وفرس، وإما رغبة في رياسة أو أخذ بثأر... يصور ذلك الأدب بشعره ونثره، ويذكي روح الخصومة، فتأتي الكلمة أشد إيلاماً من وقع الحسام، وبخاصة في «أيام العرب الكثيرة» يقول دريد بن الصمة:

وهل أنا إلا من غُزية إن غوت غويتُ وإن تُرشِد غُزيةُ أُرشدِ
دعاني أخي والخيلُ بيني وبينه فلما دعاني لم يَجدني بقُعْدَدِ[4]

---

(1) ديوان حسان: ص186 ـ 187. القنابل: طائفة من الخيل.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر السابق، ص193.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 9/4 بولاق. غزية: قبيلة من هوازن. القعدد: الجبان، المتخاذل.

والخصومات السياسية كثيرة، والقصص فيها طويلة، والشعر يمثل صراعاً دائماً، وأدباً قوياً خالداً، إن في أيام العرب بين قبائلهم، أو بينهم وبين أمم أخرى، كيوم ذي قار[1]. وبه يقول الأعشى:

أما تميمٌ فقد ذاقت عداوتنا ... وقيسَ عيلانَ مسَّ الخِزْيُ والأسفُ
وجندُ كسرى غداةَ الحِنْو صبَّحهم ... منّا غطاريفُ ترجو الموت فانصرفوا
لو أنّ كل معدٍّ كان شاركنا ... في يومِ ذي قار ما أخطاهم الشرفُ[2]

وبذلك يقول العديل العجلي:

وما يَعدّون من يوم سمعتُ به ... للناس أفضل من يوم بذي قار
جئنا بأسلابهم والخيل عابسةٌ ... لما استَلَبْنَا لكسرى كلَّ إسوارِ[3]

فالنزعة التي تمثلها أبيات الأعشى، نزعة تطول العرب فيما بينهم، ومن ثم تتجاوزهم إلى العجم، منوهة بشرف النصر، وآخذة على بعض معد عدم مشاركتهم في أول حرب «قومية» عربية، كسروية.

أما أبيات العجلي ففيها فخر سياسي كبير، حين يستعمل الشاعر صيغة أفعل التفضيل في يوم ذي قار على كل أيام العرب التي سمع بها.

إن الصلات بين قبائل العرب ـ قبل الإسلام وبعده ـ كانت قائمة على التنافس والتربص، وانتهاز الفرص للظفر بمال أو شرف. وهذا هو ديدن المجتمعات البشرية زمن بحثنا، لذا فإن الخصومة السياسية كانت على أشدها في الجاهلية، وخبت قليلاً في صدر الإسلام لتعود وتضطرم من جديد إبان الحكم الأموي بين المنضوين تحت راية الأحزاب[4]،

---

(1) يوم ذي قار: من أشهر أيام العرب. دارت حوادثه بين العرب والفرس، وكانت الغلبة فيه للعرب. ابن عبد ربه: العقد الفريد: 5/ 262.

(2) المصدر السابق: 5/ 265 ـ 266 وقد روي الشطر الثاني من البيت الثاني «ترجي الموت».

(3) المصدر نفسه.

(4) كالحزب الأموي والعلوي والزبيري والخوارج.

والمؤيدين لهم من القبائل العربية، وتبلغ ذروتها في العصر العباسي الأول بين العرب وأبناء بجدتهم من جهة، وبين العرب والموالي «العجم» من جهة ثانية، والخصومة السياسية فرع من فروع شجرة الزندقة.

1 ـ الخصومة السياسية في الشعر القبلي:

إن الخصومة السياسية بين قبائل العرب قامت على العداوة والتنافس، وظهر ذلك في الغزو الدائم والسطو على المتاع والممتلكات، والتعدي على الحمى والجار، وبقدر ما كان التناصر بين أفراد القبيلة، كان التخاصم بين القبائل في سبيل الشرف والرئاسة. لذلك كانت حياتهم مصبوغة بالدم، لا تكاد ترى سلماً دائماً، ولا يكاد يمر يوم دون غارة شنعاء، أو قتال رهيب، حتى عرفت عنهم (الأيام)، وكانت كثيرة متصلة بالأدب شعراً وقصصاً وخطابة.

وأول ما يلاحظ في هذه المسألة منزلة الشاعر بين أفراد قبيلته، فهو صحيفتها السائرة، ولسانها في نشر مفاخرها، وهجو أعدائها، فلا غرو إذا هنئت القبيلة عندما ينبغ شاعر فيها[1].

والذي يعنينا هنا أن شعر هؤلاء كان مثالاً لخصومة سياسية زندقية، فهو شعر الثورة والكفر بأوضاع فرضت عليهم الحرمان والفقر. ومن الحرمان والعوز يظهر عروة بن الورد ليعلن عن نظريته إلى حياة الجماعة فيقول:

وإني امرؤٌ عافي إنائيَ شِرْكَةٌ ... وأنت امرؤٌ عافي انائكَ واحدُ
أتهزأ منِّي أن سَمِنتَ وأن ترى ... بجسمي شحوبَ الحقِّ والحقُّ جاهدُ
أُفرّقُ جسمي في جسومٍ كثيرةٍ ... وأحسو قَرَاحَ الماءِ والماءُ باردُ[2]

ومن الخصومة السياسية لعلاقة القبائل ببعضها قول قيس بن الخطيم[3].

---

(1) ابن رشيق: العمدة: 1/ 65. دار الجيل.
(2) الشايب: تاريخ الشعر السياسي: ص53.
(3) وذلك في يوم حاطب للخزرج على الأوس وفي يوم «بعاث» أيضاً. المصدر السابق. ص56.

دعوتُ بني عوفٍ لحقن دمائهم فلما أبَوْا سامحت في حرب حاطبِ
وكنتُ امرءاً لا أبعثُ الحرب ظالماً فلما أبوا أشعَلْتُها كل جانبِ

وقوله:

فهلاّ لدى الحرب العوان صبرتمُ لوقعتنا والبأسُ صعبُ المراكبِ
فـآبْنا إلى أبنائنا ونسائنا وما مَنْ تركنا في (بُعاثٍ) بآيبِ

ويجيبه عبد الله بن رواحة بقوله:

إذا عُيِّرَت أحسابُ قوم وجَدْتَنا ذوي نائل فيها كِرَامَ المضارب
نحامي على أحسابنا بتلادِنا لِمفتقر أو سائل الحقّ راغب[1]

ومن يقرأ شعر حرب البسوس يَرَهُ خصومة عصبيات قريبة، وعواطف بعيدة، وغضباً للجار، وسداداً للعقل مع جموح الشعور، مما يعني أن الخصومة السياسية في الشعر القبلي هي إحدى الجذور للزندقة.

2 ـ في صدر الإسلام:

لم تخل الدعوة الإسلامية من حروب وغزوات اضطر إليها الرسول لتثبيت رسالته، وكان الأدب يماشي هذه الدعوة، يناصرها تارة، ويناهضها طوراً. سمع الرسول الشعر وحمل حساناً وزملاءه من الأنصار أن يردوا على قريش وينصروه بألسنتهم كما نصروه بأسلحتهم[2]، ولكنهم أوغلوا في ذلك وفسدوا كقول حسان في بعض المهاجرين:

أمسى الخلا بيصُ قد عزّوا وقد كثروا وابن الفُرَيْعَةِ أمسى بيضةَ البَلَدِ
أما قريش فإني لست تاركَهُم حتى يُنيبوا من الغيّات بالرَّشَدِ
ويتركوا اللاَّتَ والعُزّى بمعزلة ويسجدوا كلهم للواحدِ الصمد[3]

فيقول الرسول: «يا حسان نفست علي إسلام قومي» وما ذلك، إلا

---

(1) المصدر السابق. ص57.

(2) ابن رشيق (أبو علي الحسن، القيرواني، الأزدي) العمدة 2/ 20و30. دار الجيل ـ بيروت.

(3) الأصفهاني: الأغاني: 4/ 12 بولاق.

لأن حسانا بدأ قوله بالفخر واللمز على المهاجرين الوافدين على يثرب، وربما تضايق من كثرتهم.

يظهر الشعر هنا في أشكال شتى من الفخر والهجاء، والوعد والوعيد، سواء كان ذلك من جانب أنصار الدعوة الجديدة، أو كان من جانب قريش ومن لف لفهم، يقول علي بن أبي طالب يوم بدر:

ألـم تـرَ أن الله أبـلـى رسـولَـه بـلاءَ عـزيـزٍ ذي اقـتـدارٍ وذي فَـضْـلِ
بـمـا أنـزلَ الـكـفّـارَ دارَ مـذلّـةٍ فـلاقَـوْا هـوانـاً مـن إسـار ومـن قَـتْـلِ
فـكـم تـركـوا مـن نـاشـئٍ ذي حـمـيّـةٍ صريعاً ومن ذي نجدةٍ منهُمُ كهْلِ[1]

فيجيبه الحارث بن هشام بن المغيرة:

عـجـبـتُ لأقـوامٍ تـغـنّـى سـفـيـهُـهُـم بأمر سفاهٍ ذي اعتراضٍ وذي بُطلِ
تـغـنّـى بـقـتـلـى يـومَ بـدرٍ تـتـابـعـوا كرامَ المساعي من غلامٍ ومن كهْلِ
أصـيـبـوا كـرامـاً لـم يـبـيـعـوا عـشـيـرةً بقوم سواهم نازحي الدّارِ والأصلِ
فإن يكُ قومٌ قد مَضَوْا لسبيلهم وخيرُ المنايا ما يكون من القتلِ
فلا تفرحوا أن تقتلوهم فقتلُهم لكم كائنٌ خَبْلاً مُقيماً على خَبْلِ
على أنّني واللاتِ يا قومُ فاعلموا بكم واثقٌ أن لا تقيموا على تَبْلِ[2]

وما نلاحظه في قول ابن أبي طالب، فخر بإسلامه، وهجاء بأعدائه، أما ابن المغيرة فيفخر بقتلاه فخراً جاهلياً، يذكرنا بقول الشاعر «تسيل على حد الظبات نفوسنا» كما أنه يقسم بآلهته (اللات) أن يثأر لهم.

إن شداداً بن الأسود الليثي يبكي قتلى بدر، ناكراً على الرسول البعث والنشور بقوله:

تُـمـنـيـنـا الـسـلامـةَ أمُّ بـكـرٍ وهـل لـي بـعـد قـومـي مـن سـلام
يُـخـبِّـرُنـا الـرسـولُ لـسـوف نـحـيـا وكـيـف حـيـاةُ أصـداءٍ وهـامِ[3]

---

(1) ابن هشام: السيرة النبوية، 3/ 11. دار الكنوز الذهبية وأبلى: مَنّ وأنعم.

(2) المصدر السابق 3/ 12و13. وتبل: العداوة وطلب الثأر.

(3) المصدر السابق. 3/ 29. والصدى: بقية الميت في قبره.

جدَّت بعد وفاة الرسول مسألة سياسية خطيرة، هي مسألة الخلافة، أين تكون؟ وكيف تكون؟ تطلع إليها الأنصار بحجة إيوائهم ونصرتهم للرسول، وطمع فيها المهاجرون «القرشيون» لأنهم قوم الرسول وآله الأدنون. واشتدت الخصومة في ذلك، ولما تم الأمر لأبي بكر، قال أبو عبرة القرشي:

شكراً لمن هو بالثناء حقيقُ ... ذهب اللجاجُ، وبُويعَ الصِّديقُ
إن الخلافة في قريشٍ مالكم ... فيها وربِّ محمَّدٍ معروقُ[1]

ولكن الأنصار لم يسكتوا، فذكروا مواقفهم في نصرة الدين، وأيامهم على قريش، حتى بدت العصبية الجاهلية واضحة، وكادت تبعث حرباً[2]، وطال اللجاج بين قريش والأنصار، وواجه الخليفة الأول مشكلات المرتدين، من تحلل لشعائر الدين وخروج على النظام السياسي الذي يخضع البدو لسلطان الحضر، وتعلق بالحرية الجاهلية القائمة على السفه والشراب، واتخذت لذلك وسائل شتى: التنبؤ والثورة ومنع الزكاة... وساير الأدب هذا النشاط السياسي، وما رافقه من خصومات.

قدم طليحة الأسدي المدينة على رأس قوم من (أسد وغطفان وطيئ) يسأل أبا بكر أن يحط عنهم الزكاة، فأبى، فقال شاعرهم الحطيئة ثائراً على بعض شعائر الدين الجديد منكراً لها، مهدداً بالحرب الطاحنة، مائلاً إلى سفه الجاهلية:

أطعنا رسولَ الله ما كان بيننا ... فيالعباد الله ما لأبي بكرِ
أيورثها بكْراً إذا مات بعدَه ... وتلك لعمر الله قاصمةُ الظهر
فهلاَّ رددتم وفدنا بزمانه ... وهلاَّ خشيتم حسي راعية البكر
وإن التي سألوكم فمنعتُمُ ... لكالتمر أو أحلى إليَّ من التمرِ[3]

---

(1) الشايب: تاريخ الشعر السياسي: ص132.
(2) أنظر شعر حسان في ذلك: المصدر السابق، ص132.
(3) المصدر السابق. ص136.

وقال ابن الخنساء أبو شجرة بن عبد العزى، حين ارتد عن الإسلام زمن أبي بكر:

سلِ الناسَ عنا كل يوم كريهة إذا ما التقينا دارعين وحُسَّرا
فروَّيتُ رمحي من كتيبةِ خالدٍ وإني لأرجو بعدها أن أعُمّرَا(1)

وقال أيضاً زمن عمر عندما منعه عطاءه:

ضنَّ علينا أبو حفصٍ بنائله وكلُّ مُختبطٍ يوماً له وَرَقُ
ما زال يرهقني حتى خذيت له وحالَ من دون بعض الرغبةِ الشفقُ
لما رهبتُ أبا حفص وشُرطته والشيخُ يفزعُ أحياناً فينحمقُ(2)

وهذا شاعر آخر يبكي العهود السوالف أيام كان يرتع بالحرية في ظل ملوك الحيرة ويأنف من دفع الجزية التي فرضها خالد بن الوليد على رهطه. يقول ابن بقيلة:

أبعد المُنذرين أرى سَوَاماً تُروَّحُ بالخورنق والسدير
وبعد فوارس النعمان أرعى قلوصاً بين مرَّةَ والحفير
فصرنا بعد هَلْك أبي قبيس كجُرْبِ المعز في اليوم المطير
تُقسِّمنا القبائل من مَعَدٍّ علانية كأيسار الجزور(3)

هذه الشواهد إنما تدل على خصومات سياسية تشوبها العصبية والاضطراب وتشتم منها رائحة زندقة مختلفة المشارب. وإذا ما وصلنا إلى خلافة عثمان ورأينا مقتله، يعلو الضجيج ويشتد أوار الخصومات السياسية ويتوعد حسان الناس بقوله:

يا ليتَ شعري وليت الطيرَ تُخبرُني ما كان شأنُ عليّ وابن عفانا
لنسمعنَّ وشيكاً في ديارِهمُ الله أكبر يا ثارات عثمانا(4)

---

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك. 3/ 266. دار سويدان.

(2) المصدر السابق. 3/ 267.

(3) المصدر السابق. 3/ 362.

(4) المسعودي: مروج الذهب: 2/ 356. دار المعرفة. بيروت.

ويُسمَع الوليدُ بن عقبة في الليلة الثانية لمقتل عثمان يندبه ويقول:

بني هاشم، إيهٍ فما كان بيننا وسيف ابن أروى عندكم وحرائبُهْ
غدرتم به كيما تكونوا مكانه كما غدرت يوماً بكسرى مرازبُهْ

فيجيبه الفضل ابن العباس عن هذا الشعر بملاحاة ظاهرة هي أقرب ما تكون إلى تنافس أهل الجاهلية، بقوله:

فلا تسألونا سيفَكم إن سيفكم أُضيعَ وألقاه لدى الروعِ صاحبُه
وكان وليَّ العهد بعد محمد عليٌّ وفي كل المواطن صاحبُهْ[1]

كان الأدب إذن، والشعر منه بخاصة، معنياً بتسجيل حروب وخصومات بين الشام والعراق، وقد خضع لأساليب الجدل والمناقضة على أساس الدين والحكم، وتلون مع الأحزاب، تارة بين المهاجرين والأنصار، وطوراً بين عثمان ومن ثاروا عليه، ثم بين علي ومعاوية وبين مخاصميهما، أساسه عصبية قبلية، ومساره خصومات سياسية تتفكه بها مائدة الزندقة.

3 ـ في عصر بني أمية:

صار العرب في أعقاب «صفين» أحزاباً ثلاثة[2]. واستقرت الحكومة أموية، وأخذت لوناً هرقلياً، قال فيه عبد الله بن همام السلولي:

فإن تأتوا برملةَ أو بهندٍ نبايعها أميرةَ مؤمنينا
إذا ما مات كسرى قام كسرى نَعُدُّ ثلاثةً متناسقينا[3]

واشتدت الخصومات السياسية، وأخذ كل فريق يناضل عن رأيه بالسيف واللسان وكان الخلاف يبدو إما خالصاً للمذاهب والرأي، وإما متصلا بالمصالح المادية والعصبيات القبلية. وبرر الأمويون في سبيل ملكهم

(1) المصدر السابق.

(2) الخوارج ـ الشيعة. والأمويين.

(3) المسعودي: مروج الذهب. 3/ 37.

كل وسيلة، وكان الشعر متنفساً مريحاً لعرض هذه المناحي، والأدب بعامة يسجل الخصومات السياسية، وتظهر هنا نزعة سياسية قوية، تعتمد على مقومات أجنبية قديمة، يمثلها جماعة من شعراء الفرس الذين دخلوا في الإسلام، ولم يجدوا في سياسة الأمويين هذه المساواة التي تعلموها، فأنكروا هذه السياسية، وكرهوا العرب بسببها، وذكروا دولتهم الزائلة، ومفاخرهم العتيدة، وتمنوا لو عاشوا في ظل الأكاسرة بدل هؤلاء الملوك.

وخير من يمثل هذه الفئة الشاعر إسماعيل بن يسار النسائي حين يقول:

رُبَّ خالٍ مُتوَّجٍ لي وعمٍّ ... ماجدٍ مُجتدى كريم النِّصَابِ
إنما سُمّي الفوارسُ بالفُر ... سِ مضاهاةَ رِفعةَ الأنسابِ
فاتركي الفخرَ يا أمامَ علينا ... واتركي الجورَ وانطقي بالصوابِ
واسألي إن جهلتِ عنا وعنكم ... كيف كُنّا في سالفِ الأحقابِ
إذ نربّي بناتِنا وتدسُّو ... نَ سفاهاً بناتِكم في الترابِ[1]

ويسير على منواله يزيد بن ضبة، مولى ثقيف، حين يفخر بعشيرته، ويعتب على هشام بن عبد الملك، ويذكر بأمجاد قومه، فيقول:

ألم ترَ أننا لما وَلينا ... أموراً، خرِّقت، فَوَهَتْ، سَدَدْنا
رأينا الفَتْقَ حين وهى عليهم ... وكم من مثله صَدَعٌ رَفَأْنا
ألا مَن مُبلغ عنّي هشاماً ... فما منّا البلاء وما بعدنا
ألم يَكُ بالبلاءِ لنا جزاء ... فنجزى بالمحاسن أم حُسِدْنا
ولينا الناس أزماناً طوالا ... وسُنّاهم ودسناهم وقُدْنا[2]

ويدخل ابن يسار النسائي على هشام ليمدحه فيفتخر بالفرس ويقول:

إنّي وجدِّك ما عودي بذي خَوَرٍ ... عند الحفاظ، ولا حوضي بمهدومِ
أصلي كريمٌ ومجدي لا يُقاس به ... وَلي لسانٌ كحدِّ السيف مسمومِ
مَنْ مثلُ كسرى وسابور الجنود معاً ... والهرمزان لفخر أو لتعظيم[3]

---

(1) الأصفهاني: الأغاني: 4/ 408. دار الكتب.

(2) المصدر السابق. 7/ 95. دار الكتب. وانظر الكثير من ذلك في بحثنا عن الشعراء الزنادقة.

(3) المصدر. 4/ 120.

وهكذا فإن الخصومات السياسية، النامية على جذور العصبيات القبلية والجنسية والدينية، هي كل حياة القوم الاجتماعية، وكأن الناس نسوا أو تناسوا ما دعا إليه الرسول من نبذ التفاخر والتهاجي من مثل قوله في خطبة حجة الوداع:

«أيها الناس ! إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء، كلكم لآدم وآدم بن تراب»[1].

فالخصومات السياسية وقتئذٍ، أوصلت الشعراء إلى نعت خصومهم بالإشراك تارة، والكفر والزندقة طوراً. والفرزدق في مدحه سليمان بن عبد الملك، نراه يدعو قيساً حين ثارت مع صاحبها في خراسان مشركة بربها، إذ يقول:

ولما رأينا المشركين يقودُهم   قُتيبةُ زحفاً في جموع الزمازمِ[2]

ولا يكتفي بإشراك قيس وتكفيرها بأنعم ربها، بل يجعل جموعها كجموع الزمازم، وهم المجوس الذين يجاهدون الإسلام. وهنا نرى العناصر الدينية وقد استعان بها الفرزدق وأقرانه لدعم خصوماتهم واتجاهاتهم السياسية.

إن جريراً يعجب من وقوف الفرزدق مع تغلب المسيحية، ضد قيس المسلمة، فيقول:

فخرتُ بقيسٍ وافتخرتَ بتغلبٍ   فسوف ترى أيُّ الفريقين أربحُ
فأما النصارى العابدون صليبَهم   فخابوا وأما المسلمون فأفلحوا[3]

4 ـ في عصر بني العباس:

كانت الحكومة الأموية عربية خالصة، غير خاضعة لطغيان الفارسية

---

(1) شوقي ضيف: التطور والتجديد. ص110.
(2) المصدر السابق. ص191.
(3) المصدر السابق. ص192.

أو الرومية، وكان من ذلك أن وجد في نفوس العرب ـ ومنهم الشعراء ـ تياران متناقضان: أحدهما: قديم من بقايا الجاهلية، وهو العصبية التي بعثتها السياسة الأموية.

والثاني: إسلامي جديد، هو هذه العصبية الجنسية، والإسلام وحد أكثر قبائل العرب وكون منها أمة عربية كبيرة. وهاتان النزعتان تصارعتا في نفوس العرب وكان لهذا الصراع آثاره الدينية والاجتماعية والسياسية، ولا سيما حين قويت النزعة الجاهلية فذهبت بحكم الأمويين.

لما اعتز العرب بتليدهم من خُلق وبيان، وطريفهم من إسلام ودولة غالبة، ثم استطالوا بذلك على الموالي واحتقروهم، تولد في نفوس هؤلاء تيار عكسي، نقموا به على العرب، وأخذوا يعتزون بأمجادهم ودولتهم الذاهبة، وينعتون العرب بالفقر والجهل ووأد البنات خوف الإملاق أو العار.

ولما ظفر بنو العباس بالحكم وانتقلت الخلافة من الشام إلى بغداد، كان للفرس نفوذ كبير يستريحون في ظله، ويتمنون إعادة سلطانهم، وقد تم لهم ذلك على الرغم من فطنة العرب لهذه السياسة، يقول نصر بن سيار يدعو النزارية واليمنية إلى لم شعثهم في وجه هذا العدو، الذي لم ير له ديناً أنزل في كتاب غير دين قتل العرب.

أبلغ ربيعةَ في (مَرْوٍ) واخوَتَهم	فليغضبوا قبل ألاّ ينفعَ الغضبُ
ما بالكُم تلقحون الحرب بينكُمُ	كأنَّ اهلَ الحِجَا عن رأيكم غُزُبُ
وتتركونَ عدوّاً قد أظلّكمُ	ممّا تأشّب، لا دينٌ ولا حسبُ
قِدْماً يدينون ديناً ما سمعتُ به	عنِ الرسولِ، ولم تنزل به الكتبُ
فمن يكن سائلاً عن أصل دينهمو	فإنَّ دينهمُ أن تُقتَلَ العربُ[1]

ونهض شعراء الفرس يفخرون على العرب، ويحتقرونهم، وتشتد الخصومة السياسية، فيتبرأون منهم زراية وأنفة.

---

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد 4/ 478. دار الكتاب العربي.

هذا بشار بن برد، قال له أعرابي، ما للموالي والشعر؟! فقال في العرب جميعاً:

أحينَ كُسيتَ ـ بعدَ العُرْيِ ـ خزّاً ... ونادمتَ الكرامَ على العُقَارِ
تُفاخرُ يا ابن راعيةٍ وراعٍ ... بني الأحرارِ حَسبُكَ من خُسَارِ
وكنتَ إذا ظمئت إلى قَرَاحٍ ... شركتَ الكلبَ في ولغ الإطارِ[1]

وهذا الخريمي، كان من أكثر الناس اعتزازاً بنسبه، وهو القائل:

إنّي امرؤٌ من سَرَاةِ الصُّغد ألبسني ... عِرْقُ الأعاجمِ جِلداً طيّب الخَبَرِ[2]

وهذا المتوكلي، كان من ندماء المتوكل العباسي يعتز بأعجميته، يطالب بعودة أمجاد قومه، داعياً بني هاشم إلى ترك الخلافة والعودة إلى الحجاز لأكل الضباب ورعي الغنم، لأن الملك عائد إلى قومه لا محالة، إن بحد الحسام أو بفتك القلم، يقول:

أنا ابن الأكارم من نسلِ جَمْ ... وحائز إرْثَ ملوكِ العَجَمْ
وطالبُ أوتارَهم جهرةً ... فمن نام عن حقِّهم لم أنَم
فقل لبني هاشم أجمعين: ... هلموا إلى الخلع قبل الندم
فعودوا إلى أرضكم بالحجاز ... لأكل الضباب ورعي الغنم
فإني سأعلو سريرَ الملوك ... بحد الحسام وحرف القلم[3]

إن الخصومات السياسية أخذت أشكالاً وألواناً مختلفة، ونمت في كل مناحيها إلى الزندقة.

عمد العجم ـ وبخاصة الفرس ـ إلى مزية العرب الظاهرة التي يعتزون بها، وهي البلاغة، وقوة الخطابة، وحضور البديهة، فانتقصوهم في ذلك قائلين: «أي ارتباط بين الكلام والعصا، وحمل العصا بأخلاق الفدّادين

(1) الأصفهاني: الأغاني: 6/ 242. دار الكتب.
(2) ابن قتيبة: الشعر والشعراء: 2/ 731. دار الثقافة.
(3) الشايب: تاريخ الشعر السياسي: ص283.

أشبه، وهو بحفاة الأعراب وعنجهية أهل البدو، ومزاولة إقامة الإبل على الطرق أشكل، وبه أشبه»[1]، وعابوا العرب في آلاتهم الحربية، فسخروا من رماحهم ومن عري خيولهم[2]، وأكثروا من التأليف في مناقب العجم[3]، ومثالب العرب[4].

كذلك وضع العجم قصصاً كثيرة في الأدب، وكانت هذه أخطر على العرب من الحرب الظاهرة، كما نسبوا الشيء إلى غير قائله، لإفساد الأدب العربي[5]. وكان لهم مجال فسيح في الحديث فوضعوا الكثير منها، وأسندوها إلى الثقات من الصحابة والتابعين، كمثل ما رووا عن الرسول: «سيأتي ملك من ملوك العجم فيظهر على المدائن كلها إلا دمشق»[6]. وفي حديث آخر: «لا تسبوا فارسياً فما سبه أحد إلا انتقم منه عاجلاً أو آجلاً»[7].

قابل العرب ومن تعصب لهم عمل الأعاجم بمثله، فوضعوا الأحاديث الكثيرة في تفضيل العرب، ووجوب حبهم كقولهم عن الرسول: «من غش العرب لم يدخل في شفاعتي، ولم تنله مودتي» وأيضاً: «أحبوا العرب لثلاث: لأني عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة في الجنة عربي»[8].

ونستطيع بعد هذا أن نعزو الخصومات السياسية في عهد بني العباس إلى ثلاث نزعات: العرب خير الأمم، العرب كغيرهم من الشعوب، تفضيل العجم على العرب[9] ونشأ عن هذا الصراع نوع من الديمقراطية

---

(1) الجاحظ: البيان والتبيين: 3/ 398. الشركة اللبنانية للكتاب.

(2) المصدر السابق: 3/ 399.

(3) ابن النديم: الفهرست ص179 ـ دار المعرفة. ما ألّفه سعيد بن حميد.

(4) المصدر السابق: ص153. ما ألفه علان الشعوبي.

(5) أحمد أمين: ضحى الإسلام: 1/ 71. دار الكتاب العربي.

(6) المصدر السابق: ص75.

(7) المصدر السابق.

(8) المصدر السابق: ص76.

(9) المصدر السابق، ص57 وما بعد.

يعتنقها غير العرب ويدافعون بها أرستقراطية العرب، تبتدئ خصوماتهم معتدلة هادئة، وتنتهي متطرفة عنيفة متخذة في بعض الأحيان شكل زندقة وإلحاد.

ثانياً: الخصومات الأدبية

رأينا كيف كانت العصبية القبلية زمن الجاهليين، وكيف خبت إبان ظهور الإسلام والخلفاء الراشدين، وكيف عادت لتظهر من جديد في العصر الأموي وتشتد وتتطور إلى عصبية جنسية في أواخر هذا العصر وتبلغ ذروتها أيام العباسيين.

ورأينا أيضاً كيف كانت بذور هذه الحركة تتوزع في مضارب العرب لتظهر جلية واضحة في أدبهم ـ منذ العصر الجاهلي وحتى نهاية عصر بحثنا ـ.

ظهرت الخصومات الأدبية إذن سافرة لا يسترها حجاب، وبدأ بين رجال الفكر حركة من المساجلات والمناظرات، كل يدافع عن وجهة نظره، ويرد على الآخر حججه وبراهينه.

من المعروف عن العرب أنهم أكثر الأمم اهتماماً بالأنساب والأحساب، حتى لقد وضعوا لذلك علوماً دقيقة برع فيها بعضهم، ومن أشهرهم أبو بكر الصديق[1].

دفعهم هذا الاهتمام والحرص على حفظ الأنساب إلى التفاخر والتخاصم، تارة بين العرب أنفسهم وما يختصون به من عصبيات قبلية، وطوراً بين العرب والأعاجم.

فإذا كان العرب مثلاً يتفاخرون بالملك، ردت عليهم الأعاجم بأن ملوك الأرض كلها منهم، فمنهم الفراعنة، والعمالقة، والأكاسرة، ومنهم سليمان

---

(1) ابن هشام: السيرة: 1/ 267. القاهرة 1936م.

الذي سخرت له الإنس والجن والإسكندر الذي ملك الأرض كلها[1].

ولم يقف العجم عند هذا الحد، بل اتبعوا منهجاً خاصاً للتخاصم الأدبي والطعن في أنساب العرب، فوضعوا كتب المثالب[2]. وحارب العرب العجم بسلاحهم وردوا على كتب المثالب بتأليف كتب الفضائل[3].

وتجلت هذه الخصومات الأدبية أكثر ما تجلت في المناظرات والمساجلات. وكان يحدث أن يلتقي رجلان، أحدهما عربي والآخر فارسي فيتناولان موضوعاً ما كالضيافة مثلاً، فيقول الأعرابي: «نحن أقرى للضيف، لأن أحدنا ربما لم يملك إلا بعيراً، فإذا حل به ضيف نحره له»، فيقول الأعجمي: «فنحن أحسن مذهباً في القرى منكم، نسمى الضيف مهمان، ومعناه أنه أكبر من في المنزل، وأملكنا به»[4].

ويروى عن بشار بن برد، أنه لما دخل على المهدي سأله «فيمن يعتد»؟ فقال: «أما اللسان والزي فعربيان، وأما الأصل فعجمي، كما قلت في الشعري يا أمير المؤمنين:

ونبئتُ قوماً بهم جنّة ... يقولون من ذا وكنت العلم
ألا أيها السائلي جاهداً ... ليعرفني أنا أنف الكرم
نمت في الكرام بني عامر ... فروعي وأصلي قريش العجم»[5]

وأبو نواس وأشعاره التي يسخر منها من تقاليد العرب وعاداتهم أكثر من أن تحصى، وإنما نذكر منها لماماً ضئيلة، كقوله:

---

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد: 2/ 254 ـ 255 القاهرة 1928 م.

(2) من الذين اشتهروا بوضع هذه الكتب: أبو البختري في كتابه «الفضائل». ومعمر بن المثنى، والهيثم بن عدي. الفهرست: ص145 طبعة مصر 1348هـ ومنهم حماد الراوية الذي اشتهر بإفساد الأدب العربي وتشويه أخبار العرب، وعلان الشعوبي المشهور بكتاب المثالب. الفهرست: ص153 ـ 154.

(3) الجاحظ: البيان والتبيين: 1/ 359و3/ 10 ـ 12 ـ 27 ـ 32... مصر 1947.

(4) البيهقي: إبراهيم بن محمد: المحاسن والمساوئ: جيسن، ألمانيا: 1902م. ص202.

(5) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 21. بولاق.

عاج الشقيُّ على رسم يسائله | وعجت أسأل عن خمّارة البلد
يبكي على طلل الماضين من أسدٍ | لا در درك قل لي من بنو أسد
ومن تميمٌ ومن قيسٌ ولفهما | ليس الأعاريب عند الله من أحد[1]

وكقوله أيضاً، يفضل تراث كسرى على تراث العرب:

تراث انو شروان كسرى ولم تكن | مواريث ما أبقت تميم ولا بكر
قصرتُ بها ليلي وليلَ ابن حرّةٍ | له حسب زاكٍ وليس له وفر[2]

وهذا علان الشعوبي يفضل العجم على العرب، ويفتخر بكسرويته، إذ يقول:

إن لي فخراً مباءَتُهُ | في قرار النجم ماهول
ورجالاً شربُهم غدقٌ | هم لما حازوا مباذيلُ
كسرويات أبوتُنا | غُرر زهر مقاويلُ[3]

وممن تخاصم أدبياً كتاب ومفكرون كالجيهاني[4]، الذي ألف كتاباً، سب فيه العرب، وتناول أعراضها وحط قدرها، واتهمهم بأكلة الحشرات والهوام، وأنهم يتعاورون ويتهاجون، «وكأنهم قد سلخوا من فضائل البشر»[5].

وأبو حيان التوحيدي الذي يكرس نفسه ليعدد فضائل العرب، في شيء من التطويل، فيخاطب الجيهاني قائلاً: «... فإن العصبية في الحق ربما خذلت صاحبها وأسلمته وأبدت عورته واجتلبت مساءته، فكيف إذا كانت في الباطل»[6].

وثمة رواية يبدو فيها ابن المقفع حاقداً على العرب، رادهم إلى الفلاة يرافقون اليرابيع والظباء، يأنسون بالوحوش والجان، ينفي عنهم كل شيء

(1) نواس ـ أبو الحسن بن هانئ: ديوان أبي نواس. ص266. مصر 1898م.
(2) المصدر نفسه، ص284.
(3) ياقوت ـ عبد الله الحموي ـ معجم الأدباء ج12، ص194، مصر 1938م.
(4) أبو عبيد، أحمد بن محمود بن نصر. الفهرست، ص198 مصر.
(5) التوحيدي: أبو حيان: الامتاع والمؤانسة. 1/ 79. مصر 1942م.
(6) المصدر نفسه: 1/ 85 ـ 86.

حتى الشعر الذي هو فخرهم التليد، إذ يقول: «أي حكمة تكون أبلغ أو أحسن أو أغرب في غلام بدوي، لم يشبع من طعام، يستوحش من الكلام، ويفزع من البشر، ويأوي إلى القفر واليرابيع والظباء، وقد خالط الغيلان، وآنس بالجان، فإذا قال الشعر... يقول ما يكتب عنه، ويروى له، ويبقى عليه»[1].

حاول الأعاجم، ـ وربما كان ابن المقفع منهم ـ أن ينفوا صبغة الأمة عن العرب فزعموا أن العرب قبائل متفرقة متنازعة، وفسروا الآية الكريمة ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليمٌ خبير﴾[2]. بأن العجم هم الشعوب، والقبائل هم العرب، والمقدم أفضل من المؤخر.

ويظهر أن الجدل كان يحتد ويشتد بين الفريقين، وبين طوائف المسلمين من العرب، ويكاد يبلبل الخواطر، لهذا انحى زيد بن جندب على بعضهم باللوم، لأنهم أكثروا من الجدل فانقسموا وزاغت أنفسهم بقوله:

ما كان أغنى رجالاً ضلَّ سعيُهُم ... عن الجدال وأغناهم عن الخُطب
كنّا أناساً على دين ففرَّقنا ... طولُ الجدال وخَلطُ الجَدّ باللعب
قلْ للمُحلِّين قد قرّت عيونُكم ... بفرقة القوم والبغضاء والهَرَب[3]

كان كثير من حكام العرب وولاتهم يغرون بعض الشعراء ببعض، ويحضونهم على التهاجي، يريدون الثأر ـ والثأر زندقة ـ من قبائل غير موالية، أو اللهو بهذا العبث. وكان الدهاة منهم يبتغون إشغال الشعراء بالتهاجي والتفاخر، وإشغال كثيرمن الناس بهذه الخصومات الأدبية، ليبعدوهم عن المشاركة في السياسية فلا يفرغوا للثورات عليهم.

كان معاوية يقول: «أنا لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي، ولا

---

(1) الحصري: أبو اسحق: زهر الآداب وثمر الألباب: 2/ 102. القاهرة 1925م .

(2) سورة الحجرات آية: 13.

(3) الجاحظ: البيان والتبيين: تحقيق هارون. وفي طبعة الشركة اللبنانية بدل طول الحدال روي فرع الكلام في السطر الثاني: 1/ 42و1/ 37.

أضع سوطي حيث يكفيني لساني»[1].

وقال عبد الملك للعجاج: بلغني أنك لا تقدر على الهجاء. فقال: يا أمير المؤمنين، من قدر على تشييد الأبنية أمكنه تخريب الأخبية. فقال: فما يمنعك من ذلك؟ قال: إن لنا عزّاً يمنعنا من أن نُظلَم، وإن لنا حلماً يمنعنا من أن نَظْلِم، فعلام الهجاء؟[2]

وكثيراً ما نرى هذا العداء الأدبي ينقلب فوق رؤوس الحكام ـ ولو كانوا خلفاء الدولة ـ في بعض الأحايين.

أراد معاوية أن يأكل ميراث عم الفرزدق. فغضب الفرزدق، وثار على الخليفة، معترفاً بأن الإسلام هو الذي أخضعه لهذا الحكم، ولو أن عمله هذا حدث في الجاهلية لكان لهم معه شأن، وخاطب معاوية في خشونة وتهديد:

أبوك وعمي يا معاويَ أورثا ... تُراثاً فيحتاز التراثَ أقاربُه
فما بالُ ميراثِ الحُتاتِ أخذتَه ... وميراث حرب جامد لك ذائبه
فلو كان هذا الأمر في جاهلية ... علمتَ من المرءُ القليل جلائبه
وكم من أب لي يا معاويَ لم يكن ... أبوك الذي من عبد شمس يقاربه[3]

هذه الخصومات الأدبية، مقرونة بالخصومات السياسية، أشاعت في المجتمع العربي ـ منذ الجاهلية وحتى العصر العباسي الأول ـ الفوضى، وانفصمت عرى وحدته.

وهذه الحقيقة أدركها المتطرفون من العرب والعجم على حد سواء، فكان أغلبهم من الزنادقة، وكانت خصوماتهم دليلاً على الزندقة، وداعياً لاتهام أصحابها بضعف دينهم. ذلك أن هذا الصراع يرتبط إلى حدٍ بعيد بما ذهب إليه عبد الرحمن بدوي[4]، إذ يرجع حركة الزندقة كلها أو معظمها

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد: 2/ 10. القاهرة 1940.
(2) الأصفهاني: الأغاني: 2/ 45. دار الكتب.
(3) الفرزدق: الديوان: ص22 ـ 23. دار الثقافة العربية.
(4) بدوي: الإلحاد في الإسلام: ص23 ـ 24.

إلى العصبية الجنسية، التي يسميها «الشعوبية». وقد سبقه الجاحظ إلى ملاحظة ذلك، فقال عن العصبية أنها «لا تبقي ديناً إلا أفسدته ولا دنيا إلا أهلكتها، وهو ما صارت إليه العجم»[1].

وربما كان هذا الاتهام، من قبل بدوي والجاحظ، صحيحاً، لأن المتعصبين المتخاصمين من العرب والعجم اتجهوا لتدعيم موقفهم إلى القرآن والأحاديث الشريفة يختارون ما يتفق مع نزعتهم، ويضعون من الأحاديث ما يؤازر دعوتهم.

دفع هذا العمل بعض المستشرقين إلى المبالغة في الشك فيرى Goldziher مثلاً أن خطبة الوداع التي ألقاها الرسول قبل وفاته، موضوعة[2]. وضعها بعض المسلمين المتعصبين لجنس، ليبرهنوا أن الرسول أراد مساواة العرب بجميع الشعوب.

ويرى (Muir)[3] و (Oleary)[4] أن الصورة التي نزل عليها الدين الإسلامي كانت عربية صرفة. وما دامت هكذا فقد اعتبر العرب أن النبي نبيهم والدين دينهم والقرآن كتابهم، ولكن العجم وقد تسلحوا بآيات كثيرة من القرآن وأحاديث جمة، كمثل ﴿إن أقربكم عند الله أتقاكم﴾ و ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾[5]، لا يرون ما رآه العرب.

ولهذا فإن الخصومات السياسية والأدبية لم تتوقف، ودائماً كان يشتم منها رائحة زندقة.

---

(1) الجاحظ: رسالة الجاحظ في بني أمية. ص299. القاهرة 1933م. والمقريزي: النزاع والتخاصم. ص101. مصر 1939م.

(2) Goldziher Jgnas: Mu hamme danisehe studien 2 vol. Hallen 1888-90-p. 152.

(3) Muir. William. The Caliphate: (Edinlburg, 1924) p. 42.

(4) O. Leary-de laey- Arabic thought and its place in History, London 1939. p.56.

(5) سورة سبأ: آية 28.

الفصل الخامس

الطابع الاجتماعي والحضاري للزندقة

القسم الأول

المجون

1 ـ معناه:

إذا بحثنا عن معنى المجون في اللغة، استطعنا أن نحدد بالضبط ما هو المقصود بأدب المجون، وأي أغراض كان يخوض فيها، وما جاء في اللغة: مجنت الأرض مجوناً إذا صلبت وغلظت، ومنه جاء اشتقاق كلمة «ماجن» لصلابة وجهه وقلة استحيائه. وذكر أن الماجن عند العرب هو الذي يرتكب المقابح المردية والفضائح المخزية ولا يمضه عذل عاذل ولا تقريع من يقرعه[1].

من هنا نرى المجون ارتكاباً لأعمال مخلة بالآداب العامة، دون تستر أو استحياء، والمجون ظاهرة خطيرة في المجتمعات الإنسانية، قديمها وحديثها، والماجن لا يتحرج ولا يرعوي، إن تغزل فأباح، وانحرف في غزله عن النساء وللمذكر استباح، وهذا السلوك يسير به إلى شعاب الزندقة ببعض أشكالها.

---

(1) ابن منظور: لسان العرب. مادة مجن.

2 ـ نشاته ومساره:

ترتبط نشأة المجون بالقرن الثاني ارتباطاً كاملاً، إذ أنه كان في القرن الأول ـ وما سبقه ـ مسألة فردية وليس تياراً عاتياً، مثلما يحكى عن الوليد بن عقبة أخي عثمان بن عفان[1]، وعن يزيد بن معاوية حين حج في خلافة أبيه، وجلس بالمدينة على شراب، ودعا عبد الله بن العباس والحسين بن علي لمشاركته حينما دخلا عليه، فامتنعا فقال:

إلا يــا صــاحِ لــلـعَـجـبِ	دعــوتُــكَ ثُــمَّ لــم تُــجِــبِ
إلــى الــقــيــنــاتِ والــلَّــذاتِ	والــصــهــبــاءِ والــطَّــرَبِ
وبــاطــيــةٍ مُــكِــلَّــلَــةٍ	عــلــيــهــا ســادةُ الــعــرب
وفــيــهــنّ الــتــي تَــبَــلَــتْ	فــؤادَكَ ثــمَّ لــم تَــثُــبِ[2]

ولعل أول الشعراء الماجنين ـ بالمعنى الحقيقي للمجون ـ هو ابن خذام الأسدي[3].

ويصف لنا طه حسين بدء انتشار هذا التيار فيقول: «لم يكد يبتدئ القرن الثاني حتى ظهر المجون وانتشر ووصل إلى قصور الخلفاء، ثم كانت ثورة العباسيين فتم انتصار الفرس على العرب... فتم انتصار العبث والمجون»[4]. ولعل مجتمعاً عربياً لم يعرف اللهو والمجون كما عرفهما المجتمع العباسي في قرنه الأول، إذ شعر فيه العجم بحريتهم، فكانت منهم ثورة عاصفة على جميع التقاليد العربية، ومضى أبناء هذه الثورة يعبون من كؤوس اللهو والمجون حتى الثمالة، وانتشرت دورهما في كل مكان، وكانت تزخر بالخمر والغناء والقيان والغلمان.

---

(1) الأصفهاني: الأغاني: 4/ 177 بولاق.

(2) المصدر السابق: 14/ 61 دار الكتب والباطية: وعاء كبير للخمر.

(3) بروكلمن (كارل) تاريخ آداب اللغة العربية ـ ترجمة النجار. دار المعارف مصر 59 ـ 61، 1962. 1/ 203.

(4) طه حسين: حديث الأربعاء. 2/ 81. دار المعارف. مصر 1958م.

ساعد في اتساع وانتشار هذه الموجة شيئان: ظهور مذاهب شاكة بلبلت الأفكار، ـ وعلى رأسها مذاهب الزنادقة والدهريين ـ ثم انتشار دور القيان. كما ساعد على انتشارها اختلاط العرب بالفرس وبغيرهم من الأعاجم، وقد غصت بيوت الأثرياء بالفاسدين المفسدين ـ كما يقول ديورانت ـ وأصبح السكر رذيلة شائعة بين كل الطبقات[1].

وساعد أيضاً مواقف بعض غلاة الفرق الدينية على تثبيت دعائم المجون والحض على الإباحة[2]. حتى أن مواقف بعض هؤلاء الغلاة كادت تصبح طوفاناً يجرف في سبيله تعاليم الإسلام، وتقاليد العرب.

ويبدو أن هؤلاء الغلاة الذين حضوا على الإباحة، وساعدوا على انتشار المجون بدأوا ـ أكثر ما بدأوا ـ يزاولون نشاطهم في الكوفة. والكوفة نشأت بجوار الديانتين اليهودية والنصرانية، كما جاورت عقائد السكان الأصليين من مانوية وزرادشتية ومزدكية. ثم كان فيها ظهور فرق الغلاة والمتطرفين، أمثال المنصورية والبيانية والخطابية والجناحية[3]. وهذا ما سبب في شيوع التحلل والتطرف في المجون، يقول في ذلك محمد جابر عبد العال: «المتأمل لمذاهب الكوفيين من الغلاة الذين حللوا المحرمات وسخروا بالدين، يجد مذاهبهم يطبقها هؤلاء المجان «من الشعراء» تطبيقاً لا يصطنعون فيه حيطة ولا حذراً»[4] .

وينسب هذا الباحث إلى الكوفة كل إشارات المجون والزندقة، وهو

---

(1) ديورانت: قصة الحضارة 2/ 454.

(2) فلهوزن: الخوارج والشيعة. ص264.

(3) المنصورية: نسبة إلى منصور العجلي. وقد كفرت بالقيامة والجنة والنار. والبيانية: من أتباع بيان بن سمعان: وقد نادوا بألوهيته. والخطابية: اتباع أبي الخطاب الأسدي. والجناحية اتباع عبد الله بن معاوية. الفرق بين الفرق: البغدادي: ص145. القاهرة 1948م.

(4) عبد العال (محمد جابر) حركات الشيعة المتطرفين وأثرهم في الحياة الاجتماعية والأدبية لمدن العراق إبان العصر العباسي الأول. مطبعة السنة المحمدية ـ القاهرة 1954 م. ص305.

يقول: إن المجون لم يظهر ببغداد قبل أبي نواس[1]، حتى لقد روى عن حذيفة صاحب الشرطة أنه قال: لما حبس أبو نواس كان أكثر من يزوره في حبسه المرد والشبان والخمارون وأصحاب الريبة[2]، ويمكننا أن نتصور مدى تأثير الرافضة في انتشار المجون والتحلل، من قول بعض مشايخهم: «إن الله يشاء كل فاحشة ويريد كل معصية»[3]. ويرى عبد الرحمن بدوي، أن بعض الشعراء الذين اتهموا بالزندقة، أمثال بشار وحماد عجرد، وأبان اللاحقي لم يكونوا زنادقة بالمعنى الصحيح، فهم أقرب إلى الشك والمجون، وأولى باسم الشكاك العابثين منهم باسم الزنادقة الملحدين[4]. وعلى أية حال فإننا نلمح ارتباطاً وثيقاً بين المجون والزندقة، ويمكننا اعتبار المجون أولى درجات الزندقة.

مما تقدم يتبين لنا أن المجون لم يكن نزعة بريئة ساذجة، يدعو إليها الترف والتظرف الاجتماعي، ولكنه كان نتيجة مؤثرات عميقة كالمذاهب الدينية والفكرية والتطورات الخطيرة التي حدثت في تكوين المجتمع.

ولعل أول شيء نجده عند المجان، هو مجاهرتهم بارتكاب المحارم علناً دون مواربة، واتخاذهم أسلوب التصريح لا التلميح، نرى ذلك واضحاً في شعر للأقيشر يجهر بتركه الصلاة دون تحرج، ويتهكم بهذه الفريضة، قائلاً:

إذا صلَّيْتُ خمساً كلَّ يوم ... فإن اللهَ يغفرُ لي فسُوقي

ولم أُشركْ بربِّ الناس شيئاً ... فقد أمسكتُ بالحبل الوثيقِ[5]

---

(1) المصدر السابق. ص269.

(2) المصري (ابن منظور): أخبار نواس 1/ 152.

(3) الخياط (أبو الحسين عبد الرحيم) الانتصار. نشر لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة 1914م، ص6.

(4) بدوي (عبد الرحمن) من تاريخ الإلحاد في الإسلام. مكتبة النهضة ـ مصر ـ القاهرة 1945م، ص28.

(5) الأصفهاني: الأغاني 11/ 265. دار الكتب.

وحين يمسك به أحد رجال الشرطة يمتحنه في الصلاة قائلاً: كم تصلي كل يوم فيجيب في سخرية واضحة:

يسائلني هِشامٌ عن صلاتي ... صلاةِ المسلمين فقلتُ خَمْسُ
صلاةُ العصر والأولى ثمانٍ ... مُواتَرَة فما فيهن لَبْسُ
وعند مَغيبِ قرنِ الشمسِ وتْرٌ ... وشَفْعٌ بعدها فيهن حبسُ
وغُدْوَةً اثنتان معا جميعاً ... ولما تَبْدُ للرَّائين شمسُ
وبعدَهما لوقتِهما صلاةٌ ... لِنُسْكٍ بالضُحاءِ إذاً نبُسُّ[1]

ونرى مثل هذا الشعر عند أبي دلامة، الذي يخرج على حدود الشريعة الإسلامية متأثراً بتيار المجون الذي استشرى في عصره، بقوله:

ووالـلـهِ ما لي نيّةٌ في صلاتِه ... ولا البِرُّ والإحسانُ والخيرُ من أمري[2]

وقد أحسن صاحب الأغاني في وصفه عندما قال: «وكان فاسد الدين، رديء المذهب، مرتكباً للمحارم، مضيعاً للفروض، مجاهراً بذلك»[3].

أما الوليد بن يزيد، فيعتبر من أئمة المجان، فهو يجاهر باللذة وارتكاب المحرمات في مثل قوله:

أشهدُ اللهَ والملائكةَ الأبرارَ ... والعابدينَ أهلَ الصلاحِ
أنني أشتهي السّماعَ وشُرْبَ ... الكأسِ والعضَّ للخدود الملاحِ
والنديمَ الكريمَ والخادمَ الفارةَ ... يسعى عليَّ بالاقداحِ[4]

يقول أبو الفرج عن الوليد بن يزيد: «كان فاسقاً خليعاً متهماً في دينه»[5]، ويروي السيوطي عنه: «أنه كان فاسقاً شريباً للخمر، منتهكاً

---

(1) المصدر نفسه 11/ 266. ونبس يعني ننطلق لشؤون الحياة.
(2) المصدر نفسه 10/ 248.
(3) المصدر نفسه 10/ 235.
(4) المصدر نفسه 7/ 22.
(5) الأصفهاني: الأغاني: 7/ 2 دار الكتب.

لحرمات الله، وكثيراً ما اشتهر بالتلوط»[1].

إن الوليد يجهر بلذته حين يعيبه بعض الناس على الشراب فيقول:

ولقد قضيتُ وإن تَجَلَّلَ لِمَّتي شيبٌ على رغم العِدَا لَذَّاتي
من كاعباتٍ كالدُّمى ومناصفٍ ومراكبٍ للصَّيدَ والنَّشَوَاتِ[2]

وتظهر نزعة المجون عند الوليد واضحة جلية في تلك الأبيات التي قالها عند موت هشام بن عبد الملك، حين سمع صياح بناته وندبهن، فتغلب عليه روح المجون والشذوذ في أكثر المواقف استثارة للحزن، يقول:

إني سمعتُ بِلَيْلٍ ورا المُصَلَّى بِرَنَّهْ
إذا بناتُ هشامٍ يَندُبْنَ والدَهُنَّ
يندُبْن قرماً جليلاً قد كان يعضُدُهُنَّهْ
أنا المخنَّثُ حقّاً إن لم (........)[3]

أما عصابة المجان، فقد كانت تضم كثيراً من الشعراء الذين انكبوا على ملذاتهم وشهواتهم، وآمنوا بمبادئ المجون: من خروج على الدين والتقاليد، ومجاهرة بهذا الخروج. وكثيراً ما كانوا يجتمعون ويتطارحون الشعر الدال على فساد مذهبهم، وعلى إمعانهم في المجون.

ونجد عدداً كبيراً من الشعراء يندرجون في باب المجون، منهم: أبان اللاحقي والحسين بن الضحاك، ودعبل الخزاعي، ومسلم بن الوليد، ووالبة بن الحباب، ومحمد بن رياح، وأحمد بن روح، وحمدان الخزاز، والواسطي، والرقاشي، وأبو قابوس النصراني، والجماز، وأبو الشمقمق،

---

(1) السيوطي: (جلال الدين عبد الرحمن) تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين ص166. ط: إدارة الطباعة المنيرية ـ القاهرة ـ 1351هـ.

(2) الأغاني: 7/ 12 دار الكتب.

(3) المصدر السابق 6/ 109 بولاق. وأهملت كلمة في نهاية السطر الرابع لبذائتها ومعناها أفعل بهن.

وعمرو الوراق، والحسين الخياط، وعلي بن الخليل، والقراطيسي، ورزين الكاتب، وحماد عجرد، ومطيع بن إياس، ويحييبن زياد، وابن أبي عينية[1].

كثيراً ما كانت عصبة المجان تجتمع فتتطارح الشعر، تأنس بفاحش الكلام وتلذ برذيله.

يكتب أبو قابوس إلى أبي نواس، يصف له مجلساً ماجناً لم يحضره، فيقول:

فديتُك يا نُواسيّ اصطَبَحْنا ... بِكِبُرَّةٍ وبُلبُلَةٍ وطاسِ
فما كانت صلاةُ الظُهر حتَّى ... تَلَفَّفْنا بأثوابِ النُّعاسِ
توسَّدَ بعضُنا أفخاذَ بعضٍ ... وظلْنا في اختلاطٍ والتباسِ

فيتحسر أبو نواس على حرمانه من هذا المجلس، فيبادر على الإجابة:

قد وُفِّقتُمُ لِخَلالِ ظرفٍ ... خلا اخلالكم بأبي نُوَاسِ
فهلاً إذ عَزَمْتَ على اصطباحٍ ... وقدماً كان ذاك مِنَ التمَاسِ
ذكرتَ خلاعتي ومُساعداتي ... ولم تكُ غافلاً عنِّي كَنَاسي
أبا قابوس جدِّدْ لي صَبوحاً ... على مُرْدٍ ومُسْمِعَةٍ وكاسِ[2]

هذه المجالس التي يعكف عليها أولئك الماجنون، كانت تحوي بين دفتيها كل أركان المجون وكل الرذائل، أي الخروج على الدين والتقاليد والعرف ،والوصول إلى زندقة دينية واجتماعية. كان كل واحد من أفراد عصبة المجان يستضيف الآخرين عنده، ويغريهم بلون أو بآخر من ألوان المجون، فداود الواسطي يغريهم بالخمر في مجلس يسمعون فيه الغناء، وأبو نواس يغريهم بارتكاب الفواحش، ويجعل ميعادها وقت الصلاة، إمعاناً في المجون والتهتك:

---

(1) أبو نواس (الديوان) ص43، 44. تحقيق (إيفالد فاجنر) القاهرة ـ 1958م.

(2) المصدر السابق: ص54.

فـــإن اردْتُـــم فـــتـــاةً أتـــيـــتُـــكـــم بـــفـــتـــاةِ
وإن أردتُـــمْ غُـــلامـــاً صـــادفـــتـــمـــونـــي مُـــؤاتـــي
فـــشـــاوِرُوهُ مُـــجـــونـــاً فـــي وقـــتِ كـــلِّ صـــلاةِ[1]

ويسير عمرو الوراق على خطى أبي نواس، فيدعوهم إلى الخمر والسماع، ويحل لهم ترك الصلاة:

هـــذا ولـــيـــس عـــلـــيـــكُـــم أولـــى ولا وَقـــتُ عَـــصْـــرِ[2]

وأما الحسين الخليع وفضل الرقاشي وعلي بن الخليل والقراطيسي ورزين الكاتب وحمدان الخزاز، فجميعهم يدعون باقي العصابة إلى مثل ما تقدم به أخوانهم من خمر وسماع وارتكاب فواحش ولو بين بعضهم البعض، كما جاء في أبيات الخزاز[3].

ويبدو أن المجون كان يطلقهم من كل قيد والتفنن في الإقبال على الشهوات، وربما كان هذا الاتصال الشاذ له جذور في الإباحة المزدكية، وإلا فكيف نفسر قول والبة بن الحباب:

حـــتـــى إذا مـــا انـــتـــشـــيْـــنـــا وهـــزَّنـــا إبـــلـــيـــسُ
رأيـــتَ أعـــجـــبَ شـــيءٍ مـــنـــا ونـــحـــنُ جُـــلـــوسُ
هـــذا يُـــقـــبِّـــلُ هـــذا وذاكَ هـــذا يَـــبُـــوسُ[4]

والذي روي لنا من نقائض أبي نواس مع عنان الجارية ومع غيرها من الجواري فهو يؤكد الدور الخطير الذي قمن به من إشاعة التهتك والفحش وسريان تيار المجون.

وربما كانت «دقاق» المغنية صورة واضحة لهؤلاء الجواري في

(1) المصدر نفسه، ص61.
(2) المصدر نفسه، ص62.
(3) المصدر نفسه، ص64.
(4) ابن المعتز: طبقات الشعراء. ص89 دار المعارف مصر. 1956م.

مجونها وفحشها، حتى كانت تقول الشعر في وصف هَنِها، وفيها يقول أحدهم:

عَدِمْتُكِ يا صديقةَ كلِّ خَلْقٍ ... أكلُّ الناس ويْحَكِ تعشقينا[1]

وما لنا نذهب بعيداً في تصورنا لهذا التهتك، وفي استنتاج تأثير الجواري في حركة المجون، وهذا شعر عنان في أبي نواس يدل على إباحة مطلقة:

عجباً من خَلَقِيٍّ ... يدّعي أصلَ اللُّواطِ
فإذا صار إلى البَيْـ ... ـتِ وخَشْفٌ من تَوَاطِ
فالذي يعلم يدري ... من يَلي وجْهَ البِساطِ[2]

لم يكن المجون وقفاً على عصابة من الشعراء أو الجواري، أو جماعة من الناس أو طبقة بذاتها في المجتمع، ولكنه فيما يبدو كان شائعاً بين أفراد من الطبقات المتباينة بتأثير العوامل الاجتماعية المختلفة ،ونستطيع أن نلم بذلك من الروايات التي ذكرها حمزة الأصفهاني في اللواط المستشري بين أفراد المجتمع. ومن ذلك أن أبا نواس رأى رجلاً من ولد المهلب ثم من ولد روح بن حاتم وفوقه غلام يعفجه[3]. إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة، التي تصور لنا قوة تيار المجون واستشرائه.

وكما ربطنا بين المجون والزندقة وأوجدنا بينهما صلة الجزء بالكل، كذلك علينا أن نذكر أن أغلب أفراد عصابة المجان كانوا من الموالي، وبعضهم تعصب ضد العرب، ولا نستبعد أن يكون مجونهم هذا، وحثهم عليه، وسعيهم لانتشاره وإشاعته، جزءاً من سياستهم التي أرادوا بها هدم مقومات المجتمع العربي، والعودة إلى سالف مجد شعوبهم. والذي يجعلنا

---

(1) طبقات ابن المعتز: ص89.

(2) ديوان أبي نواس: ص83. ط(فاجنر). وخشف: سرعة.

(3) المصدر السابق: ص94. وعفج: نكح وجامع وفعل به فعل قوم لوط.

نميل إلى هذا الرأي هو مجاهرتهم بمجونهم، وليس ضرورياً لمن يريد أن يستبيح محرماً أن يجهر به إلا إذا كان يقصد من وراء هذه المجاهرة الدعوة إلى مذهبه التليد. وهذا ما نلمحه بالفعل في شعر الماجنين، فبشار يدعو إلى اللذة دون وجل من اللوام والساخطين، إذ يقول:

من راقب النّاسَ لم يظفر بحاجته   وفاز بالطيِّبَاتِ الفاتك اللَّهجُ
قالوا حرامٌ تلاقينا فقد كذبوا   ما في التزامٍ ولا في قُبلةٍ حَرَجُ[1]

ونجد هذه الناحية واضحة عند أبي نواس الذي يجاهر، ويؤكد إصراره على المضي في الفساد والغي فيقول:

لستُ بالتّاركِ لذات   الندامى للصّلاحِ
قلْ لمن يَبغي صلاحاً   بِعتُ رُشدي بصلاحي
أطيبُ اللذات ما كان   جَهاراً بافتضاحِ[2]

وربما اعترف أبو نواس بتحريم ما يرتكبه، ولكنه يستشعر لذة في هذا التحريم، وهنا دعوة خفية للإباحة، ولكنها عميقة الأثر، يقول:

فخُذها إن أردتَ لذيذَ عيشٍ   ولا تَعْدِلْ خليليَ بالمُدَام
وإن قالوا حَرَامٌ، قلْ: حرامٌ   ولكنَّ اللذاذةَ في الحرامِ[3]

ولا يتوانى أبو نواس عن أن يمزج المجون بالكفر داعياً إلى المجاهرة بهما، إذ يقول:

فَبُحْ باسم مَنْ أهوى ودَعْني من الكُنى   فلا خيرَ في اللّذاتِ من دُونها سِتْرُ
ولا خيرَ في فَتْكٍ بغير مَجانةٍ   ولا في مُجونٍ ليس يَتْبَعُهُ كُفْرُ[4]

وهناك ماجنون غير مشهورين عند دارسي الأدب. فمنهم أبو

---

(1) بشار (بن برد): ديوان تحقيق محمد عاشور. لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة، 1950 ـ 1954 ـ 1957م.
(2) ديوان أبي نواس، ص685. دار الكتاب العربي.
(3) المصدر نفسه: ص693.
(4) المصدر نفسه: ص28و308.

النضير[1]، الذي أظهر الخلاعة والمجون والفسق، ونافس أبا نواس في عشق جنان جارية الناطفي وهو الذي قال فيها:

أنـــا والـــلـــهِ أهـــواكِ وأهـــــواك وأهـــــواك
وأهـــوى قـــبـــلـــةً مـــنـــكِ عـــلـــى بَـــرْدِ ثـــنـــايـــاكِ[2]

... إلى آخر هذا الشعر الرخيص

ومثل هذا الغزل الماجن يذكرنا بغزل حماد عجرد في «جوهر» جارية ابن عون:

إنـــي لأهـــوى جـــوهـــراً ويـــحـــب قـــلـــبـــي قـــلـــبَـــهـــا
وأحـــبُّ مـــن حُـــبِّـــي لـــهـــا مـــن وَدَّهـــا وأحـــبَّـــهـــا[3]

ومن غير المشهورين آدم بن عبد العزيز، وهو عربي من بني مروان، كان في أول أمره خليعاً ماجناً منهمكاً في الشراب، حتى أن أحد الرواة، قال عنه: «ما رأيت قرشياً أمجن منه»[4]. وكذلك حمزة بن بيض، ومحمد بن عمرو الجماز، وسعيد بن وهب، ويحيى الحارثي وزرزر الرفاء[5]، والخاركي الذي كان خبيثاً سفيهاً ماجناً، وشعره كله لا يقل فحشاً عن قوله:

إذا لام عـــلـــى الـــمُـــرْدِ نـــصـــيـــحٌ زادنـــي حِـــرْصـــا
ولا والـــلـــهِ يـــا قـــومُ فـــلا أُقْـــلِـــعُ أو أُخْـــصـــى[6]

ومنهم أيضاً ابن خذام الأسدي، والغمر بن أبي الغمر، وعمرو بن حسان بن هانئ، وعلي بن كثير، ومنقذ بن عبد الرحمن الهلالي. وجميعهم

---

(1) عمرو بن عبد الملك مولى بني نحج.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 11/ 287. دار الكتب.

(3) المصدر السابق: 13/ 76.

(4) المصدر السابق: 17/ 78.

(5) هدارة: اتجاهات: ص218.

(6) بن الجراح (أبو عبد الله محمد بن داود) الورقة: ص56. دار المعارف، مصر، 1953م.

خبثاء في مجونهم، أصحاب شراب وفتوة، إلا أخيرهم فماجن منهم في دينه[1].

هذه الكثرة من الشعراء تظهر بوضوح كيف كان تيار المجون قوياً في المجتمع العربي، وبخاصة في القرن العباسي الأول، وعلى العموم فقد نستخلص بعض عناصر المجون من أرجوزة الرقاشي التي ضمنها أنواع المجون وأركانه، وهو يأمر فيها أتباعه ورفقاءه الماجنين باتباع اللواط وشرب الخمر والقمار والهراش بين الديكة والكلاب. وأول أرجوزة المجون هذه:

أوصى الرقاشي إلى خلانِهِ وصيّةَ المحمودِ في إخوانه[2]

ومما تقدم، يتبين لنا أن تيار المجون كثيراً ما التقى بالخمريات، ولعل عبارة آدم بن عبد العزيز خير صادق على ذلك الالتقاء، فحين اتهم بالزندقة، دافع عن نفسه قائلاً: «كنت فتى من فتيان قريش أشرب النبيذ وأقول ما قلت على سبيل المجون»[3]. كما التقى هذا التيار بشعر الغزل الخليع الماجن، كغزل حماد عجرد وأضرابه الذين مر ذكرهم. والتقى أيضاً بالزندقة كما أوضحنا، وبالشذوذ الجنسي، ويتضح لنا هذا في أبيات والبة ابن الحباب التي مطلعها:

يُعاطينا الزُّجاجةَ أريحيٌّ رَخيمُ الدَّلِّ بُورك من مُعاطي[4]

وظاهرة الشذوذ الجنسي قديمة قدم قوم لوط، ولكنها تفشت كثيراً حينما وصلت الحضارة العربية طور نضوجها، وبدأ يتطرق إليها الانحلال الخلقي.

---

(1) أنظر الأسدي في الآمدي: المؤتلف والمختلف: ص114. مكتبة القدسي: القاهرة 1354هـ والباقين: في المرزباني: معجم الشعراء، ص232 ـ 282، مكتبة القديس: القاهرة ـ 1354هـ

(2) ابن المعتز: طبقات الشعراء. ص226.

(3) الأصفهاني: الأغاني: 14/ 59. دار الكتب.

(4) طبقات ابن المعتز: ص88.

وأهم أسباب ذلك، اختلاط عدد كبير من الأجناس البشرية المختلفة الأديان والعقائد والعادات والتقاليد، ويقول النويهي: من الحق القول إنه نشأ عن اختلاط كل هذه الأجناس اختلاطاً نجم منه كثير من الاضطراب والشك[1].

ومهما يكن من أمر فالمجتمع العربي، عرف أنواعاً مختلفة من الانحرافات الجنسية: عرف حب الذكور للذكور، كما يتضح في شعر الخاركي وحماد عجرد، ومطيع بن إياس، ووالبة بن الحباب، وأبي نواس، والحسين بن الضحاك وغيرهم، وعرف حب الإناث للإناث كما في قول أبي العتاهية:

ألا يا ذوات السَّحْقِ في الغربِ والشرقِ ... أَفِقْنَ فإنَّ (الفعل) أشفى من السحقِ
أفقنَ فإن الخبزَ بالأدمِ يُشتهى ... وليس يسوغُ الخبزُ بالخُبزِ في الحَلْقِ
أراكُنَّ تَرْتُقْنَ الخُروقَ بمثلِها ... وأيُّ لبيبٍ يَرقَعُ الخَرْقَ بالخرقِ
وهل يَصلُحُ المِهراسُ إلا بعُودِهِ ... إذا احتِيجَ منه ذاتَ يومٍ إلى الدقِ[2]

وعرف من الانحرافات الجنسية اللذة التي تكون من الاتجاهين، وقد صورها أبو نواس ومطيع بن إياس[3]، كما عرف «العادة السرية»، ويقول ابن منظور: إن أبا نواس هو أول القائلين في هذا الشذوذ[4]، ومن ابتكارات المجون للشهوات الشاذة اتصال الآدميين بالحمير[5]. واتصالهم بالكلاب[6].

---

(1) النويهي (محمد): نفسية أبي نواس، ص104. النهضة المصرية القاهرة 1953م.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 137. بولاق. وضعنا في السطر الأول كلمة (الفعل) بدلاً من الكلمة الصريحة. وهي بذيئة. والمهراس: حجر منقور يدق فيه.

(3) المصدر نفسه 13/ 329. دار الكتب.

(4) ابن منظور (المصري) أخبار أبي نواس 1/ 110. الجزر الأول ـ مطبعة الاعتماد القاهرة 1324م. الجزء الثاني ـ مطبعة المعارف بغداد 1952م.

(5) طبقات ابن المعتز: ص388.

(6) الجاحظ: الحيوان 1 ـ 3. ص219. دار صعب.

ومما تقدم يتبين لنا أن تيار المجون هو صدى لحياة مجتمع مختلف الطبقات، يعج بأقوام تباينوا في الجنس والمعتقد والعادات، واختلطوا وتزاوجوا ونشأ عن ذلك مجتمع جديد فيه الاتجاهات المختلفة من دين ودنيا.

وما دمنا في ذكر طبقات المجتمع، فإن المجون والعبث واللهو، وما نتج عنها وداخلها من فنون الفحش وانتهاك المحرمات، قد فشا في جميعها من الخلفاء وأكابر القوم إلى الشعراء ـ وقد عرضنا لمجونهم ـ وهبوطاً إلى عامة الناس .

ولعل أول من شرب المسكر من الخلفاء يزيد بن معاوية، فقد روي عنه أنه كان لا يمسي إلا سكراناً، ولا يصبح إلا مخموراً، فقيل له يزيد الخمور[1].

والوليد بن عبد الملك، فكان يشرب يوماً ويدع يوماً. واعتاد هشام الشراب أيام الجمعة بعد الصلاة، وشغف يزيد الثاني باثنتين من القيان هما سلامة وحبابة. غير أن الوليد ابنه بزّ الجميع في الشراب والتهتك، وقد روي عنه أنه اتخذ بركة في قصره، فكان يملأها خمراً ثم ينزع ثيابه ويغتسل فيها ويشرب منها، ويظل كذلك حتى يظهر النقص في البركة[2].
وهو الذي فتح المصحف يوماً فوافق ورقة فيها ﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد، من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد﴾[3]، فقال علقوه، ثم أخذ القوس والنبل فرماه حتى مزقه، ثم قال:

أتُوعدُ كل جبّارٍ عنيدِ فها أنا ذاك جبّارٌ عنيدُ
إذا لاقيت ربَّك يوم حَشْرٍ فقلْ للهِ مزّقني الوليدُ[4]

ولقد أورد صاحب الأغاني خبراً يصور مجلساً من مجالس شربه

---

(1) حتي: تاريخ العرب، ص291.
(2) المصدر السابق. ص292.
(3) سورة إبراهيم. آية 15 ـ 16.
(4) الأصفهاني: الأغاني: 6/ 125. بولاق.

ووصف فيه ما كان يمارسه هذا الخليفة من العهر والمجون[1].

وإذا ما انتقلنا إلى بغداد، عاصمة بني العباس، نرى إبراهيم ابن المهدي يعاقر النبيذ ويمارس الغناء[2].

هذا عن بعض خلفاء الدولتين الأموية والعباسية. أما عن القضاة وهم ما دون الخلفاء في التدرج الطبقي، فقد شكا أهل البصرة إلى المأمون بأن القاضي يحيى بن أكثم فسد أولادهم، إذ هو لواطي ظهرت منه الفواحش وارتكاب الكبائر، حيث يقول:

أربعة تَفْتِنُ ألحاظهم ... فعين من يعشقُهم ساهِرَه
فواحد دُنياه في وجهه ... منافق ليست له آخره
وآخر دنياه مفتوحة ... من خَلْفِهِ آخرُه وافره
وثالث قد حاز كلتيهما ... قد جمع الدنيا مع الآخره
ورابع قد ضاع ما بينهم ... ليست له دنيا ولا آخره[3]

وفي مجونه وشذوذه يقول ابن أبي نعيم:

يا ليت يحيى لم يلدْهُ أكتُمُهْ ... ولم تَطَأْ أرض العراق قَدَمُهْ
أَلْوَطَ قاضٍ في العراق نعلَمُهْ ... أي دواة لم يلفها قلمُه
وأي شِعْبٍ لم يَلِجْهُ أرقُمُهْ[4]

وفيه يقول راشد بن اسحاق:

وكنّا نرجّي أن نرى العدلَ ظاهراً ... فأعْقَبَنَا بعد الرَجَاء قُنُوطُ
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلُها ... وقاضي قضاةِ المسلمين يَلوطُ؟[5]

---

(1) المصدر السابق: 2/ 72.

(2) المسعودي: مروج الذهب 4/ 32. دار المعرفة.

(3) المصدر السابق. 4/ 21.

(4) المصدر السابق. 4/ 22.

(5) المصدر السابق. 4/ 24.

ولعلنا لا نغالي إذا رأينا أن المجون تفشى بين جميع طبقات المجتمع نزولاً حتى القيان والجواري. وطبيعي أن تكون حياة هؤلاء ماجنة خليعة، ليس فيها طهر إلا شذوذاً، ولعل الجاحظ يعطينا أحلى صورة عن علة ذلك بقوله: «كيف تسلم القينة من الفتنة... وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بين الخلعاء والمجان... بنيت كلها على ذكر... العشق والصبوة والشوق والغلمة[1]. وهؤلاء الجواري كن يختلفن ما بين عوادة وزامرة وصناجة ورقاصة وطنبورية ودفافة إلى جانب روايتهن للشعر. وكن يستخدمن معرفتهن في اجتذاب الرجال إليهن بوسائل مختلفة، إذ كن يكتبن أبياتاً مثيرة على عصائبهن، وعلى الذوائب والمناديل والوسائد والأسرة[2]، روى بعض العباسيين أنهم رأوا «عريب» وعليها قميص مكتوب في وشاحه:

وإني لأهواه مسيئاً ومُحسناً ... وأقضي على قلبي له بالذي يَقضي
فحتى متى روحُ الرضا لا ينالُني ... وحتى متى أيام سخطِك لا تمضي[3]

كانت دور القيان مقراً شبه دائم لطالبي المتعة، ولأصحاب المجون، روى الأغاني أنه اجتمع يوماً أبو نواس والحسين بن الضحاك وأبو العتاهية وهم مخمورون، فقالوا: أين نجتمع؟ فقال القراطيسي:

ألا قوموا بأجمعكم ... إلى بيت القراطيسي
لقد هيّا لنا النُّزُلَ ... غلامٌ فاره طوسي
وقيناتٍ من الحور ... كأمثال الطواويس[4]

وكانت بيت القراطيسي من بيوت القيان الكبيرة، التي كان يجتمع فيها الشعراء، ومثله بيوت أخرى[5]، يحتفلون فيها بحبهم وبمجونهم وإثمهم. ومن

---

(1) الجاحظ: ثلاث رسائل ـ نشر يوشع فنكل ـ المطبعة السلفية ـ القاهرة ـ 1344هـ، ص72.
(2) الوشاء (أبو الطيب محمد بن أسحق بن يحيى) الموشى أو (الظرف والظرفاء). نشر مكتبة الخانجي القاهرة ـ 1953م. ص172.
(3) المصدر السابق: ص173.
(4) الأصفهاني: الأغاني: 20/ 89. طبعة الساسي.
(5) المصدر 13/ 122 (ساسي).

خير ما يصور هذا المجتمع الماجن قصيدة أبي العتاهية التي نقتطف منها:

لهفي على الزمن القصير	بين الخَوَرْنَقِ والسديرِ
في فتية ملكوا عنا	نَ الدهر أمثالِ الصقور
يتعاورون مدامةً	صهباءَ من حَلَب العصيرِ
ومخصَّراتٍ زُرْنَنَا	بعد الهدوِّ من الخدور
متنعِّمَاتٍ في النعـ	يم مضمَّخاتٍ بالعَبيرِ[1]

مما تقدم نكون قد بينا أن المجون يلتقي مع الزندقة في فروعه وعناصره وأصوله. فمجالسة الغلمان كفر والكفر زندقة وقد نهى الرسول عن هذه المجالسة في أحاديثه. عن أنس قال: قال رسول الله: «لا تجالسوا أبناء الملوك فإن النفوس تشتاق إليهم ما لا تشتاق إلى الجواري العواتق»[2] وعن أبي هريرة عن الرسول قال: «لا تملأوا أعينكم من أولاد الملوك فإن لهم فتنة أشد من فتنة العذارى»[3] والرقص والغناء بدعة وكفر، قال أبو الوفاء ابن عقيل: قد نص القرآن على النهي عن الرقص، فقال: «لا تمشي في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً»[4].

والاطلاع على طقوس المجوس واليهود والنصارى وعقائدهم، واتباع بعضها أحياناً هرطقة وزندقة، وهذا ما اتهم به أبو نواس وأترابه[5].

والازدراء بالدين وتلفيق الأحاديث الكاذبة والسخرية من الناس مجون وزندقة، وهذا ما فعله مطيع ابن إياس[6]. ومثله عمر الخاركي الذي أنكر البعث والنشور[7].

---

(1) المصدر 4/ 60. دار الكتب. يتعاورون: يتداولون. مخصرات: دقيقات الخصور. الهدو: أوائل الليل

(2) ابن الجوزي: تلبيس إبليس، ص274.

(3) المصدر نفسه.

(4) قرآن كريم: سورة الإسراء، آية 37.

(5) طبقات ابن المعتز: ص201.

(6) طه حسين: حديث الأربعاء: ص473 وما بعد دار الكتاب اللبناني.

(7) الشكعة: الشعر والشعراء. ص173.

والخمر محرم صراحة في القرآن الكريم والإنجيل المقدس وقد بينا ذلك فيما سلف، يقول أبو هاشم: من تاب عن كل شيء إلا أنه شرب جرعة من خمر فإنه يعذب عذاب أهل الكفر»[1].

إن المجون هو انغماس في اللهو وتحلل في الأخلاق، وبعضه يرجع إلى الهرب من الحياة والتخفف من أعبائها الثقيلة، مما ساعد على اختلال في موازين المجتمع وفساد في قيم البشر، فكان الشك يتسلط على نفوس كثيرين وتتسلط معه ألوان الإلحاد والزندقة.

القسم الثاني

الزهد

1 ـ معناه:

الزهد: لغة الإعراض عن الشيء احتقاراً له، من قولهم شيء زهيد أي قليل، وهو عند الصوفية أخذ قدر الضرورة من الحلال، وقيل: بغض الدنيا والإعراض عنها، وقيل: ترك راحة الدنيا طلباً لراحة الآخرة. وقد اختلف العلماء في تفسير المزهود فيه، فقيل: الدنيا والدرهم والمطعم والمشرب والملبس والمسكن، والحياة. ويشتمل الزهد عندهم على ثلاثة أمور، كلها من القلب دون الجوارح. فالأول: صحة اليقين وقوته، فالله تعالى يتكفل بإرزاق عباده. والثاني: كمال اليقين. وقد قيل: من زهد في الدنيا هانت عليه المصائب. والثالث: سقوط منزلة المخلوقين من القلب وامتلائه من محبة الحق. وأنشد بعضهم:

وما الزهد إلا في انقطاع العلائق　　وما الحقُّ إلا في وجود الحقائق
وما الحبُّ إلا حبُّ من كان قلبُه　　عن الخلق مشغولاً بربِّ الخلائقِ[2]

---

(1) ابن الجوزي: تلبيس إبليس: ص83.

(2) البستاني (بطرس): دائرة المعارف. دار المعرفة ـ بيروت 9/ 278. مادة زهد. وانظر لسان العرب: مادة زهد.

2 ـ مساره التاريخي:

يعتبر المستشرق كارلو نلينو الزهد من موضوعات الشعر الجاهلي[1]، كما يعتبر عدي بن زيد العبادي النصراني[2]، من الشعراء الزهاد، وما ذاك إلا لأنّ هذا الشاعر وصف فناء الأمور الدنيوية، وذكر عواطف الزهد، فقال بلسان المقابر:

مـن رآنـا فـلـيُـحـدِّثْ نـفـسَـه   أَنَّـه مـوفٍ عـلـى قـرنِ زوالِ
رُبَّ رَكْـبٍ قـد أنـاخُـوا عـنـدنـا   يـشـربـونَ الـخـمـرَ بـالـمـاءِ الـزّلالِ
عـمَّـروا دهـراً بـعـيـشٍ حـسـنٍ   آمِـنـي دهـرِهـم غـيـر عِـجـالِ
ثـم أضـحـوا عـصـفَ الـدهـرُ بـهـم   وكـذاك الـدهـرُ يُـودي بـالـرِّجَـال[3]

إنه يلاحظ تغير الزمن ودوراته بالناس، ويصرح في قصيدة أخرى بأن كل شيء يزول ولا يخلص من براثن الموت غير رب الموت، الذي خلق الحياة والموت فيقول:

لـيـس شـيءٌ عـلـى الـمَـنُـونِ بـبـاقِ   غـيـرَ وجـهِ الـمُـسـبَّـحِ الـخـلاّقِ[4]

ومن الجدير بالذكر، أن عدي بن زيد، أحب في زهدياته ذكر الحوادث التاريخية العظيمة كشواهد ملموسة لترسيخ إيمانه في نفوس سامعيه، ومما قاله وهو في الحبس:

أين كسرى كسرى الملوك أنوشرْ   وَان أيـن قـبـلـه سـابـور
وبـنـو الأصـفـر الـكـرامُ مـلـوكُ الـ   روم لـم يَـبْـقَ مـنـهـمُ مـذكـورُ

❁ ❁ ❁

وتـذكّـرْ ربَّ الـخَـورْنَـقِ إذ شـ   رَّف يـومـاً ولـلـهُـدَى تـفـكـيـرُ

❁ ❁ ❁

---

(1) نلينو: تاريخ الآداب العربية. ص90. دار المعارف.
(2) الزركلي: الأعلام 4/ 220.
(3) الأصفهاني: الأغاني: 2/ 112. دار الكتب.
(4) هدارة: اتجاهات: ص281.

ثـم بـعـد الـفـلاحِ والـمُـلْـكِ والإ ... مَّـةِ وارَتْـهـمُ هـنـاك الـقُـبـورُ
ثــم صــاروا كــأنَّــهــم وَرقٌ جــ ... فَّ فألْوَت به الصَّبا والدبورُ[1]

ويرى شوقي ضيف أن الزهد نشأ نشأة إسلامية خالصة، فقد دعا إليه القرآن ودعت إليه السنة النبوية. حث القرآن في غير مكان على الخلوص لله والاستسلام له والانقياد إليه، «إذ أن الفائزين برضوان الله هم» ﴿التائبون العابدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين﴾[2]، وهذا كله صرف كثيراً من المسلمين الأولين إلى الزهد في حطام الدنيا، وأكد لهم الحديث النبوي ذلك، من مثل ما يروى من أن رجلاً قال للرسول: «دلني على عمل إذا أنا عملته أحبني الله وأحبني الناس، قال: ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما أيدي الناس يحبك الناس»[3]، ويذهب شوقي ضيف إلى أن عهد الفتوح وما رافقه من مزج للشعوب قد أدخل إلى الزهد عناصر أجنبية كثيرة على رأسها عناصر مسيحية كانت في العراق والشام ومصر، عملت على اتساع هذه النزعة وفي اضطراد نموها وازدهارها[4]. ويرى أن قتادة أحد زهاد العراق ينقل عن التوراة، والشعبي أحد عباده ينقل عن السيد المسيح[5].

إن ما ينبغي التنبه إليه، أن الزهد مذهب له خصائص معينة، وأصول وعناصر يرتكز عليها، إنه فكرة عميقة يعتنقها الإنسان، فتتغلغل في كيانه.

ولعل الميل إلى الزهد، وبخاصة في العصر الأموي والعباسي الأول، تجلى في العراق، وربما كان بدء ذلك في أيام عثمان بن عفان، إذ

---

(1) الأصفهاني: الأغاني: 2/ 36. بولاق.

(2) قرآن كريم 9/ 112. وكلمة سائحون: تفيد الرحلة عن الدنيا ومتعها.

(3) ضيف (شوقي): التطور والتجديد في الشعر الأموي. ص56. دار المعارف ـ مصر.

(4) المصدر السابق: ص57.

(5) المصدر السابق: ص59.

حرم عامر بن عبد قيس على نفسه الزواج واللحم[1]، وقد وجد في العراق، منذ القرن الأول الهجري كثير من النسّاك الذين أطلق عليهم اسم (العباد)، ويقول جولد تسيهر إن انتشار الإسلام في تلك الربوع أفسح للنفوس المتعطشة هذا المجال الروحي ويسّر لها اكتساب تجارب من مخالطة المسيحية[2]. ويرى هذا الباحث أن للبوذية تأثير واضح في الزهد الإسلامي[3].

إن تأثير العناصر المسيحية ـ يقول: «فون كريمر» ـ قد أدت إلى نمو الزهد في المجتمع الإسلامي العربي[4]، ويقر بروكلمان ذلك في حديثه عن أبي العتاهية[5].

من غير المستبعد وجود تأثيرات مختلفة في حركة الزهد، مسيحية كانت أم بوذية، تسربت إلى العرب مع حركة المزج السكاني، والتقاء الثقافة العربية بالثقافات الأجنبية المتباينة. ولكن هذه الحركة التي ظهرت آثارها في الشعر العربي لم تكن متصلة بدوافع دينية فحسب، بل كانت نتيجة دوافع مختلفة تعمل على ترسيخ وجودها إلى جانب الدوافع الدينية، وأكبر الظن أن الحروب الداخلية الطويلة التي استمرت في العراق عصر بني أمية هي التي أعدت لذلك. وإن بعض من خسروا هذه الحروب ولم يستطيعوا اقتناص الدنيا من أيدي الأمويين تحولوا إلى الزهد فيها والتطلع إلى الآخرة. وكذلك كان لظلم الولاة ـ ولاة بني أمية .، وتعسفهم مع

(1) المصدر السابق: ص58.

(2) جولد تسيهر (إجناس): العقيدة والشريعة والإسلام. ص131 ترجمة يوسف موسى وآخرين. دار الكتب المصري، 1946م.

(3) المصدر نفسه: ص141 ـ 142. وبخاصة مذهب السمنية من نحل الهند.

(4) كريمر (فون): الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية: ترجمة مصطفى بدر. نشر دار الفكر العربي ـ القاهرة 1947م. ص120.

(5) بروكلمان (كارل): تاريخ آداب اللغة العربية. ترجمة عبد الحليم النجار. دار المعارف. الجزء الأول 1959. الثاني 1961. الثالث 1962. 2/ 35.

العراقيين أثر في الزهد.. ويكفي أن نتمثل بالحجاج الذي أودى بحياة مائة ألف وعشرين، وبخالد القسري ويوسف بن عمر[1].

إن من يقرأ الجاحظ في «بيانه» وهو يعدد أسماء زهاد الكوفة والبصرة، يخيل إليه أن أكثر الزهاد كانوا منبثين في العراق[2]. وإن عوامل مختلفة هيأت لاتساع موجة الزهد. ولعل (جب) قد أشار إليهم حين أرجع أصول شعر أبي العتاهية إلى زهاد البصرة وواعظيها[3].

اختلط إذن العامل الديني بعوامل أخرى سياسية واجتماعية وربما اقتصادية أيضاً. ومن الممكن أيضاً إن وجود العصبيات ونشأة الأحزاب وتطاحنها المرير كان من الأسباب التي دفعت الناس إلى التماس النجاة باللوذ إلى مراتع الدين والتطور الاجتماعي الذي حدث بعد أن سيطر العرب على بلاد الشام والعراق ومصر وغيرها من البلدان، كان له أثر خطير في تيار الزهد وتطوره.

فشيوع تيارات اللهو والمجون والوصول إلى الزندقة، ووجود الفوارق الواضحة بين الطبقات الاجتماعية، كان لا بد أن يوجد حركة عكسية مضادة تعكف نفسها على تقوى الله وتنصرف بكليتها إلى العبادة ،وتحاول أن تبتعد عن مجتمع زعزع الشك أركانه وغرته المذاهب والنحل والآراء والثقافات الأجنبية، كما فعل الحسن البصري الذي كان ينزع إلى حياة روحية خالصة لا تشوبها شائبة الصور الشكلية في العبادة[4].

وما يهمنا ونحن في صدد تيار الزهد عند العرب أن نعرف أن بعض غلاة هذا المذهب قد أخفوا أنفسهم تحت ستار الزهد وكانوا زنادقة بالفعل، وكان تسترهم هروباً من أثر السياسة العنيفة التي اتبعها الحكام

---

(1) ابن عبد ربه: العقد الفريد. 3/ 21.

(2) الجاحظ: البيان والتبيين: 3/ 84. الشركة اللبنانية للكتاب.

(3) Gibb H. A. R. : Arabic literature introduction. London 1926. p42.

(4) نيكلسون (رينولد): في التصوف الإسلامي وتاريخه. ترجمة أبو العلا عفيفي ـ القاهرة 1947م، ص3.

وبخاصة العباسيون مع الزنادقة. يقول في ذلك محمد جابر عبد العال: «كان من أثر السياسة التي انتهجها بنو العباس أن أخذ الأدب يتلون ليرضي طبقة الحاكمين... ولبس الأدب ثوب الخداع وانتقل من التعبير عن اللذة واقتحام الحرام إلى الدعوة إلى التقشف والزهد، ولكنه تقشف وزهد لا يصوران نفساً آثرت الباقية على الفانية، وإنما يصوران مذاهب اتخذت هذا اللون من الحياة لتخدع الناس عن حقيقة أمرها، وكان يحمل لواء هذا الأدب الخادع أبو العتاهية»[1].

3 ـ الزهّاد الزنادقة:

1 ـ أبو العتاهية:

رمي أبو العتاهية بالزندقة، اتهمه بها من أهل عصره منصور بن عمار السلمي لتنافس بينهما في فن الزهد. قال الأصفهاني[2]: «لما قصّ منصور بن عمار على الناس مجلس البعوضة[3]، قال أبو العتاهية: إنما سرق منصور هذا الكلام من رجل كوفي، فبلغ قوله منصوراً فقال: أبو العتاهية زنديق! أما ترونه لا يذكر في شعره الجنة ولا النار، وإنما يذكر الموت فقط! فبلغ ذلك أبا العتاهية، فقال فيه:

يا واعظَ الناسِ قد أصبحتَ مُتَّهماً	إذ عِبْتَ منهم أموراً أنت تأتيها
كالمُلْبِسِ الثوبَ من عُرْيٍ وعورتُه	للناسِ باديةٌ ما إن يُواريها
فأعظمُ الإثْمِ بعد الشِّرْكِ نَعلمُهُ	في كلِّ نفسٍ عَمَاها عن مساويها
عِرْفانُها بعُيوبِ الناسِ تُبصرُها	منهم ولا تُبصرُ العيب الذي فيها

لم ينفِ أبو العتاهية ما رمي به، بل نراه يتهم هو الآخر منافسه منصوراً بالشيء نفسه، ولعل منصوراً شنّع على أبي العتاهية بالزندقة لقول

(1) عبد العال (محمد جابر): حركات الشيعة المتطرفين وأثرهم في الحياة الاجتماعية والأدبية لمدن العراق، إبان العصر العباسي الأول. القاهرة 1954م. ص128.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 4/ 34. دار الكتب.

(3) يريد قصّ ما يتعلق بالبعوضة من خلقها وصفتها وما أودعه الله فيها من الأسرار.

رجاء بن سَلَمة: «سمعت أبا العتاهية يقول: قرأت البارحة: «عمّ يتساءلون»[1]، ثم قلت قصيدة أحسن منها»[2]. وربما شنّع عليه بذلك لتهاونه بذكر الجنة وابتذاله لها بشعره، إذ يقول في عتبة التي أحب:

كأنَّ عتّابةَ من حُسنِها ... دُمْيةُ قسٍّ فَتَنَتْ قسَّها
يا ربِّ لو أنْسَيْتَنِيها بما ... في جنَّة الفردوسِ لم أنْسَها[3]

ولعله رماه بالزندقة لتصويره حور الجنان على مثال المرأة الآدمية، بقوله:

إن المليكَ رآكِ أحْـ ... ـسنَ خَلْقِه ورأى جَمالكْ
فحذا بقدرةِ نفسه ... حُورَ الجِنانِ على مِثالِكْ[4]

واتهمه سلم الخاسر بالزندقة، ربما لحسد الشعراء بعضهم لبعض[5]، أو لأنه رأى في تنسكه وتقشفه رياءً، إذ ينفر الناس من الدنيا، ويدعوهم إلى الزهد، ومع ذلك فهو يمدح ويسأل، ويتهالك على المال، ويحرص على ما يصيبه منه، ويقتر على نفسه[6]. قال سلم يندد بمراءاته ونفاقه في زهده:

ما أقبحَ التزهيد من واعظٍ ... يُزهِّدُ الناسَ ولا يَزْهَدُ
لو كان في تزهيدِه صادقاً ... أضحى وأمسى بيتَه المسجدُ[7]

واتهمه إبراهيم بن المهدي بالزندقة أيضاً، لأنه كان ينتحل الزهد انتحالاً، يطلب به الشهرة، ويسعى إلى المكانة العالية، ينعى الحياة إلى الناس ويبكيها، ويفسد عليهم فرحة الدنيا وبهجتها، مما ينافي روح الدين الذي يعتنقه، يقول له:

---

(1) قرآن كريم: 78/ 1.
(2) الأصفهاني: الأغاني: 4/ 34. دار الكتب.
(3) نفس المصدر 4/ 51. وابن قتيبة: الشعر والشعراء 2/ 679. دار الثقافة.
(4) ابن قتيبة: الشعر والشعراء: 2/ 679.
(5) الأصفهاني: الأغاني: 19/ 261. طبعة ساسي.
(6) المصدر نفسه. 19/ 269.
(7) المصدر نفسه 19/ 276 و4/ 76 دار الكتب.

إن المنيّة أمْهَلَتْكَ عَتَاهي والموتُ لا يَسْهُو وقلبُك ساهي
يا وَيْحَ ذي السِّنِّ الضعيفِ أمالَه عن غِيِّه قبلَ المماتِ تناهي

❁ ❁ ❁

أَصْلِحْ جَهولاً من سريرتِك التي تخلو بها وارهبْ مقامَ اللهِ
إني رأيتُك مُظهِراً لزهادةٍ تحتاجُ منك لها إلى أشباهِ[1]

واتهمه حمدويه صاحب الزنادقة بالزندقة، حيث ارتاب بأمره، وعزم أن يعتقله ويقتله، فموه عليه أمره، ونجا منه[2].

يبدو أن أكثر الأخبار التي وردت في قذف أبي العتاهية بالزندقة هي تنافس وتحاسد وتباغض بينه وبين بعض الوعاظ والشعراء. ولكن من رماه بالزندقة لم يختلق التهمة اختلاقاً، بل عللها تعليلاً دقيقاً، واحتج لها، ووضحها، ووقف في زهده على شبهات، ووجد في سلوكه نقائص.

ويبدو أيضاً أن خصومه قرفوه بالزندقة لأسباب عدة، منها أنه أكثر في زهده من الكلام عن الموت والفناء والقبور، حتى غلب على زهده الحزن والمرارة والأسى والكآبة، في مثل قوله:

ما أقربَ الموتَ مِنّا تجاوزَ اللهُ عنّا
كأنه قد سقانا بكأسِه حيث كُنّا

وقوله:

ومشيِّدٍ داراً ليسكُنَ ظلَّها سكن القبورَ ودارَه لم يسكُنِ

وقوله:

إنّي أرِقْتُ وذكرُ الموتِ أرَّقني وقلتُ للدمع أسْعِدْني فأسعَدَني
وإنما المرءُ في الدنيا بساعته سائل بذلك أهلَ العلم والزَّمَنِ[3]

---

(1) المصدر نفسه 4/ 101.
(2) الأصفهاني: الأغاني: 4/ 7.
(3) أبو العتاهية: الديوان ص277 ـ 78. دار التراث ـ بيروت. 1969م.

ومن الأسباب التي رموه بالزندقة لأجلها، أنه لم يكن صادقاً في زهده، بل كان منافقاً، فقد كان يدعو غيره إلى الزهد في لذات الدنيا، ويجمع هو المال، ويبخل به، ويعيش على استجداء الناس، وهذا العمل مفارق للزهد الإسلامي قريب وموافق للزهد المانوي[1]، ومنها، قوله بالدهر، وهو مذهب قوم ورد ذكرهم في القرآن الكريم: «إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين»[2]. «وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر»[3]. إذ يشير إلى السماء ويقول:

إذا ما استُجِزْتَ الشكَّ في بعض ما ترى ... فما تراهُ الدهرَ أمضى وأجوزُ[4]

ومنها رميه بالثنوية، إذ يقول فيه ابن المعتز: «والذي يصح عندي أنه كان ثنوياً» ويقول في حديثه عن العتاهية ابنه: «كان أبوه خبيث الدين، يذهب مذهب الثنوية، إلا أنه كان ناسك الظاهر»[5].

ومنها اتهامه بالقول بمذهب الفلاسفة عندما وقف على قبر صديقه، علي بن ثابت، يبكي أحرّ بكاء، ويردد هذه الأبيات:

ألا مَن لي بأنسِكَ يا أُخَيَّا ... ومَن لي أن ابثَّك ما لديّا
طوَتْك خطوبُ دهرك بعد نشْرٍ ... كذاك خطوبُه نشراً وطَيَّا
بكيتُك يا عليُّ بدمعِ عيني ... فما أغنى البكاءُ عليكَ شيَّا
وكانت في حياتِك لي عِظَاتٌ ... وأنت اليومَ أوعظُ منك حيًّا[6]

(1) حيث كان زهاد المانوية الزنادقة يقتاتون بما يتصدق به الناس عليهم، ويحيون من أرزاق غيرهم. الجاحظ: الحيوان: 4: 457 ـ 459. طبعة البابي الحلبي ـ مصر 1938م.

(2) قرآن كريم: س المؤمنون: آية 37.

(3) المصدر: س الجاثية: آية 24.

(4) ابن قتيبة: الشعر والشعراء: 2/ 679.

(5) ابن المعتز (عبد الله) طبقات الشعراء: ص228و364. دار المعارف، مصر، 1956م.

(6) الأصفهاني: الأغاني: 4/ 44. دار الكتب. قال أبو الفرج: أخذ أبو العتاهية معانيه من كلام الفلاسفة، لما حضروا تابوت الإسكندر، قال بعضهم: كان الملك أمسِ أهيبَ منه اليوم، وهو اليوم أوعظ منه أمسِ.

ومنها مجونه وخلاعته في شبابه، قال أبو الفرج: «كان في أول أمره يتخنث، ويحمل زاملة المخنثين»[1].

ومنها كنيته، لتهتكه وانحلاله ومجونه وعتوه[2].

ومنها مخالطته لكبار المجان والخلعاء ممن رموا بالزندقة أمثال: والبة بن الحباب، وأبي الشمقمق[3]، والقراطيسي[4]. ومسلم بن الوليد[5]، وبشار بن برد[6]، وسلم الخاسر[7]، وأبي نواس[8]. والحسين بن الضحاك[9]. وكان يشرب معهم ويفجر، ويلهو ويتعهر، يقول أبو الفرج: «كان أبو نواس وأبو العتاهية ومسلم وطبقتهم يقصدون منزل إسماعيل بن معمر، ويجتمعون عنده، ويقصفون، ويدعو لهم القيان وغيرهن من الغلمان»[10].

إن في زهد أبي العتاهية ما يشير إلى أنه كان متأثراً بتعاليم المانوية، وبفكرة الاثينية خاصة، وقصيدته «ذات الأمثال» خير شاهد على ذلك، فهو يقول فيها:

لكلِّ شيءٍ معدَنٌ وجوهر ... وأوسطٌ وأصغرٌ وأكبرُ
وكلُّ شيءٍ لاحقٌ بجوهرِهْ ... أصغرُه متصِّلٌ بأكبرهْ
لكلِّ إنسانٍ طبيعتانِ ... خيرٌ وشرٌّ وهما ضدّان[11]

---

(1) المصدر السابق. 4/ 1.
(2) المصدر السابق. 4/ 2و3.
(3) المصدر السابق 4/ 10 و7و87.
(4) المصدر السابق 23/ 194. ساسي.
(5) المصدر 4/ 27و41. دار الكتب.
(6) المصدر السابق 4/ 28و72.
(7) المصدر 4/ 11.
(8) المصدر 4/ 15 ـ 71 ـ 82 ـ 84.
(9) المصدر السابق 23/ 195 ساسي.
(10) المصدر السابق 23/ 194.
(11) المصدر السابق 4/ 37. دار الكتب. وانظر باقي القصيدة.

ولربما كانت معاني أبياته مستقاة من التعاليم الثنوية، فهو يتحدث عن الخير والشر، ويرى أنهما عنصرا تكوين العالم. ويكرر أبو العتاهية مثل هذه المعاني في زهدياته مراراً فهو يقول:

الخير والشرُّ في التصوير بينهما   لو صُوِّرا لك بَوْنٌ غيرُ مُؤتَلَفِ[1]

ويتأثر بما يعتنقه الثنويون من أن الشر ينشأ من الظلمة، والخير ينشأ من النور، فيقول:

لم تَقتحِمْ بي دواعي النفسِ مَعصيةً   إلا وبيني وبين النورِ ظلماءُ[2]

ويشير إلى أن العالم قد فشا فيه الشر وغلب عليه، ويؤمن بأن الخير يتضاءل لأنه عقيم لا يلد خيراً، بل يلد شراً، يقول:

الخيرُ والشرُّ مُزدادٌ ومُنتقَصٌ   فالخيرُ مُنتَقَصٌ والشرُّ مُزدادُ
فالخيرُ ليس بمولودٍ له وَلَدٌ   لكنْ له من بناتِ الشرِّ أولادُ[3]

وينظر إلى الإسلام والعالم والعباد من خلال المفاهيم الثنوية المانوية[4]، وربما كان على مذهب الجبرية، حيث لا يملك الإنسان من أمره شيئاً[5]. إنه يقول:

أرى الناس في الدنيا مُعافىً ومُبتلى   وما زال حُكمُ اللهِ في الأرض مُرسلا
كفى عِبرةً أني وأنّكَ يا أخي   نُصرّفُ تصريفاً لطيفاً ونُبتَلَى[6]

والزهد الذي يدعو إليه، أقرب إلى زهد المانوية، فهو يحض على اعتزال الحياة والرضا بالحرمان، ويفضل الكفاف على الترف، والبؤس على النعيم، ويستغني برغيف يابسٍ، وبكوز ماء بارد، ويستحسن الانقطاع

---

(1) أبو العتاهية: الديوان: ص165. دار التراث.
(2) المصدر السابق. ص1.
(3) أبو العتاهية (حياته وشعره) محمد محمود الدش. ص374. دار الكاتب العربي - القاهرة 1968م.
(4) المصدر نفسه: ص244.
(5) الأصفهاني: الأغاني: 4/ 5. دار الكتب.
(6) ديوانه، ص211. الدش.

عن الناس للتأمل والتفكير، والاعتبار بمصير من سبق من الأمم والناس، يقول:

رغيف خبزٍ يابسٍ تأكله في زاويَةْ
وكوزُ ماءٍ باردٍ تشربُه من صافية
وغرفةٌ ضيّقةٌ نفسُك فيها خالِيَةْ
مُعتبراً بمن مضى من القرون الخاليه[1]

إن من يقرأ مثل هذه الأفكار في شعر أبي العتاهية يرى أنه كان زنديق دين، لأنه كان يؤمن بالاثينية، وربما أبطن المانوية، قال عنه محمد بديع شريف: «بدأ بالغزل، ثم مال إلى الزهد، فاتهمه بعض الناس بالزندقة لما انتشر في تضاعيف شعره من المعاني الدالة على الاثينية، وميل زهده إلى مبادئ زهد المانوية، وعدم ذكر البعث في شعره، شأنه شأن زنادقة العصر الذين لا يؤمنون إلا بما تقع عليه الحواس، ولأنه كان يقول: «إذا كنت تشكّ فيمن تراه فكيف بمن لا تقع عينك عليه»[2].

ولعل زندقته الدينية هذه واتته من شعوبيته[3]، التي قادته إلى إعتناق المانوية. وربما اتخذ من الزهد وسيلة للطعن في الحياة العربية وفي دين العرب. قال عنه محمد بديع شريف: «إذا كان أبو نواس فتح للناس باباً عريضاً في الغزل والإباحة، فإن أبا العتاهية فتح لهم باباً آخر في الزهد، وأصبح شعره ذا أثر واضح في كثير من تعاليم النحل التي نبضت، وليس الضرر من شعر أبي نواس بأكثر من هذا الضرر الذي يقتل الطموح، وينقل الأمة من أفقه الواسع الذي ينظم الإنسانية، إلى أفق ضيق فيه عكوف وانطواء تسعى المانوية اليه»[4]. رأى محمد محمود الدش بعد أن درس

(1) المصدر السابق، ص307.
(2) شريف (محمد بديع): الصراع بين الموالي والعرب - ص98 - دار الكتاب العربي - مصر 1954م.
(3) هو إسماعيل بن القاسم مولى عنزة العيني الكوفي ثم البغدادي. فهو عربي بالولاء.
(4) شريف: الصراع بين الموالي والعرب. ص102.

حياة هذا الشاعر، وتعمق في بحث زندقته وزهده، أنه كان يبطن المانوية وأنه اصطنع الزهد ليستر به زندقته والوصول إلى هدفين رئيسيين: الأول دفع الإهتمام بالزندقة الذي كان يلاحقه، والآخر إشاعة مبادئه - الزهد المانوي - بين العامة الذين يجدون الوسيلة إلى حانات الخمور وبيوت المجون والجواري والغلمان لأنهم فقراء.

المهم من كل ما تقدم، ومن مراجعة أشعار وأخبار أبي العتاهية، أنه كان بصيراً بالمانوية، خبيراً بسيرة رهبانها، وقد استمد منها في زهده الشيء الكثير[1]. وكان محيطاً بالآداب الفارسية، وقد نقل من حكمها وأمثالها نقلاً كثيراً[2]، كما كان ملماً بالرهبنة المسيحية[3]، عارفاً بالبوذية[4]، مطلعاً على بعض المذاهب الفلسفية، ولا سيما منها الدهرية[5]، ناهلاً أيضاً من المنابع الفكرية والأدبية والدينية والعربية والإسلامية، مختلفاً إلى حلقات المتكلمين، واقفاً على مذاهب أصحاب المقالات كالزيدية البترية[6]. والجبرية[7] متردداً إلى مجالس العلماء قارئاً القرآن، مصيباً لأطراف من الحديث، متأثراً بكل ذلك.

ويلوح لنا من كل ما سبق أن عقيدته كانت مزيجاً من الإسلام والمانوية، وشاهدنا على ذلك ما تنبه إليه معاصره أحمد بن حرب، الذي يقول: «كان مذهب أبي العتاهية القول بالتوحيد، وأن الله خلق جوهرين متضادين، زاعماً أن الله سيرد كل شيء إليهما قبل أن تفنى الأعيان جميعاً.

---

(1) المصدر نفسه ص 124و 242

(2) ص 72 وشوقي ضيف: العصر العباسي الأول. ص244

(3) عبد العال: حركات الشيعة. ص 161 و 173

(4) الدش: أبو العتاهية ص 68

(5) عبد العال: حركات الشيعة: ص 147

(6) الأصفهاني: الأغاني: 4/ 6 دار الكتاب

(7) ابن نباتة (جمال الدين المصري) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص 457 - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر العربي - القاهرة - 1964م

وكان يقول بالوعيد وبتحريم المكاسب، ويشيع بمذهب الزيدية البترية المبتدعة، كان مُحَبِّرَاً»[1] ويعقب شوقي ضيف على ذلك بقوله: «إبن حرب يضع في يدنا المفتاح لحل مشكلة أبي العتاهية، فهو مانوي من نمط جديد، يمزج بين المانوية والإسلام»[2]. وهذا ما يرتب أبا العتاهية في مراتب الزنادقة الدينيين، إذ كان يظهر الزهد تضليلاً وخداعاً فقد كان يطرب أن لبس الصوف وتقشف[3]. ويحن إلى أيام الشباب واللهو، ويبكي مفاتنها وملذاتها، ويتحسر على مباهجها ومسراتها، في مثل قوله:

لهفي على ورق الشباب	وغصونه الخضر الرطابِ
ذهب الشباب وبان عنيّ	غير منتظر الإياب
فلأبكين على الشبا	ب وطيبِ أيامِ التصابي
ولأبكين من البلى	ولأبكين من الخضاب
إني لآمل أن أخـ	ـلدَ والمنية في طلابي[4]

وربما رتب في مسار الزندقة الفكرية بسبب ثقافته الأجنبية، قال معاصره العباس بن رستم: «كان أبو العتاهية مذبذباً في مذهبه، يعتقد شيئاً، فإذا سمع طاعناً عليه ترك إعتقاده إياه وأخذ غيره»[5]

وعلى الجملة فشعر الزهد الذي كان يحمل لواءه أبو العتاهية وصالح بن عبد القدوس، فيه نزعة ثنوية، والشواهد التي تمثلنا بها تدل على استحكام المانوية في قلبه، وقد كان يصدر عنها في فكره وسلوكه، ويتأثر بها في قوله وفعله، ويدعي الزهد ليخفي نحلته ويحفظ حياته[6]. وهي ترجِّح أن ما يرمى به لهو إلحاد ومروق من الدين.

---

(1) الأصفهاني الأغاني: 4/ 5 دار الكتب.
(2) ضيف: العصر العباسي الأول: ص 242.
(3) الأغاني: 4/ 78 دار الكتب.
(4) أصفهاني: أغاني: 3/ 148 بولاق.
(5) المصدر السابق 4/ 6 دار الكتب.
(6) الدش: أبو العتاهية ص 137.

2 ـ صالح بن عبد القدوس:

شاعر حكيم، كان متكلماً يعظ الناس في البصرة، أكثر ما بقي من شعره حكمٌ ومواعظ، قال فيه إبن المعتز: «أما الرجل فله في الزهد في الدنيا، والترغيب في الجنة.... وذكر الموت والقبر ما ليس لأحد»[1] ثم يضيف: «فيا عجباً كيف يمكن أن يقول زنديق مثل هذا القول ! وكيف يكون قائلهُ زنديقاً»[2]!

أجمع القدماء على أنه من كبار الزنادقة، ولعل زهده كان زهداً ثانوياً مانوياً، قال ابن المعتز: «أُخِذَ صالح في الزندقة»[3] وقال المرزباني: «كان حكيم الشعراء زنديقاً متكلماً يقدمه أصحابه في الجدال عن مذاهبهم»[4] وقال الشريف المرتضى: «وأما صالح بن عبد القدوس فكان متظاهراً بمذاهب الثنوية»، وذكر أنه لما نوظر فيما قُذف به من الزندقة بحضرة المهدي، قال له المهدي: ألست القائل:

والشيخُ لا يتركُ أخلاقَه ... حتى يُوارى في ثرى رَمْسِهِ
إذا ارعوى عاوَدَه جهلُه ... كذي الضَّنَى عاد إلى نُكْسِهِ[5]

ثم قدِّم فقُتِل أو صُلِبَ على الجسر ببغداد. وقال عنه الخطيب البغدادي: «يقال أنه كان مشهوراً بالزندقة»[6] أما الأصفهاني فاعتبره وعبد الكريم بن أبي العوجاء من أتباع الثنوية[7] صنفه ابن النديم في عداد زعماء

---

(1) ابن المعتز: طبقات الشعراء: ص91
(2) المصدر نفسه ص 92
(3) المصدر نفسه ص90
(4) المرزباني: أبو القاسم (علي بن الحسن بن عبد الله): تهذيب تاريخ إبن عساكر 6/ 373 ـ دار المسيرة ـ بيروت ـ 1975 م
(5) أمالي المرتضى: 1/ 145.
(6) البغدادي (أبو بكر، أحمد بن ثابت) تاريخ بغداد ـ مكتبة الخانجي ـ مصر ـ 9.1931/ 303
(7) الأصفهاني: الأغاني: 3/ 146 دار الكتب.

المانوية وعلمائهم، إذ ألف كتباً في نصرة مبادئهم، وتأييد آرائهم، وتصدى للمتكلمين المناضلين عن الإسلام، وجعل يهاجم مقالاتهم، ويهدم أدلتهم.[1] ويقال: إن أبا الهذيل العلاف ناظره فقطعه ثم قال له: على أي شيء تعزم يا صالح؟ فقال: استخير الله وأقول بالإثنين![2]. ورُويَ أنه رُؤيَ يصلي صلاة تامة الركوع والسجود، فقيل له: ما هذا ومذهبك معروف! قال: سنة البلد، وعادة الجسد، وسلامة الأهل والولد،[3]

لم يبقَ من شعر هذا الزاهد الزنديق شيء يدل على مسار حياته، ربما، لأن يد الخصوم عبثت بنتاجه، ولكن الشريف المرتضى حفظ له بيتين يكشفان عن تستره وتحرُّزه وتخوُّفه على نفسه وحرصه على حياته، فقد كان يخشى السجن والعذاب والقتل إذا ما افتضح سرُّه، فهو يقول:

رُبَّ سـرٍ كـتـمـتُـهُ فـكـأنـي ... أخرسٌ أو ثنى لساني خَبْلُ
لـو أنـي أبـديـت لـلـنـاس عِـلـمـي ... لم يكن لي من غير حَبْسيَ أُكْلُ[4]

هرب صالحٌ من البصرة، حين تشدد المهدي في تعقب الزنادقة، فأتى دمشق واستخفى بها زمناً، ولكن قريشاً الحنظليّ قبض عليه وحمله إلى المهدي، فأمر بحبسه، فلبث في سجنه مدة طويلة، وفي شعره ما يدل على ألمه وفزعه وهو في السجن، يقول:

خرَجْنا من الدنيا ونحنُ من أهلها ... فلَسْنا من الأحياء فيها ولا الموتى
طوى دوننا الأخبارَ سجنٌ مُمنَّعٌ ... له حارسٌ تهدا العيونُ ولا يَهْدا
قُبِرنا ولم نُدْفَن فنحنُ بمعَزِلٍ ... من الناسِ لا نخشى فَنَغْشَى ولا نَغْشى[5]

---

(1) إبن النديم: الفهرست: 374 دار المعرفة.

(2) أمالي المرتضى: 1/ 144.

(3) المصدر السابق.

(4) المصدر نفسه 1/ 145.

(5) المصدر نفسه 1/ 145

وذكر إبن المعتز شيئاً آخر لإعتقاله وقتله، وهو أنه طعن على الرسول، ورجّح أنّ الرشيد هو من قبض عليه، وتولى محاكمته، ويقول[1]: «حُدِّثت أنه أنهيَ إلى الرشيد عنه هذه الأبيات، يعرض فيها بالنبيِّ»:

غـضَـبَ الـمـسـكـيـنَ زوجَـتَـه ... فَـجَـرَتْ عـيـنـاهُ مـن دُرَرِه

مـا قـضـى الـمـسـكـينُ مـن وَطـرٍ ... لا ولا الـمـعـشـارُ مـن وطـره[2]

عُـذْتُ بـالـلـه الـلـطـيـفِ بـنـاً ... أن يـكـون الـجـورُ مـن قَـدَره

وخلاصة القول في زهد صالح بن عبد القدوس أنه كان زهداً مانوياً، يمكن أن يوصل بينه وبين البوذية، إذا المانوية تتأثر بها، وقد مضت الدولة تقاومه وأصحابه مقاومة عنيفة.إن هناك مسألة كبيرة الأهمية لا بد من الوقوف عندها، تلك هي حياة العربي ـ الذي انساح من جزيرته شمالاً وشرقاً وغرباً ـ الساذجة البسيطة السهلة تعقدّت، والديانات والثقافات المختلفة تسّربت، جاء في الحديث عن إبن عباس: «كان هذا الحي ـ من الأنصار ـ وهم أهل وثن مع هذا الحي من اليهود وهم أهل كتاب، فكانوا يرون لهم فضلاً عليهم في العلم وكانوا يقتدون بكثير من فعلهم»[3] وعن أبي هريرة قال: «لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقولوا: آمنا بالذي أُنزل إلينا، وأُنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد»[4] وعن أبي داود عن أبي الدرداء، قال: سمعت رسول الله يقول: «من اشتكى منكم شيئاً أو أشتكى أخ له فليقل: ربَّنا الله الذي في السماء تقدس اسمك، أمرُكَ في السماء والأرض، كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حُوبنا وخطايانا أنت ربُّ الطيّبين، أنزل

(1) ابن المعتز: طبقات الشعراء: ص90.

(2) يشير إلى تزوج الرسول لزينب بنت جحش الأسيدية بعد أن طلّقها مولاه زيد بن حارثة أنظر في ذلك: الشيباني (علي بن محمد أبو الحسن) أسد الغابة في معرفة الصحابة: 5/ 463 المكتبة الإسلامية ـ بيروت

(3) أخرجه أبو داود: أحمد أمين: ضحى الإسلام 1/ 231 دار الكتاب العربي.

(4) المصدر السابق عن البخاري.

رحمةً من رحمتك، وشفاءً من شفائك على هذا الوجع فيبرو»[1].

والأعاجم الذين كانوا وثنيين أو منويين واليهود والنصارى دخل بعضهم في الإسلام ولم تنقَّ رؤوسهم من كل ما علق بها من ديانات آبائهم وأجدادهم. وحقَّ ما يقال: إن الأمم والشعوب وإن إتحدت ديناً فكل منها يختلف نظرها في تفاصيل هذا الدين عن الأمم الأخرى. فهي تنظر إلى هذا المعتقد من خلال تاريخها، ونظمها الإجتماعية، وأديانها المتعاقبة، وأيضاً، وأيضاً تقاليدها وثقافتها وتربيتها، وإلى غير ذلك.

إن نظر العالم الواسع الثقافة إلى الدين غير نظر العامي الجاهل، ونظر كليهما غير نظر الصوفي الزاهد.

لذلك وإذا ما رأينا زهداً في المجتمع الإسلامي - في أعصر بحثنا - فليس هذا بغريب ولكنه يبدو زندقة في بعض وجوهها، إذا ما نظرنا إلى بعض ما جاء على لسان الرسول: ورواه أبو هريرة: «يا أيها الرسل كلوا من طيبات ما رزقناكم»[2] وأيضاً: «إن الله بعثني بالحنيفية السمحة، ولم يبعثني بالرهبانية المبتدعة، سنتي الصلاة والنوم، والإفطار والصوم، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[3].

وقال أيضاً: ولا تشدوا على أنفسكم فيشدد عليكم. فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار، رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم»[4].

وكان هناك نزعة لبعض الصحابة في الغلو في الدين كنزعة عبد الله أبن عمرو الذي كان ينام ولا يفطر، ولا يؤدي حقوق أهله إنهماكاً في العبادة، فقال له الرسول: «يا عبد الله إن لك في رسول الله أسوة حسنة،

---

(1) المصدر السابق 1/ 341.
(2) ابن عبد ربه: العقد الفريد: 2/ 375 دار الكتاب العربي.
(3) المصدر السابق.
(4) المصدر السابق.

فرسول الله يصوم ويفطر ويأكل اللحم، ويؤدي إلى أهله حقوقهم. يا عبد الله إن لله عليك حقاً، وإن لبدنك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً»[1].

وبعد كل هذا نرى تشدداً في الدين، وابتداعاً لتقاليد، وغلواً في مناحٍ مختلفة، منهم من يلبس الصوف ويلتزمه[2]، ومنهم من يتبتل، والبتولية حرامٌ في الإسلام. رُوي عن الرسول أنه قال: «تناكحوا تناسلوا» وأيضاً «النكاح من سنتي ومن رغب عن سنتي فليس مني»[3]

كما جاء في القرآن الكريم: «ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها...»[4] وروي عن الرسول أيضاً: «لا رهبانية ولا تبتل ولا سياحة في الإسلام»[5] ومنهم من تغالى في تخشعه وهذا ما نفاه الصحابة، روي عن عمر بن الخطاب أنه نظر إلى شاب قد نكس رأسه متعبداً فقال له: «يا هذا إرفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما في القلب، فمن أظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فإنما أظهر نفاقاً عل نفاق»[6] كما نفاه الإنجيل المقدس عند كلامه عن العشارين، وعن مثل الفريسي والعشار[7].

ومنهم من خالفوا أعمال الإيمان بحركاتهم وتصرفاتهم، وادعوا أنهم إذا اشكلت عليهم مسألة، فإنهم بالخلوة يصلون إلى الله ـ متجاوزين الشريعة والرسول ـ وبالرؤية والمنام يعرفون الحلال من الحرام[8].

ومنهم من سار مسار المذاهب والنحل، حتى وصفهم المأمون بقوله:

---

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر نفسه.

(3) إبن الجوزي تلبيس ابليس: 292.

(4) القرآن الكريم سورة الروم آية 21. والنحل: آية 72.

(5) الجوزي: تلبيس إبليس 297.

(6) المصدر نفسه: ص291.

(7) أنظر في ذلك متى إصحاح 5و6 وبعد.

(8) الألوسي (خير الدين البغدادي) جلاء العينين في محاكمة الأحمديين: ص101و102 ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت.

«وطائفة قد إتخذ كل رجل منها مجلساً... لعله يدعو فئة إلى ضرب من البدعة، ويعادي من خالفه في الأمر ويشيط بدمه، وهو قد خالفه من أمر الدين بما هو أعظم من ذلك»[1].

ولعل الشعراء الزهاد قد تاهوا في بعض تأملاتهم الدينية فزاغوا عن الرشد وضلّوا عن السبيل، ومنهم:

3 ـ شعراء آخرون:

الزاهد المعروف **بشر بن الحارث**، الذي يقول:

قَطْعُ الليالي مع الأيام في خَلَق   والنومُ تحت رُواقِ الهمِّ والقلقِ
أحرى وأعذر لي من أن يُقال غداً   إني التمستُ الغِنى من كفِّ مُخْتلِق
قالوا قنعتَ بذا قلت القنوعُ غِنىً   ليس الغنى كِثرة الأموالِ والورقِ[2]

فهذا الشاعر يفضل أن تمر أيامه ولياليه، وهو يرتدي الثياب البالية، من أن يسأل رزقاً وافراً من الغير، ويصرّح بأن الغنى ليس في جمع المال. وقد نسي قول القرآن الكريم: ﴿ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نقيرا﴾[3].

ومن شعراء الزهد **محمد بن كناسة**: الذي ترفع عن حياة مجان الكوفة، ، فلم يستطيعوا اغراءه بالإشتراك في تيار لهوهم ومجونهم، ولكنه ينحدر إلى التهاجي مع هذه العصابة فينعتهم باللئام معترفاً بالفقر والعوز، عندما يقول:

تُؤنبني أن صُنت عِرضي عِصابةٌ   لها بين أطنابِ اللئِام بصيصُ
أتَكْلمُ وجهي لا أبا لأبيكمُ   مطامعُ عنها للكرامِ محيصُ
معاشي دُوَيْن القوتِ والعرضُ وافرٌ   وبطني عن جدوى اللئام خميصُ[4]

---

(1) أمين: ضحى الإسلام 1/ 368.

(2) ابن الجوزي: صفوة الصفوة: الطبعة الأولى 2/ 189. حيدر أباد الدكن ـ 1355 هـ.

(3) سورة الإسراء. آية 6.

(4) الأصفهاني: الأغاني 13/ 340 دار الكتب.

ومن الشعراء الزهاد **محمود بن الحسن الورّاق**، وتظهر عنده جبرية المتصوفة وتوكلهم كما تظهر هذه النزعة عند أبي العتاهية، ويقول الوراق:

كـبُـرَ الـكـبـيـرُ عـنِ الأدبِ   أدبُ الـكـبـيـرِ مـنَ الـتـعـبْ
حـتـى مـتـى وإلـى مـتـى   هـذا الـتـمـادي فـي الـلـعـبْ
والـرزقُ لَـوْ لَـمْ تـأتِـه   لأتـاك عـفـواً مـن كَـتَـبْ
إن نـمـت عـنـه لـم يـنـم   حـتـى يـحـرِّكـه الـسـبَـبْ[1]

ومن شعره ما يظهر، أنه كان يحض على الصبر والتجلد لمصائب الدهر، قبل وقوعها، فربما آمن أن الحياة مليئة بالمصائب وهذه المصائب سوف تحل لا محالة، يقول:

يُـمـثِّـلُ ذو الـحـزم فـي نـفـسـهِ   مـصـائـبَـه قـبـل أن تـنـزلا
فـإن نـزلـت بـغـتـة لـم تَـرُعْـهُ   لـمـا كـان فـي نـفـسـه مـثَّـلا
رأى الـهـمَّ يُـفـضـي إلـى آخـرٍ   فَـصَـيَّـرَ آخِـرَهُ أولاً[2]

ومن شعره ما يظهر أنه كان يستخدم القياس والمنطق ليسكت الذين يدّعون حب الله وهم يعصونه ويقول:

تـعـصـى الإلـهَ وأنـتَ تـظـهـرُ حبَـهُ   هـذا مـحـالٌ فـي الـقـيـاس بـديـعُ
لـو كـان حـبّـكَ صـادقـاً لأطـعـتـهُ   إنَّ الـمـحـب لـمـن يـحـبُّ مـطـيـعُ[3]

ومن المتزهدين **محمد بن يسير**، الذي ذكر الموت كثيراً في شعره، ويحس الإنسان حين يقرأ هذا الشعر أنه بالفعل يعبر عن اتجاه حياته ومذهبه في دنياه يقول:

ويـلٌ لـمـن لـم يـرحـم اللهُ   ومـن تـكـون الـنـارُ مَـثْـواهُ
يـا حـسـرتـي فـي كـل يـوم مضـى   يـذكُـرُ فـي الـمـوت وأنـسـاهُ
مـن طـال فـي الـدنـيـا بـه عـمـرُهُ   وعـاش فـالـمـوتُ قُـصـاراهُ[4]

---

(1) البغدادي (الحافظ أبو بكر محمد بن علي الخطيب): تاريخ بغداد (14 جزء) 13/ 88 مطبعة السعادة. القاهرة ـ 1931م.

(2) ابن المعتز: طبقات الشعراء.ص368.

(3) المصدر السابق ص 380.

(4) المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد) الكامل ص 225 ـ نشر ويليم رايت ـ ط ليبزغ 1864 م.

وربما كانت رهبة الموت تعذب ابن يسير، وتثير شجونه، وتدفعه إلى التمسك بتقوى الله وعرى الدين، يقول:

أيُّ صفوٍ إلا إلى تكديرِ ... ونعيم إلا إلى تغييرِ
وسُرُورٍ ولذةٍ وحبورٍ ... ليس رهناً لنا بيوم عَسيرِ
عجباً لي ومن رضاي بدنيا ... أنا فيها على شفاً تغريرِ
أي يوم عليَّ أفظع من ... يومٍ به تُبرِزُ النُعاةُ سريري[1]

ومع هذا الزهد البين كان ابن يسير ماجناً هجاءً خبيثاً، فهو متردد بين تيارين متناقضين اشد التناقض بالرغم من أنهما يصبان في ساقية واحدة فهو هاجد خاشع في آن وماجن خليع في آخر[2]. وإلى هذا الرأي ذهب طه الحاجري، إذ صوره في صورة الرجل القلق الذي يجّد حيناً ويهزل أحياناً، والذي كان يقبل على النبيذ كما يقبل على الكتب[3].

ومن الزهاد سعيد بن وهب، كان كسابقه خليعاً وماجناً في أول أمره[4]، وشغوفاً بالغلمان والشراب[5]، ولكنه نسك وتزهد وانطلق إلى الحج سائراً على قدميه ليكفر عما ارتكب من آثام ومعاصي، قائلاً في رحلته تلك:

قَدَميَّ اعتورَا رملَ الكثيبِ ... واطرقا الآجنَ من رمل القليبِ
رُبَّ يوم رُحتما فيه على ... زهرةِ الدنيا وفي وادٍ خصيبِ
وسماعٍ حسنٍ من حسنٍ ... صَخِبِ المزْهَرِ كالظبي الربيبِ
فاحسبا ذاك بهذا واصبِرا ... وخذا من كلِّ فنٍ بنصيب
إنما أمشي لأني مذنبٌ ... فلعل الله يعفو عن ذنوبي[6]

---

(1) المصدر نفسه ص 223.

(2) الأصفهاني: الأغاني: 14/ 17 دار الكتب.

(3) الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) البخلاء - تحقيق طه الحاجري - دار المعارف مصر 1958 م ص 292 - 293.

(4) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد 9/ 73.

(5) الأصفهاني: الأغاني: 20/ 69 ساسي.

(6) البغدادي: تاريخ بغداد 9/ 74.

ففي شعره هذا يريد أن تسير به رجلاه في مفاوز الصحراء بعد أن كانتا تقوداه إلى مراتع اللهو، ولربما عفا الله عن ذنوبه بهذا العمل.

ومنهم **عبد الله بن المبارك**، كثر في شعره الزهد وذم الدنيا[1]، يقول في ذم انغماس الخلفاء في اللهو:

أرى أناساً بأدنى الدين قد قَنعوا   ولا أراهم رضوا بالعيشِ بالدونِ
فاستعن بالدين عن دنيا الملوك كما   استغنى الملوكُ بدنياهم عن الدينِ

فلم يكتفِ هذا الشاعر بزهده وتقواه وعبادة مولاه، بل راح يهجو الخلفاء الذين باعوا دينهم بدنياهم كما يدّعي، وهذا لعمري زندقة كبيرة.

ومنهم **يحيى بن المبارك**، الذي كان عفيفاً تقياً[2]، والذي أحرق شعره في مدح الرشيد والبرامكة والأمراء ولم يبق منه سوى المواعظ والزهديات[3]. ونشتم من زهدياته أنه كان يؤمن بالدهر، يقول:

رُبَّ مغموم بعاقبةٍ   غمط النعماء من أَشَرِهْ
وامرىءٍ طالَت سلامتُه   فرماهُ الدهرُ من غِيَرِهْ
وكذلك الدهرُ مُنقلِبٌ   بالفتى حالين في عُصُرِهْ[4].

ومنهم **عمرو بن المغيرة الصيرفي** ويسمى «بهلول المجنون»، تعرض للرشيد في طريقه للحج، أثناء مروره بالكوفة وقال فيه شعراً يذكرنا بشعر أبي العتاهية «لدوا للموت»:

هَبْ أنكَ قد ملكت الأرض طُرّاً   ودان لك البلادُ فكان ماذا؟
أليس غداً مصيرك جوفَ تُربٍ   ويحثو التُّرب هذا ثم هذا؟[5]

---

(1) ابن الجراح (أبو عبد الله محمد بن داود) الورقة ـ دار المعارف ـ مصر ص 14 1953 م.
(2) إبن المعتز، طبقات الشعراء ص 273.
(3) ابن الجراح: الورقة ص 27.
(4) السلمي (ابو عبد الرحمن) بتحقيق نور الدين شربية ـ دار الكتاب العربي ـ مصر ـ ص273 ط 1953 م. طبقات الصوفية. غمط: احتقره. أشر: مرح.
(5) ابن الجوزي: صفوة الصفوة 2/ 290 ودائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) مادة بهلول.

وتراه ينعي على الناس العيش الهنيء، وكأن الله حرّم ذلك، يقول:

يا من تمتَّع بالدُنيا وزينتها ... ولا تنامُ عنِ اللذاتِ عيناهُ
شغَلتَ نفسكَ فيما لستَ تُدرِكُهُ ... تقولُ للهِ ماذا حينَ تلقاهُ[1]

ومنهم **سعدون المجنون**، الذي صام ستين سنة. وفي شعره يجيز النبيذ للشباب ويعصمه عن الكهول. وربما فعل ذلك لأنه كان يحتسيه في شبابه ثم انقطع عنه في شيخوخته، يقول:

تركتُ النبيذَ لأهلِ النبيذِ ... وأصبَحتُ أشرَبُ ماءً قراحا
فإن كان ذا جائزاً للشبابِ ... فما العذرُ فيه إذا الشيبُ لاحا[2]

فيما عدا هؤلاء الشعراء الزهاد، نجد تيار الزهد يمتد إلى شعراء آخرين، لم يُعرفوا بالزهد قط، بل ربما كانوا إلى المجون والتهتك والإباحة والزندقة أقرب، وربما ظهر عندهم الزهد في فترات صحوٍ أو لكبرٍ لأصابهم وأقعدهم عن الجري وراء غيّهم.

وأكثر هؤلاء شهرة **أبو نواس**: الذي رأيناه زنديقاً كبيراً في مجونه وخلاعته وخمرياته، ونراه الآن يكشف لنا عن نظرات في الزهد والتدين وسوء الحياة الدنيا التي تنتهي بالفناء، وهي خبرة مجرب عرف اللهو والإثم ومارسهما حق الممارسة، يقول:

أيَّةَ نار قدح القادح ... وأيَّ جِدٍّ بلغَ المازحُ
للهِ دُرُّ الشيبِ من واعظٍ ... وناصحٍ ولو حظى الناصحُ
يأبى الفتى إلا اتباعَ الهوى ... ومنهجُ الحقِ له واضحُ[3]

وهو يتحدث في مكان آخر عن تجربة ثانية له في اتصاله بالدنيا، فيقول:

---

(1) الكتبي (ابن شاكر) فوات الوفيات 1/ 105.

(2) ابن الجوزي: صفة الصفوة 2/ 288 ـ 290.

(3) الزبيدي (علي أحمد): زهديات أبي نواس ـ ص 37 مطبعة كوستا توماس ـ القاهرة 1959 م.

أيا رُبَّ وجهٍ في التراب عتيقِ   ويا رب حُسنٍ في التراب رقيقِ
أرى كلَّ حيٍّ هالكاً وابن هالكٍ   وذا نسبٍ في الهالكين غريقِ
فقُلْ لقريبِ الدارِ إنك نازحٌ   إلى منزلٍ ناي المحلِّ سَحيقِ
إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشَّفَتْ   له عن عدوٍّ في ثياب صديقِ[1]

لا: فليست الدنيا عدواً لأحد، إذا عرف الإنسان حدهُ فوقف عندهُ.

وأبو النواس لا يدرك الدنيا وبهرجها إلا غصبا عنه، بعد أن مال نجمه إلى الأفول فنراه يقول:

انقضَتْ شِرَّتي فعِفْتُ الملاهي   إذ رمى الشيبُ مَفرقي بالدواهي[2]

وأبو النواس الذي أوغل في طلب الدنيا، وغلا في أطايبها، حاول الإستفادة من تجاربه في وعظ الناس وإرشادهم، إذ لا مجال لإحتوائها، يقول:

يا طالب الدنيا ليَجْمَعَها   جَمَحَتْ بكَ الأمالُ فاقتصِدِ
والحرصُ يُفقِرُ أهله حَسَداً   والرزقُ أقصى غايةِ الأمَدِ[3]

ويذكر أبو النواس الموت ليجعل منه عظة وعبرة، مستدلاً بوقوعهِ على تفاهة الدنيا وهوان شأنها، يقول[4]:

الموتُ منا قريبٌ   وليس عنا بنازِحْ
في كلِّ يوم نعِيٌّ   تصيحُ منه الصوائحْ
حتى متى أنتَ تلهو   في غفلةٍ وتمازحْ
والموتُ في كلِّ يومٍ   في زَنْدِ عَيْشِك قادِحْ

وأبو نواس الذي نراه هنا يذكر الموت، يقر بأنه آتٍ لا محالة، ويعظ الناس بالإبتعاد عن اللهو والمجون لأن الموت بالمرصاد، هل تناسى قوله:

---

(1) المصدر نفسه ص 43.
(2) المصدر نفسه ص 56.
(3) المصدر نفسه ص 40.
(4) المصدر نفسه ص 70.

كم ليلةٍ قدبتُّ ألهو بها   لو دام ذاك اللَّهوُ للّاهي
حرّمها الله، وحلّلتُها   فكيف بالعفوِ من اللهِ[1]

وهل تناسى حين وهب نفسه ودينه للهو والعربدة لا يخاف يوم الحساب، بل قل لا يقرّ به، وإذا ما كان فلا يهابه وقصاصه، يقول:

ألم ترني أبحتُ اللَّهوَ نفسي   وديني، واعتكفتُ على المعاصي
كأنّي لا أعودُ إلى معادٍ   ولا أخشى هنالك من قصاصِ[2]

وأبو النواس الذي شب على الجري وراء الدنان والغانيات، يحاول أن يهذب نفسه في كبره، أن ينتقل إلى حياة الجد والوقار، انتقال زنديق من حال إلى حال.

نراه يسعى جاهداً باعطاء النصح، وبخاصة إلى كبار السن أن يبتعدوا عما فعله هو، أو يبتعدوا عنه، في قوله:

أيا من بين باطيةٍ وزِقٍّ   وعودٍ في يَدَيْ غانٍ يُغنِّي
إذا لم تنهِ نفسَكَ عن هواها   وتُحسنْ صونها فإليكَ عني
فإني قدْ شَبِعتُ من المعاصي   ومن لَذّاتِها، وشَبِعْنَ مِنِّي
ومَنْ أسوا، وأقبحُ من لبيبٍ   يُرى مُتَطرِّباً في مثلِ سنِّي[3]

وعلى العموم فأبو نواس الذي عاش في المجون وللمجون وانغمس في الزندقة حتى أذنيه، حاول احتواء دنياه بتطلعات زهدية في آخر أيامه، ولكن أنّى له ذلك والعهر والفجور والخمرة تجري في جسده جريان الدم في عروقه. ونختم كلامنا عنه بقوله الذي طلبه الرشيد لأجله وأودعه المطبق[4].

ومُلِحةٍ في العذل، ذات نصيحةٍ   ترجو إنابة ذي مُجونٍ مارقِ
بَكَرَت تبصِّرُني الرَّشاد وسيمَتي   غيرُ الرَّشادِ، ومذهبي وخلائقي
كم رُضْتُ قلبي - فاعلمي - وزجَرْتُه   فرأى أتباعَ الرّشْدِ غيرَ موافِقِ

---

(1) أبو لنواس: الديوان ص 623 - دار الكتاب العربي - بيروت 1982 م.
(2) المصدر نفسه ص 622.
(3) المصدر نفسه ص 617.
(4) المصدر نفسه ص 218 والمطبق = السجن.

4 ـ شاعرات زاهدات:

وإلى جانب شعراء الزهد نرى شواعر متزهدات، غالوا في زهدهن، فتركوا لذائذ الدنيا وبهرج الحياة، منهم ريحانة التي ذكرت لإبراهيم بن أدهم[1] فخرج ليراها، فإذا بجارية سوداء قد أثر البكاء في خديها خطاً، فذاكرها شيئاً من أمر الآخرة، فأنشأت تقول:

من كان راكِبَ يوم ليس يأمنُه ... وليلهِ تائهاً في عتب دُنياهُ
فكيف يلتذُ عيشاً لا يطيبُ له ... وكيف تَعرِفُ طعمَ الغمضِ عيناهُ[2]

ومن شعرها في كراهية الدنيا والتذكير بالموت الذي يحل حتى بالملوك فيخرجهم من ظلال نعيمهم إلى عفن قبره، بقولها:

وما عاشقٌ الدنيا بناج من الرَّدى ... ولا خارج منها بغيرِ غليل
فكم مَلِكٍ قد صغَّر الموت بينه ... وأخرِجَ مِن ظلٍّ عليه ظليلِ[3]

ومن شعرها أيضاً، الذي ربما كان جزءاً من مذهب الصوفية والزهاد، والذي تدعو فيه إلى العبادة والنسك الدائم وسهر الليالي في درس القرآن، ولعلها ترسم طريقة للصلاة، فيتمايل المصلون كالرهبان وكتمايل الأغصان من هبوب الأرياح بقولها:

تَعَوَّدْ سَهرَ الليلِ ... فإنَّ النومَ خُسرانُ
ولا تَرْكَنْ إلى الذَّنْبِ ... فإنَّ الذنبَ نيرانُ
فكن للوحي درَّاساً ... وللقرآنِ أخدانُ
إذا ما الليلُ فاجاهُم ... فهم في الليلِ رُهبانُ
يميلون كما مالَ ... من الأرياحِ أغصانُ[4]

(1) زاهد مشهور توفي 161 هـ الزركلي: الأعلام 1/ 31.

(2) بدوي (عبد الرحمن) ـ شهيدة العشق الإلهي (رابعة العدوية) ص 113 ـ مكتبة النهضة ـ مصر 1948 م.

(3) المصدر نفسه.

(4) المصدر نفسه ص 114.

ومنهن ميمونة الشاعرة، وهي من المتزهدات المتنسكات، حتى لتعد من الصوفية، ومن شعرها قولها في المكاشفة، وفيه أيضاً إشارة للخمر الرمزية عند المتصوفة، تقول:

قلوبُ العارفين لها عيونٌ ... ترى ما لا يراه الناظرونا
وألسنةٌ بسرٍّ قد تناجي ... تغيبُ عن الكرامِ الكاتبينا
وأجنحةٌ تطيرُ بغيرِ ريشٍ ... إلى ملكوتِ ربِّ العالمينا
فتَسقيها شرابَ الصِّدْقِ صِرْفاً ... وتشرب من كؤوس العارفينا[1]

وخلاصة الكلام من الزهاد والزاهدات، أنهم ـ وإن لم يكونوا كلهم ـ قد فضلوا الكفاف عن الترف، والبؤس على النعيم، واستغنوا عن طيبات الحياة الدنيا، واستحسنوا الإنقطاع عن الناس، وأووا إلى حجرة ضيقة أو مسجد بمكان قصّيٍ يتفرغون فيه للعبادة والقراءة والتأمل والتفكير في الكون والخلق، والإعتبار بمصير من سبق من الأمم والملوك، وربما كان كل ذلك من معالم الزهد عند رهبان المانوية والمسيحية والبوذية والاطلاع على بعض المذاهب الفلسفية، ولا سيما مذهب الدهرية. فورد في تزهدهم إشارات إلى الأتينية المجوسية، والرهبنة المسيحية البوذية، ونظرة شؤم إلى الحياة الدنيا. كل ذلك بعيد عن جوهر الدين الإسلامي وكما جاء على لسان رسوله[2]. ويكفينا أن نردد ما قاله رسول الله لعبد الله بن عمرو: «يا عبد الله إن لك في رسول الله أسوة حسنة، فرسول الله يصوم ويفطر، ويأكل اللحم ويؤدي إلى أهله حقوقهم، يا عبد الله إن لله عليك حقاً، وإن لبدنك عليك حقاً، وإن لأهلك عليك حقاً»[3]

يكفينا هذا القول لنشير أن أكثر زهد من ذكرنا يميل إلى الزندقة والخروج عن المعروف والمألوف.

---

(1) المصدر نفسه.

(2) أنظر في ذلك البحث ص 389 ـ 390.

(3) إبن عبد ربه ـ العقد الفريد 2/ 370 دار الكتاب العربي.

القسم الثالث

حضارة الزندقة

وانعكاساتها الإجتماعية

ما إن خرج العرب من جزيرتهم يرتادون آفاق الأرض، حتى طرأ على حياتهم تغير كبير. ذلك أن أعداداً كبيرة منهم خرجت من مواطنها الأصلية إلى مواطن جديدة استقرت فيها وتزاوجت مع أهلها، وخضعت لمؤثرات دخيلة غيرت من حياتهم في كل شيء تقريباً، حتى الجزيرة مستقرهم الأساسي ـ لم تعتصم من هذه المؤثرات التي غزتها عن طريق الجواري والرقيق.

وسرعان ما نرى مجتمعات جديدة نشأت في مختلف أقاليم البلاد المفتوحة، وتكونت من خليط من العرب والأجناس الأصلية.

ولعل من أهم العوامل المؤثرة في حياة العرب الإجتماعية والسياسية والدينية، حركة التعريب الجنسي التي اختطت منهجاً عن طريق السبي والزواج بنساء من أجناس مختلفة، وعن طريق الموالي وهم الأعاجم الذين أسلموا وكانوا عاملاً هاماً خطيراً في نشر اللغة العربية في المناطق المفتوحة.

ومع ذلك كانت عوامل التعريب تعمل عملها في دمج هذه العناصر المختلفة ومحو أسباب الإختلاف فيما بينها من نواحيها المتباينة، ففي بعض المناطق المفتوحة، نجد أن العرب المهاجرين إليها قد تأقلموا في وطنهم الجديد، واندمجوا في حياته الاجتماعية، حتى أنهم كانوا يلبسون السراويل ـ كما يلبسها أهل خرسان[1] ـ ويشربون النبيذ ويحتفلون بعيدي النيروز والمهرجان[2].

---

(1) هدارة: اتجاهات الشعر العربي ص 55.

(2) عيدان فارسيان مشهوران.

ومما لا شك فيه أن العرب لم يستطيعوا أن يتجنبوا المؤثرات الحضارية القوية التي تسلطت عليهم من الحضارتين البيزنطية والفارسية، رغم تحرجهم من الخضوع لهذه المؤثرات أو مضارعتها، فقد حدث في خلافه عمر بن الخطاب أن وقع حريق في أبنية الكوفة القصبية فلما استأذنوه في بنائها بالحجارة، قال: افعلوا ولا يزيدنّ أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطالوا في البنيان وألزموا السنة[1]. وعند تدفق الأموال على العرب في أعقاب الفتوحات العديدة، افتن العرب في وجوه إنفاق هذه الأموال الطائلة ، ـ ولم تكن حضارتهم الساذجة تتيح لهم طريقة إنفاق هذه الأموال ـ ووجدوا بغيتهم في أبهة الثياب وفخامة الدور وأفانين اللهو والإستمتاع بالملذات التي كانت تتمتع بها الحضارتان الفارسية والبيزنطية[2]. وإذا ما كانت الحضارة هي التفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والمباني والملابس، وسائر عوائد المنزل وأحواله... وهي تتكثر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ والتنعم بأحوال الترف»[3]، فإن بعضاً من العرب قد انساق إلى مثل هذا، وشرب كأسها حتى الثمالة، وانعكست هذه الأفانين على كوامن نفوس الكثيرين الذين تأثروا بها.

وهكذا أخذت الحياة الاجتماعية تتعقد بتأثرها بالحضارات، وأصبح شرب الخمر فيها، والعكوف على الملذات شيئاً طبيعياً، ومظهراً من مظاهر الحضارة، ولهذا نرى قسماً كبيراً من الناس في جميع حواضر العرب، يعيش على الشهوات والمتعة واللهو والشراب، حتى الحجاز نفسه تعرض لبرمجة جديدة في الحياة، فازدهر فيه الغناء وفنون اللهو والعبث[4]. وهذه

(1) الطبري: تاريخ الأمم والملوك 1/ 271 ط أولى ـ المطبعة الحسينية المصرية.

(2) المسعودي: مروج الذهب 74 بولاق 1283 هـ أنظر طرب يزيد ومنادمته على الشراب وطرق لهوه.

(3) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر 1/ 310 القاهرة 1274 هـ.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 1/ 249 دار الكتب.

المظاهر الحضارية رأيناها فيما سبق من البحث ينابيع، يتسابق الزنادقة لشرب مائها العذب، وكما رأيناها بحيرات متسعة الجوانب لقوارب من تزندق، ومن رام التزندق.

ونستطيع أن نتمثل بشخصية الوليد بن يزيد، الذي كان مشغوفاً أشد الشغف بنوع جديد من الحياة المادية والعقلية، وأنه كان متعلقاً أشد التعلق بهذا النوع من الحضارة الجديدة[1]. والسؤال المطروح هو أي نوع من المظاهر كان لتلك الحضارة الجديدة؟ لقد كانت تتمثل في إمعان الوليد وكثرة من أمثاله في التحلل مما يفرضه دينهم عليهم. فقد وقر في نفوسهم بعد اتصالهم بألوان الحضارة المختلفة، إن الحرية الدينية معناها أن يغفل كل امرئ ما يحب وما يشتهي دون أن يخشى عيني رقيب أو لومة لائم. فما يمنع من الشراب إذن والتفنن في مجالسه؟ وما يمنع من الإباحة الإجتماعية في كل صورها وأشكالها؟ ما الذي يمنع الوليد من أن يصنع قبة على قدر الكعبة ويحاول أن ينصبها فوقه لتصير مجلس شراب[2]، من نوع مبتكر جديد يجلب له المتعة واللذة لمجرد إحساسه بأنه يمارس حريته الدينية التي كفلتها له الحضارة الجديدة؟ وما الذي يمنع الوليد أن يطلب من الكوفة الخلعاء والشعراء الماجنين فيسمع منهم من أنواع الفسق والمجون ما يطرب له ويسكر عليه؟ كقول عمار ذي كناز:

أشتهي منكِ منكِ منكِ مكاناً مُجَنْبَذا[3]

والوليد إذا شاء أن يستمتع بالغناء بعث في طلب (معبد) من المدينة، وهُيئت له بركة خمر وماء، حتى إذا انتشى، وأخذ الطرب بمجامعه ألقى بنفسه في البركة، ثم يتلقاه الخدم بالمجامر والطيب[4]. والوليد لم يكن

---

(1) ط حسين: من حديث الشعر والنثر. ص 83 ـ دار المعارف مصر ـ 1953 م.

(2) الطبري: تاريخ الأم والملوك 7/ 280 المطبعة الحسينية المصرية.

(3) كل مرتفع مستدير يسمى جنبذا ،والمكان الذي يقصده الشاعر واضح من البيت.

(4) الأصفهاني: الأغاني: 1/ 52 دار الكتب.

ليوفر وسائل الدولة وأجهزتها الحضارية في تلبية مطالب لهوه ولذته، فيكتب إلى والي خراسان ليبعث اليه برابط وطنابير مما دعا أحد الشعراء إلى السخرية والتهكم إذ يقول:

وأَبْشِرْ يا أمينَ اللهِ ... أبشِرْ بتباشيرْ
بإبلٍ يُحمَلُ المالُ ... عليها كالأنابيرْ
بغالٌ تحمِلُ الخمرَ ... حقائبها طنابيرْ
ودَلٌّ البربرياتِ ... بصوتِ البمِّ والزِيرْ
فهذا لك في الدنيا ... وفي الجنة تحبيرْ[1].

إلى هذا الحد إذن وصلت الحياة الإجتماعية للعرب في عصور بحثنا، ولم يقتصر فقط على أصحاب الغنى والجاه والثروات، فقد تجد معوزاً يشتهي كسرة خبز، ومع فقره المدقع فهو أكثر تهتكاً من الخليفة الوليد بن يزيد[2]. وربما أرجعنا سبب ذلك إلى طبيعة انسان ذلك الزمن وبيئته، ونشأته، ومدى تأثره بالدين، ومقدار خضوعه للمؤثرات الحضارية.

صور أدبية حضارية اجتماعية:

أفرزت الحياة الإجتماعية الجديدة للعرب طبقات الموالي والرقيق، وقد كان تأثير هذه الطبقات خطيراً جداً في المجتمع العربي، إذ انعكس على ألسنة الشعراء والكتاب نموذجاً حضارياً رائعاً. ونستطيع أن نتمثل صورة كاملة لبيوت القيان وللقيان أنفسهن ومدى تأثيرهن في المجتمع مما كتبه الجاحظ في رسالة القيان، بحيث نتحسس مدرسة أدبية نثرية رائعة، يشرك كاتبها جميع حواس الإنسان في رسم صوره وجلاء مضمون نصه، يقول: «إن في الجمع بين الرجال والقيان ما دعا إلى الفسق والإرتباط والعشق... وإن أكثر من يحضر منازل القيان إنما يحضر لذلك لا لسماع ولا

---

(1) الطبري: تاريخ 7/ 298 المطبعة الحسينية. الأنابير أكداس الطعام / تحبير سرور.

(2) هدارة: اتجاهات الشعر العربي ص 61.

إبتياع... ومن الآفة عشق القيان... لأنهن يجمعن للإنسان من اللذات ما لا يجتمع في شيء على وجه الأرض. واللذات كلها إنما تكون بالحواس... فللعين النظر إلى القينة الحسناء... وللسمع منها حظ، وللمس فيها الشهوة والحنين إلى الباه[1] والحواس كلها رواد القلب... وإذا شاهد المشاهد القينة رامته باللحظ، وداعبته بالتبسم وغازلته في أشعار الغناء،... وأظهرت الشوق إلى طول مكثه، والصبابة لسرعة عودته، والحزن لفراقه... وليس يحسن هاروت وماروت وعصا موسى وسحرة فرعون إلا دون ما تحسنه القيان،... والقينة تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها، بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث وصنوف اللعب والأخانيث وبين الخلعاء والمجان ومن لا يسمع منه كلمة جد، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروءة»[2].

إن هذه الصورة للقيان وبيوتهن لهي محتوى زندقة اجتماعية خطيرة[3]. ولكن الذي يعنينا هنا، هو انعكاس هذه الزندقة على مدارس الأدب، التي كان أحد روادها الجاحظ. فسارت رسالته هذه على دروب الزندقة تماشي ركبانها وتبين شؤونها وأحوالها، وفي الوقت ذاته تنشئ أدباً رفيع المستوى.

إن هذا النص يطلعنا على أنواع كثيرة في حياة المجتمع العربي آنذاك، وعلى دور الرقيق في توجيه تيار اللهو والمجون وتهيئة ألوان المتعة الحسية من كل لون: إنه يكشف لنا عن دور هذه الدور التي كانت منتشرة في الحواضر المختلفة: في الكوفة ،وفي البصرة، وفي دمشق ثم في بغداد.

دُور القيان ودورها:

كانت هذه البيوت إذن تبيع للناس المتعة المحرمة واللهو والعبث

---

(1) الباه: النكاح والجماع. اللسان مادة (بوه) 13/ 479 دار صادر.
(2) الجاحظ: ثلاث رسائل ص 65 نشر يوشع فنكل ـ المطبعة السلفية ـ القاهرة 1344هـ.
(3) قد بينا ذلك في أنواع الزندقة.

المجون فيسيغون ذلك كله مع كؤوس الشراب وسماع الغناء، ومشاهدة ألوان الرقص، وكانت هذه البيوت أيضاً مدارس للغزل المكشوف وتوجيه الحب ناحية الجنس، ومعارض لأنواع شتى من الجمال الذي لا يتستر ولا يتخفى وراء حجاب.

من هذه البيوت خرجت الجواري الحسان، اللائي تلقين دراسات خاصة في فن معاملة الرجال، ومحاولة إغرائهم واجتذاب قلوبهم وأموالهم، وكانت لديهن فنون الإيقاع والعزف على الآلات الموسيقية، واشتهرن في أنواع من الرقص والتثني، كما كانت لديهن ثقافة في الشعر، حتى إننا نجد من بينهن شاعرات لهن شعر رقيق أمثال عريب ومقيم وجنان معشوقة أبي نواس، وعنان جارية الناطفي[1] .وكان من أشهر هذه البيوت العامة بيت أبي عمير الذي اشتهر بجاريته عبّادة[2]. وبيت أبي الخطاب الذي اشتهر بقينة تعرف بذات الخال[3]. وبيت ابن رامين في الكوفة وكانت أشهر قيانه سلّامة الزرقاء[4].

إن بيوت العرب ـ وبخاصة الموسرين منهم ـ كانت مليئة بالجواري والقيان اللائي تعلمن ارضاء ساداتهن بكل هذا اللهو والعبث وصار الإستمتاع بالنساء سهلاً ميسوراً لدن طبقة الإشراف والأغنياء، فبدأ بعض المثقفين ينحرفون عن هذه المتعة ويعدونها رخيصة مبتذلة، ويتلمسون طرقاً أخرى للتنفيس عن شهواتهم[5] .

«سمات حضارية»: الجواري

لم يكن تأثير الجواري والرقيق في هذا السبيل شراً كله، أو زندقة

---

(1) الأصفهاني: أغاني 18/ 175 ساسي و 7/ 31 دار الكتب و 20/ 115 ساسي.

(2) المصدر نفسه 20/ 44 ساسي.

(3) المصدر نفسه 17/ 50 ساسي.

(4) المصدر نفسه 13/ 127 دار الكتب.

(5) النويهي (محمد): نفسية أبي نواس. ص106: مكتبة النهضة المصرية ـ القاهرة ـ 1953م.

اجتماعية بشتى أنواعها وحسب، بل كان فيه بعض الخير، ولمحات حضارية. فقد أشاعت الجواري حب الجمال والإحساس به، ونشرن أنواعاً من الظرف في بيئاتهن، ورققن المشاعر والأحاسيس، وظهر أثر ذلك في موضوعات الشعر وفي أسلوبه وصوره، وقد بلغ من شيوع الظرف ـ وبخاصة في العصر العباسي الأول ـ أن أصبح للظرفاء رسوم وتقاليد خاصة بهم، وكثيراً ما اختلط معنى الظرف بالمجون والزندقة، على إعتبار أن الظريف له الحرية في خوض الأحاديث ولو كانت خروجاً عن العرف والتقاليد والدين. وإذا تطلعنا إلى تعريف الظرف بأنه «يكون في صباحة ورشاقة القد، ونظافة الجسم والثوب، وبلاغة اللسان، وعذوبة المنطق، وطيب الرائحة، والتقزز من الأقذار.. وخفة الحركة، وملاحة الفكاهة والمزاح»[1]، إنّ تبحرنا في هذه الصفات نرى أنها مبادئ حضارة، ربما أنها كانت نتيجة زندقة الظرف والمجون.

اللباس: أما زي الظرفاء في اللباس، ونعالهم الغالية، وحليهم المختلفة الأنواع والألوان، وعطورهم الباهظة الأثمان، وسلوكهم أثناء الطعام، ووجود كتابات تتميز بظرفها في أكمام وعصائب وذوائب أزياء الجواري الظريفات من أمثال:

اتــركـــانـــي والـــمـــعـــاصـــي وعـــلـــى اللهِ خـــلاصـــي[2]

كل هذا يجعلنا نشعر أن الظرف انتج معالم حضارية جميلة. والواقع أن الأزياء في ذلك العصر كانت في مجموعها صورة من صور الحضارة الجديدة التي شاعت، ففي الحواضر اتخذ الناس أزياء ترجع في أصولها إلى الملابس البيزنطية أو الفارسية[3]. ولم يبق أثر من الزي العربي القديم

---

(1) الجوزي (ابن): أخبار الظراف والمتماجنين. ص 12 ـ مكتبة القدسي ـ دمشق ـ 1347هـ.

(2) الوشاء (أبو الطيب محمد بن اسحق بن يحي): الموشى ص 160 ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ 1953 م.

(3) الطبري: تاريخ: 9/ 284 المطبعة الحسينية.

إلا في البوادي وعند بعض العامة، حيث نجد الخليفة المنصور يأخذ الناس بلبس القلانس الطوال[1]. فيصفها أبو دلامة في سخرية ظاهرة، يقول:

وكنا نُرَجّي من إمام زيادةً ... فزاد الإمامُ المصطفى في القلانِس
تراها على هام الرجالِ كأنَّها ... دنانُ يهودٍ جُلِّلَتْ بالبَرانسِ[2]

الأعياد: ومن السمات الحضارية التي أفرزها المجتمع، وربما اعتبرت في بعض الأحيان زندقة، اشتراك العرب المسلمين في احتفالات أعياد الفرس القديمة، مثل عيد النيروز والمهرجان واشتراكهم أيضاً في أعياد النصارى[3]. التي كانت تتوزع ببغداد على أديار معروفة كما كان الإحتفال بيوم السعانين عيداً عاماً يشترك فيه جمهور الناس، حتى الخلفاء أنفسهم[4]. مما يكشف لنا عن سمة حضارية بارزة، هي وجود حرية دينية مكفولة للجميع. ومما يؤكد ذلك ما يذكره الشاعر أبو قابوس من مباهاة النصارى في كنائسهم أيام عهد الرشيد يقول:

أبا الفضلِ لو أبْصَرتنا يومَ عيدِنا ... رأيت مباهاةً لنا في الكنائسِ[5]

العمران: ومع تأثر الأعياد والأزياء بنظم الحضارات الأجنبية، تأثرت حركة العمران والبناء، فمن الأخصاص، وبيوت الشعر، والقصب، أخذوا يتدرجون في العمران، حتى أصبحوا يهتمون باقامة القصور الضخمة، وزراعة البساتين الفواحة بالشذى[6]، وعرف الناس في هذا العصر جميع

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المصدر نفسه البرنس: قلنسوة طويلة.

(3) الشابستي (أبو الحسن علي بن محمد) الديارات ص 3 ـ مطبعة المعارف ـ بغداد ـ 1951 م.

(4) الأصفهاني الأغاني: 9/ 128 دار الكتب.

(5) شيحو (لويس) شعراء النصرانية بعد الإسلام ص 241 ـ مطبعة الآباء اليسوعيين ـ بيروت ـ 1926 م.

(6) العلي (صالح أحمد): التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة ـ ص 167 ـ مطبعة المعارف ـ بغداد ـ 1952 م وابن المعتز: طبقات الشعراء ـ ص 209 دار المعارف مصر.

أسباب اللهو وفنونه فلعبوا النرد والشطرنج، وعنوا بتربية الحمام[1]، وتهارشوا بالديوك والكلاب[2]، وانتشر لعب الميسر حتى وصل إلى طبقة الفقراء[3].

بناء المدن: والحقيقة أن تأسيس بغداد كان نقلة نوعية لتطور المجتمع العربي واغراقه في الحضارة ومظاهرها المادية، كما إن إنتقال الدولة إلى المشرق جعل الحياة الإجتماعية معقدة مشتبكة النواحي، فأصبح المال ميزان الرجال، وترددت الأمثال في بغداد: المال مال، وما سواه محال، ولهذا توسله الناس، لا يعفّون عن محرم، ولا يتورعون عن خبيث حتى أصبحت مراحل الدين شركاً من شراكه[4].

ومع تدفق الثروة على المدن وبخاصة البصرة وبغداد، ازدادت الرغبة في المتعة وحب الشراب والتلذذ بأطايب الحياة الحضارية، وبدأ ظهور الزنادقة والمجان يستشري في المجتمع وبشكل علني فاضح مما حدا بالمهدي إلى ملاحقتهم والإقتصاص منهم[5]، ويبدو أنه قد اشتد اغراق الناس في ألوان الحضارة واندماجهم فيها، وكان شعارهم في ذلك «لا تؤخر لذة اليوم إلى الغد» كما جاء على لسان هبة الله بن ابراهيم بن المهدي[6]. وأصبح عشق الرجال للنساء وعشق النساء للرجال أمراً مألوفاً، ونجد في هذا المضمار «علية بنت المهدي» تهوى خادمين في قصر الرشيد، هما طل ورشا، وتكتب فيهما الأشعار الكثيرة[7].

---

(1) الجاحظ: الحيوان 3/ 91 مكتبة البابي الحلبي.
(2) الأصفهاني: الأغاني 6/ 75 دار الكتب.
(3) الجاحظ: الحيوان 5/ 115الحلبي.
(4) الحاجري (طه): مقدمة البخلاء ص 24 دار المعارف ـ مصر ـ 1958 م.
(5) الطبري: تاريخ: 10/ 8 ـ 10 المطبعة الحسينية.
(6) الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى) الأوراق قسم أشعار أولاد الخلفاء ص50 مطبعة الصاوي 1936 م قسم أخبار الشعراء مطبعة الصاوي 1934 م.
(7) الصولي: الأوراق: قسم أشعار الخلفاء ص 61.

ويبدو مما تقدم أن للزندقة إنعكاس كبير على مجرى الحياة العربية في كل أعصر بحثنا، وهذا الإنعكاس ظهر في المأكل والمشرب والملبس وفي حركة العمران وغير ذلك من التصرفات الإنسانية مما اعتبرناه معالم حضارية واسعة.

معالم أدبية فكرية:

علم الكلام: ونستطيع هنا أن نفهم نشوء بعض النظريات في علم الكلام، بل بعض المذاهب الكلامية[1]، إذا ما نظرنا إلى الخصومات العنيفة والكثيرة التي كانت تقوم بين كبار المعتزلة[2]. ونستطيع أن نفهم أيضاً بزوغ الحركات السياسية الحضارية التي ظهرت في أواخر عهد الأمويين، وأوائل حكم العباسيين، وأهم هذه الحركات حركة الشعوبية[3].

وإلى جانب هذه وتلك لا يمكننا أن ندرك التطور الروحي في بلاد العرب، والحياة العقلية عامة على حقيقتها إلا إذا نظرنا إلى حركة الزندقة بحسبانها عاملاً خطيراً لعب دوره في ذلك التطور وتلك الحياة.

ولعل الإعتزال الأول قاده فريق من السنّة تطرفوا في معارضتهم لزندقة الثنوية، واضطروا لتحقيق مهامهم إلى اتخاذ أسلحة من الجدل أقوى إقناعاً من الإحتجاج بالوحي، وأبلغ أثراً من ملاحقة السلطات للزنادقة، وقد وجد المعتزلة ضالتهم في المنطق والجدل الإغريقي، وفي وسائل النصارى الجدلية بدحض الإدعاءات الزندقية[4].

حركة الترجمة: وليس من قبيل المصادفة أن تنشط حركة ترجمة كتب الفلسفة والمنطق الإغريقية، وأن يؤسس المأمون بيت الحكمة، وأن يؤلف

---

(1) كمذهب المعتزلة.

(2) بدوي من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص 27.

(3) المصدر نفسه.

(4) جب: دراسات في حضارة الإسلام ص 92.

هيئة من العلماء والفقهاء، ويعهد برئاسة هذه الهيئة إلى يحيى بن أكثم، ويقول: «إني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا سبباً لإجتماع هذه الطوائف على ما هو أرجى وأصلح للدين، وإما شاك فيفيق، ويتثبت، فينقاد طوعاً، وإما معاند فيرد بالعدل كرهاً»[1] لا شك أن جمع مثل أولئك العلماء فيه توحيد لجهودهم وحتى تكون أشد فاعلية في سد السبل على الزنادقة، ذلك إن اشتداد حملات الزنادقة ولا سيما في الناحية العلمية والأدبية كان يقتضي مثل هذا العمل.[2]

ولم يكن من قبيل المصادفة كذلك، أن يظهر من صفوف المعتزلة. الرجل الذي استطاع الردّ أكثر من سواه على من بين مثالب العرب، فقد أنشأ عمرو بن بحر الجاحظ أدباً نثرياً رفيع المستوى برسائله الجزلة الرائعة وكتبه المختلفة الموضوعات والمشارب ولا ريب في أنه إختار موضوعاته حسب ذوقه، موجهة في أكثرها لأغراض محددة، وإن كانت أغراضاً متوارية في الغالب.

وربما كان لثلاثة من هذه الأغراض أهمية خاصة بالنسبة لبحثنا. ففي كتابه «البيان والتبيين» كشف عن غنى موارد الدراسات الإنسانية العربية، وقام من الناحية الأخرى في رسالته عن الكتاب بذم نقائصهم ولكنه في الوقت ذاته أدمج من التراث الفارسي ما كان ذا قيمة علمية ثم أنه ثالثاً نافح عن التراث العربي الإسلامي ببقية كتبه، وقاوم كفر الطبقات المتعلمة وتشككها. وربما كان كتابه (الحيوان) يخفي غرضاً دينياً تعليمياً هو اظهار حكمة الخالق في خلقه[3].

ونستطيع أن نتبين معالم حضارة في مجالات فكرية عدة، منها:

---

(1) أحمد أمين: ضحى الإسلام 2/ 58 القاهرة 1956 م.

(2) العدوي (إبراهيم): المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية 221 ـ مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة 1961.

(3) جب: دراسات ص 93 ـ 94.

1 ـ الترجمة: جدّ مفكرو الزندقة ـ وبخاصة المانويين منهم ـ في تأليف الكتب للدعاية لمذهبهم، حتى غدت أدبياتهم كثيرة ومنتشرة بين الناس بلغات عديدة سريانية وفارسية ثم عربية[1]، وروّجوا لمذهبهم حيث سعوا لنشر كتبهم داخل المجتمع العربي، وليس هذا وحسب بل أن ما أحيوه من تراث مانوي فارسي قديم، وما نشروه من كتب ترجموها من الفارسية إلى العربية، استهدفوا من خلاله مقارعة التراث العربي والتفاخر به، ومحاولة إحلاله محلّ الثقافة والفكر العربي[2]. كان ابن المقفع رائداً من رواد هؤلاء، فمن آثاره التي اتهم فيها بالزندقة هي أنه من كبار النقلة من الفارسية إلى العربية. وقد نقل وترجم كتباً فارسية نشرت الزندقة وشجعت على الإلحاد، منها كتب ماني وابن ديصان ومرقيون[3] وكذلك فعل بترجمته لكتاب كليلة ودمنة وزيادته الكلام الذي في أول الكتاب[4]. ولكتاب «خدا ينامه، وكتاب مزدك، وكتاب التاج في سيرة انوشروان وغيرها من الكتب الفارسية»[5].

اتهم ابن المقفع بزيادة باب برزوية في كليلة ودمنة قاصداً بذلك تشكيك ضعيفي العقائد في الدين وجرهم إلى مذهب المنانية[6] ، وإذا ما كان ابن المقفع متهماً فيما زاد على تراجمه، فلم يسلم عن مثله فيما نقل وكتب. يقول الباقلاني: إن ابن المقفع اتهم بمحاولته تأليف كتاب يعارض فيه القرآن، ويؤيد هذا الكلام البيروني[7].

---

(1) فاروق عمر: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين ص 130.

(2) المصدر نفسه ص 131.

(3) المسعودي: مروج الذهب 30/ 243 مصر 1357 هـ/ 1938 م.

(4) ابن خلكان: وفيات الأعيان 1/ 414 القاهرة 1949 م.

(5) ابن النديم: الفهرست 172 دار المعرفة.

(6) قدورة: الشعوبية ص 157 دار الكتاب اللبناني.

(7) الباقلاني (محمد بن الظيب بن القاسم): إعجاز القرآن ص 18 مصر 1315 هـ والبيروني (محمد بن أحمد): تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة ص 76 ليبزغ 1925 م.

أما أوضح ما اتهم به ابن المقفع بالزندقة فهو ما نشره القاسم بن إبراهيم في كتابه المعروف بكتاب «الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع»[1] حيث أظهر زندقة ابن المقفع بطرق شتى، منها: دفاعه عن النور، ونقده وتهكمه بإله القرآن، واستخفافه بالرسول، وهجومه على التصديق الأعمى دون بحث وتدقيق، وثورته وهجاؤه للإسلام، بقوله: «فلا نعلم ديناً منذ كانت الدنيا إلى هذا الزمان أخبث زبدة كلما مخض وأسفه في ذلك التمخيض أهلاً وأبتر أصلاً، وأمر ثمراً وأسوأ أثراً على أمته، وأوحش سيرة وأغفل عقلاً وأعبد للدنيا وأتبع للشهوات من دينكم».

ومنها نقده للعقائد الإيمانية، حيث يقول: «فصارت الغلبة للشيطان بأن تبعه الخلائق على ضلالته إلا أقلهم».

نفهم مما تقدم أن ابن المقفع جنح في ترجماته ومؤلفاته جنوح زنديق دين يبطن غير ما يظهر، ولكنه في الوقت نفسه أغنى المكتبة العربية والفكر العربي بترجماته عن الفارسية، ويمكننا القول بأنه كان وعاءً من الأوعية التي امتزجت فيها حضارة العرب بغيرها من الحضارات الساسانية وربما الهندية، كما كان أحد الجسور الذي عبرت عليه الثقافات الأعجمية لتختلط مع الثقافة العربية، ويبدو أن الشاعر أبَّانا اللاحقي نال على منوال ابن المقفع في هذا المضمار، وخير ما فعله هو نظم «كليلة ودمنة» في أربعة عشر ألف بيت شعر، وقد نظم بجانبها أرجوزة مزدوجة في الصوم والزكاة، وأخرى في التاريخ الفارسي وفي نشأة الخلق وعلم المنطق. وبذلك مكن لشيوع الشعر التعليمي في العربية[2]. كان أبان يعرف الفارسية، ويترجم عنها، وكان على اطلاع وسعة علم بأدب الفرس القديم، فكان ذلك داعياً له إلى التعلق بتراث الفرس والتغني به في جميع مظاهره»[3].

---

(1) إبراهيم (القاسم بن): كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع ص 8 ـ 50 روما 1927 م.

(2) شوقي ضيق: : العصر العباسي الأول: ص 333 ـ 334.

(3) بدوي: من تاريخ الإلحاد في الإسلام ص 38.

ولا نتحدث هنا عن زندقة أبان، فقد أبنَّا ذلك في الحديث عن الزنادقة[1]. ولكن الذي نريد إيضاحه هو ما عكسه نتاج هذا الشاعر من حضارة إنسانية في قصائده، إن في مجال الترجمة أو المنطق أو الشعر التعليمي. ونكتفي هنا بقطعة من هذا الشعر افتتح بها باب الأسد والثور في كليلة ودمنة، وهي تمضي على هذا المنوال، يقول:

وإنّ من كان دنيء النَّفسِ	يَرضى من الأرفع بالأخسِّ
كَمَثَلِ الكلبِ الشقيِّ البائسِ	يفرحُ بالعظم العتيقِ اليابسِ
وإن أهل الفضل لا يَرضيهمُ	شيءٌ إذا ما كان لا يَغْنيهمُ
كالأسَد الذي يَصيدُ الأرنَبا	ثم يرى الغَيْرَ المجدَّ هربا
فيرسِلُ الأرنبَ من أظفارِهِ	ويتبعُ العير على أدبارِهِ[2]

فمثل هذه الأرجوزة في كليلة ودمنة، وغيرها في كثير من الموضوعات التعليمية التي عني بالنظم فيها، اصطفى أبان لها لغة جزلة متينة، طالما فتنت معاصريه ومن تلاهم، أمثال ابن المعتز الذي قال في التعريف به: «كان شاعراً أديباً، عالماً ظريفاً، منطقياً، مطبوعاً على الشعر مقتدراً عليه، وهو الذي نقل كليلة ودمنة شعراً بتلك الألفاظ الحسنة العجيبة.. ولم يقدر أحد من الناس أن يتعلق عليه بخطأ في نقله، ولا أن يقول: ترك من لفظ الكتاب أو معناه»[3]. ونستطيع القول إذا ما سلمنا بأن أبانا قد نقل كتاباً أدبياً في أربعة عشر ألف بيت من الشعر العربي الموزون: إن مثل هذا العمل يعد إرثاً عظيماً في مجال الثقافة العربية والحضارة الإنسانية، ويضارع لا بل يفوق ما اعتز به الإغريق في الياذة هوميروس.

إن نقل وترجمة الكتب الفارسية واليونانية القديمة كان لها ـ بدون شك ـ دور حضاري مهم، ربما دون قصد.

كما كان لتأسيس بيت الحكمة في بغداد لجمع الكتب لمقارعة

(1) انظر البحث: فصل الزنادقة.

(2) ضيف: العصر العباسي الأول ص 334 والعير: حمار الوحش.

(3) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص 241 دار المعارف ـ مصر.

الزنادقة، وترجمة كتب المنطق والفلسفة، لتكون أسلحة في الجدل الفكري مع الزنادقة الأثر الحضاري نفسه.

2 ـ الشعر: إن الأندية الأدبية، التي كان لها أثر في الأدب لا يمحى، ويد على الشعر لن ينالها النسيان، لم تكن تجتمع في أماكن معينة، أو منازل معروفة، إنما كانت تتواجد حيث يتاح لها الإجتماع، كانت تنتقل بأدبها عموماً وبشعرها خصوصاً بين مدن العراق زمن العباسين وبين مدن الجزيرة والشام قبل ذلك، وتترنح في هذه الأماكن وضواحيها من الحدائق والبساتين والأديرة والمساجد إلى الحانات وبيوت اللهو والمجون. وكانت تجتمع بنوع خاص في قصور الخلفاء والأمراء والوزراء والقادة وكبار الناس. وكانت تتألف من دون شك من العالم والفقيه، وبخاصة من الشعراء الممتازين بالشك في كل شيء[1] والعبث بكل شيء، يلقون في مجالس الخلفاء والوزراء طبقات أخرى من الناس لا تشك ولا تعبث ولا تتعاطى المجون، وكانوا يلقون المتكلمين والرواة وعلماء اللغة، فكانت أشعارهم وأحاديثهم صورة متطابقة لمجالسهم، متأثرة بجد المجدين وهزل الهازلين، ومهارة الوزراء والأمراء.

ونراهم يروون الشعر، وينقدون الشعراء، ويتحدثون بطرائق الحديث وغرائبه، ويتناولون الخلفاء والأمراء إما بالمدح وضروب الثناء، وإما بالقذع والهجاء.

والشك والمجون هما عنصران من عناصر الزندقة لم يكونا كل شيء، وإنما كان إلى جانب الشك يقين، وإلى جانب الهزل جد.

إن الشعراء ويليهم الكتاب يمثلون الجماعة حقاً، ويعبرون عن أهوائها وميولها ويصفون ما تضطرب فيه من ضروب الحياة.

وليس من شك في أن صلة حقيقية قوية كانت تصل بين أولئك

---

(1) طه حسين: حديث الأربعاء ص 354 دار الكتاب اللبناني.

الشعراء وبين طبقات الناس المختلفة، فتجعل من الشعراء تراجمة صادقين لم يخطر لهذه الطبقات من خواطر، وما يضطرب في نفوسها من عواطف.

كان هؤلاء الشعراء يمثلون عصورهم تمثيلاً صحيحاً فلنا أن نتخذهم مقياساً ومرآة وإذا ما أخذنا عصر بني العباس مثالاً لنا، فإن تغير الحياة في هذا العصر لم يحدث الشك والمجون ويجاهر بهما، ولم يغير الشعر من هذه الناحية وحسب، إنما أحدث تغيراً في الشعر من ناحية أخرى، فالشعراء الذين أخذنا عليهم مأخذ الزندقة، قد أحدثوا سهولة في التعبير عما في النفس، لأنهم أطلقوا العواطف والأهواء حريتها، وفكروا كما أحبوا، وعاشوا كما أحبوا، مستفيدين من ضعف الرقيب الديني وضعف الرقيب السياسي[1]، أصبحت العواطف حرة إذن وأصبحت الألسنة حرة، ونشأ من هذه الحرية تنافس في اللذة واستباق إليها وتنافس في وصفها واستباق إلى إجادة هذا الوصف، وكان إذا اجتمع هؤلاء الشعراء إلى لذة ما تنافسوا في أيهم يسبق صاحبه في اقتناصها ووصفها، ومن هنا كثر الإفتتان في اللذات والقول.

ثم تغيرت ألفاظ الشعر لهذا السبب، فإن العاطفة أصبحت تستطيع أن تصف نفسها من غير تكلف ولا تقييد بقديم موروث، كمثل قول ابي نواس، ونحن نراه يتحرر من والوقوف على الطلل ويتحرر من سؤاله ويهزأ ويسخر من هذا الوقوف يبغي استبداله بالعوج على الحانات وبيوت الشرب:[2]

عاجَ الشقيُّ على دارٍ يسائلها ... وعُجتُ اسألُ عن خمّارةِ البلدِ
لا يُرقِىءُ الله عينيْ من بكى حجراً ... ولا شفى وَجْدَ من يَصبُو إلى وَتَدِ
دعْ ذا عَدَمْتُكَ، واشربْها معتَّقةً ... صفراءَ تُعنِقُ بين الماءِ والزَّبَدِ

وإذا كان الشاعر يستطيع أن يشرب جهراً فما له لا يصف الخمرة كما

(1) المصدر نفسه ص 357.

(2) *الديوان ص 46 دار الكتاب العربي. صفراء تفرق بين الروح والجسد.*

يحب دون أن يخشى لومة لائم، كقول أبي نوّاس:

واشرب سُلافاً كعين الديك، صافيةً	من كفّ ساقيةٍ كالرِّيم، حوراءِ
صفراءُ ما تُرِكَتْ، زرقاءُ إن مُزِجَتْ	تسمو بحظَّيْنِ من حُسنٍ، ولألاءِ
تنزوُ فَواقِعُها منها إذا مُزِجت	نَزْوَ الجنادِبِ من مَرْجٍ وأفياءِ[1]

نشأ عن هذا كله أن إشتد توقّد الأذهان عند الشعراء ،وأصبح قول الشعر أيسر وأسهل، وكانت النتيجة الشعرية لهذا العصر أضخم وأعظم منها لغيره من العصور الماضية، منها القول البديع والشعر الطريف، ومنها الساقط السخيف اللفظ والرديء المعنى، والذي كان يعني هؤلاء هو وصف شعورهم من جهة والتفوق والغلبة من جهة أخرى.

وللنظر إلى هذه المنافسة الشعرية لنثبت صحة قولنا.وجود نفر من الشعراء مجتمعين يتناشدون ويتحدثون، حتى إذا كان الظهر سأل واحد منهم: أين نحن العشية؟ فأخذ كل واحد منهم يدعو الجماعة إلى بيته، وعرض عليهم أبو نواس: أن تكون الدعوة شعراً، وأن تذهب الجماعة إلى أشد الشعراء إجادة، وأحسنهم كلاماً[2] فقال الواسطي[3].

قوموا لمنزل لَهوٍ	وظلٌّ بيتٍ كَنينِ
وقينةٍ ذاتِ غُنجٍ	وذاتِ عقلٍ رصينِ
تشدو بكلِّ طريفٍ	من مُحْكَمِ «ابن رزينِ»

قال أبو نواس:

لا، بَلْ إليَّ ثقاتي	قوموا بنا لحياتي
قوموا نلذُّ جميعاً	بقولِ هاكَ وهاتِ

❀ ❀ ❀

(1) المصدر نفسه ص 34 / الحظ: النصيب. الألاء: الفرح الكامل. تنزو: تثب.

(2) طه حسين: حديث الأربعاء ص 358.

(3) هو داود بن رزين الواسطي.

فـــشـــاوِرُوهُ مُـــجُـــونـــاً فـــي وقـــتُ كـــل صـــلاةِ

وقال الخليع:

إلـى «الـخـلـيـع» فـقـومـوا إلـى شـراب الـخـلـيـعِ
إلـــى شـــرابِ لـــذيـــذٍ وأكـــلِ جَـــدْيٍ رضـــيـــعِ
ونـــيـــلِ أحـــوى رخـــيـــمِ بـــالـــخـــنـــدريـــسِ صـــريـــعِ

وقال الرقاشي:

لـــلـــه دَرُّ عُـــقـــارِ حـلَّـت ببيـتِ «الـرقـاشـي»
عـــذراءَ ذاتِ احـــمـــرارِ إنِّـــي بـــهـــا لا أُحـــاشِـــي
قـــومـــوا نَـــدَامـــايَ رَوَّواً مُـــشَـــاشَـــكـــم ومُـــشـــاشـــي
ونـــاطـــحـــونـــي بـــكـــأسٍ نـــطـــاحَ سُـــدِ الـــكـــبـــاشِ

وقال عمرو الوراق:

عُـوجُـوا إلـى بـيـتِ «عَـمْـرِ» إلـــى سَـــمَـــاعٍ وخَـــمْـــرِ
ونـــا شـــجـــأتِ عـــلـــيـــنـــا تُـــطـــاعُ فـــي كـــل أمـــرِ
هـــذا ،ولـــيـــس عـــلـــيـــكـــم أولـــى ولا وقـــتُ عَـــصْـــرِ[1]

وقال الحسين الخياط وغيره قولاً شبيهاً بما قاله هؤلاء الشعراء، ومضى كل واحد منهم يرغب ويحث على اللذة، في لفظ سهل رشيق، غير متكلف، بل كأنهم كانوا يتحدثون نثراً وبسهولة تامة، ورأى أبو نواس أن أحداً لم يسبق صاحبه فاقترح أن يذهبوا إلى الحانة وليس إلى بيت أحد، وقال:

ألا قـــومـــوا إلـــى الـــكَـــرْخِ إلـــى مـــنـــزلِ خـــمّـــارِ
إلـى صـهـبـاءَ كـالـمِـسْـكِ إلـــى جُـــونـــةِ عـــطّـــار
وبُـــســـتـــانٍ بـــه نَـــخْـــلٌ لـــه زهـــرٌ بـــأشـــجـــار
فـــإن أحـــبـــبـــتُـــمُ لَـــهْـــواً أتـــيـــنـــاكُـــمْ بـــمـــزمـــار[2]

---

(1) طه حسين: حديث الأربعاء ص 358 وما بعد.

(2) المصدر نفسه.

يستوقفنا الكلام هنا إلى ما كان يمتاز به شعر هؤلاء الشعراء ـ الذين نستطيع أن نصفهم جميعاً قي مصاف الزنادقة[1] ـ وانعكاس حياة المجتمع عليه معنوياً ومادياً وكيف كان تصوره وشعوره وتعبيره عن هذا التصور والشعور !

عواطف حرة يصفها كلام حر، ومعانٍ سهلة مألوفة لم يطل صاحبها البحث عنها، وإنما وجدها في نفسه، فأظهرها في لفظ غير متكلف، وعكسها صورة صادقة عنه وعن الآخرين، فجاءت صورة شعرية جميلة ترتدي ثوباً حضارياً جديداً أما الجسد فعاهر، وغارق في لذات الدنيا، أما الثوب فحرير خرج من أرض الهند وحاكته أيدي الفرس وصبغته أنامل العرب. فهو والحالة هذه يمر بمراحل أربعة كما أن الشعر يمتاز بحلال أربع: الشك، والمجون، وحرية العواطف، وسهولة اللفظ، على الأقل عند هؤلاء الشعراء.

من الحق أن نعرف لأمثال هؤلاء ـ المتزندقين ـ ولأبي نواس بخاصة شيئاً غير هذا الفسق والإغراق في المجون، ألا وهو التوفيق بين الشعر وبين الحياة الحاضرة ومعنى ذلك العدول عن طريقة القدماء، فليس يليق بساكن بغداد المستمتع بالحضارة ولذاتها، أن يصف الخيام والأطلال، ويهرب إلى الغلاة مستأنساً بالوحش مستوحشاً من الإنسان، كقول الأحيمر السعدي:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى   وصوّت إنسانٌ فكدت أطيرُ[2]

وإنما يجب عليه أن يصنف القصور والرياض ويغني للخمر، ويتغنى بالقيان، لقد قال أبو نواس في الخمر ما لم يقله غيره وأراد تحديث الشعر

---

(1) لما حوته أشعارهم من ظرف ومجون وخلاعة وعهر وتحلل من أحكام الدين وشرائعه.

(2) الشكعة (مصطفى): الشعر والشعراء في العصر العباسي ص 19 دار العلم للملايين ـ بيروت.

لينقله من البداوة إلى الحضارة، وربما من العروبة إلى الفرس، وهذا ما اتهمه به بعضهم[1] ونستطيع أن نستخلص أصول مذهب أبي نواس الجديد من خمرياته الكثيرة التي يقول في بعضها:

لا تبكِ ليلى ولا تطربْ إلى هندِ   واشرب على الوردِ من حمراءَ كالوردِ
فالخمرُ يا قوتةٌ والكأسُ لؤلؤةٌ   في كفِّ جاريةٍ ممشوقةِ القدِّ
تسقيك من عينها خمراً ومن فمِها   خمراً فما لك من سُكْرَينِ من بُدِّ
لي نشوَتانِ ولِلنُّدْمان واحدةٌ   شيءٌ خُصِصْتُ به من بينِهم وَحْدِي[2]

ونشعر ونحن نقرأ مثل هذه الأبيات بقفزة نوعية نحو الحضارة الجديدة نشعر فيها بجمال يستهوي ويجذب القارئ السامع، جمال في اللفظ وجمال في المعنى، فليس في اللفظ كلمة غريبة، بل هو لفظ متخير غير مبتذل، وليس في المعنى شيء مستغلق، بل هي معان مألوفة، وقد استطاع الشاعر أن يقارب بينها، ويحدث من هذه المقاربة جمالاً ولذة، وانظر إلى قوله:

فالخمرُ ياقوتة والكأس لؤلؤة   في كفّ جارية ممشوقة القدِّ
تسقيك من يدها خمراً ومن فمها   خمراً فما لك من سُكْرَيْنِ من بُدِّ

فهذه الطائفة من التشبيهات يتلو بعضها بعضاً، هي التي تحدث في نفسك اللذة، وانظر إلى الشطر الثاني من البيت الأخير تجده حضارياً، فانياً في الحضارة ومترفاً مغرقاً في الترف، يعبر عن حضارته وترفه:

لي نشوَتانِ ولِلنُّدْمان واحدةٌ   شيءٌ خُصِصْتُ به من بينِهم وَحْدِي

كان أبو نواس إذن يريد أن ينهج بالشعر منهجاً جديداً، فيدعو إلى تجنب سنة القدماء في المعاني والألفاظ، كما كان أشد الناس إلحاحاً في تغيير الأسلوب الشعري[3]، كقوله في قصيدته:

---

(1) طه حسين: حديث الأربعاء ص 410.
(2) الديوان ص 27 دار الكتاب العربي ـ بيروت.
(3) الديوان ص 46 وانظر طه حسين: حديث الأربعاء ص 416.

عاج الشقيُّ على رسم يسائلُه وعُجتُ أسألُ عن خمّارة البلد....

فهو يأخذ الناس بأن ينظروا إلى ما حولهم، من جمال الطبيعة، فيألفوه ويصفوه، ولا يشغلوا عن الرياض، بطلول الجزيرة وصحاريها، ومثل هذا الشعر كثير في ديوانه. هو إذن مقتنع بوجوب ترك القديم، ونهج منهج حضاري جديد، وإن لم يحفل فيه بقاعدة دينية أو خلقية، وإنما اتخذ الإباحة المزدكية والصراحة الزنديقية مذهباً وسبيلاً، في مثل قوله:

ألا فاسقني خمراً وقلْ لي هي الخمرُ ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهرُ

❀ ❀ ❀

ولا خيرَ في فَتْكٍ بغيرِ مَجانَةٍ ولا في مُجُونٍ ليس يتبعُه كُفرُ[1]

ولا يعنينا هنا إثم أبي نواس أو مجونه، إنما يعنينا ما في شعره من جمال فني حضاري عكسته سيرة حياة هذا الشاعر وسلوكه في هذا المجتمع، نستطيع القول ـ بعد ما تقدم ـ أن موجة المجون الزندقية الحادة جعلت أبا نواس وأضرابه[2]. من الشعراء، يستعيضون في مقدماتهم من الوقوف على الطلل إلى وصف الخمر، ويضيفون إلى قصائدهم عناصر جديدة استمدوها من بيئتهم الحضارية ومن نفسيتهم المتعطشة إلى اللذة.

3 ـ الفكر: لعلنا نتفق ـ بعد كل ما قدمناه حول طبيعة الزندقة والزنادقة وما قاموا به من أدوار في مجالات شتى، وبخاصة الشعر والترجمة ـ بأن هذه الحركة كانت تنظيماً فكرياً قوياً ذا منهج دقيق انتشر في أرجاء بلاد العرب، وتمركز في العراق والأقاليم الشرقية، وتستر بالدين، واستهدف تقويض الإرث العربي من أدب ولغات ودين عن طريق التشكيك والتأويل والسخرية.

إن البحبوحة الإقتصادية، والإستقرار السياسي، وأثر الثقافات

---

(1) الديوان ص 28 وحديث الأربعاء ص 418.

(2) كمسلم ابن الوليد وأبي العتاهية وبشار ضيف: العصر العباسي الأول ص 165.

الأجنبية، وتساهل الحكام مع العقائد المختلفة، أدى إلى نوع من التحلل الحضاري واصطراع الأفكار والآراء في المجتمع، فكان أن ظهرت جماعات أو حلقات من الكتاب والشعراء والمفكرين المعجبين بالحضارة الساسانية ومُثُلها. وكان من أهداف هذه الحلقات أن يشيعوا آراء وقيماً أعجمية، ويدعوا إلى إحياء الثقافة الفارسية بنظمها ومذاهبها، ومنها المانوية وتطبيق هذه النظم في المجتمع وفي أجهزة الدولة بديلاً للإرث العربي.ولم تكن هذه الحلقات مشتتة، بل كانت متماسكة يشرف عليها أفراد ذوو أهداف وميول مشتركة، ويطلق عليهم «إخوان الصدق» يعملون من خلال الكتابة والنشر على ترويج آرائهم والدعاية لها[1].

حاول الزنادقة ضمن مخططهم الفكري وضع كتب تعارض القرآن في أسلوبه وبلاغته ومحتواه ومواضيعه ـ كالذي حاوله عبد الكريم ابن أبي العوجاء ـ [2] وكتبوا الرسائل الكثيرة في مثالب العرب، كما كتبوا رسائل وأشعاراً في المانوية، وألفوا كتباً في الدفاع عن المانوية[3]. وكانت كتبهم ورسائلهم ذات ورق صقيل وحبر عميق، وغلاف مزركش بديع، وذوق في الإخراج والنشر[4] ولذلك كانت تطلب من غير المانويين للإطلاع عليها، والتعرف على محتواها، والرد على هجومها، ودحض آرائها،[5] ونتج عن ذلك إنشاء مجالس المناظرة في الدور والقصور والمساجد، وبين العلماء ،وفي حضرة الخلفاء. ومهمة هذه المجالس النظر في أمور شتى من ضمنها المسائل الدينية، وإذا كان الخلاف شديداً في المذاهب الفقهية، وبين الأمصار وبين العرب والأعاجم، وبخاصة بين الزندقة والإسلام فقد كان

---

(1) DAWOOD :Acomparative study.. Ph.d 1965. p. 35 FF.

(2) فاروق عمر: التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين: ص 131.

(3) المصدر نفسه ص 132.

(4) الجاحظ: الحيوان (1 ـ 3) ص 42 وما بعد دار صعب.

(5) كما فعل واصل ابن عطاء الذي كتب كتاباً بعنوان «ألف مسألة للرد على الزنادقة» والجاحظ الذي وضع كتاباً (في فضائل القرآن ومعانيه الجميلة) فاروق عمر: التاريخ الإسلامي ص 133.

هذا وقوداً صالحاً لإشعال نار المناظرة وحدتها[1].

ويظهر أن المأمون رمى من بعض مجالسه إلى غرض بعيد وهو أن تثار بين يديه المسائل الدينية المختلفة فيسمع الآراء والحجج ثم يفصل في أوجه الخلاف، قال يحيى بن أكثم: «.... وأني لأرجو أن يكون مجلسنا هذا، سبباً لإجتماع هذه الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين إما شاك فيتبين ويتثبت فينقاد طوعاً وإما معاند فيرد بالعدل كرهاً»[2] والمأمون بهذا يريد أن يجعل مجلسه مجمعاً علمياً، له النظر في مسائل الخلاف، وبعبارة أخرى أراد أن يجعل مجلسه «محكمة» يتنازع فيها الخصوم ،وكل يدلي بحجته، والنزاع حول المذاهب والآراء الدينية، ثم تحكم المحكمة ويجب أن ينفذ حكمها، وهذه سمة حضارية، ربما نتجت عن إنعكاسات الزندقة.

ولعل المأمون الذي أراد لمجلسه أن يكون ذا إطلاع واسع بكل فروع المعرفة رغب في الفلسفة والعلوم العقلية كثيراً ،وتبع ذلك اتساع العمل في بيت الحكمة، روى ابن النديم: «أن المأمون كان بينه وبين ملك الروم مراسلات، فكتب إليه يسأله الإذن في إنفاذ ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم، فأجاب إلى ذلك ملك الروم بعد اقتناع، فأخرج المأمون لذلك جماعة من العلماء... فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله ـ إلى العربية ـ فنقل[3]».

وقال ابن نباتة المصري، عند كلامه عن المأمون وسهل بن هارون، «وجعله كاتباً على خزائن الحكمة، وهي كتب الفلاسفة التي نقلت للمأمون من جزيرة قبرص»[4] ولعل نقل مثل هذه الكتب إلى بلاد العرب، وترجمة محتواها، قد ساعد على اتساع الفكر وانسياحه بين العقائد والأديان

---

(1) أحمد أمين: ضحى الإسلام 2/ 54 دار الكتاب العربي.

(2) طيفور (ابو الفضل أحمد بن أبي طاهر): كتاب بغداد ص 15 نشر الحسيني ـ القاهرة ـ 1949 م.

(3) ابن النديم: الفهرست ص 339 دار المعرفة ـ بيروت.

(4) المصري (ابن نباتة) سرح العيون شرح رسالة ابن خلدون ص 132 ـ القاهرة 1861 م.

وشرائعها وين الفلسفة والمنطق ومبادئها، فانبرى أصحاب العلم والمعرفة بكل ذلك، يتبارزون ويتناظرون في مجالس ومقالات تبحث عن كل شيء وفي كل شيء. فيبرز من ذلك أصحاب مذاهب كان لهم أثر بالغ الخطورة، إن في مسار الزندقة بكل فروعها ـ والفكرية منها ـ وإن في نتائج إنسانية حضارية كثيرة. من هؤلاء مثلاً ،أبو هذيل العلاف، رئيس «الإعتزال» في عصره، الذي اتصل بالفلسفة اليونانية، وقرأ فيها[1]، ولعل اتصاله هذا بفلسفة الإغريق هو الذي مكنه من وضع مبادئ المعتزلة، الذين قال فيهم الخياط: «إنهم أرباب النظر دون جميع الناس، وإن الكلام لهم دون سواهم»[2] فأبو الهذيل وأضرابه من المعتزلة يعقدون المجالس والمناظرات فيناظر بعضهم بعضاً، ويناظرون غيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى والأديان الأخرى، ويقول الخياط عن مناظراتهم: «هل على الأرض أحد رد على الدهريين سوى المعتزلة، كالنظام، وأبي الهذيل وأشباههم؟! الذين ألفوا الكتب ليردوا فيها على أصناف الملحدين من الدهرية والثانوية»[3] وما يعنينا هنا أن ترجمة الفكر الإغريقي من فلسفة ومنطق وامتزاج الفكر العربي بالفكر اليوناني والفارسي، وما نشأ عن ذلك من كتب جديدة وجدت ومجالس، ومناظرات، إنما إنعكس ايجاباً على مسار الحضارة، وبروز سمات حضارية لم تكن معروفة من ذي قبل، ويمكن القول بأن الرد على الزنادقة ـ ولأية زندقة انتموا ـ كان له الباب الواسع لبروز تلك السمات الحضارية، وإن كانت على أيدي المعتزلة. نقل عن الجاحظ: «أن كبار المتكلمين ورؤساء النظاريين، (وعلى رأسهم المعتزلة) اصطلحوا على تسمية ما لم يكن له في لغة العرب اسم، فصاروا بذلك سلفاً بكل خلف، وقدوة لكل تابع»[4].

---

(1) المعتزلي (أحمد بن يحي بن المرتضى الزيدي) المنية والأمل: ص 26 حيدر آباد 1316 هـ / 1902 م.

(2) الخياط (أبو الحسين عبد الرحيم): الإنتصار ص 17 ـ القاهرة 1914 م.

(3) المصدر نفسه ص 41.

(4) أحمد أمين: ضحى الإسلام: 3/ 95 دار الكتاب العربي.

إن المتكلمين، وقوامهم المعتزلة، قد وضعوا في العربية الأسس التي بني عليها بعد (علم البحث والمناظرة)[1] ولهم الفضل الأول في وضع الأسس الأولى لعلم الكلام وعلم البلاغة، وعلم الجدل والمناظرة وإنهم كانوا المنفذ الأول الذي دخل منه فلاسفة المسلمين إلى الفلسفة اليونانية، لأنهم أول من استعان بالفلسفة اليونانية. إن اتصال أبي الهذيل العلاف بالفلسفة اليونانية، جعل فكر حياته يمتلأ بالمناظرة والجدل مع الزنادقة، والشكاك، والمجوس، والثنويين. وقد ناظر صالحاً بن عبد القدوس فأفحمه فقال فيه صالح:

أبـا الـهُـذيـلِ هَـدَاك الله يـا رَجُـلُ   فأنت حقاً لَعَمْري مُعْضِلٌ جَدِلُ[2]

أفرزت الزندقة إذن علماء وأدباء، ومن العلماء: أبو عيسى الوراق، وهو أستاذ ابن الراوندي الذي اشتهر بالإلحاد، كان معتزلياً، ثم رافضياً، وقال عنه الخياط أنه كان مانوياً يؤمن بمبدأي (النور والظلمة)، ويعتقد بخلود الأجسام[3]. ومنهم أيضاً أبان بن عبد الحميد اللاحقي، وكان على سعة علم بأدب الفرس القديم، والتعلق بتراث الفرس والتغني في جميع مظاهره[4] اتخذ أمثال هؤلاء العلماء المتهمين بالزندقة، من الثقافة والفكر سلاحاً ماضياً يشهرونه في وجه العرب، فعقدوا المجالس، التي كان ظاهرها نشاطاً فكرياً، وباطنها نشر تعاليمهم ومعتقداتهم، وألبسوا كتبهم ثوباً براقاً تستهوي قراءتها الناس. وهذه المجالس والكتب وإن كنا نجاري البعض[5]، بأن مضامينها تماشي الزنادقة، وربما تدعو لهم، فقد كانت لها أيضاً سمات حضارية في تغذية الفكر العربي، بمده بثقافات ومعارف لم

---

(1) المصدر نفسه.

(2) المرتضى أمالي: 1/ 144 وهناك تغيير في رواية كلمات البيت عند أحمد أمين: ضحى الإسلام 3/ 98.

(3) الليثي: الزندقة والشعوبية ص 205.

(4) بدوي: الإلحاد في الإسلام ص 38.

(5) الجاحظ: ثلاث رسائل ص 42 القاهرة 1324 هـ.

تكن متوافرة من ذي قبل. ومما يأسف له أحمد أمين[1]. أن الشعوبية ـ وأكثرها زندقة ـ أزهرت في عصر تدوين العلوم ،وكل حركة علمية أسست آنذاك، ولم يكن لنا علم مدون قبل ذلك. ويعترف هذا الكاتب الأديب بأن اقتران تدوين العلم إنما كان بسطوة الشعوبية ،ويقول: «كان ذلك من سوء حظ العلم»[2]، ولذلك أجهد العلماء أنفسهم في تعرّف أسرار الشعوبية وخفاياها وآثارها في العلم.

ونحن لا نوافق الكاتب على رأيه، وأقل ذلك، شهادته بأن دوراً كبيراً كان لهم في تدوين العلوم، وتدوين العلوم لم يكن من سوء حظ العلم بل من حسن حظه، اللهم، إلا إذا كان يرمي إلى علم قائم بذاته، ربما علم الزنادقة، أو علم الشعوبية. ومن حسن حظ العلوم أيضاً، أن بعض هؤلاء العلماء أخذ يعرض لنقد ما يُمَجِّده العرب، من نسب ولغة ورأي وعادات، كما فعل أبو عبيدة بتفنيده كذب قوم، اختلقوا انتسابهم إلى العرب وكما فعل سيبويه إذ خطّأ العرب في بعض أقوالهم[3] وهذا النقد وأمثاله استتبع نتيجة جيدة في بعض وجوهها، وهي عرض ما للأمم الأخرى ـ عن قصد علمي أو مذهبي ـ لتكون المقارنة أتم. فتُعرض الكلمات الفارسية بجانب الكلمات العربية، والحكم الأجنبية، والبلاغة الأجنبية، والنظام الفارسي والآداب الأعجمية بما يقابله أو يخالفه عند العرب وهذا ـ من دون شك ـ مفيد للعلم والعقل والفكر.

كان لنشاط العلماء الزنادقة ـ أمثال ابن الراوندي ـ في التأليف أثر كبير من الناحية الفكرية والعلمية، فقد دفع الكثير من العلماء والفقهاء إلى الرد عليهم ومعارضتهم.[4]

---

(1) أحمد أمين: ضحى الإسلام 1/ 77.

(2) المصدر السابق.

(3) المصدر نفسه 1/ 78.

(4) أمثال النوبختي والخياط والجبائي. الخياط: / الإنتصار ص 97 و 152 و 154 و 155 و172 وابن القارح: رسائل البلغاء ص 201.

علم الكلام: وليس من شك في أن هؤلاء الزنادقة قد تركوا أثراً ملحوظاً في الدين والشعر والأدب. فقد أحدثوا معاني جديدة في تفسير لغة القرآن وساعدوا على انتشار مبدأ التأويل فانتشر بسببهم علم الكلام. واشتد الجدل بينهم وبين العلماء والفقهاء فكانت حركة غزيرة في التأليف والمناظرات، فوضعت كتب كثيرة في الرد على الزنادقة والملحدين وساعدهم حذقهم للعربية، وحفظهم أخبار وأشعار العرب على صنع أخبار وأشعار مزيفة وكان حبهم للمجون واللهو سبباً لأشعارهم الرقيقة وأدبهم الظريف، وكان لهم الأثر البين في تحرير الفكر، والجهر بالعقائد والآراء الغريبة.

يبدو لنا مما تقدم ـ ومن الصراع الفكري الناتج عن المنضوين تحت لواء الزندقة وخصومهم، والذي يمكن أن نعده من السمات الحضارية ـ ما يلي:

- اتجاه المفكرين إلى المؤلفات الفلسفية الإغريقية، وإلى مؤلفات المنطق الجدلي الذي كان قائماً بين المذاهب النصرانية[1].

- دفع النظام الديني إلى الوقوف نصيراً للدراسات العربية على أسس دينية، ربما لصد هجمات الزنادقة والرد عليهم ومقارعتهم فكرياً.

- بذل كثير من الجهود لمقارعة نتاجهم الفكري والأدبي المتشرب لأفكار الأعاجم والمتقمص أسلوب آدابهم، بفكر وأدب عربيين متشربين تقاليد الجزيرة ونظمها قبل الإسلام وبعده[2].

- تداخل المأثورات الساسانية من أدب ـ بشقيه، نثر وشعر ـ وفكر وترجمة، في آداب العرب وعلومهم الإنسانية.

---

(1) جب دراسات في الحضارة الإسلامية، ص16.

(2) المصدر نفسه ص17.

- جمع أحاديث الرسول، وظهور علم الحديث، وربما نتج ذلك من كثرة الوضع والتزييف[1].

- بزوغ فن النقائض في الشعر عصر بني أمية، تلك النقائض التي كانت تدور رحاها بين الثلاثة الكبار: جرير والفرزدق والأخطل[2].

- بروز الشعر السياسي، الذي اقترنت نشأته بظهور الأحزاب السياسية وبخاصة في العصر الأموي[3].

- نشوء فن الغزل الرقيق الذي أصبح فناً مكتملاً قائماً بنفسه، وربما كان للشعراء الماجنين دور كبير في مسار هذا الفن[4].

- بروز الشعر المذهبي بدءاً من (الكميت) صاحب الهاشميات، التي يقول عنها شوقي ضيف إنها: «تعد لوناً أدبياً جديداً في تاريخ الشعر العربي»[5] وهي مناظرات تعتمد قبل كل شيء على الإقناع العاطفي[6].

- فتح باب الإباحة والتعبير الحر، في الشعر، عن مختلف نوازع النفوس والشهوات، وإيجاد القصيدة الخمرية، واختيار اللغة المألوفة في نظمها، والجنوح إلى البساطة والسهولة والرقة بتأثير الغناء والموسيقى وترف الحياة الاجتماعية وتطورها على وجه العموم[7] واختيار الأوزان الرشيقة القصيرة وتحريفها وتعديلها حتى تتلاءم مع الغناء الجديد. يقول شوقي ضيف عن ذلك في الوليد بن يزيد: «والوليد من هذه الناحية يعد خطوة نهائية لعصره وللتغييرات المختلفة التي حدثت في أوزان

---

(1) المصدر نفسه، ص20.
(2) ـ نقائض جرير والفرزدق.
(3) أحمد الشايب: تاريخ الشعر السياسي. مكتبة النهضة المصرية.
(4) أنظر في ذلك شعر عمار ذي كناز: الأصفهاني: الأغاني: 20/ 174 بولاق. .
(5) شوقي ضيف: تطور وتجديد: ص291. دار المعارف ـ مصر.
(6) لمصدر نفسه، ص277.
(7) أنظر أبيات الوليد بن يزيد في أمالي المرتضى 1/ 89.

الشعر تحت تأثير الغناء»[1].

- الثورة على افتتاح القصائد بذكر الأطلال ووصفها والبكاء عليها، ولعل أبا نواس يعبر تعبيراً صادقاً عن ذلك الشعور الذي كان يخالج أمثاله، إذ يقول:

مالي بدارٍ خَلَتْ من أهلِها شُغُلُ ... ولا شجاني لها شخصٌ ولا طَلَلُ
لا الحزْنُ منِّي برأيِ العينِ أعرِفُه ... وليس يعرفُني سهلٌ ولا جَبَلُ
فهاكَ من صِفَتِي إنْ كُنتَ مُختبِراً ... ومُخْبِراً نَفَراً عنِّي إذا سألُوا[2]

ومثله فعل مطيع بن إياس عندما قال:

لأحسنُ مِن بِيدٍ يَحارُ بها القَطا ... ومن جَبَلَيْ طيٍّ ووصفكما سَلْعا
تلاحُظُ عَيْنَيَ عاشِقينِ كِلاهُما ... لَهُ مُقْلةٌ في وجهِ صاحبهِ ترعى[3]

وأبان بن عبد الحميد اللاحقي[4] وأشجع السلمي[5]، ومنصور النمري[6]، وسلم الخاسر[7]، وبشار بن برد[8]، ومن الملاحظ أن هؤلاء الشعراء - اتهم أكثرهم بالزندقة - كانوا يستغلون بداية قصائدهم في التعبير الحر عن أنفسهم ومشاعرهم ونوازع حياتهم، وفي ذلك سمات حضارية فكرية وعقلية، ولنقل أيضاً نهجية، وإن لاح المجون في بعض هذا البدايات، في مثل ما جاء عن أبي نواس - يوم تهنئة الأمين بالخلافة - إذ قال: «يا أمير المؤمنين: إن شعراء الملوك قبلي شببوا بالمدر والحجر، والشاء والبقر، والصوف والوبر، فغلظت طباعهم، واستغلقت معانيهم، فإن

---

(1) التطور والتجديد: ص272.
(2) أبو نواس: الديوان: ص698 - 700 دار الكتاب العربي - بيروت.
(3) الأصفهاني: الأغاني: 12/ 103. دار الكتب.
(4) الصولي: الأوراق (أخبار الشعراء) ص15.
(5) المصدر نفسه، ص113.
(6) ابن قتيبة: الشعر والشعراء 837.
(7) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص102.
(8) المصدر ص323.

رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في الإنشاد، وبدأ قصيدته بوصف الخمر مباشرة دون تعمية أو تورية، إذ قال:

ألا دارِها بالماء حتى تُلينَها   فلن تُكرِمَ الصهباءَ حتى تُهينَها[1]

ـ الخروج على العمود الشعري في بعض نواحيه، والدليل على ذلك مخاصمة العلماء والرواة المتمسكين بالعمود الشعري لأولئك الشعراء. فابن الإعرابي يقول عن شعرهم: «إن كان هذا شعراً فما قالته العرب باطل»[2]. وكذلك كان اسحق الموصلي لا يعد أبا نواس شيئاً، لأنه (ليس على طريق الشعراء)[3].

ونستطيع أن ندرك مخالفة أمثال هؤلاء الشعراء لعمود الشعر التقليدي من ذلك النص الذي يرويه ابن رشيق عن ابن وكيع ويقول فيه: «إنما تُروى أشعار هؤلاء لعذوبة ألفاظها، ورقتها، وحلاوة معانيها، وقرب مأخذها، ولو سلك هؤلاء مسلك المتقدمين في غلبة الغريب على أشعارهم، ووصف المهامه والقفار، وذكر الوحوش والحشرات، ما رويت»[4].

هناك إذن فروق واضحة في نهج القصيدة، وفي القواعد الفنية للشعر، كمثل قول أبي نواس متأثراً بعلم الكلام:

يا عاقِدَ القلبِ مِنِّي   هلاَّ تذكَّرْتَ حلاَّ
تركتَ مني قليلاً   من القليلِ أقلاَّ
يكادُ لا يتجزَّا   أقلُّ في اللفظ من لا[5]

أو ما شابه ذلك من المعاني التي أدخلتها الحضارة الجديدة والثقافة

---

(1) أبو نواس: الديوان، ص121 (ط. فاجنر) القاهرة 1958.

(2) المرزباني (أبو عبد الله محمد بن عمران): الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء. ص304. المطبعة السلفية ـ القاهرة ـ 1343هـ

(3) المصدر نفسه. ص264.

(4) ابن رشيق (أبو علي الحسن القيرواني) العمدة في صناعة الشعر ونقده: 1/ 58 مكتبة الخانجي ـ القاهرة، 1917م.

(5) أبو نواس: الديوان: ص380 دار الكتاب العربي.

الجديدة التي نقلت المجتمع نقلة فكرية ضخمة !. أما عيار اللفظ في عمود الشعر التقليدي الذي حددوه بالطبع والرواية والاستعمال[1]، فقد خرج عليه أمثال هؤلاء الشعراء، ربما لينقلوا الشعر من أرستقراطية البيئات العلمية إلى الشوارع والأزقة، حيث تحيا طبقات الشعب الغالبة في المجتمع، وبذلك تراجعت الألفاظ الجزلة الفخمة التي كانت تملأ الفم وتقتحم السمع، وتقدمت الألفاظ السهلة الرقيقة الخافتة، يلتقط الشعراء أكثرها من أفواه العامة. وهذه قفزة حضارية كبيرة، بحيث تدرج الأدب من الخاص إلى العام.

---

(1) هدارة: اتجاهات، ص162.

الخاتمة

لقد درسنا في هذا البحث مسار الزندقة منذ الجاهلية، وحتى القرن الثالث

للهجرة، من خلال الأدب.

وموضوع الزندقة في عصور بحثنا من الموضوعات الغامضة، نظراً لقلة المصادر بين أيدينا، ولعدم تحري رواتها تحرياً دقيقاً، والقليل الموجود منها قد أصابه الاضطراب والتشويش، لأن خصوم الزنادقة أدخلوا على النصوص من التبديل والتغيير ما يوافق هواهم، ويلائم عصبيتهم، وطريقتهم في الرد على الخصوم[1]. كما يرجع إلى غيرة القيمين على الدين الذين أتلفوا هذه المصادر خشية انتشار الزندقة بين الناس.ولكننا حاولنا أن نجمع الشتات في بحث أردناه متكاملاً، وربطنا سدى هذه القلة من الشذرات، المفتتة في مراجع ومصادر عديدة، بلحمة الثقافات الأجنبية المختلفة ـ فارسية، يونانية، هندية، مسيحية ـ لنخرج برسم واحة أدبية، زرعنا فيها المختار من شعر الشعراء، وأقوال الأدباء والكتاب.

تحدثنا عن الزندقة باعتبارها موضوعاً عاماً جديداً، فحددنا معناها، وتتبعنا تطورها، وأوضحنا علاقتها بالأعاجم، ورأينا أنها أربعة أنواع:

زندقة سياسية، زندقة اجتماعية، زندقة دينية وزندقة فكرية.

(1) العصبية الدينية والمذهبية والجنسية والقبلية..

وكان من الطبيعي أن نتناول في البحث نزعتي المجون والزهد، فرأينا المجان زنادقة اجتماعين، عاشوا على هواهم ومشتهاهم دونما رادع أخلاقي أو وازع ديني. أما الزهد، فقد اعتبره البعض نزعة مضادة للزندقة، فقد رأينا أكثره انحرافاً عن جادة الدين ومروقاً على شرائعه، وأثبتنا ذلك بشعر على لسان أبي العتاهية، الذي اعتبره بعضهم[1] أبا الشعر الديني، وأكبر زهاد العرب، وغيره من الشعراء الزهاد.

وأتينا بشاعرات زاهدات ورأينا فيهن بعضاً من الزندقة، ولا أظن أن باحثاً واحداً تطرق إلى أمثالهن. والجهد الذي بذلناه في إعداد هذه الدراسة كان شاقاً وعسيراً ليتناسب مع أهمية الموضوع، واتساع زمانه ومكانه، فميدان الأدب واسع رحب، يتضمن أهدافاً متشابكة مترابطة أحياناً، متضادة متنافرة أحياناً أخرى، كما أنه متعدد الصلات والعلائق بمعارف وفنون كثيرة، من فلسفة وعلوم منطق، وتراجم وفقه، ومجون وتصوف، ومذاهب مختلفة، وعلوم إنسانية متباينة، له مع كل منها سبيل وصلة، ونعتقد أننا في هذا البحث قد توصلنا إلى بعض النتائج الجديدة بالنسبة للحياة العربية عامة، في أعصر بحثنا ،منها:

- إثبات وجود الأحزاب العربية، وحزب الموالي، وجميعها متكاملة العناصر، قائمة على برنامج محدد، له زعماؤه وقادته.
- تطور فكرة القومية، وظهور الشعوبية، وارتباط ذلك بالزندقة.
- إثبات وجود تأثير قوي للثقافات الفارسية والهندية والإغريقية، في مزج معارفها بعلوم العرب، وعلاقة ذلك بالفكر المتزندق.
- دراسة تيارات المجون والزهد، ودخولهما محافل الزندقة بصفة خاصة، ودراسة الشعراء الزنادقة ،والشعراء الزهاد والمجان، الذين كشفنا النقاب عن بعضهم ولأول مرة.

---

(1) هدارة: مصطفى: اتجاهات الشعر العربي ص 595.

- دراسة عناصر الشكل في شعر شعراء الزندقة، وبخاصة في العصر العباسي الأول: واثبات خروج الشعراء عن الوزن والقافية، وتجديدهم في الصنعة الشعرية ،وعدم اقتصارها على شاعر بعينه.

- كل هذا يمكن أن يقال عن النواحي الجديدة التي تضمنتها هذه الدراسة التي نرجو أن تكون قد سدت فراغاً في تاريخ أدبنا العربي، وأدت بالتالي لدارسي هذا الأدب صورة مليئة، غنية، بالأشكال والألوان، نأمل أن تفي بالغرض.

- والشيء الذي استوقفني خلال البحث، وأردت أن يكون بحثاً مستقلاً، هو دراسة زندقة كل شاعر، أو كاتب على حدة، والجديد في كتاباتهم من حيث الشكل والمضمون، والفصل بين زنادقة العرب وزنادقة الأعاجم، وزنادقة الطبقات من الملوك حتى الرقيق، وحضارة الزنادقة. وكل منها يصلح أن يكون بحثاً مستقلاً كاملاً، وإذا كانت العادة قد جرت بأن توصف البحوث العلمية ذات القيمة بأنها مبتكرة فإني لست أدعي أن هذا البحث قد استفتح مغاليق أسرار كانت طي الكتمان، ولكني آمل أن يكون قد توصل إلى بعض النتائج الجديدة التي كانت الوسيلة إليها دراسة الأدب العربي دراسة صابرة.

وإذا ما وجد الدارسون لهذا البحث بعض الظلال، أو القتام فهذا عجزي وتقصيري، وما أنسب ولا أدعي الكمال لنفسي، وحسبي أني فكرت وحاولت وأملت.

والله الموفق

المصادر والمراجع

- الكتاب المقدس (العهدين، القديم والجديد).
- الكتاب المقدس (قاموس): نخبة من اللاهوتيين. مجلس كنائس الشرق الأدنى، بيروت، 1971م.
- القرآن الكريم.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الأزرقي (أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار. دار الأندلس.
- الألوسي (محمود شكري): بلوغ الأرب في أحوال العرب. المطبعة الرحمانية، القاهرة 1924م.
- الألوسي (خير الدين البغدادي): جلاء العينين في محاكمة الأحمدين. دار الكتب العلمية، بيروت.
- الأصفهاني (علي بن الحسين، بن محمد القرشي): الأغاني. دار الفكر، بيروت 1973. عن بولاق، ومطبعة ساسي، ودار الكتب المصرية.
- الأصفهاني (أبو فرج): الأغاني. مطبعة التقدم بالقاهرة.
- الآمدي، الأسدي: المؤتلف والمختلف. مكتبة القدسي، القاهرة 1354هـ.

- أمين (أحمد): فجر الإسلام. دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى 1969.

: ضحى الإسلام. دار الكتاب العربي.

- البستاني (بطرس): دائرة المعارف. دار المعرفة، بيروت.

- البغدادي (أبو منصور عبد القاهر بن طاهر): الفرق بين الفرق. دار المعرفة، بيروت، ونشر عزت العطار الحسيني، القاهرة 1948.

- البغدادي (الحافظ أبو بكر محمد بن علي الخطيب): تاريخ بغداد. مطبعة السعادة، القاهرة، 1957.

- البغدادي (أبو الحسين عبد الرحيم): الانتصار. نشر لجنة للتأليف والترجمة، القاهرة 1914.

- البغدادي (عبد القادر بن عمر): خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. القاهرة 1930.

- البيروني (محمد بن أحمد): تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة. ليبنرج 1925.

- البيروني (أبو الريحان، محمد بن أحمد): الآثار الباقية من القرون الخالية. نشر إدوارد سخاو، طبع ليبنرج 1878 ـ و1923.

- البيهقي (إبراهيم بن محمد): المحاسن والمساوئ. جيسن، ألمانيا 1902م.

- الباقلاني (محمد بن الطيب بن القاسم): إعجاز القرآن. مصر 1315هـ.

- البلاذري (أبو الحسن): فتوح البلدان. دار الكتب العلمية، بيروت 1983.

- التوحيدي (أبو حيّان): الامتاع والمؤانسة. شرح أحمد أمين وأحمد الزين. القاهرة 1939و1942.

- الثعالبي (عبد الملك بن محمد): ثمار القلوب. القاهرة (1908 ـ 1923) .

- الجاحظ (عمرو بن بحر، أبو عثمان): البيان والتبيين 1 ـ 2 ـ 3. تحقيق فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت.
- كتاب الحيوان. تحقيق فوزي عطوي، دار صعب، بيروت وتحقيق عبد السلام هارون، مصر 1938.
- الحيوان. مطبعة السعادة. القاهرة 1325هـ / 1907م وتحقيق عبد السلام هارون، مطبعة البابي الحلبي، مصر 1938.
- الجاحظ. رسالة في بني أمية. القاهرة 1342هـ/ 1933م.
- كتاب البخلاء. تحقيق طه الحاجري، دار المعارف، مصر 1958م.
- البيان والتبيين. مطبعة الفتوح. القاهرة، ودار صعب، بيروت.
- الجرجاني (علي بن عبد العزيز): الوساطة بين المتنبي وخصومه. دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1951.
- الجلالين، تفسير (جلال الدين المحلي، وجلال الدين السيوطي). المكتبة الشعبية.
- الجمحي (أبو عبد الله بن سلاّم البصري): طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين. دار الفكر، بيروت.
- الجهشياري (محمد بن عبدوس): الوزراء والكتاب. مطبعة الحلبي، القاهرة 1357هـ / 1938م.
- الجارم (محمد): أديان العرب في الجاهلية. القاهرة 1923.
- الحاجري (طه): مقدمة البخلاء. دار المعارف، مصر 1958م.
- الحسن (ابن هاني): الفرح والتهاني بأخبار الحسن بن هانئ.مصورة معهد المخطوطات، جامعة الدول العربية رقم 32 أدب.
- الحصري (أبو اسحق): زهر الآداب وغمر الألباب. القاهرة 1925.
- الحموي (ياقوت): معجم البلدان. دار صادر، بيروت.

- الحوفي (أحمد محمد): أدب السياسة في العصر الأموي. ط5، دار نهضة مصر.
- الخربوطلي (المهدي العباسي): تاريخ الكعبة. دار الجيل، بيروت 1976.
- سلسلة أعلام العرب، القاهرة 1966.
- الخياط (أبو الحسين عبد الرحيم): الانتصار. نشر لجنة للتأليف والترجمة، القاهرة 1914.
- الخياط (أبو الحسين عبد الرحيم بن محمد عثمان المعتزلي): كتاب الانتصار والرد على ابن الراوندي الملحد. تحقيق د. نيبرج، القاهرة 1344هـ/ 1925م.
- الدوري (د. عبد العزيز): الجذور التاريخية للشعوبية. دار الطليعة، بيروت، ط2.
- العصر العباسي الأول. نشر دار المعلمين الآلية، بغداد 1945.
- الدينوري (أحمد بن داود أبو حنيفة): الأخبار الطوال. ليدن 1888.
- الرازي (محمد بن عبد الرحمن بن أبي حاتم): الجرح والتعديل. طبع حيدر آباد الركن 1952.
- الراغب الأصفهاني (أبو القاسم حسين بن محمد): محاضرات الأدباء. المطبعة الشرقية، القاهرة 1326هـ.
- الزبيدي (علي أحمد): زهديات أبي نواس. مطبعة كوستاتوماس، القاهرة 1959.
- الزبيدي (محمد مرتضى): تاج العروس من جواهر القاموس. مصر 1307هـ.
- الزركلي (خير الدين): الأعلام. دار العلم للملايين، بيروت، ط خامسة، 1980.
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن): تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين.

مطبعة السعادة، مصر 1371هـ/ 1952م.

- الكنز المدفون والفلك المشحون. مصر 1288م.

- شرح شواهد المغني. مصر 1322.

- السلمي (أبو عبد الرحمن): طبقات الصوفية. تحقيق نور الدين شربية، دار الكتاب العربي، مصر 1953م.

- الشيباني (علي بن محمد أبو الحسن): أسد الغابة في معرفة الصحابة. المكتبة الإسلامية، بيروت.

- الشابشتي (أبو الحسن علي بن محمد): الديارات. مطبعة المعارف، بغداد 1951 ـ 1966.

- الشايب (أحمد): تاريخ الشعر السياسي. مكتبة النهضة المصرية.

- الشهرستاني (أبو الفتح محمد عبد الكريم بن أبي بكر): الملل والنحل. تحقيق عبد العزيز محمد الوكيل، منشورات مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة 1968، ومطبعة مخيمر، القاهرة.

- الشريف المرتضى (علي بن الحسين الموسوي العلوي) أمالي المرتضى: غرر الفوائد ودرر القلائد. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي، بيروت، 1967.

- الصولي (أبو بكر، محمد بن يحيى): الأوراق. قسم أخبار الشعراء، مطبعة الصاوي، القاهرة 1934.

- الطبري (محمد بن جرير): تاريخ الأمم والملوك. دار المعارف، القاهرة، ودار سويدان، بيروت.

- العاملي (السيد محسن الأمين الحسيني): أعيان الشيعة. مطبعة ابن زيدون، دمشق.

- العدوي (إبراهيم): المجتمع العربي ومناهضة الشعوبية. مكتبة نهضة مصر، القاهرة، 1961.

- العلي (صالح أحمد): التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة.

مطبعة المعارف، بغداد 1952.

- العقاد (عباس محمود): أبو نواس. نشر مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1957.

- الغزالي (الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمود بن أحمد): فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة. القاهرة 1901.

- المنقذ من الضلال. دمشق 1934.

- القالي (أبو علي إسماعيل بن القاسم البغدادي): الأمالي. دار الكتب المصرية، 1344هـ/ 1926م.

- القاسم (ابن إبراهيم): كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع. روما، 1927.

- الكتبي (ابن شاكر): فوات الوفيات. مصر 1922م.

- الكلبي (أبو منذر هشام بن محمد بن السائب): كتاب الأصنام. تحقيق أحمد زكي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة 1965.

- الليثي (سميرة مختار): الزندقة والشعوبية. مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة 1968.

- اللبان (إبراهيم عبد المجيد): الفلسفة والمجتمع. ط النهضة المصرية، القاهرة 1950.

- المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي): مروج الذهب ومعادن الجوهر. دار المعرفة، بيروت 1982م.

- المفضل الضبي (أبو العباس بن محمد): المفضليات. شرح الأنباري، بيروت.

- المقدسي (المطهر بن طاهر): كتاب البدء والتأريخ. باريس 1903.

- المعري (أبو العلاء): رسالة الغفران. تحقيق فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت.

- المهزمي (أبو هفان بن عبد الله): أخبار أبي نواس. مكتبة مصر 1953.

- المبرّد (أبو العباس محمد بن يزيد): الكامل في اللغة والأدب. تحقيق محمد إبراهيم والسيد شحاته، مطبعة نهضة مصر.

- الكامل. شرح المرصفي، طبعة القاهرة.

- الكامل في اللغة والأدب. نشر وليم رايت، طبعة ليبزج 1864.

- المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي): المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. القاهرة، بولاق، 1270.

- النزاع والتخاصم بين بني أمية وبني هاشم. مصر 1939.

- المرزباني (أبو عبد الله، محمد بن عمران): الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء. تحقيق علي محمد البجاوي، دار النهضة، مصر 1965.

- معجم الشعراء. مصر، 1354.

- المعتزلي (أحمد بن يحيى بن المرتضى الزيدي): المنية والأمل. حيدر آباد 1316هـ/ 1902م.

- المرزباني (أبو القاسم، علي بن الحسن بن عبد الله): تهذيب تاريخ ابن عساكر. دار المسيرة، بيروت 1975.

- النويهي (محمد): نفسية أبي نواس. النهضة المصرية، القاهرة 1953.

- النوبختي (أبو محمد الحسن بن موسى): كتاب فرق الشيعة. استامبول 1931.

- النجيرمي (أبو اسحق إبراهيم بن عبد الله الكاتب): إيمان العرب في الجاهلية. تحقيق محب الدين الخطيب، القاهرة 1328 هـ.

- الوشاء (أبو الطيب محمد بن اسحق بن يحيى): الموشى أو (الظرف والظرفاء). مكتبة الخانجي، القاهرة 953م.

- اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح العباسي): تاريخ اليعقوبي. دار صادر، بيروت والنجف، 1351هـ.

- ابن الأثير (عز الدين): الكامل في التاريخ. دار الكتاب العربي، بيروت، والمطبعة الأميرية، مصر ودار المعارف، القاهرة 967.
- ابن الألوسي (السيد نعمان خير الدين، البغدادي): جلاء العينين في محاكمة الأحمدين. دار الكتب العلمية، بيروت.
- بدر (مصطفى): الحضارة الإسلامية. ترجمة، دار الفكر العربي، القاهرة 1947.
- بدوي (د. عبد الرحمن): من تاريخ الإلحاد في الإسلام. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ط2 1980.
- شهيدة العشق الإلهي (رابعة العدوية). مكتبة النهضة، مصر 1948.
- ابن أبي حديد: شرح منهاج البلاغة. دار الهدى الوطنية، بيروت.
- بيومي (الأستاذ السباعي): تهذيب الكامل للمبرد.
- ابن الجوزي (جمال الدين): نقد العلم والعلماء. مطبعة السعادة، مصر، 1340هـ.
- أخبار الظراف والمتماجنين. مكتبة القدسي، دمشق، 1347هـ.
- تلبيس إبليس. دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن الجراح (عبد الله محمد بن داود): الورقة. دار المعارف، مصر، 1953.
- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي): جمهرة أنساب العرب. تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف ،مصر 1977.
- ابن حزم (أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الطاهري): الفصل في الملل والأهواء والنحل. وبهامشه الملل والنحل، دار المعرفة، بيروت 1983.
- ابن خبيب (محمد): المحبر. دار المعارف، مصر وحيدر آباد 1361هـ
- ابن خلدون: المقدمة. تحقيق (د. علي عبد الواحد وافي)، مطبعة

البيان العربي، مصر 1376 هـ، والمطبعة البهية، القاهرة.

- المقدمة. تحقيق (د. علي عبد الواحد وافي)، مطبعة البيان العربي، مصر 1957م.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر. القاهرة 1274هـ.
- ابن خلكان (شمس الدين الشافعي): وفيات الأعيان. ط بولاق 1282هـ.
- ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. دار صادر، بيروت.
- ابن رشيق (أبو علي الحسن، الأزدي) القيرواني: العمدة في صناعة الشعر وآدابه ونقده. المطبعة التجارية، مصر 1955م، ودار الجيل، بيروت ط الرابعة 1972.
- ابن سعد (محمد بن منيع): كتاب الطبقات. دار صادر، بيروت 1958.
- ابن شاكر (الكتبي): فوات الوفيات. مصر، 1299هـ.
- ابن طباطبا (محمد بن علي، المعروف بابن الطقطقي): الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية. مطبعة الموسوعات، القاهرة 1317هـ/ 1923م.
- ابن العبري (غريغوريوس الملطي): تاريخ مختصر الدول. المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1958.
- أبو عبيد (أحمد بن محمود بن نصر): الفهرست. مصر.
- ابن عبد البر (أبو عمر يوسف): الاستيعاب في معرفة الأصحاب. تحقيق علي محمد البجاوي، نهضة مصر، القاهرة 1849.
- ابن عبد ربه (أحمد بن محمد الأندلسي): العقد الفريد. دار الكتاب العربي، بيروت 1965. وتحقيق محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة1359هـ، ولجنة التأليف والنشر، القاهرة.

- ابن قتيبة (أبو عبد الله بن مسلم الدينوري): عيون الأخبار. دار الكتاب العربي. بيروت.
- الشعر والشعراء. دار المعارف مصر 1966.
- المعارف. دار المعارف ،مصر.
- المعارف. دار إحياء التراث العربي، بيروت 1970م.
- تأويل مختلف الحديث في الرد على أعداء أهل الحديث. القاهرة 1925.
- ابن القارح: رسائل البلغاء.
- ابن كثير (أبو الفداء الحافظ): البداية والنهاية. دار الفكر، بيروت 1978.
- ابن المعتز (عبد الله): طبقات الشعراء. تحقيق عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، مصر 1956.
- ابن منظور (جمال الدين بن مكرم المصري، أبو الفضل): لسان العرب.
- أخبار أبي نواس (جزءان). مطبعة الاعتماد، القاهرة 1924، ومطبعة المعارف بغداد 1952.
- ابن المزرع (مهلهل بن يموت): سرقات أبي نواس.تحقيق محمد مصطفى هدارة، دار الفكر العربي، القاهرة 1957.
- ابن النديم (محمد بن اسحق أبو الفرج): الفهرست. دار المعرفة، طبعة ليبزج، ومطبعة الاستقامة، مصر وبيروت 1978.
- ابن نباتة (جمال الدين المصري): سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون. مطبعة الحلبي 1957، وتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة 1964.
- ابن هشام (أبو محمد عبد الملك): كتاب السيرة النبوية. القاهرة 1955، دار الكنوز الذهبية.

- أبو هفان (عبد الله بن أحمد بن حرب المهزمي): أخبار أبي نواس. تحقيق عبد الستار فراج. مكتبة مصر، القاهرة 1953م.
- الجندي (علي): تاريخ الأدب الجاهلي. مكتبة الجامعة العربية، بيروت 1966.
- حتي (د. فيليب) ورفاقه (د. إدوارد جرجي ـ د. جبرائيل جبور): تاريخ العرب. دار غندور، بيروت.
- الحموي، ياقوت (الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله، بن عبد الله، الرومي البغدادي): معجم البلدان. دار صادر، بيروت 1977.
- حمزة (فؤاد): قلب جزيرة العرب.مصر 1933.
- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام. مكتبة النهضة المصرية، ط7، 1964م.
- حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم: السيادة العربية (ترجمة)، القاهرة 1934، من سياسة نامة باريس
- حسين (طه): المجموعة الكاملة لمؤلفاته. المجلد الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1980.
- من حديث الشعر والنثر. دار المعارف، مصر، 1953م.
- الحوفي: أدب السياسة.
- داود، الأب جرجس: أديان العرب قبل الإسلام. ووجهها الحضاري والاجتماعي، دار مجد، بيروت 1981.
- دائرة المعارف الإسلامية: الترجمة العربية. مصر 1957.

الدواوين:

- المعلقات السبع. الزوزوني، شرح، دار الجيل، بيروت.
- الأعشى الكبير (ميمون بن قيس): الديوان. شرح محمد حسين، نشر مكتبة الآداب بالجماميزت.

- حاتم الطائي: الديوان. دار بيروت 1974.
- عبيد بن الأبرص: الديوان. دار بيروت 1979.
- الأعشى: المؤسسة العربية، بيروت. تحقيق فوزي عطوي، دار المعرفة، بيروت 1968.
- عنترة: الديوان. دار صعب، بيروت ودار المعرفة.
- أبو نواس: الديوان. دار الكتب المصرية. رواية الصولي، مخطوط رقم 1265.
- ديوان. تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي. دار الكتاب العربي، بيروت 1982.
- الفرزدق: الديوان. مكتبة الثقافة. بغداد.
- جرير: الديوان. دار الأندلس، بيروت.
- الأخطل: شعر. تحقيق (د. فخر الدين قباوة). دار الآفاق، بيروت ط2، 1979م.
- كثير: ديوان. طبعة الجزائر. بيرس.
- ابو العتاهية: ديوان. نشر لويس شيخو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت 1914.
- بشار بن برد: ديوان. تحقيق محمد عاشور، لجنة الترجمة القاهرة، أجزاء 1950 ـ 1957.
- الكميت: ديوان الهاشميات، نشر هور ومتنز.
- لبيد بن ربيعة العامري: ديوان. دار صادر، بيروت.
- النابغة الذبياني: ديوان. المؤسسة العربية للطباعة، بيروت.
- طرفة بن العبد: ديوان. المؤسسة العربية للطباعة، بيروت.
- الدش (محمد محمود): أبو العتاهية. حياته وشعره، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، 1968.

- أبو العتاهية: الديوان. دار التراث العربي، بيروت 1969.
- حسان (ابن ثابت): الديوان. دار التراث العربي، بيروت.
- أبو نواس (الحسن بن هانئ): الديوان. مصر 1898.
- تحقيق (ايفالدفاجنر). القاهرة 1958.
- المفضل الضبي (أبو العباس بن محمد): ديوان المفضليات. شرح الأنباري، طبعة لايل، بيروت 1920.
- زكار (د. سهيل): تاريخ العربي والإسلام، منذ ما قبل المبعث وحتى سقوط بغداد، دار الفكر، بيروت، ط3، سنة 1979م.
- زيدان (جرجي): تاريخ آداب اللغة العربية. ط الثالثة، مطبعة الهلال، القاهرة 1936.
- سالم (عبد العزيز): تاريخ العرب في عصر الجاهلية. دار النهضة العربية، بيروت 1971.
- شيخو (الأب لويس)، اليسوعي: المشرق. السنة الأولى، عدد 15 ، ص681.
- شعراء النصرانية.. قبل الإسلام..
- شعراء النصرانية بعد الإسلام. مطبعة الآباء اليسوعيين، بيروت 1926.
- شريف (محمد بديع): الصراع بين الموالي والعرب. دار الكتاب العربي، مصر 1945.
- الشكعة (مصطفى): الشعر والشعراء في العصر العباسي. دار العلم للملايين، بيروت.
- صدّيقي. الحركات الدينية ـ السياسية في إيران. باريس 1938.
- الصالح (صبحي): منهل الواردين. شرح رياض الصالحين، دار العلم للملايين، بيروت، ط2/ 1973.
- الصاوي (محمد إسماعيل عبد الله): شرح ديوان جرير. درا الأندلس.

- ضيف (شوقي): التطور والتجديد في الشعر الأموي. دار المعارف، مصر .
- الفن ومذاهبه في الشعر العربي. دار المعارف، مصر ط9.
- العصر العباسي الأول. دار المعارف، مصر.
- طيفور (أبو الفضل أحمد بن أبي طاهر): كتاب بغداد. نشر الحسيني، القاهرة 1949م.
- علي (د. جواد): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. دار العلم للملايين، بيروت 1980.
- عبد القادر (حامد): قصة الأدب الفارسي. مكتبة نهضة مصر بالفجالة، القاهرة 1951م.
- عمر(د. فاروق): العباسيون الأوائل. الجزء الثاني، دمشق 1973.
- التاريخ الإسلامي وفكر القرن العشرين. مؤسسة المطبوعات العربية، بيروت 1980م.
- عباس محمود العقاد: أبو نواس. دراسة في التحليل والنقد، مطبعة الرسالة، القاهرة.
- عطوان (حسين): الزندقة والشعوبية في العصر العباسي الأول. دار الجيل، بيروت.
- علي بن الحسن بن عبد الله (أبو القاسم): تهذيب تاريخ ابن عساكر. دار المسيرة، بيروت 1975.
- عبد العال (محمد جابر): حركات الشيعة المتطرفين وأثرهم في الحياة الاجتماعية والأدبية لمدن العراق إبان العصر العباسي الأول. مطبعة السنّة المحمدية، القاهرة 1954.
- قدورة (زاهية): الشعوبية وأثرها الاجتماعي والسياسي في الحياة الإسلامية في العصر العباسي الأول. دار الكتاب اللبنانية، 1972.

- قباوة (فخر الدين): شعر الأخطل. دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ثانية، 1979.
- كردعلي (محمد): رسائل البلغاء. تصنيف مطبعة لجنة الترجمة والنشر، القاهرة 1946.
- مكي (الطاهر أحمد): امرؤ القيس. حياته وشعره، دار المعارف، مصر 1970.
- د. النعمان القاضي: الفرق الإسلامية في الشعر الأموي. دار المعارف، مصر.
- هيكل (محمد حسين): حياة محمد. مكتبة النهضة المصرية طبعة 13، 1968م.
- هدارة (محمد مصطفى): اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري. دار المعارف، مصر ط2.
- يوحنا الدمشقي (منصور بن سرجون): كتاب المائة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي. تعريب الاشمندريت أدريانوس شكور، المكتبة البوليسية، لبنان، 1984.
- ياقوت الحموي: معجم البلدان. دار صادر، بيروت.
- ياقوت الحموي (عبد الله): معجم الأدباء. مصر، 1938.

المصادر الأجنبية

- E. Renan: Histoire Générale et Système comparé des langues Sémitiques. Paris, 1855. Vol I.
- James hamilton:Sinai, The Hegas and Soudan. London 1857.After Hamilton.
- D.D. Luckenbil, Ancient Records of Assyria and Babylonia. (Chicago 1927) V.I.
- بروكلمان (كارل): تاريخ الشعوب الإسلامية. ترجمة فارس وبعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط8، 1979م.
- جب (هاملتون): دراسات في حضارة الإسلام. دار العلم للملايين، بيروت 1979.
- فيدا (جورج): الزندقة في الإسلام. مجلة الدراسات الشرقية 1940، 1938.
- G.Vaida. Les Zindiqs en Pays d'Islam au début de la periode abbaside R.S.D. XXI. 1937
- ماسينيون: مادة زندقة. دائرة المعارف الإسلامية. عذاب الحلاج.
- L.Massignon: La passion d'al-Hallag.
- B.Leuis: The significance of Heres.
- جب، هاملتون: دراسات في حضارة الإسلام. دار العلم للملايين، بيروت ـ الطبعة الثالثة 1979.
- Hamilton. A.R. Gibb. (Studies on the Civilisation of Islam). Beacon Press, Boston, Massachusetts.
- بروكلمان، كارل: الإمبراطورية العثمانية وانحلالها. ترجمة فارس وبعلبكي. دار العلم للملايين. بيروت 1949.
- فون جرونباوم (جوستان فون): شعراء عباسيون. تحقيق مطيع سلم الخاسر أبو الشمقمق، دار مكتبة الحياة، بيروت 1959.
- Nicholson, R,A. A Literary History of the Arabs. Combridge 1956.
- Broune. Edward G.A. Literary History of Persia, (London) 1909.

- Nizam oul-Moulk: Siasset Naméh. Paris (1891-1897).
- Muir: Willian Temple. " The Caliphate, Its Rise, Decline and Fall" (Edinburgh 1924).
- كيستر: مجلة بين النهرية: «الحيرة وعلاقاتها مع الجزيرة العربية». العدد السابع. بغداد 1974.
- فان فلوتن: السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية. ترجمة حسن إبراهيم حسن وزكي إبراهيم، القاهرة 1934.
- فلهوزن: الدولة العربية. ترجمة (أبو ريدة)، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
- يوهان فاك: العربية. ترجمة عبد الحليم النجار، دار الكتاب العربي، القاهرة 1951.
- سايمز (المستشرف جيمس د): شرح ديوان الفرزدق. مكتبة الثقافة العربية ـ بغداد.
- Lammens: S.J. "Etudes sur le Siecle des omayyads" (Beyrouth, 1936)).
- فون كريمر: الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية. ترجمة مصطفى طه بدر. نشر دار الفكر العربي. القاهرة 1947.
- جولد تسيهر (إجناس): العقيدة والشريعة في الإسلام. ترجمة محمد يوسف موسى ورفاقه، دار الكاتب المصري، القاهرة 1946.
- Goldziher Jgnas: Mu hamme danisehe studien. 2 vol. Hallen 1888
- O. Leary-de laey- Arabic thought and its place in History, London 1939.
- بروكلمن (كارل): تاريخ آداب اللغة العربية. ترجمة النجار، دار المعارف مصر 59 ـ 61، 1962.
- فلهوزن: الخوارج والشيعة.
- ديورانت: قصة الحضارة.
- فاجنر (إيفالد)، تحقيق، ديوان (أبي نواس)، القاهرة، 1958.

- فنكل (يوشع) نشر، الجاحظ، ثلاث رسائل، المطبعة السلفية، القاهرة 1344.
- نللينو: تاريخ الآداب العربية. دار المعارف، مصر.
- Gibb H. A. R. : Arabic literature introduction. London 1926.
- نيكلسون (رينول): في التصوف الإسلامي وتاريخه. ترجمة أبو العلا عفيفي - القاهرة 1947م.
- رايت (وليم)، نشر، الكامل للمبرد، لينبرج، 1964م.
- DAWOOD :Acomparative study.... Ph.d 1965.

فهرس الموضوعات

الزندقة والزنادقة

يتناول هذا الكتاب نظرة إجمالية الى واقع العرب الاجتماعي زمن الجاهلية وصدر الاسلام وعاداتهم وطرق عيشهم وعباداتهم واعتقاداتهم وتأثرهم بالأديان السماوية والأرضية والمزج بينها ثم مفهوم الزندقة اللغوي والاصطلاحي، والجذور التاريخية لهذا المفهوم ومراحلها وأنواعها من دينية وفكرية وسياسية واجتماعية من الجاهلية الى العصر العباسي الأول مروراً بالعصر الأموي.

كما يورد أشهر الزنادقة ونوعية زندقتهم وماهيتها ورأي الشعراء والكتاب ومدّعي النبوة ومتعصبي القوميات والأديان، ثم إثبات الطابع الاجتماعي والحضاري للزندقة وما أفرزته تجمعات الشعوب والأمم ومزجته، فكان المجون والزهد...

نرجو أن يكون لهذا الكتاب بعض النفع للمتخصصين في الدراسات العربية الذين يبغون الاطلاع على جانب مهم من حياة العرب وأدبهم.

من المقدمة

ISBN 9953-427-76-3

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع